

تراجم إلامية شرقية وأندلسية

تأليف

محمد عبد الله عنيان

الطبعة الثانية

نقحت وضمت إليها تراجم جديدة

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الحقوق كلها محفوظة للمؤلف

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الأولى

تناولت في الأعوام الأخيرة ، وفي فرص ومناسبات مختلفة ، بالترجمة طائفة من أعلام التاريخ الإسلامي ، في مختلف العصور والدول ، واجتمعت لدى منها طائفة مختارة ، رأيتها جديرة بأن تنشر مجمعة في مجلد خاص .

وتشغل تراجم العظماء في آداب الأمم والحضارات العظيمة أسمى مكانة ، فأقطاب القادة والمفكرين ، والأمراء والساسة ، وأقطاب العلم والأدب والفن من كل ضرب ، هؤلاء جميعاً يأخذون مقامهم في التاريخ القومي العام ، ثم يأخذون مكانهم في تراجم خاصة ، تذهب أحياناً إلى البحوث النقدية المستفيضة التي تشغل مجلدات بأسرها ، وتخصص للمراجعة العامة والدراسة العليا ، وتقتصر أحياناً على صور موجزة ، ولكن قوية شاملة تخصص للدرس الشباب والقراءة العامة ؛ ويخص هؤلاء العظماء بالدرس في كل وقت وعصر ، وقد يصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير ، وكل منها تمتاز بمميزاتها الخاصة ، ولها مقامها العلمي والأدبي الخاص .

ولدينا من التراجم الخاصة في الأدب العربي القديم تراث حافل ، وقد بدأت العناية بها في عصر مبكر جداً . فنذ القرن الثاني للهجرة يعني الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة ، وفي مقدمتها سيرة النبي العربي وصحابته ، وسير أقطاب الخلفاء والقادة في عصور الإسلام الأولى . وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة مدى قرون ، تملأ فراغاً كبيراً في الآداب التاريخية العربية ؛ ولم تقف الترجمة عند نوع معين من العظماء ، بل شملت سير الخلفاء والقادة والأئمة ، ورجال السيف ، والقلم ، والملوك والوزراء ، والعلماء والكتاب والشعراء من كل ضرب ؛ ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة ، التي تغني بسر طوائف معينة أو أعلام عصر معين ، ومنها التراجم والسير الفياضة . وفي الآداب العربية من هذه وتلك تراث

شاسع قد لا تحظى به أية آداب أخرى ، إذ استثنينا العصر الحديث الذى ركبت فيه الآداب العربية ؛ بيد أن هذا التراث يقف مع الأسف عند بدء تاريخ الأمم الإسلامية الحديث ، وينقطع سيره فلا نكاد نظفر فى ذلك بآثار قيمة فى التراجم العامة أو الخاصة ، وهذه ثغرة فى آدابنا التاريخية لم نوفق إلى تداركها حتى اليوم .

وقد بلغ فن الترجمة العربية أوج ازدهاره منذ القرن السابع الهجرى ؛ وإذا لم يكن يتسع المقام للإفاضة فى استعراض آثار السير والتراجم العربية الخاصة ، فلما نرى أن نخص بالذكر منها موسوعة العلامة القاضى شمس الدين بن خلكان « وفيات الأعيان » التى اشتملت على تراجم العظماء من كل ضرب . ولا ريب أن معجم ابن خلكان من أنفس آثار الترجمة العربية إن لم يكن أنفسها جميعا ، فهو موسوعة شاسعة تحتوى على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الإسلامية شرقاً وغرباً ؛ ومنها تراجم فياضة ؛ ومنها تراجم موجزة ؛ ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ودقة التصوير . ونستطيع أن نقول إن ابن خلكان هو أول مؤرخ عربى جعل من الترجمة الخاصة فناً حقيقياً .

على أن الترجمة العربية القديمة لم تعرف الأسلوب النقدى ، ومنهج التحقيق العلمى داعماً ، بل لم تعرفه إلا فى فترات قليلة ، وفى أمثلة نادرة معينة ، مثل تراجم العلامة شمس الدين السخاوى المصرى فى معجمه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، فهى بالرغم مما يقترب بها فى بعض الأحيان من حملات قاسية ، أسطع مثل للترجمة العربية النقدية ؛ ويرجع هذا النقص الفنى فى الترجمة العربية إلى أنها ازدهرت فى عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية . ومع ذلك فلإنها تمتاز بغزارة المادة وبكثير من عناصر التحقيق التاريخى ، وفى وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها مادة نفيسة تصلح للبحث العلمى النقدى .

* * *

وقد ترجمت فى هذا الكتاب لثمانى عشرة من أعلام التاريخ الإسلامى^(١) ، دون تقييد بالعصور أو الدول . بيد أنى عنيت أن تكون هذه التراجم نماذج متباعدة لشخصيات لها مميزاتها الخاصة . ولا ريب أن شخصيات مثل هرون الرشيد ، وست الملك الفاطمية ، وشجرة الدر ، والحسن الصباح ، وتيمورلنك ،

(١) هم فى هذه الطبعة الحديدة ثمانية وعشرون .

وموسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، والمهedy ابن تومرت ، تبلو بمميزاتها الخاصة نماذج فريدة فى التاريخ الإسلامى ، تستحق قبل غيرها أن تعرض فى أبواب حية محدثة ، وهو ما حاولته فى التراجم التى يضمها هذا السفر . وقد خُص البعض منها بالإضافة كتراجم هرون الرشيد وشجرة الدر وعبد الرحمن الناصر ، واقتصرت بالنسبة للبعض الآخر على تقديم صور موجزة ولكن مركزة شاملة ، واتبعت فيها جميعاً منهج التحقيق التاريخى المدعم بأسانيده ، وقصدت فيها جميعاً إلى تبيان الخصائص البارزة للشخصيات التى تناولها .

ونظمت هذه المجموعة من التراجم الإسلامية فى كتابين : الأول يضم تراجم شخصيات الشرق الإسلامى ، والثانى يضم تراجم شخصيات المغرب والأندلس ، واتبعت الترتيب التاريخى فى تبويب الكتابين . وأرجو أن يجد الشباب فى استعراض سير هذه الشخصيات الإسلامية المتنوعة ، فى أبوابها المحدثة ، حافزاً له على أن يخلص التاريخ الإسلامى وشخصياته البارزة بمزيد من إقباله وعنايته ؛ فسير العظماء الذاهبين زينة التاريخ القومى ، والتاريخ القومى غذاء الشعور الوطنى ، ومن الماضى المجيد ومن سير الأبطال الذاهبين . تستمد الشعوب الفتية كثيراً من عناصر القوة الأدبية والقدوة المثلى .

محمد عبد الله عياد

القاهرة فى صفر سنة ١٣٦٦

يناير سنة ١٩٤٧

قصہ _____ میں

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، منذ أكثر من عشرين عاماً ،
وشغلت عن النظر في إعادتها وتنقيحها ، بالعمل المتواصل في إخراج موسوعة
تاريخ الأندلس مشتملة على سبعة مجلدات كبيرة ، وقد استغرقت من حياتي
خمسة وعشرين عاماً .

والآن ، وبعد أن تم بعون الله ظهور تاريخ الأندلس بسائر عصوره ، فقد انتهزت الفرصة لمراجعة هذه المجموعة من التراجم ، وتزويدها بطائفة من التراجم الجديدة . فأما عن المراجعة ، فقد تناولت بالتنقيح والزيادة عدة تراجم ، هي صقر قریش ، ويحيى الغزال ، وعبد الرحمن الناصر ، والمعتمد بن عباد ، ويوسف ابن تاشفين ، ومحمد بن الأحمر الكبير ، والمقرئ ، وكتبت ترجمة جديدة وافية للمهدي ابن تومرت ، وقمت بحذف ترجمتين هما ترجمة ، سنان شيخ الجبل ، وأبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس . وأما عن الإضافة ، فقد زودت هذه المجموعة بثلاث عشرة ترجمة جديدة ، منها اثنان في الكتاب الأول ، وهما ترجمة الملك الناصر صلاح الدين ووزيره بهاء الدين قراقوش ، وأحد عشر ترجمة ، كلها من أعلام التفكير في الغرب الإسلامي ، وهم عباس بن فرناس ، وابن حيان ، وأبو بكر بن عمار ، وأبو بكر الطرطوشي ، وابن بسام ، والشريف الإدريسي ، وابن طفيل ، وابن جبير ، وأبو العباس بن الرومية ، وابن الأبار القضاعي ، والحسن بن الوزان الفاسي ، وقد أدرجت كلها في الكتاب الثالث .

وقد قسمت هذه المجموعة إلى ثلاثة كتب : الأول يضم تراجم شخصيات الشرق الإسلامي ، والثاني يضم تراجم شخصيات المغرب والأندلس ، والثالث يضم أعلام التفكير في الغرب الإسلامي .

وأود أن أشير هنا إلى أني لم أحاول تدويل هذه الفصول بسائر المراجع التي رجعت إليها ، اللهم إلا في مواطن قليلة ، كتراجم الحسن بن الصباح ، وشجرة الدر ، وموسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، والمهدي ابن تومرت ،

والمقري : ذلك لأنني أردت أن يكون معظم هذه التراجم نماذج مفرغة في قالب من التلخيص والبساطة يسهل تناوله والانتفاع به ، وقد قمت مع ذلك بذكر أهم المراجع في ثبت خاص في آخر الكتاب ليرجع إليه من شاء المزيد .

وإلى جانب هذه التراجم الإسلامية الموجزة ، أود أن أذكر هنا أنني قمت بوضع ثلاث تراجم مستقلة مستفيضة ، أولها للحاكم بأمر الله ، والثانية لابن خلدون ، والثالثة للوزير ابن الخطيب ؛ وقد ظهرت الترجمتان الأولى والثانية منذ مدة طويلة (١) . وظهرت ترجمة ابن الخطيب في أوائل سنة ١٩٦٨ .

وأرجو في الختام ، كما سبق أن رجوت في مقدمة الطبعة الأولى ، أن يجد الشباب في استعراض سير هذه الشخصيات الإسلامية المتنوعة ، حافزاً له على أن ينحس التاريخ الإسلامي وشخصياته البارزة بمزيد من إقباله وعنايته .

محمد عبد الله عنان

القاهرة في رجب سنة ١٣٩٠
الموافق سبتمبر سنة ١٩٧٠

(١) ظهرت الطبعة الثانية من كتاب « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » في سنة ١٩٥٩ ، وظهرت الطبعة الثالثة من « ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكري » في سنة ١٩٦٥ .

الكتاب الأول
تراجم شرقية

هرون الرشيد

(١٤٨ - ١٩٣ هـ) ، (٧٦٥ - ٧٠٩ م)

يثير اسم هرون الرشيد وتثير ذكريات عصره ، في النفس أيما إجلال وروعة ؛ وليس مرجع ذلك فقط إلى أن الرشيد كان من أعظم خلفاء الإسلام ، وأعظم أمراء العصور الوسطى ، وأن الدولة العباسية بلغت في عصره ذروة القوة والبهاء ؛ ولكنه يرجع بالأخص إلى شخصية الرشيد ذاته ، وإلى ما كان يتمتع به من مواهب وخلال باهرة ، تجمع بين الفروسة المثلى ، والبراعة في شئون الحرب والسياسة ، وصفات الحاكم الأمثل ؛ وبين التقى والورع ، والفخامة الرائعة والبذخ الطائل ؛ وبين الحزم والصرامة ، والعواطف الإنسانية المؤثرة ؛ فهذا المزيج المدهش من الصفات والخلال البارعة ، هو الذي يضفي على الرشيد لوناً زاهياً من العبقرية ، ويفسح لشخصيته مكانتها الحقة في التاريخ بين أعظم شخصيات العصور الوسطى .

تولى الرشيد الخلافة بعد أن استقرت شئون الدولة العباسية وتوطدت دعائمها ، وأخذت تشق طريقها قدماً إلى المجد ، وتولاها فتى في عنفوانه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره . وكان مولده « بالرى »^(١) في آخر ذى الحجة سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م)^(٢) وأبوه الخليفة المهدي (محمد بن أبي جعفر المنصور) ثالث خلفاء بني العباس ، وأمه « أم ولد »^(٣) هي الخيزران الشهيرة في سير العصر ، وقد أنجبت من قبله شقيقه الأكبر موسى الهادي الذي تولى الخلافة عقب وفاة أبيه المهدي سنة ١٦٩ هـ ، ولم يطل أمد خلافته سوى عام وبضعة أشهر ، ثم توفي شاباً في ظروف غامضة . وقيل إن أمه الخيزران دسّت عليه جوارها أثناء مرضه فأجهز عليه خنقاً ؛ وكان الهادي حيناً رأى تدخل أمه في شئون الدولة ، جرياً على ما كانت عليه أيام أبيه المهدي ، يعمل على الحد من نفوذها وتدخلها ، وإرغامها على التزام العزلة ، فوجدت عليه ؛ وزاد في سخطها وتوجسها ما كان

(١) هي عاصمة فارس أيام الدولة الإسلامية ، وكان موقعها على مقربة من طهران الحديثة .

(٢) وتضع بعض الروايات مولده في سنة ١٤٩ هـ أو في ذى الحجة سنة ١٥٠ هـ . وهي رواية الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٥) .

(٣) « أم الولد » هي الجارية التي أنجبت من سيدها ، وعندئذ لا يجوز التصرف فيها .

يعتزمه المهدي من خلع أخيه هرون من ولاية العهد والبيعة لابنه جعفر ، وهي نجب ولدها هرون وتوثره ، فقبل عندئذ إنها دبرت أمر اغتياله (١) .

وأخذت البيعة للرشد عقب وفاة أخيه في منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) فكان خامس الخلفاء من بني العباس ، ومما هو جدير بالذكر أن المأمون ولد الرشيد ولد في تلك الليلة من منتصف ربيع الأول ، فاجتمعت له البشارة بالخلافة والولد . وكان يقال في هذه الليلة ولد خليفة وولى خليفة ، وتوفي خليفة ، واستوزر الرشيد مربيته ومؤدبه يحيى بن خالد البرمكي ، وفوض إليه تدبير الأمور ، فكان ذلك فاتحة العهد الذي تألق فيه نجم الأسرة الشهيرة ، التي سيطرت فيما بعد على سائر مناحي السلطان والنفوذ . وأبدى الرشيد منذ البداية مقدرته فائقة في تسير شئون الدولة ، والسهر على سلامتها ورخائها ؛ وسرعان ما ظهرت عبقرية الخليفة الفتي متعددة النواحي ، وأخذت خلاله القوية تسطع في ميادين السلم والحرب معاً : في الحكم والإدارة ، وفي الجود والبذخ والبهاء ، وفي حماية العلوم والآداب ؛ وتنوّه الرواية فوق ذلك كله بما كان عليه الرشيد من التقى والورع ، فتقول لنا إنه كان يصلى كل يوم مائة ركعة ، ويتصدق من ماله بألف درهم ، وإنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً ، فإذا سار إلى الحج اصطحب للحج معه رهطاً كبيراً من العلماء ، وإذا لم يسر إليه أرسل للحج على نفقته ثلاثمائة رجل . ومهما كان يطبع هذه الرواية من مبالغة ، فلإنها تدل بلا ريب على ما كان يحرص عليه الرشيد في هذه الناحية من صفات تتفق مع مكانته كزعيم الإسلام الروحي .

ولنبداً بحوادث عصر الرشيد في ميدان الحرب والجهاد ، وهي حوادث اشترك الرشيد فيها بنفسه في عدة مواطن . وقد عرف الرشيد ميدان الحرب وقيادة الجيوش والغزوات فتي حدثاً ، فسار مع أبيه المهدي سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) حينما سار لغزو بلاد الروم (الدولة البيزنطية) . وقاد الرشيد الجيش بنفسه إلى هضاب الأناضول ، واستولى على عدة من الحصون وعاد ظافراً ، ولم يكن يجاوز الخامسة عشرة من عمره .

(١) ابن الأثير (مصر) ج ٦ ص ٣٣ و ٣٤ . والفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٢٨ و ٢٣٦ .

ولم يمض عامان على ذلك حتى سير المهدي ولده الرشيد إلى أراضى الدولة البيزنطية مرة أخرى على رأس جيش ضخم ، وذلك في صيف سنة ١٦٥ هـ (٧٨٢ م) ؛ وكانت الصوائف الإسلامية أو الغزوات الصيفية لأراضى الروم ، ما تزال تحتفظ يومئذ بكل قوتها وحماستها ، فتوغل الرشيد في هضاب الأناضول حتى اقترب من شواطئ البوسفور . وكان على عرش قسطنطينية يومئذ قيصر طفل هو قسطنطين السادس ، ومقاليد الحكم بيد والدته والوصية عليه الإمبراطورة إيريني التى تسميها الرواية الإسلامية « ريني » وتلقبها « أغسطه » وهو تحريف لكلمة « أوجستا » أى القيصرة ، فهزم المسلمون الجيش البيزنطى هزيمة شديدة ، وأشرفوا على أسوار قسطنطينية ، واضطرت الإمبراطورة إيريني أن تعقد مع المسلمين الصلح لمدة ثلاثة أعوام ، وأن تتعهد بأن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار ، وأن تقيم الرشيد الأدلاء والأسواق ، تسهيلا لعودته فى شعب الأناضول الوعرة ؛ وعاد الرشيد إلى بغداد ظافراً مثقلاً بالغنائم والسبي .

ولما تولى الرشيد الخلافة استمرت الصوائف على حالها ، وكان الرشيد يحرص على تسيرها ما استطاع ؛ وليس فيما تردده بعض الروايات الإسلامية من أن الرشيد كان يغزو عاماً ويحج عاماً كبير مبالغة فيما يظهر ؛ ففي وسعنا أن نحصى من الغزوات الإسلامية لأراضى الدولة البيزنطية فى عهد الرشيد الذى استمر ثلاثة وعشرين عاماً أكثر من اثنتى عشرة غزوة ، وقد قاد الرشيد منها بنفسه عدة غزوات ، وسير الباقى تحت إمرة بعض أبنائه أو أكابر قاداته .

وهكذا سيرت الصوائف أو الغزوات الصيفية تباعاً إلى أراضى الدولة البيزنطية فى أعوام ١٧٠ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٧ هـ ؛ ولم تكن هذه الغزوات المتوالية تقصد إلى فتوحات كبيرة ثابتة الأثر ، بل كانت ترمى فى الغالب إلى إنهالك قوى الدولة البيزنطية ، وذلك بالعيث فى أراضيتها وانتساف حصونها ومروجها ، وتحصيل ما يمكن تحصيله من السبي والغنائم .

وفى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) خرج الرشيد إلى مقاتلة الروم (البيزنطيين) بنفسه ، وكان الروم قد نقضوا المعاهدة التى عقدها أيام المهدي ، وتعهدوا فيها بدفع الجزية ؛ وسار الرشيد إلى الأناضول وافتتح حصن الصفصاف ، وسير عبد الملك بن صالح فى جيش ضخم ، فتوغل فى آسيا الصغرى وهزم الروم هزيمة

فادحة ، وبلغ في زحفه أنقرة واستولى على مطمورة ، فاضطر الروم إلى عقد الصلح وتعهدوا بأداء الجزية المقررة ، وعقد بين الفريقين أيضاً أول اتفاق لتبادل الأسرى ، ونظم الفداء الأول في ثغر طرسوس ، وتولاه القاسم ولد الرشيد ، وفيه افتدى من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعائة ، في حفل عظيم شهده العلماء والأعيان وخلق عظيم من الجند وأهل الثغور .

وفي العام التالي أعنى في سنة ١٨٢ هـ غزا عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح أرض الروم وأنخن فيها ، ووصل في سيره المظفر حتى مدينة أفسوس . وفي سنة ١٨٣ هـ سير الرشيد جيشاً إلى أرمينية لحمايتها من الخزر ، الذين أغاروا عليها وأوقعوا هنالك بالمسلمين .

* * *

وفي ذلك الحين وقعت في الدولة البيزنطية حوادث داخلية ذات شأن . ذلك أن إيريني حينما كبر ولدها قسطنطين وحاول أن يستأثر بالسلطة ، منحت عليه ثم دبرت بمعاونة رجال الخاص مؤامرة لخلعه ، فقبض عليه وسجن بالقصر حيناً ، وبلغت القسوة بأمره الغادرة أن أمرت به فسملت عيناه ، ثم اعتلت العرش ونادت بنفسها قيصرية (أوجستا) وذلك سنة ٧٩٧ م (١٨٢ هـ) .

وحكمت إيريني بضعة أعوام بمعاونة أصدقائها وفي مقدمتهم الوزير نيسفوروس (نقفور في الرواية العربية) كبير الخزائن . ثم بدا لنيسفوروس أن ينتزع العرش لنفسه فاستمال إليه بطانة القيصرية ، وفوجئت إيريني ذات ليلة فقبض عليها وسجنت ، واعتلى نيسفوروس عرش القياصرة وذلك في سنة ٨٠٢ م (١٨٦ هـ) .

وكان الرشيد قد شغل أثناء ذلك ببعض الفتن والحوادث الداخلية في خراسان وطوس ونيسابور ، ففتر أمر الصوائف مدى ثلاثة أعوام أو أربعة . وفي صيف سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) بعث الرشيد ولده القاسم فغزا أرض الروم وحاصر بعض الحصون الهامة ، فطلب الروم الصلح ، وبعثوا إلى القاسم عدداً كبيراً من الأسرى المسلمين ، فأجابهم إلى الصلح وعاد أدراجه .

وما كاد الإمبراطور نيسفوروس (نقفور) يعتلى العرش حتى وجه اهتمامه إلى قمع الغزوات الإسلامية التي خربت أراضي الدولة وأنهكت قواها ، وبادر بفسخ المعاهدة التي عقدتها الإمبراطورة إيريني ، وقطع الجزية التي تعهدت

بأدائها ؛ ولتقفور والرشيد في ذلك قصة شهيرة ترددها الرواية الإسلامية ، وهي أن نقفور كتب إلى الرشيد كتاباً هذا نصه :

« من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها . لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ؛ فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، واغتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

وبروى أن الرشيد لما قرأ هذا الكتاب ، اشتد غضبه وكتب على ظهره ما يأتي رداً على نقفور :

« من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة . والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » .

ومع أن الرواية البيزنطية لا تذكر شيئاً عن هذه المكاتبة بين نقفور والرشيد ، فإنها تتفق مع الرواية الإسلامية في أن تخلف نقفور عن أداء الجزية ، كان سبباً في استئناف الحرب بين المسلمين والروم . وتقول الرواية الإسلامية إن الرشيد سار توأ في قواته إلى آسيا الصغرى واخترقها حتى هرقله الواقعة على جبال طوروس ، وأنخن في تلك الأنحاء وغنم غنائم عظيمة ، ولم يقو نقفور على المقاومة ، فاضطر إلى طلب الصلح والتعهد بأداء الجزية . ولكن الواقع أن الرشيد لم يسر إلى فتح هرقله إلا بعد ذلك بعامين حسبما تفصل . بيد أنه أوفد عندئذ إلى قتال نقفور جيشاً ضخماً بقيادة إبراهيم بن جبريل ، والتقى الفريقان في « كراسوس » من أعمال فرنجيا ، فهزم الروم هزيمة شنيعة وقتلت منهم جموع عظيمة (١٨٨ هـ - ٨٠٣ م) . وشغل الرشيد في العام التالي بحوادث « الرى » ثم تأهب في العام الذي يليه لقتال الروم .

وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) خرج الرشيد إلى قتال نقفور في جيش ضخم تقدره الرواية الإسلامية بمائة وخمسة وثلاثين ألفاً سوى الأتباع والمتطوعة ، ونزل في طوانه واتخذها مركزه وابتنى بها مسجداً ، وبعث جيشاً بقيادة داود بن عيسى ابن موسى ، فسار إلى أنقرة وخرها واستولى عليها ؛ وسار الرشيد بنفسه إلى هرقله فاقتتحها وسبي من أهلها جموعاً عظيمة . ولما رأى نقفور نفسه عاجزاً عن مقاومة هذا السيل الجارف أذعن لطلب الصلح ، وبعث إلى الرشيد سفارة على

رأسها أسقف «سينادا» ، فعقد السفراء مع الرشيد معاهدة تعهد بها نفقور ألا يعيد بناء حصون الحدود التي هدمها المسلمون ، وأن يدفع جزية سنوية قدرها الاثون ألف قطعة من الذهب ، يضاف إليها أربع قطع عن نفسه وقطعتان عن ولده ، وذلك رمزاً بخضوع قيصر الرومان وولى عهده لأمير المؤمنين .

ولكن الرشيد ما كاد يعود بجيشه عند دخول الشتاء إلى الرقة وكانت يومئذ منزله ، حتى نكث نفقور عهده معتقداً أن الرشيد لن يستطيع العود إلى قتاله خلال الشتاء ، ولكنه أخطأ الظن ، فإن الرشيد ما كاد يقف على غدر نفقور حتى ارتد أدراجه إلى أرض الروم ، واخترق جبال طوروس وقد غطتها الثلوج ، وهزم نفقور في معركة دموية قتل فيها من الروم أربعون ألفاً . وفر نفقور جريحاً واضطر إلى طلب الصلح ، فأجابه الرشيد إلى طلبه وعاد ظافراً (١) .

وفي ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

نقض الذى أعطيته نفقور فعليه دائرة البوار تلور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أذاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا بالنصر فيه لواؤك المنصور

ولم يمض سوى قليل حتى عاد نفقور إلى نكثه ، وزاد على ذلك أن أغار على الأراضي الإسلامية . وكان الرشيد يومئذ بالرقة التي اتخذها مقامه في أواخر عهده ، فاستخلف عليها ولده المأمون ، وسار إلى قتال الروم في جيش ضخم ، واقتحم آسيا الصغرى من الجنوب إلى الشمال ، واستولى المسلمون على قونية وأفسوس وماسية ونيقية وغيرها ، ووصلوا في زحفهم حتى ثغر هرقله الواقع على البحر الأسود واستولوا عليه ، وهزم الروم في جميع المواقع ، وبعث الرشيد حملة بحرية إلى مياه الدولة البيزنطية الجنوبية ، فغزت قبرس وأرغمت حاكمها الأسقف على افتداء نفسه ودفع الجزية ، ثم غزت رودس وعاثت فيها . ونقض أهل قبرس العهد ، فوجه إليهم الرشيد حملة ثانية أخضعهم وحملت منهم عدداً كبيراً من الأسرى .

ولما رأى نفقور عبث المقاومة وما انتهت إليه حال جيوشه ومملكته ، عاد إلى

(١) يضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة في سنة ١٨٨ هـ باعتبار أنها هي الغزوة التي قادها إبراهيم بن جبريل . ولكن المرجح ما ذكرناه ؛ وهذا ما تؤيده الرواية البيزنطية .

طلب الصلح وتأكيد عهده في دفع الحزبية وعاد الرشيد إلى مهادنته ،
وقام الرشيد خلال حكمه بقمع عدة ثورات وفتن داخلية وقعت في مختلف
أطراف مملكته الشاسعة ، في خراسان وأرمينية والشام ومصر وإفريقية ، وكان منها
عدة فتن حاول الشيعة إضرامها ، وكانت الدولة العباسية تتوجس بالأخص من
تحريك الشيعة وظهورهم في ميدان الحوادث ، ففي سنة ١٧٦ هـ خرج بيلاد الديلم
يحيى بن عبد الله بن الحسن من ولد علي بن أبي طالب وقوى أمره ، فسير إليه
الرشيد حملة انتهت بإخضاعه وأسره ، وقبض الرشيد أيضاً على موسى الكاظم
ابن جعفر الصادق واعتقله حتى توفي ، وفي سنة ١٩٢ هـ سير الرشيد حملة إلى
أذربيجان لقمع ثورة من نوع خاص هي ثورة الخرمية أو أتباع بابك الخرمي ،
وكانت ثورة شيوعية إباحية خطيرة ، فأوقعت بهم ، وافتتحت معاقلهم ،
وسببت منهم جموعاً كثيرة ، وقضت على هذا الخطر الاجتماعي الخطير في مهده ،
وهكذا يخل عصر الرشيد بصنوف المعارك والغزوات المستمرة ، بيد أنه
يمكن أن نلاحظ أن غزوات الرشيد لم تكن تقصد إلى فتوحات ثابتة والاستيلاء
على أراض جديدة ، وإنما كانت تقصد بالأخص إلى إنهاك قوى الدولة البيزنطية
جارة الدولة العباسية وخصميتها التوتية ، وإلى المحافظة على حدود الدولة العباسية
وأطرافها المترامية ، وقد وفق الرشيد في ذلك كل التوفيق ، ف قضى مدى حين
على قوى الدولة البيزنطية ، وغدت الدولة العباسية في عصره أوفر ما يكون قوة
وأمنًا وسلاماً .

هذا ويجدر بنا أن نستعرض أحوال مصر في عهد الرشيد بنوع خاص لما كان
لها بين ولايات الخلافة من مكانة خاصة .

كانت مصر منذ سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ولاية عباسية ، تلتقيها الدولة العباسية
فما تلتقت من تراث الدولة الأموية الشاسع ، بيد أنها كانت تحتفظ دائماً بين الولايات
الخلافة بمركزها الممتاز الذي كانت تحتفظ به منذ الفتح الإسلامي ، وكانت أيام
الدولة الأموية قاعدة الفتوحات والغزوات الإسلامية في شمال إفريقيا ، ولكن
الدولة العباسية لم تتلق من تراث بنى أمية غرب مصر سوى طرابلس وإفريقية
(تونس) وحتى في هذه المنطقة المضطربة ، لم تكن تتمتع بأية سلطة حقيقية .

ولم يلبث أن قامت بإفريقية في عصر الرشيد وبموافقته ، دولة جديدة مستقلة هي دولة الأغالبة ، تنضوى تحت لواء الخلافة الإسمي ، وتشرف على شئون طرابلس ، وبذا غدت مصر حدة الدولة العباسية ومقرها من جهة الغرب ، فكان ذلك يسبغ عليها في نظر الخلافة أهمية خاصة من الناحيتين السياسية والعسكرية .

وتعاقب على مصر في عهد الرشيد عدد كبير من الولاة يبلغ زهاء العشرين ، وكانت مدينة « العسكر » التي أنشأها العباسيون شمالى القسطنطينية هي عاصمة مصر الإسلامية يومئذ ، واستمرت كذلك حتى قيام الدولة الطولونية وقيام مدينة القطائع عاصمتها الجديدة في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) . والواقع أن ولاية مصر أيام الدولة العباسية لم يكن مكثهم في مناصبهم يتعدى أشهراً أو عاماً إذا استثنينا القليل منهم . وقد كان هذا شأنهم أيام الرشيد . والظاهر أنها كانت سياسة مرسومة ، ترمى بها الخلافة إلى اتقاء ما قد يجيش به الولاة الأقوياء من أطماع خطيرة . ومما يلاحظ أيضاً أن ولاية مصر أيام الرشيد كان معظمهم من الأسرة العباسية ذاتها . ومنذ سنة ١٧٥ هـ نرى ثبت ولاية مصر طوال أيام الرشيد مع استثناء ثلاثة أو أربعة كله عباسياً ، ومنهم عدد من خاصة بنى العباس وأقرب الناس إلى الخليفة مثل موسى ابن عيسى وقد ولى مصر ثلاث مرات ، وإبراهيم بن صالح وقد ولىها مرتين ، وعبد الله بن المهدي أخى الرشيد وقد ولىها ثلاث مرات ، وغيرهم من خاصة الأسرة وأبناء عمومة الخليفة . ونستطيع أن نحمل هذا الاختيار على بواعث العصبية والثقة الخاصة ، أكثر مما نحمله على بواعث الاصطفاء المحرد ، وقد كانت الدولة العباسية تعتمد على عصبية الأسرة في توطيد سلطانها ، وفي السيطرة على الجيش ، فكان كثير من القادة وعمال النواحي الهامة من أقطاب الأسرة ذاتها .

وكانت مصر أيام الرشيد وطوال أيام الدولة العباسية من أخصب ولايات الخلافة في الموارد والخراج . وقد انتهت إلينا بعض الأرقام عن خراج مصر في تلك الفترة ، فقبل إن موسى بن عيسى حمل معه أثناء ولايته إلى الرشيد أكثر من ألف ألف (مليون) دينار بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف . وكان خراج مصر يبلغ يومئذ أكثر من أربعة آلاف ألف دينار . والظاهر أن تشدد الولاة في أمر الخراج وتوفيره ، كان يصل أحياناً إلى حدود لاتطاق ، فقد وقع في مصر في تلك الفترة أكثر من ثورة من جراء التعسف في فرض الخراج وتحصيله .

وليس في حوادث مصر الداخلية أو العامة في ذلك الحين ما يستحق الذكر سوى القليل ؛ فلم تشترك مصر يومئذ في مشاريع الخلافة أو حملاتها العسكرية ، وقد كانت تنحصر يومئذ في ولاياتها الشرقية والشمالية ، ولاسيما هضاب آسيا الصغرى ، حيث كانت الحزب تضطرم بلا انقطاع بين جيوش الخلافة والدولة البيزنطية . بيد أن مصر ساهمت بالجند والمال في إخماد الثورة في إفريقية سنة ١٧٨ هـ . وفي العام التالي سار عبد الله بن المهدي والى مصر في الجيش إلى الإسكندرية لرد الفرنج (الروم) عنها وقد حاولوا النزول فيها . وفي سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) وقع بمصر زلزال عظيم أحدث بها كثيراً من الدعر والتخريب ، وأصاب منارة الإسكندرية الشهيرة فسقطت قمتها .

وكانت مصر على العموم تجوز في عهد الرشيد فترة من السكينة والرخاء . ولم تكن بمعزل عن تلك النهضة القوية التي شملت أنحاء الخلافة كلها في هذا العصر الزاهر ، وقد كانت فوق ذلك تجيش بنهضتها الخاصة الفكرية والاجتماعية . بيد أنها كانت بالرغم من اندماجها في الوحدة الخلافة الكبرى ، تحتفظ بكثير من روحها المستقل وشخصيتها الممتازة ، وقد استطاعت أن تحتفظ بهما دائماً في جميع العصور والدول الإسلامية .

— ٣ —

لبث الرشيد سبعة عشرة عاماً يعمل على توطيد أركان الدولة وهيئتها في الداخل والخارج . وبالرغم من أنه كان يهتدى في حكمه بروح مستنير خير ، يرجع إلى طبيعة نفسه وخلاله ، فإنه كان يسير على نفس الأساليب المطلقة التي سار عليها دائماً أمراء العصور الوسطى . وكان يقتنى في ذلك بنوع خاص آثار جده المنصور ، من الصرامة والحزم والقسوة في معاملة الخارجين على الدولة وعلى سلطان أمير المؤمنين .

وقد كانت نكبة الرشيد للبرامكة في سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) من أشهر حوادث ذلك العصر ، الذي بلغت فيه الدولة العباسية ذروة القوة والفتوة . وكانت في الوقت نفسه صفحة مظلمة في ذلك العصر المتألق . بيد أننا نستطيع أن نجد الصلة وثيقة بين هذه المأساة المروعة وبين بواعث الحكم المطلق . ومع أن نكبة البرامكة تنسب إلى أسباب عديدة متنوعة ، فإنه ليس من شك في أنها تعتبر بالأخص فضلاً من فصول ذلك الصراع الخالد الذي يضطرم حول السلطان والملك :

والبرامكة أسرة فارسية نابهة ، ظهرت في ميدان الحوادث منذ قيام الدولة العباسية ، وكان عميدها ومؤسس سوئدها خالد بن برمك من أكابر الشيعة . وولاه المنصور على الموصل وأذربيجان ، وولى ابنه يحيى على أرمينية ، ثم عهد إليه المهدي بتربية ولده الرشيد ، فلما ولى الرشيد الخلافة استوزر يحيى وفوض إليه شئون الحكم كما قدمنا . وكان أبناء يحيى وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى جميعاً من أولى العزم والنباهة ، فظهروا جميعاً بين رجالات الدولة ، وشغلوا أعظم مناصبها ، فولى الرشيد جعفر حكومة مصر ثم خراسان ، واستوزر الفضل أخاه من الرضاع ، ثم استوزر جعفر ، وبذلك اجتمعت السلطة كلها في يد يحيى وولديه وآلت إليهم مصائر الشئون ، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ في الدولة .

وكان البرامكة علم الفضل والحدود والذكاء والعزم ، فلبثوا يدبرون شئون الدولة زهاء سبعة عشر عاماً أحسن تدبير وأكمله ، ونجمهم دائم التآلق ، ونفوذهم دائم التمكن ، والدولة تتمتع في ظلهم بعوامل السكينة والاستقرار ، والشعب في يسر ورغد ، وكانت لهم الكلمة العليا في كل مجال وموطن . ولكن ارتفاع البرامكة إلى ذروة السلطان والمجد على هذا النحو ، وتفوقهم على كل بيوتات الدولة في الخلال والرفعة والغنى والبذخ ، وتمكنهم من قلوب العامة بفيض الجود والفضل ، واستثنائهم بجميع السلطات العامة ، وإنهاء مصائر الشئون كلها إليهم ، لم تلبث أن أثار ث جزع الرشيد وتوجسه ، وغيره خصومهم من رجال البطانة والقصر . وكان الفضل بن الربيع حاجب الرشيد ألد عدو للبرامكة ، وكان لا يدخر وسعاً في الوشاية بهم وإحفاظ الرشيد عليهم ، وكان خصومهم الآخرون لا يتقطعون في الوقت نفسه عن الكيد لهم والسعاية في حقهم ، وكان الرشيد يرى في الواقع بهاء البرامكة يكاد يغشى بهاء الخلافة ، وسلطانهم يكاد يمحو سلطانه ،

في مهد هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة تحطيم البرامكة وصحح دولتهم ، وهي في رأينا أهم البواعث التي يمكن أن نرجع إليها تلك المأساة الشهيرة . ولكن الرواية الإسلامية تقدم إلينا أسباباً عديدة أخرى لنكبة البرامكة منها ما يذهب مذهب القصة ؛ وأشهرها بلا ريب قصة العباسة أخت الرشيد ، فيقال إن الرشيد كان يحبها حباً جماً ولا يطيق بعداً عنها ، وكان يدعوها إلى مجالس أنسه ولهوه ، وكان من جهة أخرى كلفاً بصحبة وزيره جعفر شغوفاً بسمره ، فكان لا يضبر عنه ،

فرأى الرشيد أن يزوج جعفر من أخته العباسة حتى يحل له الاجتماع بها في مجلسه ، على أن يكون هذا الزواج اسماً فقط . ولكن العباسة هامت بحب جعفر وهام بها فتلقيا سرّاً وحملت منه . وكانت زبيدة زوج الرشيد تحقد على العباسة لفرط جحائها ونفوذها على الرشيد ، فلما وقفت على علاقتها بجعفر وظفرت بالأدلة عليها ، فضحت أمرها للرشيد ، فقرر إهلاك البرامكة وإهلاك أخته^(١) . ويعامل ابن خلدون هذه القصة بازدياد وسخرية ، وينكرها بشدة ، ويستند في إنكاره إلى منزلة العباسة من بيت الخلافة وبيت الرسول ، وإلى حبسها النبوي والعربي العزيز ، ويتساءل كيف تدنس سليله الصون والطهر شرفها العربي بمولى من موالى العجم ؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم ؟ وهو بلا ريب منطلق ظاهر الضعف ، وتدلّيل لا يتفق في نظرنا مع دقة الفيلسوف وعقليته المستنيرة .

وثمة سبب آخر تورده الرواية الإسلامية لنكبة البرامكة ، وهو أن الرشيد حينما ظفر باعتقال يحيى بن عبدالله بن الحسن الزعيم العلوي على إثر انهيار ثورته في بلاد الديلم ، عهد به إلى جعفر البرمكي ليسهر على اعتقاله ، فأطلق جعفر سراحه خفية ، وعلم الرشيد بذلك وراجع وزيره ، فأنكر أولاً ثم اعترف واعتذر بأنه رأى ألا خطر في إطلاقه . فتوجس الرشيد من ذلك التصرف سرّاً ، وكان بنو العباس يرون في قيام الدعوة الشيعية وخروج أئمتها خطراً يهدد سلطانهم ؛ وكان البرامكة ، كما رأينا ، أول أمرهم من أقطاب الشيعة ، وإذا فقد كانت حمايتهم لزعماء الشيعة الخوارج مما يثير الريب بحق ، ويحمل على الشك في إخلاصهم ونياتهم نحو الخلافة . وهناك روايات أخرى عن أسباب تغير الرشيد على البرامكة ؛ فمنها أن الرشيد منخط على كبير الأسرة يحيى البرمكي لهجمه على مقامه ، ودخوله عليه بغير استئذان ، وأن بطانة الرشيد كانوا يسعون إلى تحريك حفيظته على البرامكة في مجالس أنسه بأشعار ذات مغزى يلدسونها للندماء والمغنين ، وغير ذلك مما تعنى به كتب الأدب بنوع خاص .

(١) تختلف الرواية في مصير العباسة . فيقول البعض إن الرشيد طردها من قصره فماشت مع ولدها في أنحاء مجهولة عيشة شقية . ويقول البعض الآخر إنها قُتلت سرّاً بأمر الخليفة ولم يعلم بمصيرها أحد . وكانت قصة غرام العباسة وجعفر مستقى لبعض كتاب الخيال الغربيين فنشرت عنها عدة قصص معروفة ، من ذلك ما نشره « لاهارب » Laharpe بالفرنسية ، وفون هامار Von Hammer بالألمانية .

على أنه مهما تنوعت الأسباب التي توردها الرواية الإسلامية لنكبة البرامكة ، فلا ريب أن بواعثها الجوهرية تدور حول استئثار البرامكة بكل سلطان في الدولة ، وتضاؤل سلطة الرشيد أمام سلطانهم وعظيم نفوذهم ، وهو ما يشير إليه ابن خلدون في مقدمته بدقة ووضوح إذ يقول : « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجاجهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالروضاء من ولدهم . . . فأورث ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة ، وكامن الخمود التي بعثها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصصهم في يحيى بن عبد الله » .

ولم تأت فاتحة سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) حتى كان الرشيد قد قرر أمره في شأن البرامكة ؛ ففي الحرم من ذلك العام عاد الرشيد من الحج ونزل بالأنباء . وفي أوائل صفر أصدر الرشيد أمره ذات ليلة فجأة بإعدام وزيره جعفر بن يحيى البرمكي ، والقبض على أبيه وإخوته . وقام بتنفيذ هذه المهمة الحزنة مسرور بجلاد الرشيد المشهور في جماعة كبيرة من الحند . ففاجأ جعفر في داره يلهو ويطرب مع نفر من الأصدقاء . فضرع إليه جعفر وطلب مراجعة الرشيد مراراً ، ولكن أمر الرشيد كان قاطعاً ، فقتل الوزير المنكود أمام خيمة الرشيد ، وسقطت رأسه عند أقدام الحند الذين طالما أحنوا رؤوسهم لإجلاله ، ومثل بجثته في اليوم التالي في شوارع بغداد . وفي الحال قبض على يحيى بن خالد وأولاده الآخرين الفضل ومحمد وموسى ، وألقوا في غيابة السجن وصودرت أموالهم كلها . وكان اعتقالهم يسيراً في البداية فلم يُضَيَّق عليهم ، وسمح لهم باستبقاء الخدم وما يشتهون من متاع وغيره ؛ ولكن حدث بعد ذلك بعام أن اتهم عبد الملك بن صالح ، وهو من عمومة الرشيد ، بالتآمر على الرشيد والتطلع إلى الخلافة فقبض عليه ، وثبتت إدانته ، ونسب في الوقت نفسه أن للبرامكة يداً في المؤامرة ، فانتزها الرشيد فرصة للتضييق على يحيى وأولاده ، فجردوا من جميع أسباب الراحة والرفاهة ، وعرضوا لأنواع الإرهاق والمهانة . فمات الوزير الشيخ يحيى في سجنه في سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ولحق به ابنه الفضل إلى القبر بعد ذلك بثلاثة أعوام . أما محمد

وموسى فقد أطلق الرشيد سراجهما على ما يظهر لعدم خطورة مركزهما ، وبعد أن هوت الأسرة إلى حضيض الفاقة والعدم .

تلك تفاصيل المأساة الشهيرة التى وصمت عهد الرشيد ، وأسبلت على خلاله اللامعة سحابة قاتمة . ويقال إنها عكرت صفو الرشيد فى أعوامه الأخيرة ، وأن الندم كان يساوره ويقض مضجعه . على أنه يمكن أن يقال إن خطورة البواغث قد تبرر مسلك الرشيد وتخفف من تبعته . ذلك أن سلطان البرامكة غدا خطراً حقيقياً على سلطان الخلافة العباسية . وكان البرامكة فوق ذلك علم القومية الفارسية ، التى عملت على إخضاع الدولة العربية لتنفيذها المعنوى ، تحطيماً لاستعباد العرب السياسى للأمة الفارسية . وكان سلطانهم أخطر وسيلة يمكن استخدامها لتحريك القومية الفارسية إلى النهوض والثورة ، وكان لا بد من تحطيمهم والقضاء على سلطانهم صوناً لسلطان الدولة العباسية ولسلطان الأمة العربية .

وقد كان عهد البرامكة أزهر وأبهى عصور الدولة العباسية بلا مرأى . وكانوا على قول ابن خلدون : « من محاسن العالم ودولتهم من أعظم الدول وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها » . ولما تولى المأمون الخلافة رد إلى البرامكة أملاكهم وحقوقهم ، ولكن ضربة الرشيد كانت قاضية ، فلم تعد الأسرة النابذة قط إلى سابق مكانتها ونفوذها .

ولا بد لنا أن نعرض هنا إلى قصة السفارات الشهيرة التى تبادلها الرشيد مع شارلمان إمبراطور الفرنج . ولا تذكر الرواية الإسلامية شيئاً عن هذه الصلات الدبلوماسية بين عاهلى الشرق والغرب . ولكن الرواية الغربية تفيض فى تفاصيلها ، فتذكر لنا أنه كانت ثمة بين الرشيد وشارلمان مكاتبات وسفارات ، وأن شارلمان سعيماً إلى توثيق الصداقة بينه وبين زعيم الإسلام ، أوفد إلى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى إسحاق ، ووصل إسحاق إلى بلاط بغداد ، وقدم إلى الرشيد كتب ملك الفرنج وهديته ، فأكرم الرشيد وفادته ورحب بصداقة ملك الفرنج ، وأوفد إليه سفراء بهدية فخمة ، منها خيمة عربية وساعة مائية وأقمشة حريرية وتحف من الذهب وقرود وفيل ، ومفاتيح قبر المسيح فى بيت المقدس ، مع تأكيدات الودية فى حماية البقاع المقدسة . ثم تقول الرواية إن شارلمان سر بهذه النتيجة وأوفد

إلى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه إسحاق أيضاً . وإذا كانت الروايات الفرنجية والكنسية المعاصرة تؤكد لنا وقوع هذه الصلات والسفارات بين زعيمى الشرق والغرب وتفيض فى تفاصيلها ، فإن صمت الرواية الإسلامية فى شأنها يحملنا على اعتقاد أحد أمرين : فلما أنها لم تكن من الخطورة فى شىء ولم تتعد المحاملات الملوكية العادية ، ولما أنها إذا صحت خطورتها كانت سرّاً من أسرار الدولة لا تجوز إذاعته وتناقله . ولسنا نعتقد على أى حال أن صمت الرواية الإسلامية يمكن أن ينهض وحده دليلاً على عدم صحتها .

ولم تحدثنا الرواية الفرنجية عن الغاية الحقيقية التى حدث بزعم النصرانية فى الغرب أن يسعى إلى مصادقة زعيم الإسلام فى الشرق ، ولم تحدّد لنا تاريخ هذه العلاقات الدبلوماسية بين العاهلين . ولكننا نرجح أنها وقعت فى أوائل عهد الرشيد بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ م (١٧١-١٧٦ هـ) . ولنا فى حوادث الأندلس فى هذا الوقت ما يلقى ضياء على طبيعة هذا التفاهم ومداه . ذلك أن عبد الرحمن الداخل الأموى استطاع بعد خطوط جمّة أن يؤسس بالأندلس دولة أموية جديدة تنافس فى الغرب الإسلامى دولة بنى العباس ؛ وكانت الخلافة العباسية تنظر إلى قيام هذه للدولة الأموية الفتية بعين التوجس ، وتخشى أن تغدو فى المستقبل خطراً على سيادتها فى الأقطار الغربية . وقد بذل الخليفة المنصور بالفعل جهداً لسحقها فى المهد ، فبعث عامله على إفريقية لغزو الأندلس ، ولكن المحاولة أخفقت ومزق جيش الخليفة العباسى وقتل عامله ، ولم تزد الدولة الأموية الناشئة إلا قوة ورسوخاً ، واستمرت الدولة العباسية مدى حين على توجسها . ومن جهة أخرى فقد كانت مملكة الفرنج ترى فى قيام هذه المملكة الإسلامية الجديدة فيما وراء جبال البرنيه خطراً داهماً عليها . وكانت سياسة شارلمان عاهل الفرنج رمت إلى انتهاز كل فرصة للعمل على إثارة الاضطراب فى اسبانيا المسلمة وإنهاك قواها ، ولم يدخر وسعاً فى تشجيع الخوارج عليها وإرسال جيوشه لغزوها كلما سنحت الفرص . أليس فى طبيعة هذه الظروف والحوادث ما يمكن أن يحمل الخليفة العباسى والعاهل الفرنجى على التفاهم لتنظيم الجهود المشتركة لمناوأة الخصم المشترك ؟ هذا ما نرجح أنه هو الهدف المعقول لتلك العلائق الدبلوماسية الشهيرة ، بين زعيمى الشرق والغرب ، فى أواخر القرن الثامن الميلادى .

وقد كانت للرشيـد أيضاً أثناء فترات السلم والمهادنة ، علائق دبلوماسية منظمة مع الدولة البيزنطية ، وتبادل بلاط بغداد وبلاط قسطنطينية أيام الإمبراطورة إيريني والإمبراطور ثقفور سفارات ومراسلات عديدة .

— ٥ —

كان الرشيد في أواخر عهده يؤثر المقام «بالرقة» وهي مدينة طيبة المناخ ذات بساتين يانعة تقع على ضفة الفرات الشرقية في شمال غربي الجزيرة ، وذلك ليكون أقرب للسهر على سير الحوادث في بلاد الروم والولايات الغربية .

وفي سنة ١٩٠ هـ عادت الفتنة الى الاضطرام في خراسان ، وخرج رافع بن الليث في سمرقند وهزم جند الخلافة غير مرة ، واستفحل أمره تبعاعاً ، فاعزم الرشيد أن يسير إلى قتاله بنفسه ، فسار من الرقة في شعبان سنة ١٩٢ هـ إلى بغداد ليسير منها إلى خراسان ، واستخلف على الرقة ولده القاسم ، وعلى بغداد ولده الأمين ، وسار في جيشه إلى خراسان ومعه ولده المأمون . وكان الرشيد يعاني منذ أعوام مرضاً عضالاً يتفاقم على الأيام ، والظاهر مما تشير إليه الرواية أنه كان يعاني من سرطان في البطن^(١) . ووصل إلى جرجان في صفر سنة ١٩٢ هـ وهو في حالة سيئة من الإعياء . ولما لم يستطع متابعة السير ، نزل بطوس ومعه طبيبه جبرئيل ابن بخيشوع ووزيره الفضل بن الربيع ، وهناك اشتد به المرض وتوفي في الثالث من جمادى الثانية سنة ١٩٣ هـ (ابريل سنة ٨٠٩ م) ودفن في نفس الدار التي توفي فيها ، وكان في نحو الخامسة والأربعين من عمره ، وكانت خلافته زهاء ثلاثة وعشرين عاماً .

وترك الرشيد من البنين اثني عشر ومن البنات خمس عشرة ، وكان مزواجاً تزوج سبعة ، وتوفي عن أربع في مقدمتهن زبيدة ابنة عمه وأم ولده الأمين ، وكانت أحب نسائه إليه وتوفيت سنة ٢٢٦ هـ . والأمين هو ولده الوحيد الذي ولد من زوجة شرعية . أما ولده المأمون فهو من أم ولد تدعى مراجل ، وكذلك سائر أبنائه وبناته ولدوا جميعاً من أمهات ولد ، وكان الرشيد كلفاً باقتناء السراري ، يبذل من أجلهن الأموال الوفيرة ، وكان يقتني منهن عدداً كبيراً من النساء البارعات في الحسن والخلال .

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٨ .

وتصف لنا الرواية الرشيد بأنه كان مديد القامة ، يميل إلى البدانة ، أبيض وسمي الطلعة ، وقد وخطه الشيب .

وقد وصف الرشيد وبيئته وبلاطه عمرو بن بحر في قوله : « اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل ، وزراؤه البراهكة ، لم يرمثلهم سخاء وسروا ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجربير في عصره . ونديمه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية . وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس ، وأشدها تعاظماً . ومغنيه إبراهيم الموصلی ، واحد عصره في صناعته . وضاربه زلزل . وزامره برصوماً ، وزوجته أم جعفر أرغب الناس في خير ، وأسرعهم إلى كل بر ، وهي أسرع الناس في معروف » (١) .

— ٦ —

نستطيع أن ندرك من هذه الصور الموجزة كيف كان عصر الرشيد من أحفل عصور الخلافة الإسلامية ، وأزخرها بمختلف الحوادث والشئون . على أن هذا النشاط المتصل في ميدان الغزو والجهاد ، وفي معالجة شئون السلطان والحكم ، وهو الذي يقدم إلينا الرشيد في صورة العاهل القوى ، والقائد العظيم ، والحاكم الأمثل ، لم يكن ليحجب بهاء حياة السلم والفخامة والبذخ التي امتاز بها بلاط بغداد في عهد الرشيد ، والتي بسطت ظلها على مجتمعات بغداد الرفيعة في تلك الفترة المتألفة من حياة الدولة العباسية .

كان عصر الرشيد عصرًا ذهبيًا اجتمعت فيه للأمة الإسلامية أسباب القوة والعظمة والنعمة ، وسادت فيه الدعة والرخاء معظم طوائف المجتمع ، وغدت بغداد من أعظم مراكز التجارة العالمية ، وتدفقت عليها صنوف الأرزاق والنعمة ، وغلب الترف على مجتمع الخاصة . وكان بلاط بغداد يومئذ مضرب الأمثال في نظمه ورسومه ، وفي بلنحه وروعته . وكان بما اجتمع فيه من أسباب الفخامة والرونق يقدم للناس صوراً من الحياة الناعمة الرفيعة لم يألّفها المجتمع الإسلامي من قبل . وكان الرشيد بالرغم مما أثر عنه من التحفظ ومن ضروب التقى والورع ، يعيش حياة البذخ الطائل ، ويبدو في مظاهر عاهل الشرق القوى المطلق . بيد أن الرشيد كان في الوقت نفسه ، ذهنًا مستنيرًا يعشق العلوم والآداب والفنون ،

(١) اوردها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (ج ١٤ ص ١١) .

وبرعاها بفتائق تشجيعه وحمايته ، وكان يؤثر العلماء والفقهاء بعطفه ، ويحب الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء . ولكنه كان يكره الجدل في الدين ويقول إنه لخليق أن لا ينتج خيراً . وفي عصره بدأت تلك الحركة العلمية الزاخرة التي توفرت على استخراج كنوز الماضي العقلية ، وترجمة تراث القدماء من يونانيين وغيرهم في الحكمة والطب والفلك والنبات وغيرها ، والتي بلغت ذروتها في عهد ولده المأمون ، وكانت من أعظم دعائم النهضة العلمية الإسلامية بوجه عام .

وكان يجتمع في عصر الرشيد ، ويحتشد حول بلاطه الفخم ، عدة من أقطاب الشعر والأدب ، مثل أبي العتاهية وأبي نواس وعباس بن الأحنف ومروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك والأصمعي ، وغيرهم من فحول الأدباء والشعراء الغزليين والغنائيين ، وكان الرشيد شاعرياً الحسن ، يعالج النظم أحياناً ، ويهوى المديح ويطلب للشعر الحيد ، ويجزل الصلوات للشعراء والأدباء . وله في ذلك أنباء كثيرة مأثورة . ومن نظمه أبياته المشهورة في ثلاث جوار له :

ملك الثلاث الغانيات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصيان
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

وكان يحتشد إلى جانب هذه الصفوة من أعلام الشعر والأدب عدة من أكابر الفن ، مثل إبراهيم الموصلي وولده إسحق قطبي العصر في الغناء والموسيقى . وكان الرشيد يشغف بالموسيقى والغناء ، وما يستتبع ذلك من مجالس الشراب والحواري . وكانت الموسيقى والغناء الرفيع يومئذ من مباحج المجتمع البغدادي . وكان إسحق الموصلي مغني الرشيد يتربع يومئذ على عرش الفن ، وتحف به صفوة الفنانين والقيان ، وله في البلاط منزلة رفيعة ، وكان الشعراء الغنائيون مثل أبي نواس ومسلم ، يمدون الفن بأجل وأرق مقطوعاتهم الغنائية ، وكان للمغنين والقيان منزلة ماحوزة في هذا المجتمع الأنيق الزاهر .

ولنذكر قبل كل شيء أن هذا العصر هو العصر الذي ازدهر فيه مجتمع الحواري الساحر ، ثم لنذكر أن كثيراً من الخلفاء العباسيين وفي مقدمتهم الرشيد نفسه وكذلك المأمون والمعتصم والواثق والمستعين ، كانوا من أبناء الحواري . وكان

هو لاء الجوارى فى الواقع عنصرأ من أهم وأسطق عناصر المجتمع الرفيع يومئذ ، وكانت الخيزران أم الرشيد التى توفيت سنة ١٧٤ هـ (٧٩٠ م) نموذجاً بارزاً لهذا الهرط النسوى الذى تغلغل نفوذه فى البلاط وفى المجتمع . وكان اقتناء الجوارى البارعات فى الحسن أو الغناء أو الأدب عنوان النعاء والبذخ ، تغص بهن قصور الخلفاء والوزراء والسادة ، ويوثى بهن من مختلف الأمم ، ويلقن مختلف الثقافات الأدبية والفنية . وقد راج سوق الجوارى فى عصر الرشيد بنوع خاص لما ترتب على تتابع الغزوات الإسلامية لأراضى الدولة البيزنطية وغيرها من كثرة السبايا . وكان هذا المزيج المتباين الذى تكونه جنسيات وخلال وثقافات مختلفة ، قوة اجتماعية خطيرة لها أثرها القوى فى تكييف الحياة الاجتماعية ، وفى تطور أحوال المجتمع الرفيع وتطور خلاله وأذواقه .

وكان لمجتمع الجوارى أيضاً أثره الواضح فى تطور التفكير والأدب والفن فى هذا العصر . وقد كان الأدب العباسى يومئذ فى عنفوانه . وكان أكابر الشعراء يلزمون هذا المجتمع الساحر البهيج ، يستوحونه فيوحى إليهم بروائع المعانى والفكر ، وهكذا كان لهذا المجتمع أثره فى إذكاء الروح الشعرى وصقل مثل الجمال والظرف ، ورفع مستوى الإنافة والتأدب ، وبث الخلال والشمال الرفيعة ؛ بل لقد كان هو لاء الجوارى البارعات أدب خاص نشأ على أيديهن وفى بيئتهن ، وكان هذا النوق الأدبى الذى يزينه الجمال والهن والسحر النسوى ، تذكىه وتصلقه خواص المجتمع الأنيق الباهر الذى يسطق فيه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن أدب الجوارى فى هذا العصر قد اتخذ لوناً خاصاً ، فهو أدب مرح طروب مميل إلى المحجون والدعابة ؛ ولا غرو فقد نشأ فى مجالى السرور والأنس ، تغذيه أكواب الزاج ، وتذكىه الأهواء والعواطف المثيرة . ويقدم إلينا صاحب العقد الفريد نماذج متمعة من هذا الأدب الطروب ، الذى برعت فيه الجوارى والقيان فى هذا العصر نكتفى بالإحالة عليها .

بيد أنه يجب أن نذكر ما كان لهذا المجتمع الطروب الساحر الذى سطق فى عصر الرشيد فى الوقت نفسه من الآثار السيئة . فقد كان هذا المجتمع بالرغم من خلاله وألوانه البراقة ، يحمل فى ثنياته كثيراً من عناصر الرذيلة والانحلال . ذلك أن غلبة الترف ، واحتشاد الجوارى فى البيئات الرفيعة ، وما ترتب على ذلك من

إسراف في اللهو والقصف والملاذ الخنسية ، أدت إلى ضعف المستوى الخلقى ، وعمت المجتمع يومئذ موجة من الفساد والفجور . وقد نشط الرشيد إلى قمع هذه الظاهرة الأخلاقية السيئة بكل ما أوتى من قوة وحزم .

تلك هي الصورة الزاهية التي انتهت إلينا عن شخصية الرشيد وعصره . بيد أن الرشيد كان إلى جانب هذه المظاهر الدنيوية الفخمة ، يحرص كل الحرص على جلال صفته الدينية كزعيم الإسلام الروحي . وقد أشرنا إلى ما تنوه به الرواية من ورعه وشغفه بالحج إذ كان يغزو عاماً ويحج عاماً . وقد كان من آثار شغفه بالحج أن عمل على تعبيد الطريق إلى مكة ، وزوده بمراكز الحراسة وخزانات الماء ، وعنيت زوجه السيدة زبيدة أم جعفر بإدخال الماء إلى الحرم ، وما تزال آثار هذه العناية القديمة ماثلة إلى اليوم ، إذ ما تزال عين زبيدة تحمل الماء خلال التلال إلى مكة .

* * *

على أن سيرة الرشيد لم تكن فقط مستقى للتاريخ الحق ، بل كانت في الوقت نفسه مستقى للقصة ، تجدد في صحفها الممتعة وألوانها الزاهية مادة خصبة يستطيع الخيال الرائق أن يجول في نواحيها . وقد أدمج من هذا القصص الشائق الذي نسجه خيال الرواة المتأخرين حول سيرة الرشيد ، مجموعة كبيرة في قصص « ألف ليلة وليلة » . ومع أن هذه المجموعة المتباينة تختلف من حيث السبك والأسلوب قوة وضعفاً ، فإنها تشترك جميعاً في المقصد والغاية ، وهي تصوير شخصية الرشيد في ألوان طليقة زاهية ، وإبراز ما فيها من النواحي الإنسانية الجذابة ، والإشادة برائع خلاصها من فروسة ونبل وشهامة وبدخ وتواضع وبر وجود .

والواقع أنه لم تحظ شخصية من شخصيات التاريخ من عناية صحف ألف ليلة وليلة قدر ما حظيت شخصية الرشيد . فقد اتخذ الرشيد نفسه بطلا لعدة قصص وجعل صديقاً لأبطال قصص أخرى ؛ هذا فضلاً عما نسب حدوثه من القصص إلى عصره . وفي معظم هذه القصص يقدم إلينا الرشيد في صورة الأمير الضجر الذي يطلب السلوى فيأتيه وزيره الشهير جعفر البرمكي ببعض رواة العصر وسماره ، وهم من خاصة صحبه وندمائه مثل الأصمعي وأبي دلف وأبي نواس وإسحق الموصلي وغيرهم ، فيروون له أغرب ما سمعوا أو شهدوا من القصص والأخبار . أويده

الأرق إلى التماس السلوى بالطواف ليلاً في أنحاء العاصمة العباسية ، وتفقد أحوال الرعية ، وعندئذ يقدم إلينا الرشيد وقد تنكر في زي التجار ، وتنكر معه بعض رفاق سمره وضجره الذين يلازمونه ، مثل وزيره جعفر ووصيفه مسرور ، ومغنيه إسحق وغيرهم ، وعندئذ يطوف الجميع معاً أحياء بغداد فتسوقهم المقادير إلى بقعة أو منزل يقعون فيه على أغرب المشاهد ويسمعون أغرب القصص والروايات (١).

وهكذا نجد الرشيد في « ألف ليلة وليلة » بطلاً من أبطال القصة أسبغت عليه في هذه القصص كلها ، نفس الألوان الزاهية التي أسبغت على أبطال ألف ليلة وليلة الخياليين . ومع ذلك فإن الاعتبار التاريخي لم تهمل كلها ، ففي معظم هذه القصص نرى شخصية الرشيد تحتفظ بكثير من صفاتها التاريخية المعروفة ، من الحدود والتواضع والنبيل والقروسة وشغف البذخ ، والتقى والورع ، وحب العلماء والعلم وغيرها ، مما تؤيده المصادر التاريخية الحقة ، بل نجد بعض هذه المناظر والأخبار منقولاً بنصه عن كتب التاريخ والأدب . بيد أننا نجد أنفسنا من جهة أخرى أمام طائفة من الوقائع والصفات الخيالية المحضة التي لا تجمل أحياناً ، والتي نسبت إلى الرشيد لكي يستكمل صورة بطل القصة الحقيقي ، وهي مع ذلك وقائع وصفات يسهل تمييزها والإغضاء عنها .

وقد أسبغ قصص ألف ليلة وليلة على الرشيد وعصره روعة وشهرة وبهاء لم تزد على كر القرون إلا قوة ورسوخاً ؛ وفي وسعنا أن نقول إن كتب التاريخ والأدب على ما تخص به الرشيد وعصره من الفصول الضافية ، وما تحويه من آيات المديح والثناء ، لم تسبغ على شخصية الرشيد من الروعة والبهاء والعطف قدر

(١) من القصص التي نسبت إلى عصر الرشيد قصة السندباد البحري الشهيرة وسفراته السبع . أما القصص التي اتخذها الرشيد نفسه بطلاً فهي عديدة ، منها قصة قوت القلوب وهي الجارية الحسنة التي شغف بها الرشيد . ومنها قصة الرشيد مع خليفة الصيد . وقصته مع البنت العربية التي أنشدته أبياتاً أعجب بها ثم طلب منها تغيير القافية واستبقاء المعنى فغيرتها مراراً في مقطوعات بدعة فأعجب بها وتزوجها . وثمة طائفة أخرى من القصص لا يبدو فيها الرشيد بطل القصة الأصلي ، ولكنه يكشف هذا البطل أثناء طوافه متنكراً في أحياء بغداد ، ومن هذه القصص قصة الشاب العاني الذي أضاع ثروته على الغواني ، وقصة محمد بن علي الجوهري . وفي مناسبات أخرى يستمع الرشيد حين يصيبه الأرق إلى سماره وندمائيه مثل الأصمعي وإسحاق . وقد تضمنت ألف ليلة وليلة عدة من هذه القصص الأدبية الممتعة ، ومعظمها منقول عن كتب الأدب مثل العقد الفريد وغيره .

ما أسبغت عليها قصص ألف ليلة وليلة . ويبدو هذا الأثر بنوع خاص في الآداب الغربية حيث يعتبر الرشيد بلا مرء أعظم وأشهر أمراء الإسلام والشرق . ويرجع ذلك إلى ذبوع قصص ألف ليلة وإيلة في المجتمعات الغربية ، ذبوعاً لم يظفر به أى أثر عربى أو شرقى آخر ، وإلى أن الغرب قد عرف الرشيد وعصره بالأخص من قصص ألف ليلة وليلة ، وانطبعت في ذهنه عن الرشيد وعصره تلك الصور الرائعة التى تقدمها إلينا ، بل لم تخل معظم التواريخ الغربية الرصينة من التأثير بهذه الصور في تقديرها للرشيد وعصره^(١) .

(١) رجعت في هذا البحث إلى توارىخ الطبرى وابن الأثير وابن القدا وابن خلدون ، وإلى العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الأغاني ، وكتاب تارىخ بغداد للخطيب البغدادى ، وكتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن العلقمى وغيرها . وكذلك إلى كتاب : **Finlay Byzantine Empire**

ست الملك الفاطمية

(٣٥٩ - ٤١٤ هـ) ، (٩٧٠ - ١٠٢٣ م)

تسطع في تاريخ مصر الإسلامية شخصية نسوية تكاد تغشى بروعتها وبهائها كل شخصية نسوية أخرى في تاريخنا . تلك هي شخصية شجرة الدر أول وآخر ماكة جلست على عرش مصر الإسلامية ، وحكمت مصر حيناً لم يطل أمده ، ولكنه خلد في تاريخنا مثلاً فريداً يثير إعجاب الأجيال .

وقد لا تتفوق شجرة الدر في خلالها أو شخصيتها على شخصيات نسوية كثيرة تبوأَت مكانتها في قصور الخلفاء أو السلاطين ، وكان لها أجيالاً أثرها البارز في توجيه سياسة الملك ، ولكن من وراء الستار ؛ ولكن شجرة الدر تمتاز على هذه الشخصيات جميعاً بما هيأ لها القدر من الجلوس على عرش الخلفاء والسلاطين ، وتخليد مكانتها بذلك في سجل الملوكية الرسمي ٥

على أن مصر الإسلامية قد عرفت غير شجرة الدر شخصيات نسوية أخرى كان لها أعظم نفوذ في توجيه سياستها ومصايرها . وفي طليعة هذه الشخصيات الأميرة ست الملك الفاطمية ابنة الخليفة العزيز بالله ، وأخت ولده الخليفة الحاكم بأمر الله . وقد ولدت هذه الأميرة النابهة سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) بعد الفتح الفاطمي لمصر بنحو عام ، وقدمت إلى مصر مع والدها العزيز في ركب جدها المعز في أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، وربيّت في القصر الفاطمي بالقاهرة المعزية عاصمة الخلافة الفاطمية الجديدة . وكانت أمها جارية رومية أو قبطية على الأرجح كانت سرية للعزيز ، وفي بعض الروايات الكنسية المعاصرة أن هذه الجارية النصرانية كانت أيضاً أمّاً للحاكم بأمر الله وهي رواية ضعيفة ينقصها التحقيق (١) . والمرجح حسبما تحدثنا معظم الروايات المعاصرة واللاحقة أنها كانت فقط أمّاً است الملك دون الحاكم . أما الحاكم فقد ولد بعد مولد أخته بستة عشر عاماً من أم أخرى هي زوجة العزيز الشرعية التي تنعتها الرواية الإسلامية باسم « الست العزيزية » .

(١) راجع كتابي « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » الطبعة الثانية ص ٨٨ - ٨٩

وقد كان لهذه المصاهرة النصرانية أعظم أثر في سياسة العزيز بالله فيما بعد ، كما كان لها أعظم أثر في تربية ست الملك ، وفي تكوين مبادئها الدينية والسياسية . ذلك أنه كان لهذه السيدة النصرانية التي حظيت بحب الخليفة وغدت أم ابنته الكبرى ، أخوان هما أرسانيوس وأريسطيس ، رفعهما العزيز إلى ذروة المناصب الكنسية ، فعين أرسانيوس مطراناً ثم غدا بطريقاً للطائفة الملكية بالإسكندرية ، وعين أريسطيس بطريقاً لها بيت المقدس ؛ وكان للحبرين نفوذ عظيم في البلاط الفاطمي . وكان من أثر هذا النفوذ أن طبعت سياسة العزيز نحو النصارى بطابع الاعتدال والعطف ، فقوى نفوذهم في الدولة في عهده ، وتبوأوا مناصب الوزارة والثقة ؛ وقد كان لليهود يومئذ في الدولة الفاطمية مثل هذه المكانة من القوة والإعزاز ، ولا سيما في ظل الوزير يعقوب بن كلّس وزير المعز لدين الله ثم ولده العزيز من بعده ، وقد كان يهودياً اعتنق الإسلام وتألق نجمه بتولى الوزارة حتى غدا أعظم رجل في الدولة ؛ بيد أن مبالغة العزيز في اصطفاء الذميين لم تلبث أن أثارت في أواخر عهده عاصفة من السخط ، وأردك العزيز خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهبتها ، فانقلب حيناً إلى مطاردة الذميين ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الترفق بهم والاعتماد على معاونتهم بتأثير زوجه النصرانية وتأثير ابنته ست الملك ، وذلك مع العمل في الوقت نفسه على الحد من طغيانهم واستئثارهم بالسلطة . وهكذا استطاع اليهود والنصارى في عهد العزيز بالله أن ينعموا بأعظم قسط من الجاه والنفوذ .

وكانت ست الملك منذ نشأتها أميرة عاقلة حازمة ، وافية التحفظ والحد ، تعنى بالخليل من الأمور ، وكان والدها العزيز يحبها حباً جما ، فلما كبرت وترعرعت ، غدت موضع ثقته يستشيرها في كثير من الأمور . وعرفت ست الملك منذ فتوتها بالعقل والحزم وحسن التدبير . وتسميها الرواية أحياناً « ست الكل » ، وتنعتها بالسلطانة . وكان لآرائها وتوجيهها بلا ريب أكبر الأثر في تعزيز سياسة التسامح التي اتبعتها العزيز نحو النصارى ؛ وتنوّه جميع الروايات النصرانية المعاصرة واللاحقة بفضل ست الملك في صوغ هذه السياسة المستنيرة نحو الذميين في عهد العزيز بالله .

ولما توفي العزيز بالله في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) وخلفه ولده الحاكم بأمر الله

كانت ست الملك قد بلغت السادسة والعشرين من عمرها ، وكان أخوها الحاكم الخليفة الجديد ، غلاماً يافعاً في نحو الثانية عشرة من عمره ؛ فتولى إدارة الشئون « الأستاذ » برجوان مولى أبيه مدى حين واستأثر بكل سلطة . ولكن الخليفة الفتي ما لبث أن سئم هذه الوصاية ، فدبر مقتل برجوان (٣٩٠ هـ - ٩٩٩ م) واسترد سلطته . ومن ذلك الحين يبدأ عهد الحاكم بأمر الله الحقيقي ، وهو من أغرب العهود التي شهدتها مصر الإسلامية ، وأكثرها شذوذاً واضطراباً ، وأحفلها بالحوادث الجسام .

عاشت مصر في ظل الحاكم بأمر الله زهاء ربع قرن شهدت فيه كثيراً من ألوان الطغيان والسفك والتناقض ؛ وحمل الحاكم تياراً من العنف والإغراق لم يسبق له مثيل ، فأكثر من إصدار المراسيم الشاذة المتناقضة ، ما بين حرمان وإباحة ، يحرم بعض الأطعمة ثم يبيحها ، ويقلب الليل نهاراً ويجعله مسرح النشاط والعمل ، ويحظر التبرج على النساء ، ثم يحجر عليهن فلا يبيح لهن الخروج ، ويأمر بمطاردة النصارى واليهود ، ثم يعود فيعفو عنهم ، ويأمر بهدم الكنائس ، ثم يعود فيسمح ببنائها ، ويأمر بقتل الكلاب ، ويمعن في القتل والسفك ، فيقتل وزراءه وكتابه واحداً بعد الآخر ، ويقتل رؤساء العشائر ذوى النفوذ ، ويشجع الدعوات السرية الإلحادية ، ثم يهيم في التقشف والزهد ، ويرصد النجوم بالليل ، وهكذا يمضى طوال عصره تدفعه مختلف النزعات والتيارات ، فتضطرب أمور الدولة ، وتضعف منعها ، وتهدها الأخطار الخارجية ، وتضطرب حياة الشعب ، وتهب على المجتمع المصرى في عهده ، ريح من الروعة والإرهاب والتوجس .

ماذا كان موقف ست الملك خلال هذه الأعوام الحرجة والأحداث المثيرة ؟ لقد لبثت ست الملك عقب وفاة أبيها العزيز مدى حين تتمتع بمكانتها ونفوذها في البلاط ، وتمد أخاها الخليفة الفتي بالنصح والإرشاد كلما شهدت عنفه وشذوذه ، وتعمل ما استطاعت للسهر على سلامته وسلامة الملك والدولة . ولكن الحاكم ما لبث أن تيرم بنصحها وتدخلها ، وظهرت بين الخليفة وأخته بوادر خلاف ما لبث أن استحكم فيما بعد ، واتخذ صورة خصومة مضطربة ، كان لها أعظم الآثار وأخطرها .

وكانت ست الملك مذ شعرت بتقلص نفوذها في البلاط قد لجأت إلى حياة العزلة ، وأقامت في القصر الفاطمي الغربي المسمى بالقصر الصغير ، وهو المقابل للقصر الكبير أو القصر الخلفي ، يفصل بينهما الميدان الكبير المسمى «بن القصرين» على أنها لم تنقطع في عزلتها لحظة عن متابعة الاهتمام بالشئون العامة . وكانت ترقب في جزع وتوجس مسلك أخيها الحاكم ، وتحاول بكل ما وسعت أن تعمل على إصلاح الأمور ، وتهذبة الخواطر واتقاء الأزمات . ولما استأثر الحاكم بالسلطة واندفع في تيار العنف والإغراق ، وأسرف في القتل وإصدار الأحكام والقوانين الشاذة ، كانت ست الملك تعترضه وتسدى إليه النصيح ، وتحذره من سوء العواقب ، وكانت هذه الأميرة النابهة تقدر مدى العواقب الخطيرة التي يمكن أن تؤدي إليها مثل هذه السياسة العنيفة الغاشمة ، وتشفق على ملك أمرتها أن تحتلمه هذه العاصفة الهوجاء ، التي ما زال يثيرها الحاكم منذ عشرين عاماً دون تدبر ولا هوادة . وكان الحاكم من جانبه يحقد عليها ، وينأى عن نصحتها ، يأخذ عليها تدخلها في شئون الدولة ، وكان فوق ذلك ينعي عليها مسلكها الشخصي ، ويتهمها بسوء السيرة والتقلب بين أذرع مختلف العشاق ، والتورط في حماة الفضائح الغرامية ، ويهددها بإرسال القوابل لاستبائها . على أنه ليس في سيرة ست الملك ما يدل على أنها كانت تنحدر في حياتها الشخصية إلى مثل هذا اللزك المشين ، خصوصاً وقد كانت في العهد الذي نتحدث عنه قد تجاوزت الخمسين من عمرها ، والرواية الإسلامية تشيد بالعكس بحزمها وعقلها وكياستها . وهكذا استمر الحاكم في سياسته العنيفة الخربة لا يلوى على شيء ولا يقبل نصيحاً من أحد . وكانت مصر قد قطعت في ظل حكمه المضطرب الخافل بصنوف الأحداث والحن زهاء خمسة وعشرين عاماً ، وقد أشرفت على شفا التفكك والدمار . ولكن شاء ربك أن ينقضي هذا الليل الطويل الذي خيم على المجتمع المصري فجأة وبصورة مدهشة . ففي ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم كعادته للطواف بالبحيل ، وكان يشغف برصد النجوم كما قدمنا ، وركب حماره الأشهب ، وخرج من القاهرة يصحبه ركايبان فقط . ثم سار متوغلاً في شعب المقطم متجهماً نحو الجنوب ، وصرف الركايبين أثناء ذلك ، ومن تلك الساعة يخفى الحاكم بأمر الله من مسرح التاريخ

إلى الأبد ، وتغمره الأساطير المغرقة . ذلك أن أحداً لم يعثر بجثته قط ، ولم يعرف مصيره قط بطريق التحقيق ، وكل ما هنالك أنهم وجدوا حمارة على مقربة من بركة حلوان وقد قطعت ساقاه الأماميتان ، وقيل أيضاً إنهم عثروا بشيابه ملقاة في قاع البركة وفيها أثر الطعان مما يدل على قتله .

* * *

وقد قيلت في اختفاء الحاكم بأمر الله أساطير كثيرة ، فقيل إنه اختفى وارتفع إلى السماء وسوف يعود في آخر الزمان . وقيل إنه توارى في الصحراء وتنصر وترهب حتى توفي . وقيل غير ذلك . وكلها أساطير مغرقة . والحقيقة التي تؤيدها معظم الروايات المعاصرة والقرية من العصر ، هي أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة ، وقتل غيلة في تلك الليلة المشهودة . ولكن من الذي قتله ؟ ومن الذي دبر قتله ؟

وهنا تعرض أعرض وأدق صفحة في حياة الأميرة الفاطمية . ذلك أن معظم الروايات الراجحة تنسب تدبير هذه المؤامرة الخطيرة إلى ست الملك . والحقيقة أن ست الملك كانت أشد الناس جزعاً على ملك أسرتها من أن تطيح به سياسة الحاكم الغاشمة وأشدهم حرصاً على حمايته وتوطيده ، وأكثرهم مقاومة لسياسة أخيها الخربة . فلما أسرف الحاكم في عيئه وفي نزواته الخطورة ، ولما ضاقت ذرعاً بالمقاومة ، واستنفدت كل وسيلة ممكنة ، لم تجد مناًصاً من اتخاذ الخطوة الحاسمة في القضاء على الشر من أساسه ، وذلك بالقضاء على شخص الحاكم ذاته ، وإبعاده نهائياً عن مسرح الحوادث .

ثم تحدثنا الرواية عن بطل الجريمة ، ويد الأميرة في تنفيذها ، فتقول لنا إنه هو الحسين بن دؤاس زعيم كتامة أقوى القبائل المغربية ، وكان من أشد الناقمين على الحاكم لأنه مال على كتامة وسلبها نفوذها . وكان يخشى من غدره وبطشه . وبحث ست الملك حولها بين العناصر الناقمة فلم تجد أوفر عزماً وأشد مراساً من الحسين بن دؤاس ، فاتصلت به سرّاً وعرضت عليه ما انتهت إليه الأمور من الاضطراب والفوضى من جراء تصرفات أخيها وتطرفه وإغراقه ، وانتهاكه حرمان الشريعة والإيمان بادعاء الألوهية ، وما يهدد الدولة والإسلام كله من خطر التفرق إذا استمر الحاكم في غيه ولم يوضع حد لشيوع تصرفاته وجرائمه ،

وأنه لا سبيل إلى تدارك الموقف ودفع الخطر غير قتل الحاكم وتولية ولده ؛ فلبى ابن دواس دعوة الجريمة وتعهد بالتنفيذ ، وأخذت عليه الأميرة ميثاقاً بالوفاء والكتمان ، وقطعت على نفسها مختلف الموائيق والعهود ، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب الكلمة العليا في شئونها . ورتب الحسين خطته ، وعهد بتنفيذ الجريمة إلى عبيدين من أخلص عبيده ، فخلعت عليهما ست الملك ووهبتهما مالا وخيلاً وغيرها ، وزودتهما بسكّين ماضيين ، واتفق على أن يكون التنفيذ في مساء اليوم التالي حينما يخرج الحاكم كعادته ليلاً إلى المقطم ، ويتوغل فيه منفرداً مع بعض الركابية فقط . وتمت الأمور على هذا التدبير المحكم ، ففي مساء اليوم التالي وهو يوم الاثنين ٢٧ شوال خرج الحاكم راكباً حماره إلى الجبل ليرصد النجوم كعادته ، فلما توغل في شعب الجبل منفرداً وليس معه سوى ركابي واحد فقط ، وطال تجواله حتى قرب الفجر ، خرج عبدا الحسين من مكمنهما ، وكانا يرصدان حركاته ، فانقضيا عليه وقتلاه ، وقتلا الركابي وقطعا قوائم الحمار ، وحملا جثة الحاكم إلى سيدهما في كساء فحملها إلى ست الملك ، فدفتته في نفس مجلسها ، واتخذت كل أهبة لإخفاء الجريمة وتدبير ما يجب لجلوس الخليفة الجديد .

وهنا تبدو الأميرة الفاطمية في ذروة حزمها وصرامتها ، فإنها بعد أن أتمت تدبيرها في تنصيب ولد أخيها أبي الحسن على (الظاهر) مكانه في كرسي الخلافة ، واستوثقت من طاعة الرعماء والقبائل ، بادرت إلى القضاء على شركائها في الجريمة ، فدبرت مقتل الحسين بن دواس وهو في بعض أبهاء القصر ، ثم دبرت مقتل الوزير خطير الملك . ولم تبق على أحد ممن وقفوا على السر . وتمت هذه الإجراءات الدموية بسرعة وصرامة ، وذهب السر الرهيب مع الخيانة إلى الأبد .

* * *

وجلس الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله مكان أبيه الحاكم في العاشر من ذي الحجة سنة ٤١١ هـ وهو فتى يافع لم يجاوز السابعة عشرة . وتولت ست الملك تدبير الأمور وغدت كل شئ في البلاط والدولة ، وأخذ الخليفة الجديد بوحى عمته القوية في إصلاح الأمور وتهذيب الخواطر ، فألغى كثيراً من المراسيم الشاذة ، وأباح كثيراً مما منعه أبوه ، واستأنف سياسة التسامح نحو النصارى واليهود ،

وبدأ عهد من السلام والأمن لم تشهده مصر طوال أيام الحاكم . وبذلت ست الملك جهوداً بارعة في توطيد أركان الدولة ومطاردة الخوارج ؛ ونمى إليها أن عزيز الدولة فاتك الوحيدى والى حلب ينوى الخروج والعصيان ، فلجأت إلى مصانعتة وأرسلت إليه خلعاً وأموالاً ، ودست عليه في نفس الوقت غلامه بلدراً ليدير مقتله ، وبذلت له وعوداً كبيرة ؛ ونفذ بلدر جريمته وقتل فاتك بعض غلمانته ، وتولى بلدر بعد مصرعه حكم حلب ، وأقرته ست الملك على ولايته . وهكذا عملت بمختلف الوسائل على إخماد روح العصيان وتوطيد سلطان الدولة في النواحي .

ولم تنس ست الملك شئون السياسة الخارجية ، فسعت إلى الصلح والمهادنة مع الدولة البيزنطية تأميناً لحدود مصر الشمالية ، وأوفدت إلى بازيل الثانى قيصر قسطنطينية بطريق بيت المقدس سفيراً ليعمل على عقد الصداقة بين الدولتين ، وليطمئن بلاط قسطنطينية على مصير النصارى ، وحميتهم فى أنفسهم وأموالهم ، واحترام شعائرهم ، وإعادة أملاكهم وكنائسهم . وهكذا استمرت هذه الأميرة النابهة زهاء ثلاثة أعوام بعد مصرع أخيها ، توجه شئون الملك والخلافة بهمة وبراعة تخلق بأعظم الزعماء والقادة . بيد أنها كانت تدنو مسرعة من الخاتمة ، ولم تلبث أن توفيت فى أواخر سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) ، وقد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها .

لقد عاشت ست الملك الفاطمية أميرة فقط ، ولم تجلس على عرش ولم تتبوأ رئاسة أو زعامة رسمية . ولكنها كانت بذكاؤها وقوة نفسها وبارع خلالها أقدر من كثيرين ممن تبوأوا العروش والرئاسة . وإذا كانت الرواية لم تحدثنا كثيراً عن جمالها وسحرها كامراً ، فإنها تفيض فى مواهبها البديعة كدبرة للملك والسلطان (١) .

(١) تحدثنا بإفاضة عن نشأة الأميرة ست الملك وحياتها ، والدور الذى قامت به فى مصرع أخيها فى كتابتنا « الحاكم بامر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » الطبعة الثانية ص ١٨٥ و ٢١٢ .
٢١٣ و ٢١٦ - ٢٢٧ .

الحسن الصباح

(نحو ٤٣٠ - ٥١٨ هـ) ، (١٠٣٨ - ١١٢٤ م)

في أواخر القرن الخامس الهجري ، بينما كانت الدولة الفاطمية بمصر ترفع لواء الشيعة الديني والسياسي ، كانت الدعوة الشيعية في فارس والعراق تتمخض عن فرقة أخرى ، تسمى كالخلافة الفاطمية إلى الإمامة الإسماعيلية ، وتشق طريقها إلى السلطان والملك بأساليب عجيبة ، لم تعرفها من قبل أية فرقة إسلامية أخرى . وكان سلطان الشيعة السياسي الذي حققه الفاطميون في مصر بفتوحهم ، وإقامة دولتهم الباذخة ، قد أخذ في الضعف والانحلال . ولكن الدعوة الشيعية لبثت مع ذلك قوية تضطرم في المشرق . وكانت تتجه دائماً إلى الخلافة الفاطمية لتستمد منها الإلهام والعضد الروحي ، ولكنها كانت تتخذ مع ذلك صبغة محلية تكييفها الحوادث والظروف .

وكانت هذه الفرقة المذهبية الجديدة ، تنصوي منذ البداية تحت علم الإمامة الإسماعيلية . بيد أنها عرفت فيما بعد في مختلف الأقطار بأسماء مختلفة مثل الماحدة والمزدكية والتعليمية والباطنية ، وعرفت في الشام أيام الصليبيين بالحشيشية . والباطنية أشهر ألقابهم وأخصها ، أطلق عليهم لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً واكل تأويل تنزيلاً^(١) ؛ ولأنهم من جهة أخرى كانوا محرصون على كتمان دعوتهم وغاياتهم^(٢) ، يبتونها في الخفاء ولا يبدونها إلا لخاصة الصاحب والتلاميذ .

ومؤسس هذه الدعوة الإسماعيلية الباطنية ، وواضع أصولها ، ومنظم دعائها ، رجل تقدم لنا سيرته العجيبة صفحة من أغرب صحف الدعوات السرية ، هو الحسن بن علي الصبّاح الحميري ، وهو شخصية تذكريا أعمالها وقوة خلاها بأعظم زعماء الحركات السرية والإرهابية الحديثة ، بل سنرى فيما يلي أن الحركات الثورية والإرهابية الحديثة التي هزت أركان العروش والدول ، قد تقتبس كثيراً

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩ (هامش كتاب الفصل) .

(٢) ابن خلدون - كتاب العبر - ج ٤ ص ٩٤ .

من نظمها وتعاليمها السرية ، من نظم الحسن وتعاليمه ، وأن الحسن كان إمام هذا الفن وأستاذه الذى لا يجارى .

كان الحسن الصباح إماماً من أئمة الدعوة السرية فى عصر كانت الدعوة فيه أنفذ سلاح لغزو المجتمعات والجماهير . وكان قطباً من أقطاب الخفاء ، يحيطه الخفاء بسياج من القوة والروع ، وكانت فلسفته أعظم عناصر قوته . ذلك لأن الحسن لم يكن متآمراً وداعية فقط ، بل كان أيضاً كما سئرى فيلسوفاً يطبع فلسفته كثير من الذكاء والطرافة ، وكان ينظر من خلال فلسفته إلى العالم والمجتمع بمنظاره الخاص ، ويتخذ منها قانوناً خاصاً للحكم على الأشخاص والأشياء والحوادث ،

ظهر الحسن فى عصر كان الإسلام يستقبل فيه مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، ويستجمع قواه ليخوض مع النصرانية فى ميدان الحروب الصليبية معركة جديدة من معارك الحياة والموت . وكان مولده فى طوس من أعمال خراسان فى حنود الثلاثين بعد المائة الرابعة . وكان والده الصباح فقيهاً متواضعاً يعتنق مذهب الشيعة الرافضة فى الخفاء ، ويستتر بثوب من التقشف والورع . وكان يفتحل لنفسه نسبة عربية ويزعم أنه سليل الصباح الحميرى . وقضى الحسن صباه فى طوس ، ودرس الفقه والحديث على المحدث الشهير موفق الدين النيسابورى . وكان من زملائه فى الدراسة اثنان تألق نجمهما فيما بعد ، وأصبحا من اعلام العصر ، وهما الشاعر الأشهر عمر الخيام ، والوزير الكبير نظام الملك . وكانت طوس يومئذ مركزاً للدراسات الدينية الخطيرة . وفيها ولد وظهر فى نفس العصر أعظم فلاسفة الإسلام الروحيين ونعنى حجة الإسلام أبى حامد الغزالى . وكانت أيضاً مركزاً للدعوات الدينية السرية ، ومهبطاً لأقطاب الدعاة . وفيها تلقى الحسن الدعوة الإسماعيلية منذ حداثته . ويحدثنا الحسن عما خالجه يومئذ من تردد فى قبولها ، وما كان يعتقده من أن مذهب الإسماعيلية ، إنما هو مذهب الفلاسفة ، وأن إمامهم خليفة مصر الفاطمى ، إنما هو مفكر من المفكرين الفلاسفة ، وكيف انتهى أخيراً إلى اعتناق المذهب ، وغدا من تلاميذ عبد الملك بن عطاش أحد

أقطاب دعوتهم . ثم صحبه إلى الرى شاباً يضطرم لإخلاصاً للدعوة وحامسة في ثبائها^(١) .
ودرس الحسن الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء التي كانت في عصره
عالمها رفيعة ، وكانت سلاحاً يشهره الأذكى والأدعياء على البسطاء والعامة . وكان
صديقه ورفيق صباه نظام الملك ، قد شق طريقه إلى السلطان والحد ، فاتصل به
يلتمس عوناً وعضده فألحظه بخدمة السلطان . وقربه السلطان وحظي لديه بما أبدى
من فطنة وبراعة . ولكنه لم يلبث أن انقلب على صديقه والحسن إليه يحاول الإيقاع
به . وأوجس نظام الملك خشية من دسه ونفوذه فعمل على إقصائه ، واتهمه
بالإلحاد وبث الدعوة الإسماعيلية ، فأقصاه السلطان وغادر البلاط ساخطاً ياتمس
لنشاطه آفاقاً أخرى .

وكانت هذه مرحلة التكوين والاستعداد في حياة الحسن . وكان هذا الرهط
المستتر من الدعاة يتجه دائماً إلى مصر وإمامها الفاطمي ، قطب الدعوة وملاذها ،
ورمز سلطانتها وسيادتها ، فإلى مصر اتجهت أنظار الحسن . وشجعه شيخه عبد الملك
لما آانس فيه من مقدرة وإخلاص على السفر إليها ، ليحظى بروية إمامها المستنصر
بالله الخليفة الفاطمي ، وليستمد منه التأييد والعون ؛ فسار الحسن إلى مصر وهبطها
في حدود الثمانين (نحو سنة ٤٨٠ هـ)^(٢) . وفي رواية أخرى أن الحسن سار إلى
مصر فراراً من نقمة حاكم الرى إذ اتهمه ببث الدعوة الإلحادية والتستر على نفر
من الدعاة المصريين^(٣) . ولما وصل إلى مصر لقي منتهى الحفاوة ، واستقبله داعي
الدعاة الشريف طاهر القزويني وعدة من الشيوخ الأكابر عند الحدود . ورحب
به الخليفة المستنصر بالله ، وأكرم وفادته ، وأفرد لإقامته منزلاً خاصاً ، وقربه
وأمره بدعاء الناس إلى إمامته . ولبت الحسن بمصر ثمانية عشر شهراً يتمتع فيها
بتأييد الخليفة ورعايته وثقته ، ويدرس أساليب الدعوة على أساتذة دار الحكمة
المصرية ، التي لبث بالرغم من تقلص نفوذها القديم أعظم مركز علمي لتلقين
الدعوات السرية . بيد أنه لم يستطع أن يحرز من النفوذ ما كان يطمح إليه . ذلك
أن الخليفة الفاطمي لم يكن يومئذ أكثر من زعيم روحي ، وكانت مصابير الحكم

(١) رجعنا في ذلك إلى ما أورده مسيو Jourdain المستشرق الفرنسي في مذكورة استقامها
من مخطوطات إسماعيلية مخفوظة بدار المكتبة الوطنية بباريس ووجهها إلى المؤرخ Michaud صاحب
تاريخ الحروب الصليبية (انظر : Michaud: T. I. p. 474 et suiv.) .

(٢) مذكورة مسيو جوردان المشار إليها . (٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ .

والسلطان قد انتهت يومئذ كلها إلى أمير الحيوش بدر الجمالي ، المتغلب على الدولة والمستأثر بشئونها . ولم يوفق الحسن إلى الخطوة لدى أمير الحيوش إذ كان يوجس خيفة من نيته ومشاريعه . واستحكم الحفاء بين الرجلين . ولما ثارت مسألة ولاية العهد واختار المستنصر ولده نزاراً لولاية عهده ، أيدته الحسن في اختياره بحماسة وطالبه المستنصر بالدعوة لإمامته ثم لإمامة ولده نزار من بعده . ولكن خالفه أمير الحيوش وحزبه ، واختار ولد الخليفة المستعلي لولاية العهد ؛ وكان هذا الخلاف منشأ فرقة إمامية نعتت بالنزارية نسبة لنزار ولد المستنصر (١) . وسخط أمير الحيوش على الحسن لمناوئته ، وانتهز هذه الفرصة فحمل الخليفة على إقصائه ، وأمر به فاعتقل في بعض قلاع دمياط ، بيد أنه استطاع غير بعيد أن يفر من معتقله ، وأن يجوز في بعض السفن إلى ساحل الشام .

ونزل الحسن في حلب وأقام بها حيناً ثم رحل إلى بغداد ، فحوزستان وأصبهان ويزد وكرمان ، وهو ييث دعوته أينما حل . وكان ييثها في الواقع في مهاد خصبة تجتاحها الدعوات السرية منذ بعيد . بيد أن الحسن لم يكن رجلاً نظرياً يقف عند الدعوة والمثل النظرية ، وإنما كان رجل عمل يرى في الدعوة مرحلة تمهيدية ، ويتطلع إلى اجتناء ثمراتها العملية . وكانت فارس تقدم يومئذ بنظمها الإقطاعية وأحوالها السياسية والاجتماعية المضطربة ، إلى المغامرين خير الفرص . وكانت المنطقة الشمالية الغربية ما بين الديلم والعراق تتخللها عدة قلاع منيعة شاهقة تقع في هضاب وعرة ، ويستطيع المسيطر عليها ، أن ييسط سيادته على تلك المنطقة كلها . فإلى هذه المنطقة اتجهت أنظار الحسن . وكان الإسماعيلية قد بدأوا بالفعل حركتهم العنيفة ، فرفعوا لواء الثورة في أنحاء همدان ، وحاربوا جند السلطان ؛ واستطاع أحد زعمائهم أحمد بن عطاش ولد الشيخ عبد الملك أن يستولى على قلعة « شياه در » بالقرب من أصبهان ، وأن يتخذها قاعدة للهجوم والدفاع . أما الحسن فوجه اهتمامه إلى ولاية رودبار الواقعة في شمال قزوین ، وإلى قلعتها المنيعة ألتموت . وكان قد بعث دعائه إلى هاتيك القلاع والحصون ، ييثون الدعوة بين الجند ، ويفسدون ولاءهم وعقائدهم ، وكان حاكم القلعة من قبل ملككشاه علویاً يدعى أبو مسلم ، وهو صهر لنظام الملك ، فاتصل به الحسن وثوقت بينهما أوأصر الصداقة ، ولبت الحسن .

يتحين الفرص ؛ وفي ذات مساء وثب بصاحب القلعة في جمع من أنصاره فأخرجه منها واستولى عليها . وكان ذلك في السادس من رجب سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وبادر السلطان بإرسال الجند إلى أَلَمُوت لاستردادها . فضيقوا الحصار عليها ، وجهد الحسن وأنصاره داخلها ؛ فعندئذ فكر في اغتيال نظام الملك خصمه ومطاردته الحقيقي ، فدس عليه فتى من دعاة ، فاغتاله ذات مساء من شهر رمضان (سنة ٤٨٥) وقتل القاتل لوقته^(١) . ووقع الاضطراب في البلاط واستدعى السلطان جنده فرحلوا عن أَلُوت ، وتنفس الحسن الصعداء . ثم بادر إلى تحصين القلعة ، وملأها بالرجال والذخائر والأقوات ، وغرس حولها الأشجار الباسقة وغدت أَلَمُوت ومعناها « تعليم العقاب » تسيطر بقوتها ومنعتها على ولاية رودبار كلها . ولم يمض سوى قليل حتى توفي السلطان ملكشاه ، ووقع الخلاف بين ولديه محمود وبركيارق . وانتهز الإسماعيلية فرصة الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستولوا على عدد كبير من القلاع والحصون في قوهستان وأصبهان وهمدان وغيرها ، واستفحل أمر ابن عطاش صاحب قلعة « شاه در » وبسط سلطانه على كثير من أنحاء أصبهان ، وازداد الإسماعيلية قوة حين حالفهم السلطان بركيارق على أخيه ، ونشطوا إلى مطاردة الأمراء السلاجقة حلفاء السلطان محمود واغتالوا عدة منهم . وبثوا الرعب والروع في أنحاء فارس ، وفشت دعوتهم بين الجند والعامه ، وغدوا قوة يخشى بأسها . وكان بركيارق نفسه أول من خشي بطشهم فانقلب إلى قتالهم ، وفنك بجموعهم في أنحاء مملكته . ولما انتهت الحرب الأهلية بين أبناء ملكشاه وعقد الصلح بينهم ، جد الأمراء السلاجقة في محاربة الإسماعيلية ، وأنخن فيهم السلطان محمد بن ملكشاه ، وأفنى جموعهم في أنحاء أصبهان ، وحاصر ابن عطاش في شاه در ، واستبسل الإسماعيلية في الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئاً ، ووقعت القلعة أخيراً في قبضة السلطان ، وأسر ابن عطاش وآله ولقوا أروع موت .

وليس من موضوعنا أن نتبع أدوار هذه المعركة التي اضطرت في فارس بين

(١) الروضتين في تاريخ الدولتين ج ١ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ ، وكلاهما يبدى في روايته أن نظام الملك توفي قتيلاً بيد الباطنية . وابن خلدون صريح في أن القتل تم بتحريض الحسن . ولكن ابن الأثير يقدم لنا في ذلك رواية أخرى (ج ١٠ ص ٧٠ و ٧١) .

الإسماعيلية والأمراء السلاجقة وخلفائهم التتار . ويكفى أن نقول إنها استطالت زهاء قرن ونصف بسط الإسماعيلية خلالها حكم إرهاب حقيقى على الأنحاء الشمالية ، ولم يظفر السلاطين بالقضاء على دولتهم المروعة إلا بعد جهود جبارة متوالية ، فى ذلك الحين كان الحسن الصباح ممتنعاً فى أَلَمُوت معقله ومركز سلطانه ؛ وكان صعوده إلى « أَلُوت » بدءاً مرحلة جديدة فى حياته وحياة طائفته . ومن ذلك الحين ينتظم الإسماعيلية إلى دولة حقيقية ، ويغدو الحسن الصباح زعيماً لدولة دينية سياسية . دولة من نوع خاص يتمتع زعيمها قبل كل شئ بصفة الإمامة الروحية ، ويستند إلى قوة خفية غير ظاهرة ، قوامها جيش من الدعاة والفدائيين المتعصبين ، يتشحون بأثواب من الزهد والورع ، ويعتمدون على غزو الأذهان والعقول ، وعلى سلاح المؤامرة والغيلة ، ويؤيدون تعاليمهم الخفية بالخناجر المستورة ، ومثلهم الفلسفية والروحية بأعمال عنف مروعة . والواقع أن دولة الإسماعيلية الباطنية لم تكن سوى جمعية سرية هائلة ، وضع الحسن نظمها ومبادئها المدهشة ، ولبت أعواماً طويلة برعاها ويوطدها فى عزلته ، حتى غدت قوة عظيمة تحث آثارها العميقة فى حوادث العصر وتطوراتها .

وقد وضع الحسن قواعد مذهبه ومبادئ طائفته بالفارسية ، فى عدة رسائل فلسفية كلامية نقل إلينا خلاصتها مواطنه ومعاصره الفقيه والمتكلم البارع أبو الفتح الشهرستانى^(١) فى كتابه « الملل والنحل » . وقد عاش الشهرستانى فى ذلك العصر المضطرب الحافل بالحروب والثورات الداخلية ، وعاصر حركات الإسماعيلية ووثباتهم فى فارس ، وعاصر إمامهم الحسن منذ « صعوده » إلى أَلَمُوت حتى وفاته ، ونقل إلينا تعاليمه قبل أن تمتد إليها يد التغيير والتبديل . وإليك خلاصة هذه التعاليم التى جعلها الحسن دستوراً لدعوته ، والتى تدلى بكثير من الطرافة فى الابتكار والمحاجة .

يقول الحسن بوجوب الدعوة إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان ومكان . وإن الفرقة الناجية تتميز من سائر الفرق بأن لها إماماً وليس لغيرهم إمام . ويقول

(١) كان مولد الشهرستانى فى سنة ٤٦٧ هـ ووفاته سنة ٥٤٨ هـ بشهرستان من أعمال خراسان .

فى معرفة البارئ بضرورة استعمال العقل والنظر إلى جانب المعلم الصادق ، وإن الناس فى ذلك فرقان ، قالت الأولى بوجوب الاستعانة فى معرفة الله بالمعلم الصادق ، وإنه لا بد من معرفته أولاً والظفر به ثم التعلم منه . وقالت الثانية بالأخذ فى كل علم من معلم وغير معلم ؛ وإن الحق مع الفرقة الأولى فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين ، وإذ تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية ، فروسائهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين . قال وبالاختياج عرفنا الإمام ، وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج كما بالحواز عرفنا الوجوب أى واجب الوجود ، وبه عرفنا مقادير الحواز فى الحائزات .

ثم يقول الحسن إن فى العالم حقاً وباطلاً ، وإن علامة الحق هى الوحدة وعلامة الباطل هى الكثرة ، وإن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأى ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الإمام ، والرأى مع الفرق المختلفة ، وهى مع رؤسائها . وجعل الحق والباطل ، والتشابه بينهما من وجه ، والتمايز بينهما من وجه ، التضاد فى الطرفين ، والترتب فى أحد الطرفين ميزاناً يزن به جميع ما يتكلم فيه ، ووزن بذلك الخير والشر ، والصدق والكذب ، وسائر المتضادات ؛ وطريقته أن يرجع فى كل مقالة وكلمة إلى إثبات المعلم ؛ وأن التوحيد ، هو التوحيد والنبوة معاً ، حتى يكون توحيداً ؛ وأن النبوة هى النبوة والإمامة معاً حتى تكون نبوة . ولم يتعد فى مسألة الألوهية قوله : إن إلهنا هو إله محمد ، وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ، والرسول هو الهادى إليه . وقد منع الحسن العامة عن الخوض فى العلوم ، وكذلك الخاصة عن مطالعة كتبه المتقدمة إلا من استطاع منهم فهمها .

هذه خلاصة الآراء والمبادئ التى أقام عليها الحسن الصباح دعوته ، وجعلها دستوراً لطائفته ، وقد ذكر لنا الشهرستانى بعد إيرادها ، أنه كثيراً ما ناظر القوم أى الإسماعيلية فى هذه المقدمات . فلم يظفر منهم بباطل ، وأنه كثيراً ما نعى عليهم التسليم والتقليد دون الحاجة والإقناع^(١).

وليس من موضوعنا أن نناقش هذه الآراء والمبادئ فذلك شأن المتكلمين ، وقد ناقشوها فى مواطن كثيرة . وقد وضع الغزالى مواطن الحسن ومعاصره ، رسالة خاصة فى تفنيد مبادئ الإسماعيلية الباطنية أسماها « فضائح الباطنية » ، وحمل

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ - ٣٦ .

فيها عليهم وعلى مبادئهم حملة شديدة ، ووصف مذهبهم إجمالاً فيما يأتي : « أما الحملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعترىها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظر من الاختلافات ، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستنصر ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق ويكشف عن المشكلات ، وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام معصوم يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين . هذا مبتدأ دعوتهم . ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين في فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاتة لإمامهم » . ثم يقول : « والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ، ورفع الحجاب ، واستباحة المحظورات واستحلالها ، وإنكار الشرائع ، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم » (١) .

* * *

كانت هذه الدعوة الفلسفية الكلامية تمثل في برنامج الحسن جانبه المعنوى والنظري فقط . أما الجانب العملي فكانت تحلوه ثورة إلحادية حقيقية ؛ وكان شعار الحسن الخفي الواقعي : « أنه لا شيء حق ، وكل شيء مباح » . بيد أنه كان يتشع بثوب من الورع الفياض ، ويسبغ على آرائه وخططه صبغة دينية عميقة ، ويستظل بلواء الإسلام الحق والإمامة المقدسة ، ويتظاهر بأنه لا يبغي سوى توطيد كلمة الدين وقمع البدع والضلال . وكان النظام السري المدهش الذي وضعه لطائفته أنفذ أسلحته وأمضاها . وكانت الطائفة تتدرج في مراتب سبع سرية على رأسها الرئيس أو السيد أو الشيخ ، وهو اللقب الذي اختاره الحسن وآثره على ألقاب الملك والإمارة ، وعرف فيها بعد « بشيخ الجبل » نظراً لامتناع الشيخ في قلعة الحبلى الشاهقة . ويلي الشيخ ، المقدمون فالدعاة فالرفاق فالقلائدون ، وهم عماد الطائفة وسر قوتها ، وسيفها المشهور دائماً على أعناق خصومها ، ثم الحراس والمحاربون ثم التلاميذ . ولا يقف أهل المراتب الأخيرة على شيء من أسرار

(١) الغزالي في رسالة فضائح الباطنية التي نشرت بعناية المستشرق جولدميهر ، ومهد لها بمقدمة طويلة بالألمانية ، وطبعت في ليدن (سنة ١٩١٦) ص ٨ و ١٥ .

الدعوة وغاياتها ، ولا يقف عليها سوى كبار المقدمين والدعاة ، وأهل المراتب الصغرى آلات صماء توجه حثيثاً وكيفما أريد .

وقد استعان الحسن في تنظيم طائفته بخبرة واسعة بالناس والطبيعة البشرية ؛ وكان يعرف حق المعرفة ما يمكن اجتناؤه من الدعوة السرية ، وما جناه الفاطميون بواسطتها من الظفر والسلطان ، فكانت وسيلته وسلاحه النافذ في تأييد هيئته وسلطانه . وكان يعلم من دراسة عميقة للسياسة والتاريخ ، أن الإلحاد والفساد الخلقي قد يعاونان أحياناً على إسقاط أسرة ، ولكنهما لا يعاونان قط على تأسيس أخرى . وقد تفيد القوضى المحكومين أحياناً ، ولكنها يجب ألا تكون قط غاية الحكام ، وأن الكتلة التي تخضع لواحد أو أكثر لا يمكن قيادتها إلا بقوانين وأصول أخلاقية ودين مستنير ؛ فهذه وحدها كفيلة بطاعة الشعوب وسلامة الأمراء (١) .

وعاش الحسن في ألمات في عزلة مطبقة ، يؤلف كتب الدعوة ، ويسهر على مصاير طائفته وسلطانه . وفي عهده ازدهرت الطائفة واستطاعت بسلسلة من المغامرات والمعارك المتواصلة أن تبسط سلطانها على عدد من الحصون والمعاقل القوية في العراق والشام . وغدا الإسماعيلية في الواقع قوة سياسية بحسب حسابها ولا سيما في فارس . ولما استفحل أمر الطائفة هب الأمراء السلاجقة إلى محاربتها وسحقها كما رأينا . وانتهت المرحلة الأولى من النضال بسحقهم وزوال نفوذهم من منطقة أصبهان . أما الحسن فلبث ممتنعاً في ألمات يعمل على توطيد نفوذه في منطقة رودبار . ولما وقع الخلاف بين أبناء ملككشاه على الإسماعيلية على توسيع نفوذهم ، وأثخنوا في تلك الأنحاء وقطعوا طرق القوافل ، وأسرفوا في الاعتداء والسفك والنهب ، وبسط الحسن في تلك الأنحاء حكم إرهاب حقيقي ؛ فاستغاث الناس بالسلطان ، وحاول السلطان أن يدعو الحسن إلى طاعته بالحسن . وهنا يروى أن الحسن حينما وفد عليه رسول السلطان يدعوه إلى طاعته ، دعا أمامه باثنين من رجاله وأمر أحدهما أن يغمد خنجره في قلبه ، وأن يلقي الثاني بنفسه من أعلى الحصن ، ففعلوا في الحال وهلكا على الأثر . ثم قال الحسن للرسول : قل لمولايك يطيعني هكذا سبعون ألفاً من الرعايا المخلصين .

(١) فون هامار Von Hammer في كتابه عن الإسماعيلية أو الحشيشية Geschichte der

فعندئذ سیر السلطان ، وهو يومئذ محمد بن ملكشاه ، جنده لمحاربة الإسماعيلية والاستيلاء على ألمات معقلهم ، وتوالت حملاته عليهم ، ولكنهم استطاعوا هزيمتها جميعاً . فلم ير السلطان بداً من أن يشهر عليهم حرباً عظيمة ؛ فأرسل إليهم في سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) جيشاً ضخماً بقيادة الأمير أنوشتكين شريك فهاجمهم واستولى على عدة من قلاعهم . وغادر الإسماعيلية الحصون المفتوحة إلى ألمات فغصت بهم ، وجمع الحسن قواته واستعد للمعركة الحاسمة . ثم سار أنوشتكين إلى ألمات ، وضرب حولها الحصار الصارم ، وبني حولها المساكن لجنده . وطال الحصار أعواماً ؛ ولقي الإسماعيلية أهوالاً في جاب الأقوات والمؤن ، وأشرفوا على الهلاك ، وهددهم شيخ الموت جوعاً ، وكاد اليأس يحملهم على التسليم ؛ ولم ينقذهم من القضاء المحتوم سوى موت السلطان محمد (٥١١ هـ) . وعندئذ اضطر أنوشتكين أن يرفع الحصار وأن يرحل ؛ فطارد الإسماعيلية مؤخرته ، واستولوا على ما خلفه من الأقوات والأغلاب ، وقويت بذلك نفوسهم وآمالهم ، وعاد سلطانهم كما كان خطراً مروعاً .

- ٣ -

إلى ذلك الحين قطع الحسن في ألمات منذ استيلائه عليها زهاء ثلاثين عاماً ، يوطد زعامته الدينية وسلطانه السيامي ببراعة مدهشة . وكان يحرص جد الحرص على إمامته الدينية ويحيطها بجميع المظاهر الصارمة المؤثرة ، وكان يعيش في منتهى التقشف ، ويشد في تطبيق أصول الدين وفرائضه ، ويسود الزهد المطبق والطاعة العمياء كل مكان ، وتحرم الخمر والموسيقى وكل الملاذ والملاهي الدنيوية المحرمة . وكان الشيخ أو شيخ الجبل (وهو اللقب الذي اتخذ الحسن) يرتدى دائماً البياض على طريقة المبيضة ، ويرتدى الرفاق والفدائية أثواباً بيضاء وأحذية وأحزمة حمراء . وكان يلزم معقله طوال السنين لا يغادره مطلقاً ، بل يقال إنه مدى إمامته في ألمات وقد طالت خمسة وثلاثين عاماً ، لم يظهر في شرفة قصره أكثر من مرتين^(١) .

وعاش الحسن طويلاً بعد أهله وصحبه جميعاً ، وسقط معظم أكابر دعائه صرعى الخناجر ؛ وفي أواخر حياته شاب الوحشية طباعه ، وتفاقت صرامته

(١) مذكرة مسيو چوردان المشار إليها .

وقسوته ، حتى أنه قتل ولديه بيديه ، أولهما وهو « الأستاذ » الذي كان يرجى أن يخلفه في رئاسة الطائفة ، لأنه اتهم بالاشتراك في مقتل حسين القيني مقدم قوهستان ، وهو من خاصة الدعاة المقربين ، والثاني لأنه شرب الخمر . بيد أنه لا ريب أن هناك بواعث أخرى حملت الحسن على هذه الصرامة الدموية ، وربما خشي من دسائس ولديه ، وقد سبها حكمه الطويل ، ويثسا من تولى السلطة مكانه ، وربما رآهما الحسن غير خليقين بخلافته ، في رئاسة تقتضي كثيراً من المواهب والصفات الرفيعة فاعتزم أن يسحق الأسرة ، وأن يترك خلافته للأصلح من دعائه . ذلك أن روابط الدم والقرابة لم يكن لها كبير حساب في جماعة توثق روابطها قبل كل شيء بأواصر الجريمة والدم المسفوك (١) .

ويقول لنا فون هامار في هذا الموطن : « إن الحسن كان جامداً خلال سلطانه ، ولكنه كان يدفعه إلى أطراف خراسان والشام . وكان يوجه بقلمه خناجر أتباعه الفدائية . وكان أداة رائعة للقدر ، كالوباء والحرب ، كارثة على الملوك الضعفاء ، والشعوب المنحلة » .

وقد ترك لنا المؤرخ الفارسي « ميرخوند » في كتابه « روضة الصفاء » نبذة طويلة عن تاريخ الإسماعيلية في فارس ؛ وأهمية روايته في أنها منقولة عن التاريخ الذي وضعه الوزير عطاء الملك وزير السلطان هولاكو عن الإسماعيلية ، منقولا عن كتبهم وأوراقهم بعد أن سقطت أَلَمُوت في يد السلطان ، ولقى الإسماعيلية مصرعهم في فارس سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . وتاريخ ميرخوند هو مرجعنا في كثير من الوقائع والتفاصيل التي أوردناها (٢) .

* * *

وتوفي الحسن الصباح في أَلَمُوت سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) بعد أن حكم خمسة وثلاثين عاماً وقد أشرف على التسعين من عمره . وكان الحسن كما رأيت رجلاً من أفذاذ الرجال ، ومغامراً يفيض ذكاء وجراً وإقداماً ؛ وكان مفكراً من أعظم مفكري عصره . وقد شق إلى الرئاسة والملك طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر ، فذل وعره وصعابه بدهاء وبعد نظر ، وثاقب

(١) فون هامار . المصدر السابق ذكره .

(٢) مذكرة مسيو چوردان المشار إليها .

معرفة بالناس والحوادث ، وإذا كان قد لحأ في تحقيق خططه وغاياته إلى وسائل مروعة ، وأساليب مثيرة يأبأها الولاء والشرف والخلق الأمثل ، فهو لم يكن في ذلك إلا مطبقاً لنوع من السياسة المكيافيلية ، قبل عصر المكيافيلية ، وهي سياسة لا تحجم اليوم عنها ولا تأنف من اتباعها في عصرنا دول عظيمة قوية ، وإذا كان قد اختار هذه الأساليب الدموية لإنشاء دولته وتوطيد سلطانه ، فإنه لم يكن يقصد فيما يرجح أن ينحدر الإسماعيلية إلى ذلك المعترك الإجرامى الذى انحسروا إليه على يد خلفائه ، حتى غدلوا غير بعيد جمعية من المغامرين والقتلة السياسيين الذين لا تحلوهم أية غاية مثلى .

وتنوه الرواية الإسلامية بشجاعة الحسن وقوة رأيه ، وبراعته في مختلف العلوم والفنون (١) ؛ ويعتبره المستشرق فون هامار عبقرية عظمى .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٢ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ٢١٤ .

الملك الناصر صلاح الدين

(٥٣٢ - ٥٨٩ هـ) - (١١٣٧ - ١١٩٣ م)

هى شخصية من ألمع الشخصيات فى تاريخ الإسلام ، وتاريخ الشرق الإسلامى . وهى لا تسطع فقط ببطولة صاحبها ، وأعماله العظيمة ، ولكنها تسطع أيضاً بخلاله الشخصية ، ونوازهه الإنسانية المؤثرة . تلك هى شخصية الملك الناصر صلاح الدين .

ظهر صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، فى وقت اضطربت فيه أحوال مصر ، وأحوال الشرق الإسلامى بصفة عامة ؛ وكانت الدولة الفاطمية المصرية معقل الشرق الأوسط ، قد بدت عليها أعراض الوهن قبل ذلك بنحو قرن ، وبدأ الغرب عدوانه المنظم على المشرق ، وجاء الفرنج الصليبيون فغزوا بسائط الشام وثغوره ، وافتتحوا بيت المقدس ، وأقاموا المملكة اللاتينية فى قلب الشرق الإسلامى (سنة ١٠٩٩ م) . رمزاً لعدوانهم ، وتمهيداً لمشاريعهم فى استعباد شعوبه ، والقضاء على تراثها الروحى والحضارى .

وكان الأمراء السلاجقة من جهة أخرى ، قد دفعوا فتوحهم شرقاً نحو الشام ، واستولى عاهلهم عماد الدين زنكى أتابك الموصل على حلب ، واشتبك مع الصليبيين فى معارك عديدة ، وانتهى بأن انتزع منهم مدينة الرها (سنة ١١٤٤ م) . ولما توفى بعد ذلك بعامين ، خلفه ولده نور الدين محمود ، وحذا حذوه فى مقارعة الصليبيين ، ثم استولى على دمشق فى سنة ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ) من صاحبها مجير الدين أرتق ، وهو أيضاً من الأمراء السلاجقة ، وكان أميراً ضعيفاً ، وكان الفرنج الصليبيون يطمحون إلى امتلاكها ، وقد هاجموا بالفعل قبل ذلك ببضعة أعوام ، وكان نور الدين ينحسب وقوعها فى أيديهم ، فكان استيلاؤه عليها ضرورياً لحمايتها ، وتأمين شمالى الشام من عدوانهم . وبذا قامت فى تلك المنطقة مملكة إسلامية قوية ، تسهر على حركات المملكة اللاتينية ، وحركات الصليبيين .

في تلك الآونة ، كانت مصر تعاني في ظل الخلافة الفاطمية المحتضرة ، أشنع ضروب الضعف والفضي . وكان الأواخر من الخلفاء الفاطميين ، قد غدوا أشباحاً ، في ظل نفر من الوزراء الطغاة ، وغدا القصر الفاطمي مسرحاً للقتل والغيلة . فتولى الخلافة في سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) الظاهر بأمر الله ، ثم توفي مقتولاً بعد ذلك بخمسة أعوام ، بعد أن قتل وزيره الطاغية ابن السلار المتسمى بالملك العادل . وخلفه ولده الطفل ، الفائز بنصر الله . وفي عهده استولى الصليبيون على عسقلان (١١٥٣ م) آخر القواعد المصرية في فلسطين . واستغاث نساء القصر بالأمير طلائع بن رزيك حاكم الأشمونين ، وكان من أقدر الرجال ، فزحف على القاهرة ، في أنصاره من القبائل العربية ، ودخلها واستولى على السلطة ، واتشح بالوزارة ، وتسمى بالملك الصالح . واستطاع بعزمه ، وقوة شكيته ، أن يعيد الأمن والنظام ، وانتعشت قوى مصر نوعاً ، واستطاعت القوات المصرية بقيادة ضرغام صاحب الباب ، أن توقع الهزيمة بالفرنج الصليبيين على مقربة من غزة (١١٥٨ م) .

وكان الصالح بن رزيك ، يرى دفعاً للخطر الصليبي ، أن تتحد مصر والشام ، في محالفة دفاعية هجومية ، وأرسل سفراء بذلك إلى نور الدين ، ولكن مسعاه لم يثمر ، لأن نور الدين لم يكن لديه ثقة كافية ، بقوة مصر ومشاريعها . وتوفي الخليفة الطفل في سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م) ، فأقام الصالح مكانه في الخلافة العاضد لدين الله ، وكان أيضاً طفلاً في التاسعة . ولكن لم يمض سوى القليل حتى قتل الصالح ، بدمية من نساء القصر ؛ فخلفه ولده العادل رزيك واستولى على مقاليد السلطة . وبدأت من شاور بن مجير السعدي ، وإلى قوص ، أو الوجه القبلي إمارات الانتقاض ، فعزله العادل ، فرفض العزل ، وحشد جمعاً كبيراً من أنصاره ، وسار إلى القاهرة ، فهزم العادل وقتل ، واستولى شاور على الوزارة ، وكان ذلك في أوائل سنة ١١٦٣ م (٥٥٨ هـ) .

ولكنه لم يلبث طويلاً حتى ثار به ضرغام بن عامر اللخمي صاحب الباب : وانتزع منه السلطة وتسمى بالملك المنصور ، ففر شاور إلى الشام ، واستنصر بملكها نور الدين ؛ وتردد نور الدين في البداية ، ولكن الفرنج انتهزوا تلك الفرصة ، وزحفوا على مصر بقيادة ملكهم أمالريك ؛ وبالرغم من أنهم ردوا

في البداية على يد ضرغام ، فإن الأنباء ترامت إلى نور الدين بأن ضرغام يحاول الاتفاق والتحالف مع الفرنج ؛ وخشية من أن ينجح الفرنج في الاستيلاء على مصر ، بادر نور الدين فجهز قوة كبيرة من « الغز » التركمان ، أرسلها إلى مصر مع شاور ، وكان يقودها أسد الدين شيركوه بن شادى ، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فوصلت إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (مايو سنة ١١٦٣ م) .

وهنا ، ولأول مرة ، يذكر التاريخ صلاح الدين في حوادث مصر . وكان هذا الفتى الذى قدر له أن يغلو من أعظم رجالات التاريخ ، وأن يكتب على يديه إنقاذ الشرق والإسلام من عدوان الصليبيين وعدوان الغرب ، يومئذ في السادسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) بقلعة تكريت الواقعة على نهر دجلة ، بين بغداد والموصل . وهو يوسف بن أيوب بن شادى ، وقد كان جده شادى هذا من الأكراد الروادية ، وأصلهم من بلدة دوين من أعمال بلاد الكرج ، وكان له ابنان أكبرهما نجم الدين أيوب ، ثم أسد الدين شيركوه ؛ فسارا إلى العراق والتحقا بخدمة مجاهد الدين بهروز ، صاحب الشرطة من قبل السلطان مسعود السلاجوقى . ثم عين بهروز نجم الدين أيوب حاكماً لقاعة تكريت ، وكانت إقطاعاً له لما رآه من حزمه وعقله ؛ وفي تكريت رزق أيوب بولده صلاح الدين . ثم وقعت النفرة بين بهروز وبين وبين الأخوين ، لاتهمه إياهما بمعاونة خصمه عماد الدين زنكى صاحب الموصل ، فغادرا تكريت وقصدا إلى عماد الدين ، فأكرم وفادتهما وضمهما إلى جنده . ولما افتتح عماد الدين بعلبك عين نجم الدين أيوب حاكماً لها ؛ ولما قتل عماد الدين وخلفه ابنه نور الدين محمود فى الملك ، التحق الأخوان بخدمته . وأبدى شيركوه بالأخص فى خدمته غيرة ، وبرز بشجاعته وبراعته العسكرية فى كثير من الوقائع ، فجعله نور الدين مقدم جنده ، وهكذا احتل كل من الأخوين فى بلاط دمشق مكانة رفيعة ونعم بالسلطان والنفوذ .

ونشأ صلاح الدين يوسف فى كنف أبيه أيوب ، فى مهاد الكفاح والفروسية ، ولكنه نشأ فى نفس الوقت فى مهاد العلم والتقى ، وظهرت عليه منذ حداثة محائل الهممة والنجابة ؛ ولما بلغ أشده ، كان إلى جانب أبيه فى خدمة نور الدين .

ولما سار معه شيركوه في قوات الشام إلى مصر سنة ٥٥٨ هـ ، كان من أكابر ضباط الحملة . وكان ضرغام أو الملك المنصور أثناء ذلك ، قد استبد بالدولة وأسرف في قتل منافسيه من الزعماء والأكابر ، فلما علم بمقدم عساكر الشام مع شاور ، سار في قواته لقتالهم ، واشتبك الفريقان في معركة شديدة في ظاهر بلبس ، هزم فيها ضرغام ؛ فارتد في فلوله إلى القاهرة ، فسار شاور في قوات الشام في أثره ، واستولى على القسطنطينية ؛ واعتصم ضرغام بالقاهرة ، ولكن معظم جنده انفض عنه ، وتخلّى عنه الخليفة العاضد ، وأخيراً هاجمته جموع الدهماء فأخذ وقتل ، (رمضان ٥٥٨ هـ) ، ودخل شاور القاهرة واسترد سلطانه .

ولكن شاور ما لبث أن تنكر لشيركوه ، ونكث بعهوده لنور الدين . وثار الخلاف بين الحليفين ، فبعث شيركوه ابن أخيه صلاح الدين في بعض قواته ليحتل بلبس والشرقية ؛ واستنصر شاور بالفرنجة الصليبيين ، وزحفت جموعهم مرة أخرى على مصر ، ووقعت بين قوات شاور وحلفائه الفرنج ، وبين شيركوه وقائع عديدة ، وبادر نور الدين بمهاجمة فلسطين من الشمال ، ليرغم الفرنج على الانسحاب من مصر ، ونجحت هذه الحركة فعقد الفريقان الهدنة ، وارتد شيركوه بقواته إلى الشام .

وعقد شاور النية على الاستمرار في مخالفة الفرنج ، والاستنصار بهم خوفاً من مطامع نور الدين في مصر ، وعقد نور الدين النية من جهة أخرى على ألاّ يمكن الفرنج من الاستيلاء على مصر ، إذ يصبح ذلك كارثة عليه وعلى للشرق الأوسط كله ؛ وكان شيركوه قد خبر أحوال مصر وأدرك أنها بضعفها وتفككها ، تغلو غنماً هيناً ، ووصفها لنور الدين بأنها « مملكة بغير رجال » ، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال .

وأخذ نور الدين وشيركوه يدبران الخطط للاستيلاء على مصر ، وشاور من جانبه يدبر الخطة لاستقدام الفرنج والاستعانة بهم . وأخيراً اعتزم نور الدين أمره ، وبعث قواته إلى مصر بقيادة شيركوه وصلاح الدين ، فوصلت إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٧ م) . وزحف الفرنج على مصر في نفس الوقت استجابة لنداء شاور ، ووصلوا إلى القسطنطينية ؛ ووصلت عساكر الشام من طريق الضفة الأخرى من النيل ، وعسكرت بالجيزة قبالة الفرنج .

وعقد ملك الفرنج أمالريك مع الخليفة العاضد ، معاهدة يتعهد فيها الخليفة بأن يدفع للفرنج تعويضاً قدره مائتا ألف قطعة من الذهب ، ومثلها فيما بعد ، نظير النفقة لرد العدو . ثم وقعت على أثر ذلك عدة وقائع بين الفرنج والمصريين وبين جند الشام ، أولاً على مقربة من المنيا حيث هزم الفرنج ، وثانياً حول الإسكندرية حيث سار شيركوه فاحتلها ، وعهد بالدفاع عنها إلى صلاح الدين ؛ ثم سار إلى الوجه القبلي ليجمع الإتاوات . وبالرغم من أن الفرنج وجند شاور حاصروا الإسكندرية من البر والبحر بشدة ، فإنها صمدت للحصار ، حتى جاءت الأنباء بعودة شيركوه ، وبأنه أضحي على أبواب القاهرة ، فعندئذ آثر الفرنج عقد الهدنة ، واتفق الفريقان على أن تترك مصر للمصريين ، وأن ينسحب شيركوه والفرنج كل إلى أراضيه .

وعاد شيركوه ببقية جنده إلى الشام ؛ ولكن أمالريك لم يف بعهوده في الجلاء التام ، فتركوا في القاهرة نائباً عنهم ، وأصروا على أن يتولى حراسة أبواب القاهرة رجال منهم ، وزادوا في مقدار الإتاوة التي يجب أن يؤدبها شاور . وفضلاً عن ذلك فإن أمالريك كانت تحلوه في الواقع ، ففكرة في الاستيلاء على مصر جملة ، وخصوصاً بعد أن مهدت له السبل لذلك . ومن ثم فإنه لم يمض عام ، حتى سار أمالريك على رأس قواته مرة أخرى إلى مصر يريد افتتاحها ، فوصل إلى بلبليس في شهر نوفمبر سنة ١١٦٨ م (صفر سنة ٥٦٤ هـ) وقتل أهلها جميعاً .

وعندئذ أدرك شاور ، وأدرك أهل مصر ، ما ينطوى عليه التحالف مع الفرنج من الغدر والأخطار ، وبعث شاور إلى نور الدين وشيركوه يستصرخهما ، لإرسال العساكر لإنجاده ، وإنقاذ مصر من الفرنج . وأدرك نور الدين بدوره ، أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشروعه نحو مصر ، فأرسل شيركوه إلى مصر للمرة الثالثة على رأس جيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل ، من الحرس والغز ، ومعه صلاح الدين . وكان شاور في تلك الأثناء قد حشد قواته لمدافعة الفرنج ، وأحرق مدينة القسطنطينية لكي يحمي القاهرة ، واستمر الحريق أربعة وخمسين يوماً ، وأخذ في نفس الوقت في مفاوضات أمالريك وإغرائه بالوعود والأموال ؛ وبينما كان الفرنج على مقربة من القاهرة يرقبون الفرصة لاقتحامها ، إذ وصلت

عساكر الشام فى شهر ديسمبر سنة ١١٦٨ م (ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ) ،
واتصلت فى الحال بعساكر مصر ، وعندئذ أدرك أمالريك خديعته ، وخرج
مركزه ، فارتد بجنده عائداً إلى فلسطين دون أن يشتبك مع خصمه فى أية
موقعة ، ودخل شيركوه القاهرة ظافراً ، وتلقاه أهل مصر بالغبطة والإكرام ،
واستقبله الخليفة العاضد ، وخلع عليه ، وأظهر له شاور منتهى المودة . ولكن
هذا الوزير المتقلب الماكر ، لم يكن فى قرارة نفسه ، مطمئناً لنيات شيركوه ،
وكان شيركوه من جهة أخرى ، أبعد من أن يثق بولاء شاور وصدق نياته
ووعوده ، ويرى أنه لا سبيل لتحقيق غايته من استخلاص مصر ، إلا إذا
اختفى شاور من الميدان ؛ وهكذا كان كل يتربص بالآخر . وأضمر شاور
أن يفتك بشيركوه وأصحابه ، فى مأدبة يقيمها لهم ، وكان يذهب فى موكبه
وحرسه إلى مخيم شيركوه على النيل ، من آن إلى آخر ؛ ونمى إلى شيركوه
ما يضمره الوزير الغادر ، فأضمر من جانبه القضاء عليه ؛ وفى ذات يوم جاء
شاور فى موكبه كالعادة إلى مخيم شيركوه ، ولم يكن شيركوه هناك ، ففاجأه
صلاح الدين وعز الدين جورداك ، وقبضا عليه ، وفر أصحابه . وعلم الخليفة
العاضد بذلك ، فأرسل إليهم يطلب إعدام شاور ، فأجدم فى الحال ، وأرسل
رأسه إلى الخليفة ، وذلك فى يوم ١٧ ربيع الثانى سنة ٥٦٤ هـ ، وانتهت بذلك
حياته المليئة بالمغامرات والدسائس .

وعلى أثر مقتل شاور ، استدعى العاضد أسد الدين شيركوه ، وخلع عليه
أثواب الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير الحيوش . ولكن شيركوه لم يملك
طويلاً فى هذا المنصب ، إذ توفى بعد ذلك بنحو شهرين فقط فى ٢٧ جمادى الثانية
من نفس العام . وعندئذ استدعى العاضد ابن أخيه صلاح الدين ، وخلع عليه
خلعة الوزارة ، ولقبه بالملك الناصر ؛ وكان العاضد يعتقد أن صلاح
الدين أضعف جانباً من عمه ، وأنه لا يتمتع فى العسكر بمثل نفوذه ، وأنه
يستطيع أن يسيطر عليه دون صعوبة ، ثم يضع على رأس الجند من يستميلهم
إلى جانبه .

ولكن العاضد كان واهماً فى ظنه . ذلك أن صلاح الدين ما كاد يتسلم زمام

الأمر ، حتى حجر على العاضد ، ومنعه من كل تصرف ، ونزع رجال الدولة المصريين كل سلطة ، واستقدم أباه وأخوته وسائر أهله من الشام ، وولاهم مناصب النفوذ والثقة ، وأخذ دور الأمراء الفاطميين وإقطاعاتهم ووهبها لأصحابه ؛ وأمر بأن يدعى في الخطبة للسلطان نور الدين بعد العاضد ، وعهد إلى استصفاء أموال العاضد وموارده بالطلب المستمر ؛ وهكذا تبين ما يرمى إليه صلاح الدين من القضاء على الخلافة الفاطمية ، وعلى دولة القواطم . وحملت هذه التصرفات بعض رجال القصر الفاطميين وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة أحد الأساتذة المحنكين ، على تدبير مؤامرة لاستدعاء الفرنج ، والقضاء على سلطان صلاح الدين ، فضبطت المؤامرة ، وقتل مؤتمن الخلافة ، فثار لمقتله الحند المصريون ، وطوائف الحرس السودانيين ، وانضم إليهم كثير من العامة ، واحتشدت منهم ألوف عديدة في ميدان بين القصرين ، وحاولوا الزحف على دار الوزارة ، فجرد عليهم صلاح الدين قوات الغز ، ونشب القتال بين الفريقين ، حتى انهزم السود ومزقوا ، وأبعدت فلولهم إلى الصعيد (ذو القعدة ٥٦٤ هـ — ١١٦٩ م) ، وهكذا تلاشى أمر العاضد بالقضاء على الحرس الخلفي ؛ واستمر صلاح الدين في خطته للقضاء على رسوم الدولة الفاطمية ومعالمها ، فعزل قضاة الشيعة ، وقلد القضاء الأعلى لقاض شافعي ، وجعل نوابه من القضاة الشافعية ، وأبطل من الأذان « حى على خير العمل » ، ووضع يده على القصور الفاطمية ، وسائر محتوياتها ، وعين على حراستها أمينه الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وجرد العاضد وجميع أفراد أسرته من أموالهم وأمتعتهم ، وضيق على سائر أهل القصر ، ثم كانت الخطوة الأخيرة ، بقطع الدعاء للخلافة الفاطمية ، والدعاء للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى ، وذلك تنفيذاً لأوامر السلطان نور الدين . وكان ذلك في السابع من المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . وتوفى الخليفة العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام ، دون أن يدري بأمر هذا القرار الحاسم ، الذى قضى على آخر رسوم الخلافة الفاطمية ، وبه اختتمت حياتها .

ولما توفى آخر الخلفاء الفاطميين ، استولى صلاح الدين على القصور الفاطمية ، وأخرج منها أهل العاضد ونساء وحاشيته ، ونقلهم إلى أمكنة أخرى ، واعتقل أبناءه وعمومته وأبناءهم في إيوان بالقصر ، وأخرج العبيد والجواري ، فأعتق

البعض ، وباع البعض الآخر ، وأخرجت المكتبة الفاطمية العظيمة من أروقتها ، وأعطى صلاح الدين معظم محتوياتها لصديقه وكتابه القاضي عبد الرحيم بن علي اليماني ، المعروف بالقاضي الفاضل ، وبيع الباقي ، وأخرجت سائر محتويات القصور والخزائن الخلافية ، فوجد فيها من الذخائر والجواهر النفيسة ، وفاخر الأثاث والرياش والكسوة ، ما لا يحيط به وصف ، واستصنى ذلك كله ، بالهبة والبيع ، حتى غدت تلك القصور العظيمة ، التي لبثت أجيالا مضرب الأمثال في البذخ والفخامة ، قاعاً صفصفاً ، وخيمت عليها أعلام الخراب والموت .

وفي أثناء ذلك كان صلاح الدين قد بدأ حملاته العسكرية الأولى ضد الصليبيين ، وكان ملك القدس الفرنجي قد سار في أسطول كبير اشترك في إعداده قيصر قسطنطينية لمحاصرة دمياط ، فهورع صلاح الدين في جنده ، وعزز حامية دمياط حتى استطاعت أن ترد كل محاولة للعدو ، وأرهب المحاصرون بالعواصف والوباء ، حتى اضطروا إلى رفع الحصار والرحيل ، (٥٦٥ هـ - ١١٦٩ م) . وفي العام التالي سار صلاح الدين في قواته صوب فلسطين ، وعاث في أحواز غزة ونهبها ، ثم سار إلى ثغر إيلة الواقع على خليج العقبة ، وانتزعه من الفرنج تأميناً لطريق الحاج ، ولجأ في ذلك إلى طريقة مبتكرة ، إذ ابتنى سفناً تحملت أجزاؤها إلى البحر الأحمر ، ثم ركب واستعملت لحمل الجند والغنم .

وفي ذلك الحين ابتدأت الوحشة بين صلاح الدين وبين السلطان العادل نور الدين . وكان المفروض أن صلاح الدين يقوم على حكم مصر باسم نور الدين وبالنسبة عنه ؛ ولكن الحقيقة أن صلاح الدين كان يجيش بنزعة استقلالية ، ويشعر أنه أحق باجتناء تراث مصر العريض لنفسه ، فلما دعاه نور الدين ليسير بقواته إلى الكرك ، حيث يعترم هو السير إليها في نفس الوقت ، ويتعاونان على هزيمة الفرنج ، اعتذر صلاح الدين عن السير إليه ، بحجة أن الموقف في مصر ما زال غير مأمون العاقبة ، وأنه يخشى انتفاض العلوية ، واضطراب النظام إذا ترك البلاد ؛ فغضب نور الدين لذلك ، ونمى إلى صلاح الدين أنه يفكر في السير إلى مصر لانتزاعها منه ، فبعث صلاح الدين نزولا على نصيح أبيه وإخوته ، إلى نور الدين يلاطفه ، ويؤكد له أنه ما زال رجله وخادمه المطيع ،

وأنه على استعداد لتنفيذ أوامره ورغباته . ثم بعث إلى نور الدين فى العام التالى هدية فخمة تحتوى على قدر عظيم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر ، ومنها ستون ألف دينار من الذهب العين ؛ ومع ذلك فإن نور الدين لبث على توجسه من موقف صلاح الدين ومشاريعه ، ورأى أن يتحقق الأمور ، فأرسل إلى القاهرة وزيره موفق الدين خالد ابن القيسرانى ، ليطالب صلاح الدين بحساب مفصل عما استولى عليه من قصور الخلفاء الفاطميين ، فقدم إليه صلاح الدين ما شاء من البيانات ، وعرفه بأموال الجند ، ومبلغ إقطاعاتهم ونفقاتهم ، ومبلغ ما يتفق فى حكم مصر وضبط أحوالها من المبالغ الطائلة . ولبث صلاح الدين وآله حيناً على تخوفهم من نيات نور الدين نحو مصر ، حتى أنهم فكروا فى السير إلى اليمن وافتتاحها لتكون لهم مئوى وملاذا ، وسار إليها بالفعل الأمير شمس الدولة أخو صلاح الدين ، وافتتحها ، ودعى فيها للخليفة العباسى ، وبعث بالخبر إلى القاهرة ثم أرسل إلى دمشق .

ولكن القدر كان يحبو صلاح الدين بتأييده وسعده . ذلك أنه لم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى توفى السلطان العادل نور الدين محمود عاهل دمشق ، وذلك فى شوال سنة ٥٦٩ هـ (مايو سنة ١١٧٤ م) وخلفه ولده الصالح إسماعيل ، وهو صبي فى الحادية عشرة من عمره ، فخطب له صلاح الدين بمصر ، وقد أمن بوفاة نور الدين القوى ، منافسته ، ومشاريعه نحو مصر ، وقرر فى الحال أن يعمل لتوحيد المملكتين .

يبد أنه اضطر أن يرجئ تنفيذ خطته قليلا من الوقت . ذلك أنه قبيل وفاة نور الدين بنحو شهرين ، وقف صلاح الدين على مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ، ورد الأمر إلى الفاطميين . وكان بين المتآمرين عدة من الزعماء العلوية . منهم القاضى المفضل ضياء الدين ، والشريف الجليس ، وعبد الصمد الكاتب ، وداعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل ، والفقيه الشاعر عمارة اليمنى ، شاعر الفواطم ومرثى دولتهم ، والقاضى الأعز ، سلامة العوريس متولى ديوان النظر ، ومعهم جماعه كبيرة من الضباط والأجناد السود ورجال الحاشية ، ومنهم بعض أتباع صلاح الدين . وقد اشتهرت هذه المؤامرة ، فى التاريخ بالأخص باسم الشاعر عمارة اليمنى ، وكان من أعظم أولياء الدولة الفاطمية ، وهو القائل فى رثاء دولتهم من قصيدة طويلة :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
يا عاذل في هوى أبناء فاطمة
بالله زر ساحة القصرين وابلك معي
وقل لأهلها والله ما التحمت
وجيده بعد حل الحسن بالعطل
سقيت مهلاً أما تمشى على مهل
على فجيعتنا في أكرم الدول
لك الملامة إن قصرت في عدلى
عليهما لا على صفين والحمل
فيكم قروحي ولا جرحى بمنديل

واتصل المتآمرون بأماريك ملك بيت المقدس ، ووليم الثاني ملك النورمان بصقلية ، ووعدهما بمبالغ طائلة من المال ، وغنائم إقليمية ، ووافق الفرنج على بذل العون المطلوب واستعدوا للتنفيذ . ولكن زعيماً من المتآمرين وشي بزملائه لصالح الدين ، فقبض في الحال على المتآمرين ، وشنقوا في ميدان بين القصرين ، وفي مقدمتهم عمارة اليمنى وزملاؤه الذين تقدم ذكرهم ، وشنق معهم جماعة من الأجناد والعبيد ، وصودرت منازلهم وسائر ممتلكاتهم ، وتبع لصالح الدين جماعة كبيرة من أولياء الدولة الفاطمية ، وقتل كثيراً منهم ، ونفى الكثير إلى الصعيد . وهكذا قضى على هذه المؤامرة الخطيرة في المهد ، ومزق حزب الفاطميين شر ممزق . وكان ذلك في رمضان سنة ٥٦٩ هـ (أبريل سنة ١١٧٤ م) .

على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن وليم الثاني ملك النورمان ، كان في تلك الأثناء قد اتخذ أهبة لغزو مصر ، أما أماريك ملك بيت المقدس ، فقد تقاعس عن العمل لما وقف عليه من فشل المؤامرة . ووصل أسطول النورمان إلى مياه الإسكندرية في أواخر شهر يولييه سنة ١١٧٤ م ، وبذل النورمان جهوداً شديدة لاقتحام الثغر وسحق حاميته ، ولكن الحامية السكندرية صمدت في وجه الغزاة ، ووردت الأنباء العاجلة بأن صلاح الدين قادم لإنقاذها على وجه السرعة . ووصلت الأمداد من القرى والبلاد القريبة ، واستطاعت الحامية بذلك أن تخرج لمهاجمة الغزاة ، ونجحت في ردهم عن أسوار المدينة ، وفي حرق آلاتهم وسفنهم ، وهكذا أدرك النورمان أنه لا أمل في النصر ، فلم تمض أيام قلائل حتى أقلعت سفنهم ، وارتدوا خائبين .

وفي هذا الوقت بالذات توفي أماريك ملك بيت المقدس ، وخلفه ولده

للطفل بلدوين ، وبذلك ركنت المملكة اللاتينية حيناً إلى السكون .

كانت وفاة نور الدين زنكى عاهل الشام ، إيداناً بتحول عظيم في مصائر الشرق الأوسط ، وكان صلاح الدين قد أدرك بتفكيره الثاقب ، ونظره البعيد ، أن الظروف التي تجوزها مصر والشام في تلك الفترة لم تكن ظروفًا طبيعية ، وأن هذه الإمارات التي انتشرت إليها الكتلة الإسلامية في مصر والشام ، لم تكن سوى دويلات ضعيفة متخاذلة ، وأشلاء مهیضة ممزقة لا يمكن أن تصمد في وجه العدو المغير ، المقتطع لبعض أطرافها ، المتغلغل فيما بين أرجائها ، ونعني الفرنج الصليبيين ، وأنه لكي يمكن أن يرد عدوان الصليبيين وعدوان الغرب النصراني عن الشرق الإسلامي ، يجب أن يتحقق أمران جوهریان . الأول : جمع كلمة الإسلام والإمارات الإسلامية في مصر والشام ، في جهة قوية موحدة ، تقودها إلى الكفاح والجهاد بنجاح ، والثاني : القضاء على المملكة الصليبية ، في بيت المقدس ، وتطهير الأراضي الإسلامية كلها من الصليبيين .

ولم يكن صلاح الدين يصدر في ذلك عن أية فكرة مستحدثة ، أو مشروع مبتكر ، وإنما كانت تحلوه في ذلك بالأخص فكرة عملية ، وسابقة تاريخية موثقة . ذلك أنه يعرف أن الدولة المصرية ، كانت منذ للقرن التاسع الميلادي أى منذ عهد الدولة الطولونية ، تشتمل على رقعة إقليمية موحدة تشمل مصر والشام ، وأن الدولة الفاطمية المنقضية كانت تسيطر على هذه الرقعة كلها ، وتمتد حدودها حتى آسيا الصغرى ، وأن الدولة المصرية لم تستطع منذ القرن التاسع أن تصمد في وجه جارتها القوية من الشمال ، ونعني الدولة البيزنطية ، إلا باجتماع كتلتها الموحدة واجتماع قواها ومواردها ، فلما ضعفت الخلافة الفاطمية واقتضت أطرافها في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، استطاع الفرنج الصليبيون أن يغزوا أراضيها بنجاح ، وأن يفتحوا بيت المقدس وثغور الشام ، واستطاع الغرب أن يدبر مشاريعه العدوانية المتوالية ، وأن يجد في مصر والشام فريسة هينة سهلة .

ومن ثم فإنه كان لزاماً ، أن يُقضى على هذا التفرق الذي ساد رقعة الوطن الموحد ، وأن تعود الكتلة الإسلامية في مصر والشام إلى سابق تماسكها ووحدتها ،

لكى تستطيع أن تصمد في وجه الفرنج الصليبيين ، كما صمدت من قبل في وجه الدولة البيزنطية ، وهذا ما اعتزم صلاح الدين أن يعمل على تحقيقه بكل ما وسع .

وما كاد الفرنج يجلبون عن الإسكندرية ، حتى تواترت الأخبار باضطراب الأحوال في الشام ، وبداية المعارك الأهلية ، فعندئذ حزم صلاح الدين أمره ، وغادر مصر إلى الشام في قوة كثيفة من الفرسان ، مستخلفاً أخاه العادل على مصر ، وأشرف على دمشق في أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فخرج الناس للملاقاته مغتبطين بمقدمه ، ودخل دمشق واحتل قلعتها ، دون مقاومة ، وذلك في مستهل ربيع الثاني . وأعلن أنه جاء لمعاونة الملك الصالح إسماعيل ، والمحافظة على مصالح المملكة ، وتدبير أمورها نيابة عنه ؛ وضبط النظام ، وفرق الأموال ، وأبطل المكوس ، اجتذاباً للشعب ؛ ثم سار إلى حمص واستولى عليها ، وزحف بعد ذلك على حلب . وكان سيف الدين غازي صاحب الموصل ، وهو ابن أخي نور الدين ، قد توجه من مقدم صلاح الدين ، واستفحال أمره على هذا النحو ، فبعث جيشاً لقتاله ، وانضمت إليه قوات الملك الصالح ، وكان قد سار إلى حلب وامتنع بها ، فلما رأى صلاح الدين تفوق خصومه ، ارتد إلى حماة واستولى عليها . وكان خصومه قد استنصروا بالكونت ريمون أمير طرابلس الفرنجي ، فسار إلى حمص لمهاجمتها ، ولكنه ارتد عنها حينما علم بمقدم صلاح الدين إليها . واستولى صلاح الدين على حمص بعد حصار قصير ، ثم التقى بعد ذلك بقوات الملك الصالح صاحب حلب وهزمها ، ثم هزم قوات الملك سيف الدين غازي في موقعة أخرى ، وانتهى الأمر بأن عقد بينه وبين صاحب حلب صلح يعترف فيه بسيادته على سائر ما بيده من بلاد الشام .

ومما هو جدير بالذكر أن خصوم صلاح الدين ، وعلى رأسهم سيف الدين غازي ، وأخوه عز الدين مسعود ، فكروا في التخلص منه بطريق الغيلة ، وعهدوا بهذه المهمة إلى سنان الجبل مقدم الإسماعيلية الباطنية في الشام ، وبعث سنان بالفعل إلى معسكر صلاح الدين ، وهو على مقربة من حلب ، بعدة من رجاله القداوية متكررين في ثياب الجند ، وتمكن بعضهم من التسلل إلى خيمة صلاح الدين ، وطعنه أجدهم بخنجره في رأسه ونخده ، فجرحه جرحاً

بالغاً ، ولكن غير مميت ، ونجا صلاح الدين من هذه المؤامرة الدموية بأعجوبة ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) .

وليث صلاح الدين في الشام زهاء عامين ، وهو يتردد بين دمشق والنواحي ويقا تل أهل حلب بين آونة وأخرى ، حتى انتهى الأمر بالصلاح ، على أن تبقى حلب وأعمالها بيد الملك الصالح . واستولى في تلك الأثناء على عدد من الحصون الحصينة ، وحاصر مصيـاب مركز الإسماعيلية فامتنت عليه ، واستقدم الجند من مصر ليستعين بها في حملاته ، ورد بعض غارات محلية للصليبيين . وكان صلاح الدين قد كتب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بفتوحاته ، وما قام به من إعادة الخطبة العباسية ، فقدمت عليه رسل الخليفة وهو بحماة ، بالتشريف والأعلام السود ، وعهد الخليفة بسلطنته على بلاد مصر والشام وغيرهما مما فتح ، ولما شعر صلاح الدين بأن الأمر قد استتب له بالشام ، كما استتب بمصر ، قرر العودة إلى مصر ، فغادر دمشق في الرابع من ربيع الأول سنة ٥٧٢ هـ ، مستخلفاً عليها أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، فوصل إلى القاهرة في السادس والعشرين من الشهر (أكتوبر سنة ١١٧٦ م) .

وكان صلاح الدين مذ تولى الوزارة أيام العاضد ، ينزل بدار الوزارة التي نزل بها من قبل عمه شركوه ، ولم ينزل قط بالقصور الفاطمية ، حتى بعد إخلالها من ساكنيها . فلما توالى المؤامرات العلوية لسحقه ، رأى أن ينشئ له معقلاً حصيناً يعتصم به ، ويكون آمناً فيه على نفسه من كيد خصومه ، من شيعة الفاطميين وغيرهم ، ويجعله مستقراً له وقاعدة لحكمه ؛ وعهد إلى وزيره القوى الحازم بهاء الدين قراقوش بتحقيق رغبته ، فتولى قراقوش إنشاء قلعة الجبل الشهيرة وذلك في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، واستمر العمل فيها بعد ذلك مدة طويلة ، ورأى صلاح الدين في نفس الوقت أن يبنى سوراً عظيماً يضم القلعة ومدينتي مصر والقاهرة ، بعد أن اتسعت أحياء القاهرة ، خارج السور الفاطمي القديم ، فتولى قراقوش أيضاً تحقيق هذا المشروع ، وأبدى في تنفيذه همة فائقة ، وهدم كثيراً من الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة تجاه مدينة مصر ، واستعملت أحجارها الضخمة في بناء السور والقلعة ، وبلغ محيط السور

الحديد بعد إتمامه أربعة وعشرين كيلومتراً^(١). وابتنى صلاح الدين أيضاً قناطر
الجزيرة العظيمة تجاه الأهرام ، وأبدى عناية خاصة بتحسين القاهرة ، وتعمير
الأسطول بالإسكندرية ، وكان قراقوش يده اليمنى في تنفيذ هذه المشاريع كلها .
على أن ألمع ما في منشآت صلاح الدين المعمارية في تلك الفترة ، هو إنشاءه
للمدارس والمستشفيات ، وهو أول من ينسب إليه فضل إنشاء المدارس بمصر .
وكانت معاهد الدراسة قبل عصر صلاح الدين تنحصر في الجوامع ، وبالأخص
في جامع عمرو والجامع الأزهر . وكان الحاكم بأمر الله قد أنشأ دار الحكمة أو
دار العلم ، وهي الجامعة المدنية الحرة التي عاشت إلى جانب الأزهر زهاء قرن ؛
ولكن دار الحكمة كانت جامعة فلسفة مذهبية ، ترمى إلى نشر الدعوة الفاطمية
الشيعية قبل كل شيء . ولما تولى صلاح الدين شئون مصر ، كان من ضمن
أعماله حين أبطل رسوم الدولة الفاطمية ، أن أبطل صلاة الجمعة الرسمية بالجامع
الأزهر سنة ٥٦٧ هـ ، ولكنه لم يتعرض لمهامه الدراسية ، فلبث على حاله معهداً
 للقراءة والدرس . وبدأ صلاح الدين بإنشاء المدارس منذ سنة ٥٦٩ هـ ، فحول
دار سعيد السعداء عتيق الخليفة المستنصر إلى معهد للصوفية ، وحول دار عباس
الوزير العبيدي إلى مدرسة للحنفية عرفت فيما بعد بالمدرسة السيوفية ، وأنشأ
المدرسة الصالحية بجوار قبة الإمام الشافعي (٥٧٢ هـ) فكانت أعظم المدارس
المصرية ، وأنشأ بمدينة مصر المدرسة الشريفة والمدرسة القمحية ، وأنشأ مدرسة
إلى جانب المشهد الحسيني ، وحول دار الشراب بالقصر الفاطمي إلى مارستان
للمرضى ، وأنشأ بالإسكندرية مارستاناً آخر . وكانت حركة صلاح الدين في
إنشاء المدارس فيما بعد ، قدوة طيبة للسلطين والأمراء والوزراء ، حتى لقد
أنشئ منها العدد الجهم في دول السلطين المتعاقبة ، وغدت القاهرة خلال
العصور الوسطى بأزهرها ومدارسها العديدة ، كعبة العلوم والدراسات الإسلامية
في العالم الإسلامي .

وكان صلاح الدين ، منذ استتب له الأمر في الشام ، إلى جانب استتبابه في
مصر ، وعادت الجبهة الدفاعية الإسلامية بمصر والشام ، إلى وحدتها التاريخية
(١) رأينا أن نأخذ ترجمة الملك الناصر صلاح الدين بفصل عن وزيره بهاء الدين قراقوش .

القديمة ، يشعر بأن الوقت قد حان للبدء في تحقيق مهمته الكبرى ، وهى مكافحة الفرنج الصليبيين ، وتحرير الشرق الإسلامى من عدوانهم ، والقضاء على المملكة الصليبية رمز هذا العدوان المستمر من جانب الغرب النصرانى . ومنذ سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) نرى صلاح الدين يضطلع بحملات متوالية ضد الصليبيين ، ويشتبك معهم فى معارك مستمرة .

فى أوائل هذا العام سار صلاح الدين إلى عسقلان ، فعاث فى أحوازها ، ثم سار إلى الرملة ، واشتبك على مقربة منها بالصليبيين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، فوقع بين الفريقين قتال شديد هزم فيه السلطان ، وقتل وأسر كثير من المسلمين ، وارتد صلاح الدين إلى القاهرة ، وقد حزت فى نفسه الهزيمة . وأخذ يحشد الجند وبعد العدة لحملة جديدة .

وفى شعبان من السنة المذكورة ، غادر القاهرة فى قواته إلى دمشق ، مستخفلاً أخاه العادل على مصر ، فوصل إلى دمشق فى شوال . وكان الفرنج قد زحفوا على حماة يريدون افتتاحها ، فلما علموا بمقدم السلطان رحلوا عنها ، ووقعت فى العام التالى (١١٧٨ م) عدة معارك بين السلطان وبين الصليبيين ، ونظم السلطان عدة غارات ناجحة على معاقل الصليبيين فى طبرية ، وصور وبيروت . وفى محرم سنة ٥٧٥ هـ (يونيه ١١٧٩ م) ، خرج السلطان فى قواته ، ومعه صمصام الدين أبلج والى بانياس فى قوة مختارة ، فالتقى بجيش كثيف من الصليبيين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، فى سهل مرج عيون على مقربة من حمص ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف ، هزم فيه الفرنج هزيمة ساحقة ، وأسر فيه عدة كبيرة من أكابر فرسانهم ، ومنهم مقدم الداوية (فرسان المعبد) ومقدم الأسبatarية ، والكونت ريمون صاحب طرابلس ، وهوغ صاحب طبرية وغيرهم ، وأخذوا مقيدى إلى دمشق ، حيث اقتلدى الكثير منهم بعد ، نظير مبالغ طائلة .

وفى ربيع العام التالى ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) جهز صلاح الدين بمصر قوة بحرية كبيرة ، سارت على طول شاطئ فلسطين ، فى الوقت الذى زحفت فيه قوى السلطان من البر ، فأدرك بلدوين ملك بيت المقدس أنه لا قبل له بمقاومة ناجحة ، وطلب عقد الهدنة مع السلطان ، فقبل صلاح الدين وعقدت الهدنة

بين الفريقين لمدة عامين ، وانهز صلاح الدين هذه الفرصة ، فخرج لمحاربة بقية الأمراء السلاجقة في الجزيرة وكنيكية ، وهم قلج أرسلان صاحب قونية ، وعز الدين مسعود صاحب الموصل ، وأمراء إربل وكيفا وماردين ، فخشى أولئك الأمراء العاقبة ، واستطاع صلاح الدين ، أن يحملهم دون قتال على الطاعة ، وعلى التهادن معاً ، حرصاً على سلامة الجبهة الإسلامية . بيد أن هذه لم تكن سوى الخطوة الأولى في هذا السبيل .

وغادر السلطان دمشق في أواخر شهر رجب عائداً إلى مصر ، فوصل إلى القاهرة في الثالث عشر من شعبان سنة ٥٧٦ هـ .

وأنفق صلاح الدين في مصر زهاء عام ونصف ، قام فيها بتنظيم شؤون البلاد ، وتحصين أطرافها ، فأصلحت أسوار دمياط ، وقلعة تنيس ، وغنى عناية خاصة بتنظيم الجيش ، وتعزيز الأهباء العسكرية . وفي أوائل سنة ٥٧٧ هـ (يونيه سنة ١١٨١ م) قدمت سفارة من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس ، ووقعت معاهدة صلح بينه وبين السلطان ، أفرج بمقتضاها عن الأسرى المساجين .

وكان صلاح الدين أثناء ذلك يرسم خطة الغزاة الكبرى ، التي يزمع أن يضطلع بها ضد الفرنج الصليبيين . وفي أواخر سنة ٥٧٧ هـ ، توفي السلطان الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب ، فخلفه ابن عمه السلطان عز الدين مسعود . وشعر صلاح الدين عندئذ بأن الوقت قد حان للتدخل في حوادث الشام ، والبدء بتنفيذ خطته ، فكتب إلى نوابه في الشام بالتأهب ، وخرج في قواته وعدده من القاهرة ، في الخامس من محرم سنة ٥٧٨ هـ (١١ مايو سنة ١١٨٢ م) ، وقد شاء القدر أن تكون هذه آخر مرة يغادر فيها الديار المصرية ، فلم يعد إليها بعد ذلك قط .

وسلك صلاح الدين طريق إيلة ، وقام في طريقه بعدة غارات ضد الصليبيين ، ووصل إلى دمشق بعد أسابيع قلائل . ثم غادرها إلى حلب ، فعجم عودها ، ثم تحول شرقاً وعبر الفرات ، وهو ينوي أن تخضع الجزيرة كلها لصولته ، حتى يمكن بذلك تأمين جناحه الشمالى ، فاستولى على الرها ، وحران ، والرقه ، وحصيين ، وسنجار ، وحاصر الموصل ، ولكنه لم يوفق إلى أخذها ، فسار

إلى آمد واستولى عليها ، ثم عبر الفرات إلى حلب فاضطرت إلى التسليم صلحا ، وعوض عنها صاحبها عز الدين مسعود بمدينة سنجار . ولم يوفق صلاح الدين إلى إخضاع الموصل إلا بعد ذلك بثلاثة أعوام في سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وفي العام التالي استولى على ديار بكر ، (١١٨٦ م) فتم له بذلك تحقيق مشروعه في إخضاع الجزيرة كلها ، وتعزيز الجبهة الدفاعية الشمالية وتأمينها بصورة مطلقة ، وفي أثناء ذلك كان الفرنج الصليبيون في الجنوب ماضين في عدوانهم وذهب أحدهم وهو رينو دي شاتيون أمير الكرك في الحرّة ، إلى حد أنه نظم حملة برية وبحرية لقطع طريق الحاج ، ووصلت سفنهم المغيرة في البحر الأحمر جنوباً حتى عيذاب ، وكان هذا الزعيم الصليبي ينوى السير جنوباً حتى يغزو الحجاز ، ويعتدى على قبر الرسول ويهدم الكعبة ؛ وفكك الفرنج بالحجاج ، وأسروا الكثير منهم ، وأحرقوا عدة سفن ، فبادر الملك العادل ولد السلطان ونائبه في مصر ، بتجهيز حملة بحرية قوية ، سارت إلى البحر الأحمر ، وطاردت مراكب الفرنج ، ومزقتها ، وأفرجت عن كثير من الأسرى المسلمين ، ومزقت كذلك قوى الفرنج البرية ، وأسرت منها عدداً كبيراً أحملوا إلى القاهرة وضربت أعناقهم (إبريل سنة ١١٨٣ م) .

وتابع صلاح الدين إغاراته على الفرنج ، وعاث في مناطق بيسان وجنين ونابلس ، واعتزم بنوع خاص أن يستولى على قلعة الكرك الحصينة ، وأن يعاقب صاحبها الرنس رينو على عدوانه وجراته ، فحاصرها غير مرة وضربها بالمجانيق بشدة ، ولكنها صمدت في وجهه ، وانتهى الأمر بعقد الصلح والتهادن بين الفريقين لمدة أربعة أعوام (أغسطس سنة ١١٨٤ م) .

ولكن هذا الأمير الغادر ما لبث أن نكث العهد ، وعاد إلى عدوانه ، ففتك بقالفة من التجار المسلمين حين مرورها بجوار قلعته ، واستولى على أموالهم ، فأقسم السلطان بأنه إن ظفر بهذا الأمير الغادر فإنه سوف يقتله بيده .

وكانت نذر المعركة الكبرى تبدو في الأفق شيئاً فشيئاً ، وكان صلاح الدين قد أرسل إلى سائر الجهات في مصر والشام والجزيرة ، يستنفر الناس إلى الجهاد ، ويجهزهم على التجهيز والاستعداد . وفي أواخر المحرم سنة ٥٨٣ هـ (إبريل

سنة ١١٨٧ م) ، خرج في قواته من دمشق ، وسار إلى بصرى ليحمي منها طريق عودة الحاج ، إذ بلغه أن رينو أمير الكرك ، ينوي الفتك بهم ، وأنه ينوي من جهة أخرى أن يقطع الطريق على القوات المصرية القادمة للالتحاق بجيش السلطان . ولما انتهى عود الحاج ، سار صلاح الدين إلى الكرك والشوبك وعاث في أنحائها ، ووافته عساكر مصر بقيادة العادل قادمة من طريق إيلة ، وكانت قوات الشام والجزيرة تتلاحق في تلك الأثناء ، وتجتمع في دمشق تحت قيادة الملك الأفضل ولد السلطان . وسارت من هذا الجيش بأمر السلطان حملة قوية إلى ثغر عكا لاقتحامه وتخريبه ، واشتبكت مع الفرنج وفرسان الداوية والأسبتارية في معركة طاحنة ، فهزم الفرنج ، وقتل مقدم الداوية وجماعة كبيرة من الفرسان ، وعاث المسلمون في أحواز عكا ، واستولوا على كثير من السبي والغنائم ؛ ثم اجتمعت قوات السلطان بقوات ولده الملك الأفضل ، فاجتمع من ذلك جيش ضخم ، تقدره الرواية الإسلامية باثني عشر ألف فارس من النظامية ، وعدد كبير من المتطوعة . وسار السلطان في قواته بعد أن أعدت للقتال ، جنوباً نحو طبرية ، واستولى عليها ، واعتصمت حاميتها بالقاعة ، وكان قصده أن يستدرج الفرنج لمقاتلته ، فلم يتقدموا ؛ فترك طبرية ، وعاد إلى معسكره ، على مقربة منها ، وكان الفرنج قد اجتمعوا في سهل قريب مقفر بعد أن خربوا عيون الماء به توقعاً لمقدم المسلمين . وفي اليوم الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ (٤ يولييه سنة ١١٨٧ م) ، تحرك المسلمون نحو الفرنج ، وكان جيش الفرنج يقرب من خمسين ألف مقاتل ، وعلى رأسهم جى دى لوسنيان ملك بيت المقدس ، والبرنس رينو دى شاتيون صاحب الكرك ، والكونت ريمون صاحب طرابلس ، وزعماء الفرسان الداوية والأسبتارية . وكان مقصد الفرنج أن يمنعوا الجيش الإسلامي من السير إلى طبرية ، وامتلاك قلعتها ، فتحركوا نحو طبرية يقصدون مكاناً به الماء ، فوقف الجيش الإسلامي في سبيلهم ، واشتبك الفريقان في عدة معارك طاحنة ، وقاتل الصليبيون قتالا شديداً ، ولكن المسلمين رجحت كفتهم واستطاعوا محاصرة الفرنج ، فارتد الفرنج نحو تل بقرية حطين القريبة ، يعتصمون به ، فوقف المسلمون في سبيلهم واشتد القتال بين الفريقين ، ودافع الفرسان الذين اعتصموا بالتل دفاعاً شديداً ، وردوا المسلمين مرات ،

ولكنهم هزموا في النهاية شر هزيمة ، واستولى المسلمون على خيمة ملكهم ، وعلى الصليب الكبير المسمى « صليب الصلبوت » وهو الذى يزعمون أن فيه قطعة من الخشب التى صلب عليها المسيح ، وأسرى سائر الأمراء والفرسان الفرنج ، وفى مقدمتهم ملك بيت المقدس ، ورينودى شاتيون ، ومقدم الأسبترية ، وعدة كبيرة من الفرسان ؛ وأخذ الأمراء الأسرى إلى خيمة السلطان ، فقتل السلطان بيده ، رينودى شاتيون ، (أو البرنس أرناط) وفاء لنذره ، وجزاء له على غدره وجراته المثيرة فى محاولته السير إلى قبر الرسول ، وكان نصراً عظيماً لم يسمع به منذ مقدم الصليبيين إلى المشرق .

وعلى أثر هزيمة الفرنج وسحق قواتهم ، سار السلطان إلى طبرية ، واستولى على قلعتها بالأمان ، ثم سار إلى عكا ، فغادرها أهلها بالأمان ، ودخلها المسلمون فى يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، وأقيمت بها أول جمعة منذ ماكها الفرنج ، وسلمها السلطان لولده الملك الأفضل ، واستولى المسلمون على عدة من البلاد القريبة مثل الناصرة ، وقسارية ، وحيفا ، وصفورية ، وغيرها ، وزحف صلاح الدين بعد ذلك شمالاً فاستولى على صيدا ثم بيروت ، وتم هذا الزحف المظفر ، فى أقل من شهر ، وبدا كالسيل يحمل من يصادره ، وأخذ سلطان الفرنج فى سائر النواحي الباقية بأيديهم يضطرب ويتداعى .

وكان صلاح الدين يرمى من حملته الكبرى قبل كل شىء إلى استرداد بيت المقدس ، وسحق المملكة الصليبية ، وإعادة الصلة المباشرة بين شطرى الإمبراطورية المصرية ، كما كانت قبل الغزو الصليبي ، وكان يضطرم فوق هذه العوامل المادية ، بفكرة الجهاد المقدس ، والعمل على حماية الإسلام من أعدائه ، وكان يشعر أن كسرة الفرنج فى حطين قد ثلثت صفوفهم ، وضعفت قواهم ، وأنه لا بد أن يتبع نصره بالسير توالى تحقيق غايته .

فسار فى قواته إلى عسقلان ، لكى يتم عزل بيت المقدس عن البحر ، وطوقها من البر ، وضربها بالمنجنقات ضرباً شديداً ، حتى سلمت بالأمان فى آخر جمادى الثانية ، (٥ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) ، واستولى على معظم البلاد والحصون المجاورة . ثم سار إلى بيت المقدس ، وكان قد أرسل إلى الأسطول المصرى بالخروج إلى مياه فلسطين ، فخرج بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وكان

من أشجع وأمهر أمراء البحر في ذلك الوقت ، وسيطر على تلك المياه ، وقطع السبيل على سائر السفن الفرنجية التي تحاول الإقتراب من الساحل .

وأشرف صلاح الدين بجيشه على بيت المقدس في منتصف شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) وكانت تموج بجموع زاخرة من الفرنج الذين قصدوها من سائر البلاد التي افتتحت ، وقد صمموا على الدفاع عنها بكل ما وسعوا . وكان منظم الدفاع عن المدينة الفارس باليان دى إلبين ، وذلك تحت زعامة البطريق الأكبر ، ولم يكن بها أحد من الأمراء الفرنج ، وليس بها سوى الماكة سيبيل زوجة الملك الأسير جى دى لوسنيان . وتقول الروايات النصرانية إن عدد المدافعين عن المدينة لم يكن كبيراً ، وأنها كانت تموج في الواقع بجموع النساء والشيوخ والأطفال .

وضرب صلاح الدين الحصار حول المدينة ، وقد شعر بحصانتها ، ووفرة المدافعين عنها ، وضربها بالمنجنقات ضرباً شديداً ، ورد الفرنج فضرَبوا المسلمين بالمنجنقات من فوق الأسوار ، وقاتلوا أشد قتال ، وكان الفرسان الفرنج يخرجون من المدينة من آن لآخر ، وتنشب بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة ، ولكن المسلمين شددوا الوطأة على المدينة ، واستمروا في ضربها بشدة ، وتمكنوا من نقب السور ؛ فلما شعر الفرنج بخطورة الموقف ، بعثوا وفد منهم يطلب الأمان إلى السلطان ؛ فرفض السلطان في البداية ، وذكر الفرنج بما فعله أسلافهم عند افتتاح المدينة ، من الفتك بأهلها المسلمين وقتل الألوف منهم ، وأنذرهم بأنه سيفعل بهم مثل ما فعل أسلافهم ، فعندئذ قصد الفارس باليان بنفسه إلى السلطان ، وأنذره بأنه إذا لم تحصل المدينة على الأمان ، فإنهم سوف يقتلون أبناءهم ونساءهم ، ويحرقون متاعهم وأموالهم ، ويخربون الصخرة والمسجد الأقصى ، ويقتلون أسرى المسلمين وهم عدة آلاف ، ثم يرتدون بعد ذلك إلى مقاتلة المسلمين قتال اليأس والموت . فعندئذ رأى السلطان نزولاً على نصيح مستشاريه أن يقبل منح الأمان ، واتفق على أن يسلم الفرنج المدينة ، على أن يؤمنوا في أملاكهم ، وأن يُعتبر أهلها أسرى يسمح لهم بالفداء خلال أربعين يوماً ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل صبي أو صبية ديناراً . ودخل المسلمون بيت المقدس في يوم الجمعة

السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ (٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م) في نظام وسلام ، وكان يوماً مشهوداً ؛ وفي الحال رفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار ، وأنزل الصليب من أعلى قبة الصخرة ، وطهر المسجد الأقصى وصخرته من الهياكل والصليبان ، وأبدى صلاح الدين في تحصيل الفداء منتهى التسامح ، ولم يدخل خزائنه منها سوى القليل . وأذن للملكة سيبييل وغيرها من الأمرات الفرنج بمغادرة المدينة في حاشياتهن دون فدية ، واستوهبه الكثير من الأمراء عدداً من الفرنج ، واقتسم الأمناء الأموال ، ولعب الاختلاس دوره الذميم ، وضاعت على السلطان مبالغ طائلة ؛ ويقول لنا ابن الأثير إنه كان بالمدينة وقت تسليمها ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل ، غير من يتبعهم من النساء والأطفال ؛ وكان دخول المسلمين بيت المقدس على هذا النحو السلمي ، المنزه عن ارتكاب الإثم وإراقة الدماء ، صفحة مشرفة ناصعة ، تناقض كل المناقضة ، ما ارتكبه الفرنج الصليبيون حين دخولها في سنة ١٠٩٩ م ، من رائع السفك والإثم والتقتيل . ويصف لنا العماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين ، وهو شاهد عيان ، مجلس السلطان غداة يوم الفتح في تلك العبارات البليغة :

« وجلس السلطان للهناء ، للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع ، وهيبة الوقار ، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار ، ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجاح ظافر ، وبابه مفتوح ، ورفده ممنوح ، وحجابه مرفوع ، وخطابه مسموع ، ونشاطه مقبل ، وبساطه مقبل ، وحياه بلوح ، ورياه يفوح ، ومحبه تروق ومهابته تروع ، وآفاقه تضيء وأخلاقه تضوع ؛ وكأن دسسته به هالة القمر ، والقراء جلوس يقرأون ورشدون ، والشعراء وقوف ينشدون وينشدون ، والأعلام تبرز لتنشر ، والأقلام تزر لتبشر ، والعيون من فرط المسرة تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع » (١).

وهكذا انهار صرح المملكة اللاتينية الصليبية التي لبثت في قلب الشرق الإسلامي عصراً ، تهدد كيانه ونظمه ومدنيته . وكان لسقوطها في العالم الإسلامي

(١) في كتاب الفتح للنسفي في الفتح القدسي ص ٤٤ .

وقع عميق ، مقرون بأخلص آيات الغبطة والشكر والعرفان . وكذا كان لسقوطها في الغرب أعظم صدى ، وكان مثار فورة جديدة من التعصب والعدوان ، هي التي أسفرت عن تنظيم الحملة الصليبية الثالثة .

وغادر السلطان بيت المقدس بعد أن رتب شئونها ، وسار إلى مدينة صور ، ولكنها امتنعت عليه لحصانتها ، ووفرة الفرنج المحتشدين بها . وكان قد اجتمع بها سائر الفرنج الذين رحلوا عن المدن والحصون المفتوحة ، وسار إليها الملك جى دى لوسنيان ، وعدد كبير من الأشراف والفرسان الذين سرحهم السلطان بعد أن تعهدوا بالكف عن الحرب . فلما قصد إليها صلاح الدين ألفها تموج بالمدافعين ، وقد حصنت لمنع تحصين ، وأضحى من العسير الاقتراب منها ، وبالرغم من أن المسلمين طوقوها من البر ، وضربوها بالمنجنيقات والدبابات (١) بشدة ، وحاصرتها السفن المصرية من البحر ، فإنها استطاعت أن ترد المهاجمين ، وأن توقع بهم خسائر كبيرة . واستمر حصار صور زهاء شهرين (رمضان وشوال سنة ٥٨٣ هـ — نوفمبر وديسمبر سنة ١١٨٧ م) وعندئذ عول السلطان على مغادرتها ، وكان هذا القرار خطأ عسكرياً فادحاً ، إذ غدت صور بذلك معقل الصليبيين المنيع ، ومركز تجمعهم ، ونقطة ارتكازهم على الشاطئ ، وينحى ابن الأثير باللائمة على صلاح الدين ويعتبره وحده مسئولاً عن هذا الفشل ، لأنه هو الذى كان يعطى الأمان للفرنج ، ويرسلهم إلى صور بأموالهم ثم يقول « إن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفراطاً مضيقاً للحزم » .

وعلى أثر امتناع صور ، سار السلطان شمالاً ، وقضى بقية الشتاء في عكا ثم في دمشق ، ورحلت العساكر إلى مختلف أوطانها لتستريح . ولما دخل الربيع عاد السلطان فتحرك في قواته لاستئناف الغزو ، ومطاردة الفرنج ، فلم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى كانت مدن الشاطئ الواقعة شمال صور قد افتتحت كلها ، ثم افتتحت صفد ، وكانت معقل الداوية ، وكوكب ، وكانت معقل الأسبتارية ، والكرك وكانت لشدة امتناعها وعدوانها المتكرر ، ثغرة خطيرة في مواصلات الشمال والجنوب . وكذلك أرغم صاحب أنطاكية على طلب

(١) هي من آلات الحرب القديمة لضرب الأسوار والصمود إليها، وقد ذكرها ابن الأثير

في حديثه عن حصار صور (ج ١١ ص ٢١٠) .

الأمان على أن يسلم الأسرى المسلمين . وتم ذلك كله في أشهر قلائل (٥٨٤ هـ - يونيه إلى سبتمبر ١١٨٨ م) ، ولم يبق بأيدي الصليبيين من فتوحهم بأراضي الشام سوى ثغر صور المنيع ، وكان بقاؤه بأيديهم نقطة الارتكاز ، وقاعدة الهجوم للحملة الصليبية الثالثة .

ذلك أن عود بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام ، كان له في الغرب أعمق الأثر . واعتبرته البابوية وأوروبا النصرانية بأسرها كارثة فادحة . وأخذ أقطاب النصرانية من الملوك والأشراف والفرسان ، يتأهبون لحملة صليبية جديدة ، كان قوامها أعظم ملوك أوروبا النصرانية يومئذ ، وهم ملوك ألمانيا وإنجلترا وفرنسا . وفي أثناء ذلك كانت صور ، كما قلنا تموج بقوات الفرنج اللاجئين إليها ، وعلى رأسهم جى دى لوسنيان ملك بيت المقدس السابق وبطريقها ؛ وكان البطريق والقساوسة يلهبون شعور الفرسان والجند بتحريضهم ودعواتهم إلى الأخذ بثأر المسيح واسترداد قبره ؛ وكان الأمل يحدوهم بأن قوات الغوث والإنجاد لن تتأخر عن القدوم . وبهذه الروح اعتزم الفرنج في صور أن يبدأوا مهاجمة المسلمين ، فخرج جى دى لوسنيان في قوات كثيفة ، وقصد إلى عكا ، وضرب حولها الحصار ، (رجب ٥٨٥ هـ - أغسطس ١١٨٩ م) ، وكان صلاح الدين قد خرج في قواته من دمشق قبل ذلك ببضعة أشهر ، وهو يشترك مع فرنج الساحل في وقائع مستمرة ، فلما علم بمسير الفرنج إلى عكا ، هرع إليها فوصل إليها بعد وصول الفرنج بيومين ، وفي الحال ضرب الحصار حول الفرنج المحاصرين لها ، وامتنعت الحامية الإسلامية بداخل المدينة ، ولم يمض شهران ، حتى قدم الملك العادل بجند مصر ، وقدم الأسطول المصرى بقيادة الحاجب لؤلؤ إلى مياه عكا ، ليحول دون وصول الأمداد إلى الفرنج من البحر ، وبعث السلطان إلى سائر الجهات يستنصر الناس للجهاد . ووقعت أول معركة كبيرة بين الفرنج والمسلمين في الرابع من أكتوبر ، وفيها صد الفرنج بنحسائر فادحة ، ولكن السلطان لم يتبع نصره بهجوم مضاد ، ففضى الفرنج الشتاء في تحصين مراكزهم ، وحفروا حولها خندقاً عميقاً ، وأقاموا عدة أبراج تجاه الثغر المحصور ، ووقعت خلال ذلك بين المسلمين والفرنج عدة معارك برية وبحرية اشتركت فيها الحامية المحصورة ، وهزم الفرنج في موقعة كبيرة أخرى (يولييه ١١٩٠ م) ، ولكن

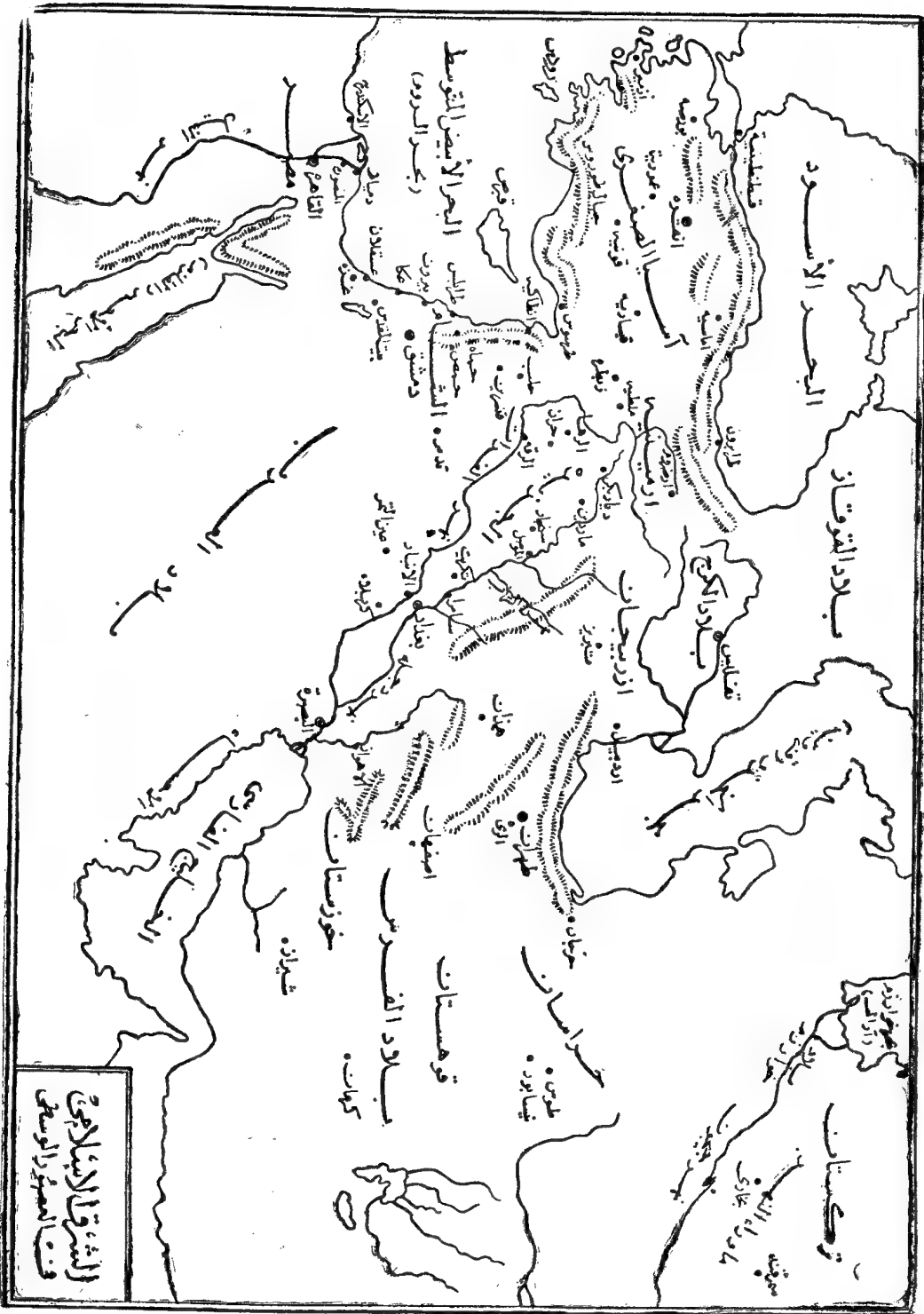
المسلمين لم يستفيدوا من هذا النصر أيضاً ، وصمد الفرنج ، حتى جاءتهم نجدة من البحر قوامها عشرة آلاف مقاتل بقيادة هنرى دى شمبانى فقويت نفوسهم ، وكانت هذه طلائع النجدة الصليبية الجديدة ، التى بدأت تصل إلى الشرق . كان سقوط بيت المقدس ، كما قلنا نذير فورة جديدة من التعصب والاضطرام فى الغرب ، وقد شعرت أوروبا النصرانية ، أن الجهود التى بذلتها مدى قرن لافتح الشام ، واحتلال الأراضى المقدسة سوف يقضى عليها نهائياً ، إذا لم تتدارك البقية الباقية من الصليبيين فى المشرق بالغوث والإنجاد ، ومن ثم فقد نظمت الحملة الصليبية الثالثة ، وكان قوام هذه الحملة الجديدة ، زعماء الغرب الثلاثة يومئذ ، وهم إمبراطور ألمانيا فردريك بارباروسا ، وملك إنجلترا رتشارد الأول الملقب بقلب الأسد ، وملك فرنسا فيليب أوجست . وقصد إمبراطور ألمانيا فى قواته إلى المشرق عن طريق البحر والدولة الشرقية ، ووصل إلى شواطئ آسيا الصغرى فى مارس سنة ١١٩٠ م ، ولكنه حينما عبر بجيشه نهر سالوف غرق فى النهر ، وكان جيشه قد تبدد خلال السير من المرض والمشاق ، ولم يبق منه سوى ألف رجل ، فقاد بقية الجيش ولده فردريك دوق سوابيا ووصل إلى عكا فى أكتوبر ، ووصل ملكا إنجلترا وفرنسا فى قواتهما إلى صقلية فى شتاء سنة ١١٩٠ م ، وسار فيليب أوجست فى ربيع العام التالى توالى إلى عكا ، وتبعه رتشارد ، ولكنه عرج فى طريقه على قبرص ليفتحها ووصل إلى عكا فى أوائل يونيه سنة ١١٩١ م .

وكان قد مضى عندئذ على حصار عكا زهاء عامين ، والحامية الإسلامية صامدة داخل الثغر المحصور ، والمعارك تنشب فى ظاهره ، بين المسلمين والفرنج من وقت إلى آخر ، فلما نزلت الأساطيل والجيوش الصليبية الجديدة إلى الميدان ، رجحت كفة الفرنج رجحاناً ظاهراً ، واشتد الضغط على الحامية الإسلامية ، واضطرت عكا أخيراً إلى التسليم ، وذلك فى ١٢ يوليه سنة ١١٩١ م (جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ) ، ولم يكن السلطان طرفاً فى هذا التصرف ، ولم يوافق عليه ، ولكنه اضطر إلى قبوله نظراً للظروف القاهرة التى أملت به .

ومما هو جدير بالذكر أن صلاح الدين ، كان منذ شعر بخطورة الموقف جول عكا ، قد أرسل إل الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى عاهل

المغرب والأندلس يستنصر به ، ويستمد عونه ، ويصف له ما بذل من جهود في محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وما كان لذلك من أثر في تحالف النصرانية والغرب عليه ، ويطلب إليه أن يمد الشام ، مسرح النضال بجزء من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل في الوقت نفسه جزءاً آخر منها صوب صقلية ليحول دون مقدم النورمان إلى المشرق ، (أواخر سنة ٥٨٥ هـ) . ولما بدأ تقاطر القوات الصليبية الجديدة إلى المشرق ، عاد صلاح الدين فأرسل في العام التالي (٥٨٦ هـ - ١١٩٠ م) إلى عاهل المغرب سفارة على رأسها وزيره عبد الرحمن بن منقذ ، ويصف صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة المنصور ، ما حدث من مقدم جيوش الألمان والإنجليز وأساطيلهم إلى مياه عكا ، ويكرر صريحه بطلب الإمداد والغوث . على أن هذا الصريح لم يسفر عن أية نتيجة عملية ، إذا كان المنصور في تلك الآونة بالذات يواجه بالمغرب والأندلس ثورات وأحداث عاقته عن القيام بالعون المنشود .

وكانت مفاوضات الصلح قد بدأت بين السلطان والصليبيين قبل تسليم عكا ، فلما وقع التسليم ، استؤنفت المفاوضات ، وقبل السلطان ما اشترطه الفرنج من تأدية فدية كبيرة عن أسرى الحامية باغت مائتي ألف دينار ، وأن يطلق خمسمائة أسير من أكابر النصارى ، وأن يرد صليب الصلبوت ؛ واتفق على تنفيذ هذه الشروط خلال شهرين ، ولكن السلطان شعر حينما استعد لتنفيذ هذه الشروط ، أن الفرنج يتذرعون بالتسويق والمطل في الإفراج عن أسرى الحامية ولا سيما الأكابر منهم ، واحتج الملك رتشارد من جهة أخرى بتأخر السلطان في التنفيذ ، فأمر بقتل نحو ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين ؛ وقضت هذه الجريمة المروعة على كل أمل في الصلح . وفي الحال رد السلطان الأسرى النصارى وصليب الصلبوت إلى دمشق ؛ وكان ملك فرنسا قد انسحب خلال ذلك بقواته ، وارتد عائداً إلى بلاده ؛ فاعترزم رتشارد أن يتابع الحرب وحده ، وأن يحاول استرداد بيت المقدس . فسار في قواته صوب عسقلان ، فبعث صلاح الدين بشرط من قواته لمضايقة الفرنج ، وارتد في باقي الجيش إلى الرملة ؛ وقرر بعد مشاوره أمرائه أن يخرب عسقلان ، فعجل بالسير إليها ، وأمر بهدم صروحها وتخريبها ، فخربت تماماً ، وألقيت حجارتها إلى البحر ، (سبتمبر سنة ١١٩١ م) ،



الشرق الأدنى والوسطى

وسار السلطان بعد ذلك إلى بيت المقدس ليقضى فيها الشتاء . وأدرك رتشارد ، بعد أن خربت عسقلان أنه لا فائدة من الاستيلاء عليها ، فسار صوب بيت المقدس ؛ ولكن الخلاف اشتد بين زعماء الصليبيين ، وعلم رتشارد من جهة أخرى أن قوات المسلمين تتفوق عليه في الكثرة والأهبة فارتد إلى عكا ؛ وفي مطلع الربيع سار السلطان إلى يافا وهاجمها بشدة ، وانزعجها من الفرنج عنوة ، وقتل من حاميتها عدد كبير وأسر الباقون (يونيه ١١٩٢ م) .

وكان رتشارد مذ فشل مشروعه في السير إلى بيت المقدس ، يتوق إلى عقد الصلح مع المسلمين ، وكان من جهة أخرى قد أدركه المرض ، ووصلته من إنجلترا أنباء مقلقة تستدعي عودته ، فعندئذ رأى أن يعجل بالمفاوضة . وانتهى الأمر بأن عقد بينه وبين السلطان صلح مدته ثلاثة أعوام وثمانية أشهر ، على أن يستبقى الفرنج ما بأيديهم من بلاد الساحل ما بين يافا وعكا ، وأن يسمح لهم بالهجرة إلى بيت المقدس (شعبان ٥٨٨ هـ - سبتمبر سنة ١١٩٢ م) .

وعلى أثر عقد الصلح سار صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وأمر بإصلاح أسوارها ، وإنشاء المدرسة ، والبيمارستان ، والرباط ، وغيرها ، من المنشآت العامة ، وكان يعزم قضاء فريضة الحج ، ولكنه شعر بالإعياء والضعف ، فسار إلى دمشق في أوائل شعبان ليستريح بها بعض الوقت .

بيد أنه لم تمض ثلاثة أشهر أخرى حتى مرض صلاح الدين ، وتوفي في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣ م) في السادسة والخمسين من عمره ؛ وكانت مشاق السير والحروب المستمرة ، التي استطلت منذ موقعة حطين زهاء خمسة أعوام ، قد أثرت في بنيته السقيمة ، واستنفدت قواه . وكان المرض ينتابه خلال هذه الأعوام ككرة بعد أخرى ؛ ولكنه لم يقعد قط عن متابعة جهوده ، فكان وقت المعركة يتنقل دائماً بين الصفوف ، ويتقدم جنده إلى المعركة ، ويحثهم على القتال ، ويدكي همهم وشجاعتهم بجرأته وإقدامه ، ورقيق خلاله ورائع فروسته .

وهب صلاح الدين حياته للجهاد في سبيل الله ، وإنقاذ الإسلام والمشرق من عدوان الغرب النصراني ، واستطاع قبل وفاته أن يحقق أعظم أمانيه باسترداد

بيت المقدس ، وسحق المملكة الفرنجية الصليبية ، وكان سبيله إلى تحقيق هذه الأمنية العظيمة ، هو أن يجمع كلمة الشرق الإسلامي ، وأن يعيد إليه وحدته الإقليمية ، التي انصدعت بانحلال الدولة الفاطمية ، وعدوان الصليبيين على الشام . وقد وفق صلاح الدين في تحقيق هذه الغاية أعظم توفيق ، ولم تقف جهوده عند رد الإمبراطورية المصرية إلى سابق تماسكها الإقليمي ، بل استطاع أن يجمع كلمة الكتلة الإسلامية من جبال كردستان وشارف آسيا الصغرى حتى صحراء لوية ، وأن يعتمد على جهودها الموحدة في محاربة الصليبيين ورد عدوان الغرب النصراني ، فكانت جيوش صلاح الدين تجمع في صعيد واحد بين المصريين والشاميين والعرب والأكراد والتركمان والترك ، وغيرهم ، يشعرون جميعاً بشعور واحد ، ويعملون جميعاً لغاية واحدة هي الذود عن الإسلام وأرضه وحضارته وتراثه .

كان صلاح الدين بطل الإسلام بلا مرأى ، بل هو من أعظم أبطال الإسلام قاطبة ؛ وكانت الفكرة الإسلامية تملأ نفسه ومشاعره ، يضطرم بها ، ولا يؤمن بغيرها ، ولم تكن تحدوه في جهاده أية فكرة قومية أو عنصرية أو إقليمية ؛ ومن ثم فإنه من الخطأ التاريخي أن يقال إن صلاح الدين كان يؤمن بفكرة العروبة أو القومية العربية ، وإنه كان في جهاده لضم أقطار الدولة الفاطمية القديمة ، في مصر والشام ، وهي التي غدا هو وريثها وعاهلها ، — كان يعمل لوحدة عربية أو ما يشبهها ، فلم تكن تجول بخاطره أية فكرة من هذا النوع ، وإنما كانت مثله وجهاده ، تتجه إلى آفاق أوسع وأبعد مدى : إلى آفاق الوحدة الإسلامية . ذلك أنه إذا كان عدوان الحملات الصليبية ، يتسم في ظاهره بالصبغة الدينية ، ويرى إلى مهاجمة الإسلام والقضاء على سلطانه ، وإعلاء كلمة النصرانية ، فقد كان صلاح الدين يضطرم بفكرة الدفاع عن الإسلام ، والذود عن قوته وتراثه ، ولم يكن يخفى عليه أنه بسحق الحملات الصليبية ، إنما يقضى في نفس الوقت على مطامع الغرب الاستعمارية في الشرق .

فإذا نحن أسبغنا على صلاح الدين أو على مشاريعه وأهدافه ، وجهاده في سبيل الله ، أية صفة أخرى غير الصفة الإسلامية ، وإذا نحن نسبناها إلى بواعث

قومية أو عنصرية أو إقليمية ، فلما بذلك نجنى على سيرة البطل الإسلامى العظيم ،
لأن نجرده من أروع حلال بطولته وأشرفها .

ولم يخف هذا المغزى الإسلامى العظيم الذى جعله صلاح الدين شعار حياته ،
وشعار جهاده ، على مفكرى عصره ، فزى صاحب الروضتين يقول معلقاً
على وفاته : « وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله ، مذ فقد الخلفاء
الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى »
ويقول آخر « وأعمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد ، وخفت
الأرض من جبلها الذى كان بمنعها أن تميد ، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره ،
ثاكلاً لوحيد ، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد » .

وكان صلاح الدين ، يتسم بطائفة من أجمل الصفات الملوكية والإنسانية ،
فقد كان وافر الحلم ، جرم التواضع والبساطة ، متقشفاً فى ملبسه وطعامه ،
وافر الجود والبذل ، ينفق كل ما تصل إليه يده فى أغراض الجهاد ومصالح
المسلمين ، ولا يهتم بشيء من أغراض هذه الدنيا من مال أو قصور أو غيرها ،
حتى أنه لما توفى لم يخلف مالا ولا عقاراً ، ولم يوجد فى خزائنه شيء من
الذهب أو الفضة سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهماً ، فكان ذلك دليلاً
موثقاً على زهده ، وعفة نفسه ، وطهارة يده ، وصونه لمال المسلمين .

وكان شديد التقى والورع ، يشغف بمجالس القرآن والحديث ، ويؤثر
مجالس العلم والتقى ، ويشارك الفقهاء فى تحقيق الظلمات وتصريف العدالة ،
وكانت مجالسه تتسم بالوقار ، والجد وعفة اللسان ، وكان يؤثر الشورى ويجمع
فى بلاطه جمهرة من أكابر كتاب العصر ومفكره ، وفى مقدمتهم صديقه
ومستشاره الوفى عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل ، وكاتبه العماد
الأصفهانى الذى خلد فى كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » كثيراً من
صور جهاد السلطان وفضائله وخلاله المشرفة . ومما يؤثر عن تسامحه وتقديره لنوابغ
العلم ، أنه عين العلامة الطيب والفيلسوف اليهودى القرطبي موسى بن ميمون طبيباً
خاصاً له ، وكان قد وفد على مصر ، بعد أن غادر الأندلس وطنه تحت ضغط
الاضطهاد الموحدى ، ونزل بالقاهرة سنة ٥٦١ هـ . ولما توفى السلطان ، استمر
طبيباً خاصاً لولده الملك الأفصل .

وكانت الشهامة والفروسية من أبرز صفات هذا السلطان العظيم المظفر ، فقد كان صلاح الدين فارس الإسلام بحق ، بل كان مثلاً أعلى للفروسية في عصره ، وقد رأينا كيف كانت تحمله الفروسية في كثير من المواطن على العفو عن خصومه من الفرنج الصليبيين وإطلاق سراحهم ، والثقة في شرفهم ووعودهم ، ثم كانوا يقابلون تسامحه وفروسته بالنكث ، ويعودون إلى قتاله ، وقد رأينا كيف عفا عن الفرنج المدافعين عن بيت المقدس وحقن دماءهم ، وصرح لهم بافتداء أنفسهم ، وكان هذا التصرف الذي تمليه الشهامة والفروسية ، من أنبل تصرفات صلاح الدين ؛ وكان يناقض كل المناقضة ، ما ارتكبه الصليبيون حين افتتاح بيت المقدس من قتل الألوف من أهلها المسلمين العزل .
والخلاصة أننا كلما تأملنا جوانب هذه الشخصية الإسلامية العظيمة ، ألفيناها تفيض بآيات البطولة والنبيل والإنسانية المؤثرة (١) .

(١) رجعنا في كتابه هذا الفصل إلى تاريخ ابن الأثير ، والروشتين في تاريخ الدولتين ، لشهاب الدين القندسى . والفتح النقى في الفتح القدسى للمعاد الأصمغاني . والسلوك في دول الملوك للمقرئى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان . والإفادة والاعتبار لعبد الطيف البغدادى ، وكذلك إلى الأستاذ لاين بول في كتابيه :

W. Besant & E. H. Palmer في كتاب *Saladin and History of Egypt in the Middle Ages* وكذلك إلى *Jerusalem, the City of Herod and Saladin*

بهاء الدين قراقوش

توفى سنة ٥٩٧ هـ - ١٢٠١ م

كثيراً ما تغير حقائق التاريخ أو تشوه ، ويغمرها معترك من الخرافة ، فتغدو على كثر الأجيال وقد غاضت معالمها الحقيقية ، ورسخت صورها التي ينسجها الخيال ، وأضحى تحجب ما عداها من الصور التي تعتمد على الحقائق التاريخية . وهذا القول ينطبق على بهاء الدين قراقوش ، وزير السلطان صلاح الدين . فإن الرواية التاريخية تقدمه إلينا وزيراً ناهياً وإدارياً حازماً ، قام بمشروعات إنشائية عظيمة ، هذا بينما تقدمه إلينا الأسطورة أو بعبارة أخرى يقدمه إلينا القصص الشعبي طاغية غشوماً ، وحاكماً ظالماً ، سفاكاً للدماء متجاهلاً كل حق وكل عدالة وكل رفق ، حتى أنه غدا مضرب الأمثال لكل عسف وجور ، يتمثل ذلك في العبارة الشعبية الماثورة « حكم قراقوش » .

فما هو وجه الحقيقة في ذلك ، وما هي حقيقة شخصية هذا الرجل الذي تدمغه الأساطير الشعبية بهذه القسوة ؟ وأخيراً ما هو مبعث هذه الأساطير والظروف التي ترعرعت فيها ؟ هذا ما سنحاول أن نعالجه في هذا الفصل .

تحدثنا الرواية التاريخية المعاصرة والقريبة من العصر عن بهاء الدين قراقوش ، وتقدمه إلينا في صور طيبة ، تختلف كل الاختلاف عما تقدمه إلينا الأسطورة . وقد عفى ابن خلكان بترجمته بين أعيان وفياته . وهو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين . وقراقوش معناها بالتركية «النسر الأسود» ، وكان خصياً أبيض من خدم أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين . فلما تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد بالله ، جعله متولى القصر الفاطمي حرصاً على ما فيه . ولما استقل صلاح الدين بثنون مصر عينه كبيراً لثنون القصر والخاص ، فأبدى همة وغيرة وكفاية في كل ما أسند إليه ، وتقدم في الخطوة حتى غدا رجل صلاح الدين الأول وساعده الأيمن ، يوليه كامل ثقته ويندبه لمهام الأمور . ولما غاب صلاح الدين عن مصر مدة ، عين قراقوش نائباً عنه وفوض أمورها إليه ، فوطد الأمور وضبط النظام والأمن . وقد قام

قراقوش خلال خدمته لصلاح الدين ، بطائفة من أعظم الأعمال الإنشائية التي خلدت اسمه ، والتي ما زالت آثارها ماثلة بيننا . فهو الذي أنشأ قلعة الجبل العظيمة على سفح المقطم . وكان صلاح الدين قد رغب في إنشاء معقل حصين يعتمص به ، ويكون فيه أمناً على نفسه من كيد خصومه ، من شيعة الفاطميين وغيرهم ، ويجعله مستقراً له وقاعدة لحكمه . فتولى قراقوش تحقيق رغبته ، وقام على إنشاء القلعة وذلك في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) وإنشاء بئرها العجيبة لتمدها بالماء . وكان صلاح الدين قد رأى في نفس الوقت أن يبني سوراً عظيماً يضم القلعة ومدينتي مصر والقاهرة ، بعد أن اتسعت أحياء القاهرة التي خارج السور الفاطمي القديم ، فلم ير أيضاً خيراً من قراقوش لتحقيق رغبته . وأبدى قراقوش في تنفيذ هذا المشروع همة فائقة ، وأزال عدداً كبيراً من القبور والمساجد التي تعترض خطط السور ، وهدم كثيراً من الأهرام الصغيرة التي كانت قائمة بالحيزة تجاه مدينة مصر ، واستعملت أحجارها الضخمة في بناء السور والقلعة . وابتنى قراقوش أيضاً قناطر الحيزة العظيمة على النيل على مقربة من الأهرامات ، وابتنى عدداً آخر من المنشآت . ولما استولى صلاح الدين على ثغر عكا من يد الفرنج ، ندب قراقوش لإصلاحه وترميم أسواره وقلاعته ، ثم عاد الفرنج فاستولوا عليه ، ووقع قراقوش أسيراً في أيديهم . ولم يفرج عنه إلا لقاء فدية عظيمة . ولما نجا قراقوش من الأسر ، ومثل أمام السلطان سر صلاح الدين بخلاصه أما سرور ، وأعلى مرتبته وغمره بصلاته ، ولبت قراقوش على حظوته حتى توفي صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هـ .

وعاش قراقوش بعد ذلك عدة أعوام آخر ، رفيع المكانة وافر الهيبة نافذ الكلمة حتى توفي في سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . ونستطيع على ضوء هذه الخلاصة الموجزة لسيرة قراقوش ، أن نقول إنه كان شخصية بارزة ، ولأنه قام بأعمال عظيمة . وهذا هو نفس ما تردده التواريخ المعاصرة والقريبة من عصره . ويكفي أن نذكر في هذا المقام ما رواه معاصره العمد الأصفهاني مما جاء في وصفه على لسان صلاح الدين حينما تقرر ندبه لإصلاح ثغر عكا وهو : « الراجح الرأي ، الناجح السعي ، الكافي الكافل بتدليل الجوامع وتعديل الجوانح . وهو الثابت الذي لا يزلزل ، والطود الذي لا يتجلىل » — بهاء الدين قراقوش الذي

يكفل جاشه بما لا تكفل به الجيوش» . وقال عنه ابن خلكان وقد عاش قريباً من عصره « وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية » . ومتى تقرر ذلك فإنه يحق لنا أن نتساءل عن سر تلك الأحكام القاسية التي تحيط بها الأسطورة شخصية قراقوش ، والتي تقدمه إلينا في صور قائمة مثيرة . والظاهر أن هذه الأساطير الشعبية المثيرة قد ظهرت في عصر قراقوش ذاته ، أو من بعده بقليل ، فقد انتهت إلينا رسالة خطية صغيرة منسوبة للأسعد بن مماتي ناظر الديوان في عهد صلاح الدين وعنوانها « الفاشوش في أحكام قراقوش » يحمل فيها على قراقوش بشدة ، ويرميه فيها بالطغيان والغفلة ، ويقول في مقدمتها « إني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخزومة فاشوش قد أتلقت الأمة ، صغت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » . وتحتوي هذه الرسالة على عدة أخبار ونوادير منسوبة لقراقوش للتدليل على اضطراب تفكيره ، وعلى شدة جوره وعسفه . وقد نسبت هذه الرسالة (عدا الديباجة) أيضاً إلى السيوطي ، ووردت فيها نفس الأخبار والنوادير . بيد أن المرجح أنها ترجع إلى عصر صلاح الدين ذاته ، بدليل أن ابن خلكان يشير إليها ، ويبدى ريبه في صحة ما ورد فيها ، ويرجح أنها موضوعة وليست من تأليف ابن مماتي . وقد استرعى نظرنا من بين النوادير التي نسبت فيها لقراقوش نادرتين .

الأولى : أنه أمر بحبس دائن شكاً من ماطلة غريمه . وذلك أنه أمر بالقبض على المدين فاحتج بأنه رجل فقير ، وأنه كلما اقتصد مبلغاً وأراد إعطاءه للدائن لم يجده ، فعندئذ قال قراقوش احبسوا صاحب الحق ، حتى إذا حصل المدين شيئاً يجد له موضعاً يدفع له فيه . فعندئذ قال صاحب الحق تركت حتى يامولاي وأجرى على الله ومضى لشأنه . الثانية : أنه كان بمصر تاجر غني بخيل ، وكان له ولد يقرض باسمه ، واستمر الاقتراض حتى زاد عليه الدين ولم يمت أبوه ، فاتفق مع الدائنين على أن يدفن والده بالحياة . وانقضوا عليه بالفعل ذات يوم فغسلوه وكفنوه ، ووضعوه في النعش وهو يصيح ولا يغاث . فلما وصلوا إلى المسجد للصلاة عليه ، اتفق أن كان قراقوش ماراً فزل وصلى عليه مع المصلين وسمع الميت المزعوم ذلك ، فصاح مستغيثاً وهو يقول يا مولاي انقذني من ولدي فهو يريد دفني بالحياة . فقال قراقوش للولد : كيف تفعل ذلك بوالدك ؟ فقال :

هو كاذب يا مولاي، فإني لم أغسله ولم أحمله في التابوت إلا وهو ميت، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك، فقال قراقوش للحاضرين: أنشهدون بصحة ما قال؟ فقالوا بلى نشهد. فالتفت قراقوش للميت وقال: كيف أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين؟ روح اندفن لثلاث طمعه فينا الموتى، ولا يبق أحد يدفن بعد هذا اليوم، فحمل الرجل ودفن بالحياة.

ورسالة « الفاشوش » تضم عدة من الأخبار والنوادر المماثلة، وكلها من أفانين الخيال الشعبي، وكلها بعيدة الاحتمال والتصديق. وقد رفض تصديقها مؤرخون عظام مثل ابن خلكان الذي عاش قريباً من هذا العصر. بيد أنها لبثت تتناقل على كثر العصور، وتدمغ اسم الرجل الذي نسبت إليه، وتغمر شخصيته الحقيقية بوابل من الصفات والأحكام القاسية التي ما زالت تعلق به حتى عصرنا. بيد أنه يحق لنا أن نتساءل كيف يمكن أن تصدر مثل هذه الترهات والأباطيل من رجل مثل قراقوش، كان وزيراً للملك عظيم مثل صلاح الدين يقدر أقدار الرجال، وكان معاونه الأثير لديه، الحائز لكامل عطفه وثقته، وكان صلاح الدين يدخره للاضطلاع بكل عظمة من الأمور والمهام.

وفي رأينا أن السر في هذا التزييف التاريخي، يرجع إلى شخصية قراقوش نفسه وإلى أعماله الضخمة، فقد كان قراقوش شخصية ممتازة وافرة الصرامة والحزم. وقد امتازت بالأخص بالقوة والسرعة في إنجاز المنشآت العظيمة، التي كان في مقدمتها إنشاء قلعة الجبل وسور القاهرة وقناطر الجيزة، وكلها من المنشآت الهائلة التي تقتضى إقامتها حشد عشرات الألوف من الرجال. وقد رأينا فوق ذلك أن قراقوش أمر بهدم عدد كبير من الأهرامات الصغيرة لكي يستعين بأحجارها الضخمة على إقامة هذه المنشآت. ونحن نعرف ما يقتضيه مثل هذا العمل من الجهود الضخمة المضنية. وقد كان يعتمد في العصور الوسطى في إنجاز الأعمال العامة، بالأخص على السخرة وحشد الأيدي العاملة بطريق القسر والإرهاق. وقد كانت هذه الوسيلة تتخذ على يد رجال أقوىاء مثل قراقوش صوراً مثيرة من الخشونة والقسوة، فكان يحشد عشرات الألوف أو مئات الألوف أحياناً، من العمال والأسرى والعبيد، ومعظمهم يحشد رغم أنفه، وربما خطف الناس من الشوارع أو من منازلهم، ثم يساقون إلى العمل قسراً تحت

لإشراف قوم من العرفاء الظلمة القساة ، ولا يحصلون من الأجر إلا على كسرة جافة يتبلغون بها ، وكان الكثير منهم يهلك من القسوة والإرهاك وسوء التغذية ، وهكذا كان قراقوش خلال الأعمال الضخمة التي قام على إنشائها ، رمزاً لكل هذه القسوة وهذا الظلم الفادح ، وكان مسئولاً في نظر العامة عن هذه الضحايا العديدة ، التي تتساقط ألوفاً في سبيل الإشادة بمقدرته وعزمه وكفأيته . وربما كان قراقوش فوق ذلك تطبعه ألوان من القسوة والنزق والسذاجة ، وهي عادة مما يقترون بصفات هذا الصنف من الرجال ، الذين يجمعون بين القوة والصرامة والعزم .

ابتدع الناس هذه الصورة المثيرة لقراقوش ، ولصقت به منذ عصره ، ثم تناقلتها الأجيال ، وزادت عليها ما شاء الخيال الشعبي الحصب ، فأضحى قراقوش وقد غمره سبيل الأساطير ، واستبدلت شخصيته التاريخية العظيمة ، بتلك الشخصية القائمة الزائفة ، التي ما زالت تلاحقه وتغلب عليه حتى عصرنا .

المملكة شجرة الدر

(نحو ٦١٢ - ٦٥٥ هـ) ، (١٢١٥ - ١٢٥٧ م)

لما توفي السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام في سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شاذحة ولكن مفككة العرى ، وكانت وفاته خاتمة لعهد من أمجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية ؛ ففيه حطمت المملكة الصليبية في فلسطين واستردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ، ومزقت قوى الصليبيين في سائر الأنحاء . وخلف صلاح الدين في ملك مصر ولده الملك العزيز ، وكان نائبه بها ، وخلفه في الشام ولده الأفضل ، وفي حلب ولده المظفر ؛ وبذا انقسمت المملكة المصرية الشاذحة إلى ثلاث ممالك ، وأخذت قواها التي حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، تتبدد في سلسلة لا نهاية لها من الحروب الأهلية ؛ ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل . ولما توفي العزيز بعد قليل في سنة ٥٩٥ هـ وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلاً ، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء ، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر ، ولكن الحرب نشبت بينه وبين عمه العادل ، وانتهى الأمر بهزيمة واستيلاء العادل على عرش مصر والشام . وهنا آنس الفرنج ضعف المملكة المصرية ، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين ، وطمع الفرنج في استرداد بيت المقدس ، ونشبت بينهم وبين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠ هـ - ١٢٠٤ م) . وفي عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً ، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالاً مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادي نزيل مصر يومئذ وصفاً يرتجف له القواد فرقاً^(١) . وفي سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر وزحفوا على مدينة دمياط ، وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ، وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوباً ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك ، وخلفه على عرش مصر ولده الكامل ، وفي الشام ولده المعظم ؛ وحاول

(١) راجع هذا الوصف في كتاب « الإفادة والاعتبار » لعبد اللطيف البغدادي (مصر)

للصليبيون أن يسروا من دمياط إلى الداخل ، ولكنهم ردوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين ، على أن يخلى الفرنج دمياط ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية .

وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام ، واستقرت الأمور في عهده ، وتوطدت أركان المماكة وانتعشت قواها المبددة . وتوفي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

فخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ؛ وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق ، فلم يرقه هذا التصرف ، ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ، وسار في أنصاره معلناً الخلاف . ووصل إلى جنوبي الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب «الكرك» كميناً ، وأسره وزجه سجيناً إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريتته « شجرة الدر » أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) . فلبث يرسف في أسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله ، أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنبابة دمشق ؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ، ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفي أثناء ذلك تفاهم الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطاق سراحه وتحالف معه على أن يقطعه الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيئ السيرة ، يقضى وقته في اللهو والجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين في شئون الدولة ؛ فحقده عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من المماليك الكاملية تخشى سوء العاقبة ، وترى في الملك العادل فتى طائشاً لا يصاح للملك ، وتربص الفرص للثوب عليه ؛ فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك رأوا الفرصة سانحة للعمل ، فساروا إليه في معسكره ببلييس ، وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر في عصبته ، ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن فلبث فيه عدة سنين ، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦ هـ) ، وبذا لقي نهايته المخزنة .

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى في نحو الرابعة والثلاثين من عمره . وكان مولده بمدينة القاهرة في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) وبها نشأ وترعرع ؛ ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥ هـ) وعقد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائهم حتى تنفذ شروط الصلح ؛ ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩ هـ) ، ثم أرسله في سنة ٦٣١ هـ لمقاتلة الروم (البيزنطيين) ؛ ولبث الصالح نائباً على الديار الشرقية حتى توفي أبوه في سنة ٦٣٥ هـ ، ولقي ما لقي من الخطوب ، حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسبما قدمنا .

ودخل الصالح مصر في أواخر سنة ٦٣٧ هـ ومعه « شجرة الدر » حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ فيها يبلى أول عهدهما بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجدت مع سيدها في قلعة الكرك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو في طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت في صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند مسيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر (١) :

فن كانت هذه المرأة التي سطعت غير بعيد في بلاط مصر ، والتي قدر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعد ، وأن تغدو بتبوءها الملك مثلاً فريداً في صحف التاريخ الإسلامى ؟

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية « جارية » تركية أو أرمنية أو رومية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبلى السبب في عجز الرواية عن أن تقدم إلينا شيئاً عن حقيقة أصلها ونشأتها ، فهي لم تكن إلا واحدة من ألوف الجوارى اللائى كانت تغص بهن قصور الخلفاء والسلطانين في تلك العصور ، ولا نعرف عنهن شيئاً إلا حينما يسطع نجمهن فيغدون « أمهات ولد » ينجبن الخلفاء

والسلاطين ، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى مبدان السلطة والنفوذ ، ويشاطرن في توجيه الشئون .

وهكذا فإننا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة في سنة ٦٣٧ هـ وهي مع سيدها الملك الصالح في طريقه إلى مصر ، وتصفها الرواية عندئذ بجاريته وحظيته وأم ولده خليل . وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال بجارية وأم ولد فقط ، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح . وقد كان ولدها « خليل » يومئذ فيما يبدو طفلاً لا يتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة ، وقد مات كما نعلم وهو ما يزال في طور الطفولة ؛ وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زجت مع سيدها إلى قلعة الكرك كانت حاملاً فسقطت نماً وروعاً . فإذا فرضنا أن هذا هو حملها الثاني بعد ولدها خليل ، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالى سنة ٦٣٠ هـ فإننا نستطيع أن نقدر سنّها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً .

وكانت شجرة الدر امرأة بديعة الخلال وافرة الجمال والسحر ، حسنة الثقيف ، بازعة في القراءة والكتابة . وتنوّه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصرفها للأمور ؛ وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط ، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية . وقد استطاعت غير بعيد أن تحوز بخلالها وقوة نفسها ، مكانة ممتازة لدى سيدها ، فكانت حظيته الأثرة ، وتوثقت مكانتها بمولد ولدها خليل ، وبرزت الأمومة من بين صفاتها فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبت به حين تولت العرش فعرفت بالملكة « عصمة الدين أم خليل شجرة الدر » (١) .

(١) تختلف الرواية الإسلامية في صحة اسم الملكة شجرة الدر ، فتذكر بمض الروايات أنه « شجر الدر » وليس « شجرة الدر » . ومن أورده بالصيغة الأولى أى شجر الدر ، جمال الدين بن واصل وهو مؤرخ معاصر ؛ وقد ذكرها على هذا النحو مراراً في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٣١ و٣٦٢ و٣٧٢) ؛ وكذلك أبو الفدا في تاريخه (ج ٣ ص ١٤٠ و١٤٢ و١٤٣ و١٩٢) ؛ وابن خلدون (ج ٥ ص ٣٦٢ و٣٦٣ و٣٧٧) . وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الإسلامية في مقال شجر الدر) وكذلك المستشرق لالين پول في كتابه من تاريخ مصر (ص ٢٥٥) . ولكن فريفاً آخر من المؤرخين ولا سيما المتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعني « شجرة الدر » . ومن هؤلاء الصفيدي في « الوافي بالوفيات » وابن قزأوغلي في « مرآة الزمان » (وقد نقل منهما صاحب النجوم الزاهرة) والمقريزي في كتاب السلوك وفي

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح ، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها ، وزججها عقلها ، وكانت مذ جمع القدر بينهما ، تعاونه في تدبير الأمور بحكمتها وصائب رأيها ، فلم تلبث أن تبوأ في البلاط وفي الدولة أسمى مكانة ، وغدت ملكة غير متوجة ، يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان ، ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهي كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التي فتنته بخلالها الرفيعة تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد ، فأعنتها وتزوجها ، ولم تبق شجرة الدر بعد جارية تسمو بجملها وسحرها ، ولكنها غدت غير بعيد سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ في بلاط القاهرة نفس الدور الذي لعبته من قبل صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده هشام المؤيد في بلاط قرطبة ؛ ولما توفي ابنها خليل طفلاً بعد ذلك بقليل لم تصدع هذه الضربة الأليمة من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

وكان الصالح نجم الدين مائلاً متين الخلق وافر الحشمة ، شديد الهيبة عمقت المحون والعبث ، ويؤثر العزاة ، ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب ، وكان يوكل شئون الدولة إلى كتّابه ، وله شغف خاص بلعب الصوالة وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلخالها الشخصية البديعة ، امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها في هذا السبيل ما أثر لا تحصى (١) .

= الخطط ، وابن شاعر الكتيبي في (فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧) وابن تفرى بردى في (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ، ولو أنه في كتابه المنهل الصافي يسميها « شجر الدر » (مخطوط دار الكتب ج ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧) والسيوطي في حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٨ و ٣٩) وابن أبياس في (بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩) . ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر في سائر المواطن التي لها علاقة بها ، مع أنه يتحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعاقل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم « شجر الدر » هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية ، خصوصاً وأن ابن واصل ، وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلاطها يؤيد هذه التسمية ، فإنه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم « شجرة الدر » هو الإسم الغالب الذي كانت تعرف به الملكة في البلاط وفي الحكومة أو بمباراة أخرى هو الإسم الشعبي الذي غلب عليها . ولهذا نضاه وأخذ به معظم المؤرخين المصريين ، وفي مقدمتهم المقرئزي . وقد رأينا نحن من جانبنا أن نأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوماً .

ولم يكن للملك الصالح في الوقت الذي بلغت فيه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليلة أخرى وهى المعروفة ببنت العالمة . وكانت زوجاً لملوكه الجوكندار (حامل الصوبخان) فلما توفى تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديديات من تدانى شجرة الدر في مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

وعنى الملك الصالح منذ تبوئه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة وتوثيق روابطها المفككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها صاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، وعين ولده المعظم تورانشاه نائباً على البلاد الشرقية ، واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وأنزع الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة ، وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين في النواحي .

وحالفه التوفيق أيضاً في محاربة الصليبيين فهزمهم في عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس ، وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التي سلمت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشئ فرقة المماليك البحرية، التي لعبت أعظم دور في تاريخ مصر في القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد) ، وتبوأ عرش مصر منهم ثبت حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء المماليك الترك ؛ وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضج الناس من عيهم واعتداءاتهم على النفس والمال ، وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولة يا شرمجلوب
قد أخذ الله أيوباً بفعلته فالناس كلهم في ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وزودهم

بأسطول نهري من الشواني المسلحة التي أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد بـ «الخالقة» أو الحرس السلطاني ، وكانوا بما أثر عنهم من الشجاعة والبراعة في القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح في أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة في أوائل سنة ٦٤٦ هـ ، وقد وُصف بأنه ناسور وعسر بول تلتته قرحة في الرثة ؛ وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لؤلؤ الأميني صاحب حلب على حمص . فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنقاذ حمص ، وحمل في محفة ، وهنالك بلغته الأنباء بأن حماة صليبية ضخمة في طريقها إلى مصر . فاضطر إلى التنازل عن حمص للمتغلب عليها ، وعاد إلى مصر في محفته وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته في أشموم طناح على مقربة من دمياط التي كانت في ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لافتتاح مصر ؛ وكان ذلك في المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سیرت إليها ، وهي الحملة الصليبية السابعة التي قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء في قبرس ، ثم ساروا إلى مصر في أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دمياط في ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩ م) . وفي الحال أوفد لويس التاسع رسله إلى ملك مصر بكتاب يننره فيه بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث ، وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شيء ، وأنه جاء بعسكر كعدد الحصى . وكان الملك الصالح مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط في حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان وبلاطه روح الثقة والعزم ، فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرورقت عيناه بالدمع ، ولكنه تنزع بالشجاعة والعزم ، وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضي بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وينوّه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، وينلر فيه ملك الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه وبغيه (١) .

(١) راجع نص هذين الكتابين في «السلوك في دول الملوک» للمقريز ج ١ (٢) ص ٣٣٤ و ٣٣٥

وفي اليوم التالي نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح . وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربي ، ووقعت بينهم وبين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقي ، وعندئذ دب الذعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخى سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطاني في أشموم طناح ؛ وهرع في أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط في صباح اليوم التالي دون قتال ولا مقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة ، واستشاط السلطان حنقاً لما وقع ، وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير فخر الدين يوسف ، وأمر بشنق عدة كبيرة من مقدمي الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولاً في محفته إلى المنصورة ، وهي المحلة التي أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل ، حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة في سنة ٦١٥ هـ ، ونزل بقصرها المتواضع ؛ وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها وإعدادها لنزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية في تلك القاعدة الجديدة . وقدم أسطول نهري من الشوانى الحربية ورابط في النيل تجاه المدينة ، وأنفذت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطاني سيل من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم في الأبهة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج في أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالاً بين المسلمين والفرنج . وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى في يد المسلمين ، أرسلت إلى القاهرة وطيء بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهري الذي ساد عليه الوجوم منذ سقطت دمياط ؛ واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين ، وأن تنزع منهم مدينة صيداء ، فجاء سقوطها معززاً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيه إلى أوائل نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) والملك الصالح أثناء ذلك يعاني أوصاب المرض ويسير إلى الموت نخطى بطيئة . وفي أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السل ثم أصابه إسهال عجل بالختامة ، فتوفي في قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان

سنة ٦٤٧ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩) ، وهو في الرابعة والأربعين من عمره ، وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم تورانشاه نائبه في الديار الشرقية . وكان يومئذ في حصن كيفا من أعمال ديار بكر ، فأنفذت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

كانت وفاة السلطان في تلك الآونة العصبية ضربة مؤلمة ، وكانت كفيلة بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير ؛ ولكن القدر كان رحيمًا بمصر ، وقد شاء القدر أن يختار لإنقاذ الموقف واتقاء الكارثة تلك الشخصية القوية الحازمة ، شجرة الدر .

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض في قلب المعسكر السلطاني ، تشرف على تدبير الشئون وإنفاذ الأوامر بمعاونة رجال القصر المخلصين ، وفي مقدمتهم الأمير فخر الدين يوسف ومحسن الطواشي . وكانت ترقب سير المرض يجزع وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر ؛ فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والأمة ، وتذكى ضرام الحرب الأهلية الخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم في أرضها يتأهب لإنزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة . ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير ، حتى استدعت الأمير فخر الدين يوسف كبير الخصاص ، ومحسن الطواشي وأوصيتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب ، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا ، فصدعا بالأمر ؛ وكان الأمير فخر الدين رجلاً وافر العقل والتدبير ، فبذل لتنفيذ هذه الخطة أصدق العون ، فأخذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخصاص والأطباء والغلمان ، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المعالجين ، ووضع الجثمان في تابوت حمل تحت جناح الظلام إلى الروضة ثم دفن فيما بعد في تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة . وبقيت الخدمة السلطانية على حالها ،

والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة ، وشجرة الدر تقول لهم : « السلطان مريض ما يصل إليه أحد » . وكان السباط السلطاني يمد في مواعيده ، وكأن السلطان حتى يتناول طعامه كالمتعاد ، وكانت الأوامر والكتب والناشير تخرج كل يوم مهمورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان) . وهنا تختلف الرواية في تفسير هذا اللغز المحكم ، فيقول البعض : إن السلطان حينما شعر بدنو أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بها على إخفاء موته حتى يحضر ولده ، ويقول البعض الآخر : إن شجرة الدر كانت لبراعتها في الكتابة تقلد العلامة السلطانية على الأوامر بمهارة ، وفي رواية ثالثة أن الذي كان يقوم بتقليد العلامة السلطانية هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل (١) .

وعلى أى حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خططها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب ؛ وفي غداة وفاة السلطان استدعت أمراء العسكر وقالت لهم : إن السلطان قد رسم بأن يخلفوا له ولابنه الملك المعظم تورانشاه ، أن يكون سلطاناً بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتبدير أمور المملكة ؛ فصدع الأمراء بالأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حياً ، ولكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر ؛ وأنفذت شجرة الدر في نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة ، أمراً مهموراً بالعلامة السلطانية ، أن يقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمي الحند بالقاهرة على ما تقدم ؛ فقام بتنفيذ الأمر بحضرة قاضى القضاة وكاتب الإنشاء الشاعر بهاء الدين زهير ، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع بالدعاء للملك المعظم تورانشاه بعد الدعاء لأبيه .

وسارت الأمور حيناً على هذا النحو والأمير فخر الدين يوسف يقوم بتبدير الشئون وإنفاذ الأوامر بإشراف شجرة الدر وتوجيهها ؛ وسار لاستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي .

والظاهر أن الفرنج وقفوا من جواسيسهم على نبأ وفاة الملك الصالح بالرغم مما أحيط به من التكتم ، وقدروا ما يترتب على ذلك من اضطراب الأمور في

(١) راجع ابن واصل في « مفرج الكروب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٦٢)
والسلوك في دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٣٩ و ٣٤٥ . والفجور الزاهرة من مرآة الزمان .

المعسكر الإسلامى ، فقررُوا السير من دمياط لمقاتلة المسلمين ، وزحفوا جنوباً نحو فارس كور^(١) وسفّهم تسير بجذائهم فى النيل ، واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان ، فأخذ المسلمون فى الاستعداد للقتال . ووصلت هذه الأنباء إلى القاهرة فانزعج الكافة لاقتراب الخطر ، وأخذ الخطباء فى الجوامع يحثون الناس على الجهاد ، فهرع كثير من المتطوعة إلى المعسكر السلطانى . وفى أوائل رمضان (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وصل الفرنج إلى شرق المنصورة ، وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم (البحر الصغير) واقتربت قواتهم فى النيل من المنصورة ، وكانت شواطئ المسلمين ترابط إزاءها ؛ وكان معظم عسكر المسلمين فى شرق النيل ، وبعض الفرق ترابط فى البر الغربى ؛ وبدأت المعارك المحلية بين الفريقين تشب متعاقبة فى البر والبحر ، وأخصصها تبادل الرمى بالنبال والحانيق ، واستمرت هذه المعارك مدى أسابيع بحالا بينهما يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى . وكان المسلمون يرساون أسرى الفرنج تبعاً إلى القاهرة لإنهاض الروح المعنوية بين الشعب ؛ وبذل الفرنج جهوداً عنيفة لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه لكى يستطيعوا مهاجمة المسلمين بسائر قواتهم ، ولكن المسلمين من جانبهم عملوا على إحباط هذه المحاولة ، وقذفت حراقات المسلمين نيرانها المروعة (النار اليونانية) على معسكر الفرنج فأحدثت فيه اضطراباً ودعراً ، وكان المسلمون ينفردون يومئذ بمعرفة أسرار هذا السلاح الذى لعب دوراً عظيماً فى الحروب الصليبية ؛ واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل شهر ذى الحجة والفرنج فى حيرة واضطراب ، وسرايا المسلمين تفاجئهم بالهجوم ، والنار اليونانية تدهشهم وتروعهم وتحرق خيامهم ومعداتهم ، ولا يجدون سيلاً لانتقامها ؛ وأخيراً استطاع الفرنج أن يقفوا من بعض الحونة على وجود مخاض إلى الجنوب فى بحر أشموم ، فعبروا منها إلى البر الغربى ، وتقدمت فرسانهم ورماتهم بقيادة الكونت دارتوا أنخى ملك فرنسا ، وفاجأوا المعسكر الإسلامى بالهجوم ، وكان قائد المسلمين الأمير فخر الدين فى الحمام فهرع مذعوراً ليقود المعركة فأثنى جراحاً وقتل ، وتفرق فرسانه ؛ وتابع الفرنج هجومهم إلى قلب المعسكر الإسلامى داخل المنصورة ، وتفرقت جموعهم تخشعاً فى المسلمين هنا وهناك ، ووصلت

(١) هى فارسكور الحديثة .

طلائع الهاجمين إلى أبواب القصر السلطاني ، وكادت الدائرة تدور على المسلمين وتحيق بهم الهزيمة المروعة . ولكن حدثت عندئذ مفاجأة لم يتوقعها الفرنج ، وذلك أن الحرس السلطاني المكون من المماليك البحرية أو رجال « الخليفة » وهم مماليك الملك الصالح ، الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس ، أطبقوا على الفرنج بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم ، وقتل الكونت دارتوا قائد الفرنج ومعظم رجاله ، ولم يبق من فرسان « الداوية » ^(١) سوى أفراد قلائل ، وهاكت في تلك الموقعة زهرة الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، وارتدت فلول الفرنج عند مغيب الشمس إلى تل جديد على بحر أشموم حيث بدأوا هجومهم المشثوم ، وحال الظلام بين الفريقين ؛ وكان ذلك في اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ م .

تلك هي المرحلة الأولى من موقعة المنصورة الشهيرة التي خلدت في صحف مصر الإسلامية ؛ بيد أنها لم تكن الخاتمة ، وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة الحنة ، وأن يجرعوا الكأس إلى الثمالة ؛ وأرسلت أنباء النصر في الحال إلى القاهرة ، فاطمأن الناس بعد الانزعاج ، وحل الاستبشار مكان التوجس ، وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر ، وكان يوماً مشهوداً .

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة ، فقد كانت هذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج ، في القصر السلطاني ، ترقب مصابير المعركة . ولما قتل الأمير فخر الدين يوسف ولاحت طلائع الهزيمة في البداية على المسلمين ، لم يحب عزمها ، بل لبثت رابطة الجأش والحنان ، تعاون برأيها وتشجيعها في توجيه المعركة ، ولما زال الخطر ورد الفرنج إلى مراكزهم ، لم تختار شجرة الدر قائداً جديداً للجيش ، بل آثرت أن تتولى بنفسها تدبير أمر الجند ؛ ولبثت على ذلك أياماً تعنى بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة ، حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم تورانشاه .

ارتدت فلول الفرنج منهزمة عقب الموقعة تقصد إلى مراكزها العامة ،

(١) الداوية أرفرسان المعبد **The Templars** وهم حسبما تقدم من أشهر جماعات الفرسان الدينية أيام الحروب الصليبية .

المسلمون في أثرها يشخون فيها . وكانت القوات الفرنجية المتخلفة قد انتهزت الفرصة أثناء ذلك فأنشأت خلال اليوم قنطرة على بحر آشمووم ، مما استولت عليه من الأخشاب والعتاد من المسلمين ، فلما ظهرت طلائع المهزومين ، عبرت قوات من الفرنج إلى البر الآخر لحمايتهم ، فعاد المسلمون إلى مراكزهم عند دخول الظلام ، وجمع الفرنج قواتهم في تلك البقعة وعدلوا عن خطة الهجوم إلى الدفاع بعد الذي حاق بهم ، وكذلك نظم المسلمون صفوفهم ، وأخذوا يحشدون عددهم وذنائبهم لمهاجمة الفرنج وردهم إلى الشمال .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بمقدم الملك المعظم ، وكان قد غادر حصن كيفا بالمشرق قبل ذلك بنحو شهرين ، وعرج في طريقه على دمشق ، ونظم شئون السلطنة فيها ، ووصل إلى الصالحية في ١٦ ذى القعدة أي بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام ، فاستقبله هنالك نائب السلطنة الأمير حسام الدين كوكبار رجال الدولة ، وتسلم مقاليد الملك بصفة رسمية ، وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة ، وكانت شجرة الدر طوال هذه الفترة تحرص على كتمان موته ، وتؤكد لرجال الدولة والقادة أن السلطان مريض لا سبيل إلى الوصول إليه .

وكانت فترة عصيبة استطلت زهاء ثلاثة أشهر ، ولكن شجرة الدر لم تفقد ثباتها لحظة واحدة ، وحالفها التوفيق فاستطاعت أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملكة ، وأن تؤدي مهمتها الفادحة بنجاح منقطع النظير .

وفي اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة وصل الملك المعظم في ركبه إلى المنصورة ، ودخل قصر أبيه ، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة وسلمت إليه مقاليد الأمور ، وكان حرياً أن تنال شجرة الدر شكره وعرفانه ، لما أسدت إلى الوطن العرش في تلك الآونة العصيبة من جليل الخدمات ، ولما يدين به لها من فضل ترشيحه للملك ، وأخذ العهد له في غيبته ؛ ولكن تورانشاه كان أبعد من أن يشعر نحو تلك المرأة القوية بشكر الصنيعة ، بل كان بالعكس ينحشاها ويتوجس من سلطانها ونفوذها ؛ وسرعان ما تنكر لها وبعث إليها وهي بالقاهرة يهددها ويطلبها بأموال أبيه وذنائبه ؛ فقبل إنها التجأت حيناً إلى بيت المقدس خيفة بطشه

وغدره^(١). وكان الملك المعظم قتي نزقاً عنيف الأهواء ، فأساء السيرة ، وبطش بكثير من رجال الدولة وحطهم عن مراكزهم ، واضطهد ممالك أبيه الملك الصالح ، فنقم عليه أكابر الدولة وزعماء الممالك ، وتغيرت نفوسهم عليه وأخذوا يترصدون الفرص لإزالته من طريقهم .

وفي أثناء ذلك كان الفرنج في مراكزهم في حيرة واضطراب . وكانت المون تأتيم في السفن من دمياط عبر النيل ، فدبر المسلمون خطة لقطع المون عنهم والبطش بهم ، وصنعوا عدة سفن قطعاً متفرقة حملت على ظهور الجمال ثم أنزلت في النيل على مقربة من دمياط وشحنت بالمقاتلة ؛ فلما جاءت مراكب الفرنج بحملة بالميرة هاجمها المسلمون بشدة وحطموها وغنموا ما فيها من العدد والأقوات وأسروا عدداً كبيراً من الفرنج ؛ فاشتد الضيق بالفرنج وساءت حالهم . وفي التاسع من ذى الحجة قدم من دمياط أسطول فرنجي جديد مشحون بالأقوات والمون ، فلقيته سفن المسلمين على مقربة من دمياط واستولت منه على اثنتين وثلاثين سفينة (مارس سنة ١٢٥٠ م) فتفاقم الأمر على الفرنج ، ودب إليهم الجوع والوهن وأخذ المرض يتفشى فيهم ؛ وكانت النيران التي تطلقها حراقات المسلمين على معسكرهم ، تزيد في بؤسهم وكرهم ، وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يأبى الارتداد حتى غلب نصيح أمرائه وقادته ، فاعزم مفاوضة المسلمين على نفس الشروط التي قبلها الملك الكامل سنة ١٢١٩ هـ . وهي أن يرد الفرنج دمياط إلى المسلمين على أن يستردوا بيت المقدس ؛ ولكن المسلمين لم يقبلوا المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج ، فعندئذ بلغ اليأس بالفرنج مبلغه ، وعولوا على الارتداد شمالاً نحو دمياط ، وأحرقوا خيامهم وعتادهم . وفي مساء يوم الثلاثاء الثاني من محرم سنة ٦٤٨ هـ (١٥ أبريل سنة ١٢٥٠ م) بدأ الفرنج ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم في النيل قبالتهم ؛ ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركة الفرنج ؛ وعندئذ جازت قواتهم فوق الجسر الذي أنشأه الفرنج على بحر أشموم ، وطاردهم بشدة ، فما أسفر الصبح حتى احتاطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة في تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة .

(١) النجوم الزاهرة (عن ابن قزأوغلي) ج ٦ ص ٢٧١ و ٢٧٢ .

ومزقوا شرمزق ، وقتل وأسر منهم ألوف عدة ، وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم .

وبلأ لويس التاسع أو رى لإفرنس (١) كما تسميه الرواية المصرية في نفر من خاصته وقادته وفرسانه إلى قرية منية أنى عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور ، وطلب الأمان من المسلمين ففتح الأمان ، واقتاده الطواشى جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهناك اعتقل ملك فرنسا في دار القاضى فخر الدين بن لقمان ، ووضع القيد الحديدى في يديه ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى (٢) . وفي بعض الروايات أن لويس التاسع اقتيد إلى معتقله معزراً مكرماً (٣) ؛ وكان نصرأ باهرأ لم يسمع بمثله منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

وسار الملك المعظم تورانشاه من المنصورة إلى فارسكور ، وهناك نصب الدهليز السلطانى ، وأقام السلطان إلى جانبه رجأاً من الخشب ، وانكب على لهوه وملاذه . وأرسلت البشرى إلى سائر الأنحاء فعم السرور والفرح في العاصمتين القاهرة ودمشق . وجاء في رسالة السلطان إلى نائبه في دمشق الأمير جمال الدين ابن يغمور في تفصيل الموقعة ما يأتى « نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعلو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويثس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا لاتبأسوا من رحمة الله . ولما كان يوم الإثنين مستهل الأيام المباركة فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقأ لا يعلمهم إلا الله . . . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل وقد حل بهم الخزى والويل ؛ فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج . وأما

(١) رى لإفرنس أو ريدافرنس هى مقابل الفرنسية القديمة Roy de France أو ملك فرنسا ؛ ولم يفت الرواية الإسلامية حقيقة شخصيته وأهمية مقامه . قال ابن واصل مؤرخ العصر : « وكان هذا أريدافرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً . وإفرنس هى أمة الفرنج ، ومعنى ريدافرنس ملك لإفرنس في لغتهم معناها الملك » (مفرج الكرب) .

(٢) السلوك في دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

الأسرى فحدث عنه البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيين (يريد ملك فرنسا) إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته » .

والظاهر أن نصر المسلمين على الفرنج وشعورهم بزوال الخطر كان نذيراً باضطرام الخلاف الداخلى ، ذلك أن الملك المعظم أساء السيرة كما قدمنا واضطهد كثيراً من رجال الدولة وزعماء المماليك البحرية ، ووضع في مناصبهم رجالاً من خاصته وأصدقائه ، الذين قدموا معه من المشرق ، وأخذ يهدد زوج أبيه شجرة الدر ويطلبها بأموال أبيه وذخائره ؛ فغضب الأمراء وأكابر الدولة لمصرفاته ، وغضب المماليك البحرية لما أوأته إياهم ، وكذلك لمساكه الخشن نحو شجرة الدر ، ونكران فضلها في ضبط المملكة ، والتمهيد لجلوسه على العرش ، وسرعان ما أخذت عوامل السخط تعمل عملها ؛ وكتبت شجرة الدر من القاهرة إلى زعماء المماليك البحرية تشكو أمرها وتطلب حمايتهم . وشعر المماليك البحرية بما يضمره السلطان لهم من الكيد والغدر ، فاتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم ، وليس هناك ما يدل على أن شجرة الدر قامت بتحريضهم على ارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنها اشتركت معهم في تدبيرها ، ولكن المؤامرة دبرت ونفذت بسرعة في المعسكر السلطانى . والظاهر أن الذى دبرها بالأخص اثنان من زعماء البحرية هما بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى . وفى مساء يوم الإثنين ٢٧ محرم (٦٤٨ هـ) أعنى بعد كسرة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى السباط فى خيمته ، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه . فما كاد ينتهى حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحتة فشقت إلى الذراع ، فوقع الهرج فى الخيم السلطانى ، وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبى الذى أقيم وراء المعسكر واحتفى بأعلاه ، فأسرع زعماء الحلقة فى أثره وفى مقدمتهم بيبرس وأقطاى وأخذوا يرمونه بالنبال ، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ، ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث والنجدة ، دون أن يتحرك إنسان لنجدته ، وتلقاه البحرية بالسيف من كل ناحية وأثخنوه جراحاً ، ولكنه استمر فى ركضه حتى ألقى بنفسه فى النيل وهم فى أثره ، وأجهز عليه الفارس أقطاى بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته إلى الجسر

وبقيت هنالك ثلاثة أيام في العراء ، ثم دفنت في مكانها بلا احتفال ولا تكريم .

وهكذا هلك الملك المعظم تورانشاه في عمر دامية ، فتي في عنفوانه ، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة أسابيع ؛ وشاء القدر أن يختم بموته ثبت ملوك بني أيوب وأن ينتقل عرش مصر من بعده إلى أسرة ملوكية جديدة .

وهنا عرضت مشكلة دقيقة هي من يخلف الملك القليل على العرش ؟ بيد أن البحرية لم يجدوا صعوبة في حل تلك المشكلة . وكانت شجرة الدر في قصرها بقلعة الجبل ترقب الحوادث ، وكانت هذه المرأة الموهوبة التي أثبتت بخلاها القوية أنها أقدر من عظماء الرجال تلوح لهم معقد الآمال ، ومن ثم فقد اجتمع زعماء البحرية ورجال الدولة وأمراء الجند في المعسكر السلطاني ، واتفقوا على ترشيح شجرة الدر لتبوء عرش مصر الإسلامية .

أجل كان تنصيب الملكات في الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل ، ولم تجلس من قبل امرأة على عرش دولة مسلمة مستقلة . ولكن ألم يكن من الممكن أن تستمد السوابق من نواح أخرى ؟ لقد جلس في العصور الغابرة على عرش مصر ملكات عظام ، وكانت الروايات والأساطير الذائعة يومئذ عن تاريخ مصر القديمة تذكر كثيراً من أولئك الملكات ، وكانت منهن واحدة على الأقل شهيرة معروفة تحيطها الأسطورة بكثير من الجلال والروع ، وهي كليوباتره أو كلاطره كما تسميها الرواية العربية^(١) . بيد أنه كان ثمة سوابق أخرى أقرب وأكثر ذبوعاً ، فقد كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) وهي جارة مصر من الشمال دولة عظيمة يقود مصايرها القيصرية ، ولكن ألم تجلس الملكات (القيصرات) أيضاً على عرش القيصرية ؟ أجل جلس منهن قبل شجرة الدر اثنتان هما الإمبراطورة إيريني معاصرة الخليفة المهدي وولده هرون الرشيد ، وهي التي تعرفها الرواية الإسلامية باسم « ريني » والإمبراطورة تيودورا معاصرة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ؛ وكان ممثل تيودورا بالأخص معروفاً في مصر ، فقد بعث إليها المستنصر بالله الفاطمي ، سفارته الشهيرة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أيام الشدة العظمى يستمد

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٠ .

منها القوات والعون فلم تحقق رجاءه ووقعت الحرب بين الدولتين . وإذن فلم يك
منصيب الملكات بدعة في الدول العظيمة ، فلماذا لا تجلس على عرش مصر
امراة كما جلست النساء على عرشها من قبل وكما تجلس النساء على عرش القياصرة ؟
اتفق رأى الزعماء والقادة على تولية شجرة الدر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية
باسمها ، وأن يكون مقدم الجند الأمير عز الدين أيبك التركمانى أحد زعماء
البحرية (١) ؛ وأخذت البيعة للملكة الجديدة في اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ
(مايو سنة ١٢٥٠ م) وحمل البشرى إليها الأمير عز الدين ، فاتبهت لما وقع
وبدأت عهدا الجديد كملكة لمصر الإسلامية .

وكانت تولية شجرة الدر حادثاً فريداً في التاريخ الإسلامى ، وإذا استثنينا
ما يقدمه لنا تاريخ بعض الإمارات الهندية المسلمة فإنه لم يحدث قط في أية مملكة
مسلمة أن تولت الملك امرأة (٢) ، وكذلك لم تجلس بعد شجرة الدر إلى يومنا
امراة قط على عرش مملكة مسلمة مستقلة .

وكان للحادث أعظم وقع في العالم الإسلامى حتى قيل إن الخليفة المستعصم بالله
العباسى نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول :
« إن كانت الرجال قد عذمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً » (٣) ،
ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين ، وشعر الزعماء الذين
ولوا شجرة الدر أنفسهم بهذا الشذوذ ، ومن ثم كان اختيارهم للأمير عز الدين
أيبك ليكون مقدماً على العسكر ، وليعاون شجرة الدر في نفس الوقت على
تصريف الشئون .

وقبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم ، وكانت يومئذ في نحو الأربعين

(١) ابن واصل في «مفرج الكروب» (مخطوط ج ٢ لوحة ٣٧٢) .

(٢) وأشهر ما يقدمه إلينا تاريخ الإمارات الهندية المسلمة في ذلك هو مثل السلطنة رضية
ملكة دهل (دهلي) التي وليت الملك عقب مقتل أخيها في أواسط القرن السادس الهجرى
واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب سافرة كما يركب الرجال (راجع رحلات ابن بطوطة
- مصر - ج ٢ ص ٢٢) . وظهرت أيضاً في أوائل القرن السابع في بلاد خوارزم وخراسان
أميرة أو ملكة عظيمة الشأن هي ترکان خاتون والدة للسلطان محمد بن تكش ، وكانت ذات سطوة
وسلطان (أبو الفدا ج ٣ ص ١٤٨) .

(٣) السلوك ج ١ (٢) ص ٣٦٨ ، وابن أبياس ج ١ ص ٨٩ ، والسيوطى في حسن المحاضرة

من عمرها تفيض قوة وعزماً ، واختارت لوزارتها صاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنّا وكان أول عهده بالوزارة ، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة ، فهى الملكة عصمة الدين شجرة الدر ، وهى « السّر العالى » « والدّة خليل » وهو ولدها المتوفى من الملك الصالح ، وكانت هذه علامتها على « الأوامر والمراسيم . ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل « اللهم وأدم سلطان السّر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين ، والدّة الملك خليل » ومثل « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح » ؛ وكذلك نقش اسمها على السّكة بالعبارة الآتية « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدّة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين »^(١) وقد اعتقد العلامة الأستاذ لاين پول أن هذه الألقاب تدلّ بأن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم^(٢) قبل أن تكون جارية للملك الصالح ، ولكن هذا الاستنتاج بعيد الاحتمال . وأكبر الظن أن كلمة « المستعصمية » التى أطلقت على شجرة الدر كانت تعنى انضوائها تحت لواء الخليفة العباسى من الوجهة الدينية مثل ما كان عليه سلاطين آل أيوب إذ كانت ترد إليهم الخلعة والتشاريف عند تولى الملك من الخليفة العباسى .

وكان أول ما عيّنت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج وإجلائهم عن الأراضى المصرية ، فندبت الأمير حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم إطلاق سراحه ، ويرون فى ذلك مصلحة كبيرة لمصر والإسلام . ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الإفراج عنه وعن باقى الأمراء المأسورين معه ، لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين ، وأن يطلقوا جميع الأسرى المسلمين ، وأن يطلق المسلمون كذلك أسرى الفرنج المعتقلين منذ أيام العادل والكاظم والصالح ؛ ثم خفضت الفدية المشترطة بعد ذلك إلى نصفها أى إلى أربعمائة ألف دينار ، وكانت

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين پول المشار إليه ص ٢٥٥ .

(٢) وتوجد فى المتحف البريطانى قطعة من النقود من عصر شجرة الدر تحمل الألقاب المشار

إليها وهى القطعة الوحيدة من نوعها (يراجع Lane-Poole: A History of Egypt p. 255 note)

مرجريت دى بروفانس ملكة فرنسا وزوج الملك الأسير يومئذ فى دمياط تعانى
آلام المرض والحنة ، فبذلت لجميع القدية المطلوبة جهوداً فادحة ؛ ودخل المسلمون
دمياط فى الثالث من صفر (٦٤٨ هـ) . وعلى أثر ذلك أفرج عن الملك لويس
التاسع وزملائه من الأمراء ورجال الدولة ؛ وكان من رفاقه فى المعتقل مستشاره
ومترجمه المؤرخ دى چوانفيل ، وهو الذى ترك لنا عن أخبار الحرب الصليبية
السابعة وحوادث مصر يومئذ مذكرات قيمة شائعة^(١) . وغادر الفرنج أراضى
مصر تواء وركب لويس التاسع وفلول جيشه ومن أفرج عنه من أسرى الفرنج
وقد بلغوا يومئذ عدة آلاف ، البحر فى سفنهم إلى ثغر عكا ، وكان ذلك فى
شهر مايو سنة ١٢٥٠ م .

وهكذا سمحت تلك الحماة الصليبية العتيدة فى الأراضى المصرية ، وقامت
مصر عندئذ بدورها التاريخى مرة أخرى فردت عادة الغزاة الصليبيين عن مصر
وبلاد المشرق ، وعمات على حماية الإسلام والمدنية الإسلامية من عدوان هذه
الحملات البربرية ، وقضت على قوة من أعظم القوى النصرانية التى سبرت
لغزو مصر باسم الدين .

وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين بن مطروح نائب دمشق فى تلك الموقعة
أبياتاً شهيرة ما زالت ترددها الأجيال يقول فيها :

قل للفرنسيس ^(٢) إذا جتته	مقال نصيح من قوؤل فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبغى ملكها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقت الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير أو جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بهذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح

(١) وقد وضعها دى جوانفيل De Joinville بعنوان Histoire de St. Louis (تاريخ

القديس لويس) ولها ترجمة انجليزية بعنوان : Memoirs of the Crusades

(٢) يريد هنا لويس التاسع ملك فرنسا .

وقل لهم إن أضمرُوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

كانت تولية شجرة الدر حركة جريئة وأكن خطرة في نفس الوقت ؛ ذلك أنه بالرغم من كل ما عرف عن الملكة الجديدة ، من أصالة في الرأي وقوة في الخلال ومقدرة في تدبير الشئون ؛ وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات وما أحرزته من نجاح في إجلاء الفرنج ، فإن فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء في مصر والشام لم يرق لهم أن يستظلوا بلواء امرأة . وسرعان ما ظهرت بوادر الانتقال الأولى في الشام حيث أبي نائب السلطنة في دمشق الأمير جمال الدين ابن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبي يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، فاستجاب لدعوتهم ، وقدم إلى دمشق وتسلمها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر ؛ وكان لهذه الأنباء في بلاط القاهرة أعمق صدى ، فجدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيك وبادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام .

ولكن شجرة الدر أخذت تشعر بحرج الموقف وتشعر بضعفها كامرأة عا ورات أن تزوج من الأمير عز الدين أيك فتقوى بذلك مركزها كملكة ، وتدعم عصمتها وهيبتها كامرأة ؛ وتم هذا الزواج بالفعل في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ ؛ ولكن الظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها في تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقمين ، فعندئذ رأت شجرة الدر أن تقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدي سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذي رفعها القدر إليه ؛ فاتفقت مع الأمراء المماليك على أن تخلع نفسها ، وأن يتولى العرش مكانها زوجها الأمير عز الدين أيك ؛ ونفذ هذا المشروع في نهاية ربيع الثاني ، وجلس عز الدين أيك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثاني .

ورأى المماليك فوق ذلك إرضاء لبني أيوب وتهدة لثورتهم أن ينصبوا إلى بجانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل في نحو السادسة ، وأخذت له البيعة في اليوم الثالث من جمادى الأولى ، وبذا جلس على عرش مصر ملكاً ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم المملكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتي « رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى المملكى الأشرفى والمملكى المعزى » . على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ نائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بني أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول العرش في مصر على اضطرامها ، وسير الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من المماليك ، فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاي في قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨ هـ) . ولكن هذا الفشل لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواته مرة أخرى وسار بنفسه إلى مصر ومعه عدة من أمراء بني أيوب ، وذاع خبر مسيره في القاهرة فاضطربت الأمور وقُبِض على كثير من المعارضين وأنصار بني أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاي للقاء المهاجرين ، ثم تبعه الملك المعز في بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة رجحت فيها كفة الشاميين أولاً ، ولكن المماليك صمدوا ودارت الدائرة في النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ووقع عدة من أمراء بني أيوب في الأسر ، وكان ذلك في أوائل ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزماً بقلوله إلى دمشق واعتصم بها ، واستقر الملك المعز في ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه واستقرت الأمور نوعاً ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصمه القوى الملك الناصر في سنة ٦٥١ هـ ، على أن يستقل المعز بالديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، ويستقل الناصر بما بقي من أراضي المملكة المصرية والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر وباقي الأمراء الأيوبيين المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعاً بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجاً فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً عاقلاً حصيف الرأى والحلال ، طاغية ظلوماً في نفس الوقت ؛ ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التي رفعتة إلى الملك ويصدع بأمرها ووحيا . وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه ، وتحمي عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش في توجس دائم من دسائس زعماء البحرية السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه ؛ وكان الخطر ماثلاً في الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء وفي مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاي ويبرس البندقدارى وقلاوون الألتى يتربصون به ويتحدونه بلا انقطاع . وكان فارس الدين أقطاي يتزعم هذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز ويناوئته كلما سنحت الفرص ، وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها في موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج ، وحدث أن خطب فارس الدين أقطاي ابنة صاحب حماة ، وطلب إلى الملك المعز إسكانها في القلعة في جناح من القصر الملكي لأنها من سلالة ملوكية ، فخشى المعز عاقبة هذا الطلب وتظاهر بالموافقة عليه ؛ ولكنه اعتزم في الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطر ؛ وبينما كانت العروس في طريقها إلى مصر في موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاي ذات يوم إلى القلعة وأعد له في نفس الوقت كميناً لقتله ؛ وجاء أقطاي إلى القلعة مطمئناً ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتل وفي مقدمتهم المملوك قطز الذي تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تلور الدائرة عليهم ، فركنوا إلى الفرار وسار بعضهم إلى الشام ، وقصد بعضهم إلى قيصر الروم وتفرق بذلك جمعهم وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

وعمد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى ، وهو الملك الطفل الذي أراد أن يتدرع بتوليته في وجه بني أيوب ، وأنزله من القلعة وردّه إلى منزله السابق بين أهله واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم .

وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً ، ولاح له أنه أمن شر خصومه من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم . بيد أن الخطر كان يحتمل في ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

كانت شجرة الدر خلال ذلك هي الروح المسيطرة على كل شيء في البلاط والدولة ؛ وكان الملك المعز يعاني من هذا الطغيان الأدبي المرهق ولا يرى سبيل الخلاص منه ؛ وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر ، تبحش بكل ما تبحش به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة ، وكانت قد تجاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غريبتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما^(١) ، بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة في نظر الملك المعز جحيمًا لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر في ازدياد ، ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية الزنكدة فكر في أن يضع لها حداً واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بلر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بخطب ابنته وكانت رائعة الحسن ، ولعله لم يكن في الوقت نفسه بعيداً عن التفكير في التخلص من شجرة الدر ، والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية في هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجم أخبره أنه سيموت قتيلاً على يد امرأة فلم يشك في أنها هي شجرة الدر وفكر في أن يكون البادئ بالعمل ، ولكن شجرة الدر كانت ساهرة رقب حركاته ومشاريعه ؛ وحدث حادث ترتب عليه اقتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم في « الحب » وعلى رأسهم أيديكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجرة الدر وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيديكين احتراماً وصاح بالتركية : « والله ياخوندا ما عملنا

(١) السلوك في دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

ذنباً يوجب مسكنا ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا
لأجلك فإننا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم ، فلما عتيناها تغير علينا وفعل بنا
ما ترين » . فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه « قد سمعت كلامك » .
ولما زج أيدكين وزملاؤه إلى الحب قال لهم « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس
القصر ، أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فإنه سيعاجلها بالتخلص
منها ، وأرسلت شجرة الدر سرّاً إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة
تنبئه فيها أنها اعتزمت التخلص من الملك المعز ، وتعهده بالزواج منه وتخليكه عرش
مصر ، فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر
الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب فأرسل إلى الملك المعز
يحذره من مشاريع زوجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ، فقد كان
يشعر في الواقع بالخطر الذي يترصص به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر
وغلمانها أينما ذهب ، وأخيراً اعتزم أن يخرجها من القلعة مبالغة في الاطمئنان
وأن يسكنها في دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً في مناظر اللوق بعيداً عنها
يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها
إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ، فلم تضع وقتاً ولحأت إلى دهاء
المرأة وخديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز في مقامه باللوق تتلطف به وتستحلفه الصفع
والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والإخلاص ؛
فما الذي جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة
بقية من صباة الماضي ؟ وهل نسي عندئذ ما كان يخالجه من ريب في نياتها
الخطرة ؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقاً إلى صوابها وولائها وتتخلى عن
مشاريعها السوداء ؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم ير بعد التفكير بأساً أن
يستجيب إلى دعوة زوجه المغزية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول

سنة ٦٥٥ هـ^(١) وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم في لعب الكرة مع بعض خاصته ، وما غربت الشمس حتى غادر المعز في ركبه مبدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً .

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة وغمرته بالابتسام والمداعبات ، فاستسلم إلى حفاوتها الغادرة ولم يتخذ لنفسه أى تحوط ، وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها ؛ وكانت قد رتبت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزى ومحسن الجوهرى ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة ؛ فاستراح المعز قليلاً ، ثم قصد إلى الحمام ليلا ليغتسل وهو آمن مطمئن ، ولكنه ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر . وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة . فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه في نفس الوقت حتى زهق . وفي رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه ؛ وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه ، وأن شجرة الدر تأثرت لتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه فصاح بها محسن الجوهرى مغضباً : « إذا تركناه فإنه لا يبقى علينا ولا عليك » . وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجه الغادرة الخوون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين ، وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ أبريل سنة ١٢٥٧ م) .

وبادرت شجرة الدر في الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة فأرسلت ليلاً إلى القاضي ابن مروزق واستشارته في الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز ، فاعتذر ولم يبد رأياً ، وأرسلت في نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحة مثل الأمير عز الدين أيلك الحلبي وجمال الدين العزيزى فلم يرتضها أحد

(١) يقول لنا المقريزى إن ذلك اليوم - وهو اليوم الذى قتل في مسائه الملك المعز - كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (السلوك ج ١ (٢) ٤٠٣) . ويقول لنا صاحب النجوم الزاهرة إن ذلك اليوم كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول (ج ٦ ص ٢٧٥) ، وقد رأينا بعد مقارنة التاريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح .

منهم رهبة وروعا ؛ وهكذا أخفقت شجرة الدر في محاولتها أن تقيم على وجه السرعة في السلطنة أميراً تستر وراءه في الحكم . وأذيع في صباح اليوم التالي أن الملك المعز مات بالليل فجأة ، فحدث أما هرج واضطراب ، ولم يصدق معظم الناس هذا النبأ ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب ، وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفي مقدم الحلقة ، وحاصروا القصر وقبضوا على الخدم والحريم ، فأقر بعضهم بحقيقة ما وقع . وفي الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفائزي^(١) ، ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور على ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صديداً في نحو الخامسة عشرة ، ووافق الأمراء الصالحة على توليته اتقاء الفتنة ، وفشلت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش .

وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر ، وكانت قد امتنعت بجناحها في القلعة مع نفر من خدمها وجواربها ، وحاولوا اقتحام الدار ، فنعهم الأمراء الصالحة ، وكادت تقع بين الفريقين فتنة ، لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها . وفي اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكي واعتقلت مع بعض جواربها في البرج الأحمر أمنع أبراج القلعة يومئذ ، وكان يقع في الناحية الجنوبية منها ، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة وفي مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة ، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزي الذي استطاع الفرار إلى الشام ، وأعدم عدة كبيرة من الغلمان والطواشي ، وقبض على الوزير صاحب بهاء الدين بن حنينا وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك في الجريمة ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل ؛ وأما شرف الدين الفائزي فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك الجديد أياماً ، ثم قتل في سجنه بعد ذلك بقليل ، وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطاني ووضعوا أيديهم على جميع ما فيه ، واقتسموا جوارب شجرة الدر ومتاعها ، وسادت في القصر والبلاط أسباب الذعر والإرجاف مدى حين .

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزي ، وكان قبلياً فأسلم وتقدم في وظائف الدولة حتى ولي رئاسة الوزارة للملك المعز ، وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل ، ثم قبض عليه وتوفي قتيلاً في جمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ .

ولبت شجرة الدر في معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهي تعاني أمرَ ضروب التوجس والروع ، وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم ، وأى مصير كان فينظرها سوى الموت في أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للفرار وأعين الممالك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان الممالك المعزية يخشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محنتها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم في العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود ؛ وكان الملك الفتي (المنصور) وأمه يضطربان ظمناً للانتقام من الزوج القاتلة ؛ وهكذا كان القدر الصارم يتربص بشجرة الدر ويدنو منها سراعاً ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل ويطالبون جهازاً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أثمت ، والممالك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها ، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف ، فلم تمض أيام قتلائ حتى خفت معارضتهم وانحوا أمام العاصفة . وفي يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثاني (١) نفذ الممالك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكي تتولى عقابها بنفسها ؛ وهنا يقول لنا المقرئى : « فضر بها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت ، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت في الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكه سرابيلها . ثم دفنت بعد أيام - وقد نتنت وحملت في قفة - بتربتها قرب المشهد النفيسى . . . » (٢) ، وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أقينت بهلاكها كان من قوة نفسها

(١) تختلف الروايات المصرية في تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت في تاريخ مقتل زوجها الملك المعز . فيقول لنا المقرئى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعنى بعد مقتل المعز بثلاث أيام وذلك وفقاً لروايته (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٤) . ويقول لنا صاحب النجوم الزاهرة فقلاً عن غير رواية إن مقتل شجرة الدر كان في يوم السبت ١١ ربيع الثاني وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨) . ويقول أبو الفدا أنها قتلت في يوم ١٦ ربيع الثاني ويقول ابن إياس أنها قتلت يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الثاني (ج ١ ص ٩٢) . وقد أخذنا نحن بالرواية الثانية لأنها أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث .

(٢) دفنت شجرة الدر في التربة التي أنشأتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة في سنة ٥٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) . وما تزال هذه التربة قائمة إلى اليوم . وهي توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة وتعرف اليوم باسم =

أن أخذت بحملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة ، وحطمتها وسحقها في الهاون حتى لا تقع في أيدي أعدائها (١) ، وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التي لبثت أعواماً طويلة زينة البلاط المصرى وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذى زهق به زوجها الملك المعز ؛ وكان القصاص مثيراً ، ولكن عادلاً ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحي ، بدأت رائحة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة ؟

كانت شجرة الدر بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة شخصية عظيمة ، تمتاز بخلال ومواهب غير عادية ، وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامراً وحظية ، تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع في حسناء وافرة السحر ، فقد كانت قوية النفس ، صارمة العزم ، وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش في جو من المهابة والجلال ؛ ولم تكن فقط جارية القصر الأثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ، ولكنها كانت تسيطر أيها حلت بقوة عقلها وذكائها وروحها ؛ وقد لبثت منذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر ، زهاء ثمانية عشرة عاماً أُرز شخصيتها في البلاط وفى الدولة ، يغلب رأيها كل رأى ونفوذها كل نفوذ ، ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى ، إلا عنوان النروة في هذا المجد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثبت جنانها وتوجيهها الجريء أثناء غزو الصليبيين لمصر ، أعظم الأثر في إنقاذ مصر من كارثة

= جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة ، وعلى التربة قبة من طراز عباسى كتب في جنباتها ما يأتى : « بسم الله الرحمن الرحيم . من الستر الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، وألدة ملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه وفور ضريحه ؛ التى خطبت الأقاليم بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاعر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الأورى ، وأصبحت شמוש المملكة بها طالعة ، وآراء الأمراء لها مطيعة وسامعة ، وأمر الله أنصارها ، ومضاعف انتدارها ، وأعلى منارها ، وجعل فى الملاء الأعلى خدامها . ولم تزل مؤيدة منصوره على ير الليالى والأيام ، بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبي للمرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب ، ونشر بمجلة العمارة جددى ٧ - ٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) السلوك ج (٢) ص ٤٠٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

مروعة ، وتحولها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها ، وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة رأى ، وكانت حتى في تلك الآونة التي بدأت تغالبها فيها الظروف وأخذ يخبو نجمها المتألق ، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدئ ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التي رفعها القدر إلى عرش مصر ، تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة ، فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة تعشق أعمال البر وتوقف عليها الكثير من مالها . وكانت الغيرة العنيفة هي أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التي أضلتها ودفعتها في النهاية إلى الخاتمة المؤسفة .

* * *

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حدث يافع هو ولده الملك المنصور على ، ولم يكن أصلح من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش ؛ ومع ذلك فلم تبدأ الحواطر ، ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرامها ؛ وكانت مصر أثناء هذا المعترك الدموي حول عرشها ، تواجه فترة من أدق فترات تاريخها ، وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو المشرق بسرعة ، وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً ، وبلغ الخطر المروع ذروته حينما انقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية ، وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك في صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) ؛ وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق ؛ وسرعان ما كشف هلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ؛ وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو المشرق ، ولم يك ثمة شك في النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرّب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء . في تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قطز أقوى الزعماء البحرية في

ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملكة ، وكان يرقب سير الحوادث في الشرق بمجزع ، ويرى أن وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر في هذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانه ، فانتهاز أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملكاً (٢٤ ذو القعدة سنة ٦٥٧ هـ) وأعلن إلى زملائه الأمراء في صراحة أنه لا ينبغي الملك لذاته ، ولكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم ، فإذا تم القضاء على هذا الخطر ، فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام في أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب ، وأعلنت دمشق خضوعها لهم ، ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنابات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل ، وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة في حشد الجند وإتمام الأهبة ، فلما وصل رسل هلاكو ، أجاب قطز بالقبض عليهم وإعدامهم وتعايق رؤوسهم على باب زويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين وبادر بقاء الغزاة في عزم وثقة ، وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة ، واشتبكوا معهم في معركة عظيمة حاسمة في عين جالوت على مقربة من بيسان ، وذلك في منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) ؛ وفي عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام ؛ ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المظفر « قُطُز » أن يستخلص الشام من التتار وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين ، وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار كما كان لها من قبل فضل القضاء على سيل الغزوات الصليبية ، وكانت في عين جالوت تقوم رسالتها التاريخية في حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

تيمورلنك

(٧٣٧ - ٨٠٧ هـ) ، (١٣٣٦ - ١٤٠٥ م)

كانت سهول التركستان الوعرة منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي مبعثاً لطائفة من أكابر الغزاة البدائيين ؛ وكانت غزواتهم الخربة تنساب دائماً نحو الجنوب والغرب ، وكانت مناطق شمالي الهند وفارس تجذبهم دائماً بحضارتها ومواردها التالدة ؛ وكانت فارس بالأخص مركز اندفاعهم نحو الغرب . ففي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي خرج تموجين الشهير بچنكيزخان من أقاصي مملكته الشاسعة في أواسط الصين على رأس جيش من المغول والتتار ، واجتاح بلاد التركستان (ما وراء النهر) ثم انحدر هذا السيل المروع إلى خراسان والهند وخرب مدنها الزاهرة (١٢١٩ م) وانساب التتار بعد ذلك خلال فارس حتى العراق ، ولكن السيل كان قد هدأت حدته ، وارتد الغزاة أمام جند الخلافة ؛ وعاد چنكيزخان إلى مملكته بعد أن جعل من أواسط آسيا قفراً بلقياً .

ولم تخب فورة الغزو المخرب بوفاة چنكيزخان ؛ ولكنها تجددت بعد قليل على يد هلاكو عاهل التتار في فارس . وكان اندفاع التتار يومئذ نحو الغرب أو بعبارة أخرى نحو الممالك الإسلامية قوياً مروعاً . ففي أوائل سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) زحف هلاكو على رأس جموعه التتار إلى بغداد وحطموا كل مقاومة ، ودخلوها دخول الضواري المفترسة ، ودمروا صروحها ونهبوا خزائنها وذخائرها ، وقتلوا عشرات الألوف من أهلها ، وقضوا على الخلافة العباسية وعلى معالم الحضارة الإسلامية في مناظر هائلة من السفك والتدمير ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته ، وانتهت بذلك حياة الدولة العباسية بعد أن عاشت نحو خمسة قرون .

ثم تابعت جموع التتار بعد ذلك زحفها نحو الغرب ، وجازت الفرات واجتازت بلاد الجزيرة ، ثم اتجهت نحو الشام واستولت على حلب ودمشق ، وانسابت بعد ذلك نحو الجنوب تريد غزو مصر ؛ ولكن شاء القدر أن يكون تحطيم هذا السيل المدمر على يد مصر . ففي رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر ١٢٦٠ م)

التقت الجيوش المصرية بالغزاة في عين جالوت على مقربة من بيسان ، ومزقتهم بعد موقعة دامية ، وارتد التتار على إثر هزيمتهم نحو الشرق ، واستطاعت مصر أن تؤدي بذلك رسالتها التاريخية في حماية تراث الإسلام والمدنية الإسلامية مرة أخرى .

ومضى زهاء قرن آخر قبل أن يتجدد خطر الغزو التتري . ولكنه عاد منذ منتصف القرن الرابع عشر يضطرم مرة أخرى وفي نفس مهدد القديم أعنى سهول التركستان . ففي تلك الآونة ظهر في الميدان قائد فتي قدر له فيما بعد أن يحتل مكانه بين أعظم غزاة التاريخ . ذلك هو تيمور أو تيمورلنك . وكان مولد هذا الفاتح العظيم في سنة ١٣٣٦ م (٧٣٧ هـ) في بلدة كش على مقربة من سمرقند ، وأبوه تراجاي زعيم قبيلة برلاص إحدى قبائل التتار القوية . وكان قد اعتنق الإسلام واعتنقه أبناء قبيلته ؛ وهكذا نشأ ولده تيمور مسلماً . وتعلم تيمور الفروسة منذ صباه ومهر فيها ؛ بيد أنه كان يعاني من عاهة أصيب بها وهو فتي ، وهى عرج في إحدى ساقيه ترتب على إصابته في بعض مغامراته من سهم رمى به ، ومن ثم كانت تسميته بتيمورلنك (أو تيمور الأعرج) . وظهر تيمور في ميدان الحرب منذ سنة ١٣٥٨ م حيث أرسله « كورجان » صاحب چاكاتاي على رأس جيش من الفرسان ليغزو خراسان . ولما قتل كورجان وثب إلى الملك تغلق تيمور صاحب كشغر وهو من ولد چنكيزخان ، واختار تيموراً لحكم بلاد ما وراء النهر ، وغدا تيمور في الوقت نفسه عقب وفاة أبيه زعيماً لقبيلة برلاص وقوى أمره وتآلق طالعه . ولما توفى تغلق تيمور حل تيمورلنك في الحكم مكانه ؛ واثارت بينه وبين صهره ومنافسه مدى حين معركة شديدة على الحكم فهزمه وقتله ، واستولى على بلخ وتربع أخيراً على عرش سمرقند ، وبسط سلطانه على المملكة كلها (سنة ١٣٦٩ م) .

ومن ذلك التاريخ يبدأ تيمور حياة الغزو الباهر ، وتسير غزواته في نفس الاتجاهات التاريخية التي سلكها أسلافه الغزاة التتار من قبل . وقد بلغت غزواته زهاء خمس وثلاثين غزوة استطاع خلالها أن يشحن في الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وأن يفتح قطراً بعد قطر ، ويسحق مملكة بعد أخرى ، وكانت فارس وهى دائماً مجاز التتار إلى الغرب في مقدمة فتوحه ، وكانت حينما

غزاها قد انحدرت إلى غمر الفوضى وانقسمت إلى ممالك وإمارات عدة ، فاجتاحها تيمور بسرعة ، وقضى على أعظم أمراثها الشاه منصور في موقعة شيراز ، وتابع زحفه حتى الخليج الفارسي ؛ ثم غزا بغداد والجزيرة والقوقاز وأرمينية ، وغزا خوارزم فقاومه ملكها تقطامش مدى حين وخاض معه عدة معارك انتهت بهزيمته وسقوط مملكته في يد الفاتح (سنة ١٣٩٥ م) .

وفي سنة ١٣٩٨ غزا تيمور الهند . وكان يومئذ قد جاوز الستين ولكنه كان يضطرم أبداً بشغف الفتح ، فاجتاحها بسرعة وأثنى في بساطتها وخرب قواعدها واستولى على دهلي حاضرتها ؛ وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى . وفي العام التالي أعنى في سنة ١٣٩٩ خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة واخترق فارس ، ثم اتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية ، وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بني عثمان الذين بزغ نجمهم في هاتيك الأقطار قبل ذلك بنحو مائة عام ، وكانوا يغرون على تلك المنطقة من آن لآخر ، وكانت أملاك تيمور وبني عثمان تلتقي هنالك عند أرضروم والفرات ؛ وزحف تيمور على سيواس ، وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل ، واستولى عليها ، وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية محاصرها ، فلم يستطع شيئاً ، واخترق تيمور بلاد الأناضول وانحدر بجيشه جنوباً نحو الشام وهي يومئذ ولاية مصرية يقصد افتتاحها ، ثم يفتح مصر ، وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامي كله ، ويحقق المشروع الذي عجز التتار عن تحقيقه منذ مائة وأربعين عاماً عند ما هزموا على يد مصر في عين جالوت سنة ١٢٦٠ م .

وفي أوائل سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) اجتاح تيمور شمالي الشام دون مقاومة واستولى على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول) ، ثم اخترق الشام جنوباً إلى دمشق ؛ فروع مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أما اضطراب ، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيشه لملاقاة الفاتح التتري ، فوصل إلى دمشق في جمادى الأولى وفي ركابه جمع من العلماء على رأسهم المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون نزيل مصر يومئذ . واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح في معارك محلية ثبت فيها المصريون ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافاً حدث في معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ،

ونعى إلى السلطان أن مؤامرة دبّت لخلعه فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعاً في صحبه إلى القاهرة . وعندئذ رأى جماعة العلماء والفقهاء أن يحاولوا إنقاذ المدينة بطلب الصلح والأمان من الفاتح ، وتولى ابن خلدون لقاء تيمور ومفاوضته بالنيابة عنهم ؛ ويصف لنا المؤرخ ذلك اللقاء الشهير في « تعريفه » وصفاً شائقاً ويورد لنا ما وقع بينه وبين الفاتح من الأحاديث^(١) . ووافق تيمور على تسلم دمشق ومنحها الأمان ، وندب ولده شاه ملك لاستلام المدينة وحكمها ، ولكنها لم تنج مع ذلك من عيئه وسفكه ، فقد اقتحم جنده المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والتخريب والنهب مدى حين .

بيد أنه كان من حسن الطالع أن مكث تيمور بالشام لم يطل . ذلك أنه لم تمض سوى شهرين حتى وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد سلطان الترك وحركاته ، فغادر الشام شرقاً إلى الفرات ، ثم سار شمالاً إلى بلاد الكرج ، وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة « الروم » وهو الاسم الذي كان يطلق يومئذ على مملكة الترك العثمانيين .

وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظميين وقائع تلك المعركة الحاسمة التي تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر . فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنهم على مسلك مليكهم ، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه ، ويفاخر بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ، ويحذره من سطوته وبطشه ، ويتحداه في عبارات جافة مثيرة ؛ فرد عليه بايزيد برسالة الشهيرة التي تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير ، وفيها يسخر من تيمور وينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته ، وينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن وإلى ضآلة شأن خصومه ، ويحمل على وسائله في الحرب والسياسة ، ويرميه بالعدوان والغدر ، ويرمى جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور ، وينوه بقوته ومقدرته جنده وعظيم استعداداته للحرب والطعان ، على أن ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدى الغريب الذي اختتم به بايزيد

(١) راجع كتابي ابن خلدون الطبعة الثالثة ص ٨٧ - ٩٤ . وراجع « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » ، وهي الترجمة التي كتبها ابن خلدون لنفسه (القاهرة ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١) ص ٢٦٦ - ٣٨٠ ، وكذلك راجع وصف ابن عربشاه لهذا اللقاء الشهير بين المؤرخ والفاتح في كتاب عجائب المقدور ص ١٠٢ .

رسالته إلى تيمور ، إذ يقول له : « فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثاً ، وإن قصدت بلادى وفرت عنك ولم أقاتلك فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثاً » ؛ ويعنى ابن عربشاه مؤرخ تيمور^(١) عناية خاصة بذكر محتويات الرسائل التى تبادلها الملكان ، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هذا القسم الغريب الذى يلقيه بايزيد فى وجهه ، ثارت نفسه غضباً « لأن ذكر النساء عندهم من العيوب ، وأكبر الذنوب » فكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نساء الفاتح وحيلاته .

وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذى يشهره كلاهما فى وجه الآخر ، فبادر تيمور إلى الزحف فى جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول ونفذ إلى مملكة « الروم » واستولى فى طريقه على مدينة قيصرية ، ثم اخترق نهره هاليس وطوق مدينة أنقرة ، التى شاء القدر أن تغلوا فى عصرنا مهدياً لبعث تركيا الجديدة . وكان بايزيد قد استطاع فى الفترة التى قضاه تيمور فى الشام أن يجمع قواته وأن يستكمل أهيته . وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل ، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف ، وهى أرقام هائلة فى تلك العصور ، وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة . وكان الجيش العثمانى يتفوق على جيش التتار بنظامه ويمتاز بالأخص بفرق الأنكشارية الجريئة ، ولكن جيش التتار فضلاً عن تفوقه العددي ، كان متفوقاً فى روحه المعنوى . وكانت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها التتار ما بين السند والأناضول ، قد بثت فى نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة . ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقاءه فى ظاهر أنقرة ، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ^(٢) (أواخر يولييه سنة ١٤٠٢) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة ، ولكن سرعان ما دب الوهن إلى قواته وانسحب بعضها من الميدان بإغراء تيمور ووعوده ، وعندئذ حلت النكبة بالترك فزقت قواتهم وصحقت ، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله ، وفر ولده سليمان فى بقية من الجيش صوب بورصة (بروصة) عاصمة المملكة ، وطارد الغزاة العدو المنهزم

(١) فى كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور .

(٢) عجائب المقدور (مصر سنة ١٣٠٠ هـ) ص ١٣٩ .

واستولوا على كوتاهية ، ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بورصة فاستولى عليها وعاث فيها ، ونهب القصور المملوكية وسبى حريم السلطان ، وفر سليمان إلى الشاطئ الأوربي حاملاً ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه ، وسُحق ملك بني عثمان تحت سنابل الغزاة مدى حين .

وهنا تعرض للجدل صفحة غربية في تلك المأساة الشهيرة . فإن ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا ، إن الفاتح التتري سجن بايزيد في قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس^(١) ، وهي رواية عربية تؤيدها كثير من الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة . ومما يجدر ذكره أن ابن عربشاه مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط ، واستقى مادته في سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته رداً من الزمن ، وسمع أقوال رواة وشيوخها المعاصرين لتيمور ، واستقامها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد حيث قضى في خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الإنشاء ، واطاع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التي تتعلق بسيرة تيمور وغزواته ، وإذن فليس فيما يملو في روايته عن القفص الحديدي الذي سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب .

وهناك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسي معاصر هو شرف الدين علي اللذي كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً ، تحقيقاً لرغبة حفيده السلطان إبراهيم ، وخلاصة هذه الرواية هي أن تيموراً حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته نهض للقائه ، وأكرم وفادته ، وأجلسه إلى جانبه ، وعتب عليه في لفظ رقيق ، وحمله تبعة ما وقع ، ووعد بهصون حياته وشرفه ، فتأثر بايزيد لكرم خصمه ، وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعتة ، وعانق ولده موسى الذي أسر معه والدمع ينهمر من عينيه ، وأنزل السلطان وباقي الأمراء منزلاً حسناً . ولما وصلت زوج السلطان وهي المملكة دسبنا اليونانية وابنتها وباقي

(١) صجائب المقدور (مصر) ص ١٣٩ . ويشير ابن عربشاه هنا إلى أسطورة تاريخية مشهورة ينسب وقوعها إلى عصر الإمبراطور جاليريوس فاليريوس الروماني . وذلك أنه حارب الفرس في جبال أرمينية سنة ٢٩٧ م وانتصر عليهم وأسرقائدهم وهو ملك أو أمير يدعى سابور ، فيقال إنه وضع أسيره في جلد بقرة ، ويقال أيضاً إنه وضعه في قفص من الحديد . وتنسب بعض الروايات هذه الواقعة إلى الإمبراطور مكسيميان . وتروى هذه القصة على سبيل الأسطورة . وليس لها ما يؤيدها في التاريخ .

حريم السلطان ، حملن إليه مكرمات معززات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التي أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر ، وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعدته برد عرشه ومملكه ؛ ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفي ، فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم ، في المدفن الذي أقامه لنفسه في بورصه ، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول .

على أن هذه الرواية لا ترجح في نظرنا رواية ابن عربشاه ، فهي على ما يلوح رواية قصر أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه . ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيون أن يوفق بين الروایتين فيقول لنا : إن رواية شرف الدين في شقها الأول صحيحة لا ريب فيها ، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته ، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغلظة ، فاستاء تيمور واعزم أن يقود أسيره في ركه الظافر إلى سمرقند ؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حلت تيموراً على التشدد في معاملته ، فزج به إلى قفص من الحديد اقتداء بما قرأه في بعض السير القديمة ، من أن سابوراً أحد ملوك الفرس وقع في قبضة قيصر فسجنه في قفص من الحديد^(١) ؛ ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب في التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة ، فدعا ذات يوم إلى حفل أنس عقده ؛ ولما جاء دور الشراب التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن ، وقد كان ذلك من تيمور مبالغة في الانتقام من خصمه ، والتشفى منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء في مكاتبتة^(٢) . وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها في الملك الأسير ، فلم تمض على محنته بضعة أشهر حتى توفي في غمر الحشرات والأسي ، وكانت وفاته في مارس سنة ١٤٠٣ م (٨٠٦ هـ) .

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وآخر انتصاراته ، فلم يمض قليل على عودته في جيشه المظفر إلى مملكته حتى أدركه المرض ، وكان يتأهب لغزو الصين فلم يستطع تحقيق مشروعه ، وتوفي بالحمى وهو معسكر بجيشه على ضفاف سيجون في بلدة أوترار في ١٧ فبراير سنة ١٤٠٥ م (شعبان ٨٠٧ هـ) ، وقد

(١) جيون *Decline and Fall of the Roman Empire* الفصل الخامس والستون .

(٢) عجائب المقدور ص ١٣٣ .

أرني على السبعين من عمره ، فحفظ جثمانه بالمسك وماء الورد ، ولف في لفائف من الكتان ، ووضع في تابوت من الأبنوس ، وحمل إلى سمرقند حيث دفن في مدفنه الذي ما يزال قائماً حتى يومنا .

ويقدم إلينا ابن عربشاه بأسلوبه البليغ المسجع عن تيمور صورة قوية ولكن قائمة ، ويحمل عليه في كثير من المواطن ، ويصف لنا ما أنزله الفاتح بمختلف الشعوب والأمم ، من رائح الويل والسفك ، في قصيدة طويلة يقول فيها :

ناهيك منهم فتنة	كالأبحر الظلمات
الأعرج الدجال من	قصم الجماجم والظهور
داخ البلاد ودارها	نوائب الدنيا تدور
أملى له الله الحليم	فزاد عدواً في فجور
فاجتاح كل الخلق من	عرب ومن عجم القطور
ومحا الصدى ودعا الردى	بحسامه الباغي يبور
أفنى الملوك وكل ذى	شرف وذى علم وقور
وسعى إلى إطفاء نو	ر الله والدين الطهور
فأباح إهراق الدماء	من كل صبار شكور
وأحل سبي المحص	نات المؤمنين من الخدور
طوراً يرى نكث العهو	د وتارة نقض النور
أبقت عليه فعاله	لعناً على مر العصور

ومع ذلك فلسنا نجد أبلغ من قلم ابن عربشاه نفسه ، في وصف شخصية تيمور وخلالله ، فهو يفرد في خاتمة كتابه فضلاً لذكر « صفات تيمور البديعة » يصف لنا فيه شخص الفاتح ، ويشيد بمواهبه الخارقة في هذه العبارات الشعرية : « وكان تيمور طويل النجاد ، رقيق العماد ، ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوة والبأس ، عجيب التكوين ، أبيض اللون مشرباً بالحمرة غير مشوب بسمرة ، مستكمل البنية ، مسترسل اللحية ، أشل أعرج اليمنوين ، عيناه كشمعتين غير زهراوين ، جهير الصوت ، لا يهاب الموت ، قد ناهز الثمانين . كأنه صخرة صماء ، لا يحب المزاح والكذب ، ولا يستميله اللهو واللعب ، يعجبه الصدق ولو كان فيه ما يسوؤه ، لا يجرى في

مجلسه شيء من الكلام الفاحش ولا سفك دم ، ولا من سبي ونهب وغارة وهتك
حرم . مقداماً شجاعاً يجب الشجعان والأبطال ، ذا أفكار مصيبة وفراسات
عجيبة ، وسعد فائق وجد موافق ، وعزم بالثبات ناطق ، ولدى الخطوب صادق ،
محجاجاً درأكاً للمحة وللمزة ، مرتاضاً مستيقظاً لرمزه ، يفرق بين الحق والمبطل
بفراسته ، ويدرك الناصح والغاش بدربة درايته ، ويكاد يهذى بأفكاره النجم
الثاقب ، ويستتبع بآراء فراسته ، فريد الطور بعيد الغور ، لا يدرك لبهر
تفكيره قعر ، ولا يسلك في طور تدبيره سهل ولا وعر . ثم يعتمد المؤرخ
بعد ذلك إلى تحليل نفسية الفاتح وبوادر عظيمته وفخاره ، وإلى إحصاء ما ثرد
بلهجة المؤرخ الصادق الذي لم تفقده عواطفه الشخصية ميزة الناقد الحق^(١) .

ويعتبر تيمورلنك من أعظم فاتحي التاريخ ، وقد بسط حكمه على عدة ممالك
وأقطار مترامية الأطراف ، تمتد من تركستان إلى الأناضول والشام غرباً ، ومن
أواسط آسيا إلى نهر الكنج والخليج الفارسي جنوباً ، ووصلت فتوحاته إلى نهر
القولجا وشواطئ البوسفور . بيد أن وفاته كانت نذيراً بانحلال هذا الصرح
الشامخ ، الذي شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه .

(١) راجع هذا الفصل في هجائب المقدور ص ٢٠٩ وما بعدها .

الكتاب الثاني

تراجم أندلسية

- ١ -

من أبطال الحرب والسياسة

موسى بن نصير

(١٩ - ٨٩٧) ، (٦٤٠ - ٧١٥ م)

كان فتح العرب لمصر فى سنة عشرين من الهجرة فاتحة اندفاع الغزوات الإسلامية نحو الغرب ؛ وبالرغم من صعوبة الفتوحات الغربية ، ووعورة الصحارى والهضاب التى جازها الغزاة ، وعنّف المقاومة التى لقوها ، فإنه لم يمض زهاء نصف قرن آخر حتى شملت الغزوات الإسلامية شمال إفريقيا بأسره ؛ ولم تأت أواخر القرن الأول للهجرة حتى كانت فتوح الخلافة تمتد من مصر غرباً إلى المحيط الأطلنطى . وتمت هذه الفتوح العظيمة وتوطدت ، على يد نخبة من أكابر القادة الذين تعاقبوا فى حكم إفريقيا مثل عقبة بن نافع الفهري ، وزهير بن قيس البلوى ، وحسان بن ثابت الغسانى ، وموسى بن نصير اللخمي ،

وكان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . وكان أول فاتح مسلم قلدر أن يجوز الإسلام على يديه إلى القارة الأوربية . ومع أن الرواية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقيا ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأن كثير من زعماء الإسلام فى القرن الأول . على أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين لصحابة الرسول ، وأنه ولد فى سنة ١٩هـ فى خلافة أمير المؤمنين عمر ، فى قرية من قرى الجزيرة أو بوادى القرى فى شمالى الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر ابن وائل ، وإن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر . وقيل إنه ينتسب بطريق اللولاء إلى بنى لحم وإن أباه نصيراً كان على حرس معاوية ابن أبى سفيان ، ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه . وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب فى بعض المناصب العسكرية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقيا ، وقاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة ؛ وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة فى سنة ٧٣هـ ، وكان يتولى قيادة الجند بمصر ، ندب موسى بن نصير

لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر في خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة ، فلما ولي الحجاج حكم العراق في سنة ٧٥ هـ ، أتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج ، سوى تدخل عبد العزيز بن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به ؛ ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبت بها يتبوأً لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية (١) .

وتختلف الرواية في تاريخ تولية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت في سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ في عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت في سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ في عهد ابنه الوليد . ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثاني لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث في إفريقية ، ولأن معظم الروايات مجمعة على أن حسان بن النعمان والى إفريقية قبل موسى بن نصير لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك . وقد توفي عبد الملك في شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز ابن مروان أمير مصر قد توفي قبل ذلك سنة ٨٥ هـ ، وندب عبد الملك ولده عبد الله أميراً على مصر فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل ، وعزل عبد الله حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى ابن نصير . وكانت إفريقية تابعة يومئذ لمصر في شئون الحكم والإدارة ، وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال في سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان في سنة ٨٤ هـ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبى من أهلها جوعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت ، فما كاد موسى يلي الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير في الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقته الثورة في كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هواراة وزناتة

(١) وردت هذه التفاصيل في كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والوثائق والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية . (راجع الكتاب المشار إليه ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) .

وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ، فافتتحها وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد اللبثي ، وأثنى في مفاوز المغرب الأقصى وطهرها من العصاة والمتآمرين ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد في جيشه آلافاً من البربر المسلمين ، واهتم بنشر الإسلام بين القبائل ، فذاع بينهم ذيوماً كبيراً .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا في الحرب البرية ، ويشسوا من إنقاذ إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها . فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولاً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى في تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ولده عبد الله في السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطي ، وافتتح منها ميورقة ومنورقة . وسارت حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت في ثغورها . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال إفريقية كله في البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ويحكمها أمير من القوط يدعى الكونت يوليان . وكانت قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ؛ وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . بيد أن مشاريعه في الفتح لم تكن لتقف عند سبتة ، بل كانت تجاوزها إلى ما وراء البحر من الممالك والأمم المجهولة .

كانت مملكة القوط في الضفة الأخرى من المضيق قد هزمت وأصابها الوهن ؛ وكانت وقت أن اقترب العرب من شرائطها فريسة الاضطراب والفوضى تمزقها الخلافات الداخلية ، ويقتتل حول عرشها الزعماء المتنافسون . وكان على عرش القوط يومئذ ملك شديد البأس والعزم هو رُدْرِيك أولدرِيك حسبما تسميه الرواية العربية ، ولكنه كان يواجه خطر الانتقال المستمر ؛ ولم يكن ملكاً شرعياً ولكنه استطاع أن ينتزع العرش من صاحبه الشرعى الملك وتيزا (أو غيطشة) عقب ثورة دبرها بمؤازرة رجال الدين والأشراف الناقمين . ومع أنه استطاع أن يوطد سلطانه مدى حين فإن الخطر لبث مع ذلك محققاً بعرشه وملكه ، وكان

اقتراب العرب من شواطئ الجزيرة يحفز خصومه إلى التماس الوسيلة لإسقاطه ويصحقه . وكان الكونت يوليان من أنصار الحكم القديم ومن خصوم الحكم الجديد ، يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه ؛ وكان غنياً شديد البأس وافر الأتباع والجند ، بعيداً عن سلطة العرش ، يقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبته والمضييق ؛ فتفاهم معه أبناء الملك السابق وتيزا وبقاى الزعماء الخوارج ؛ واستقر رأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت . وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين الكونت يوليان وبين موسى بن نصير ، وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلاً آخر ، فتقول إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له ابنة رائعة الحسن تدعى فلورندا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ؛ فاستهوى جمالها الفتان قلب ردرىك ، فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام من ردرىك ونزعه ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردرىك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا . والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها (١) . ولكن الرواية النصرانية تتردد فى قبولها ، وتنفيها الرواية الإسبانية وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغاني والقصص القديمة ، بل يذهب بعض مؤرخى إسبانيا إلى إنكار شخصية الكونت يوليان نفسه ، ويعتبرها شخصية خيالية . وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول

(١) يتناول المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فزادها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتحها ص ٢٠٥) وذكرها ابن حبان مؤرخ الأندلس (رواية فتح الطليط ج ١ ص ١٠٩) وابن القوطية (افتتاح الأندلس ص ٨) وصاحب « أخبار مجموعة » (ص ٥) وكذلك ابن الأثير وابن خلدون . إلخ . ولكن ينكرها ماريانا وماسدى أعظم مؤرخى اسبانيا . ويذهب بعضهم مثل مونتسزار إلى إنكار شخصية الكونت يوليان ذاته ، وإلى أن القصة إنما هى اختراع عرب صاغته الأساطير والأناشيد المعاصرة ، ولكن يأخذ بالقصة ويؤمن بها بعض المستشرقين ولا سيما العلامة دوى راجع :

Histoire des Musulmans d'Espagne (1933) V.I. p 271

تحدوه بواعث لا تخفى ، فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على
نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهى خيانة أدت إلى أن افتتح العرب اسبانيا ،
وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد فى القصة ما يحمل على إنكارها ،
فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من
خلاف فى الرأى وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقى واجتماعى . ولسنا من
جهة أخرى نلمس فى الرواية الإسلامية أثر الاختراع ، فليس ثمة ما يدعو إليه .
وليس من المعقول أن تخرع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى
فتح اسبانيا معارضة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعارضة دلت لهم سبل الفتح ، ولعلمهم
بلونها ما أقدموا عليه أو تعرضوا للفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية
القدمية ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية الإسلامية فى ذكر قصة
فلورنذا والأخذ بها .

وعلى أى حال فقد اتصل الكونت يوليان موسى بن نصير ودعاه إلى فتح
اسبانيا ووقعت المفاوضة بينهما فى ذلك المشروع الخطير . والظاهر أن يوليان
وحلفاءه لم يقصدوا بهذه الدعوة أن يفتح العرب اسبانيا لأنفسهم ، وأن يستأثروا
بملكها ، بل كان مشروعهم على الأرجح أن يستعينوا بالعرب على محاربة
المغتصب ، وإسقاطه واستخلاص الملك لأنفسهم . والظاهر أيضاً أن موسى
وعدهم من جانبه بأنه لا يقصد سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى
إنشاء دولة مسلمة وراء البحر ، وهذا تصوير للمشروع يؤيده منطق الحوادث
وتشير إليه الرواية العربية^(١) . وكان موسى قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها
وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية هذا الفتح وجليل مغائمه ومزاياه ؛ فلما وقف
من يوليان وحلفائه على ما تعانيه اسبانيا من أسباب التفرق والضعف ، وأيقن
أنه يستطيع الاعتماد على عون يوليان وحلفائه ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك
يخبره بأمر المشروع ويستأذنه فى الفتح ؛ فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ،
وأن لا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر . ومع أن المسلمين كانوا قد تمرسوا فى
أهوال البحر واختبروا هذه المياه بالحملات والفتوح الناجحة ، فإن موسى

(١) راجع « أخبار مجموعة » (ص ٨) والمنزى فى نفح الطيب (ج ١ ص ١٢٠) وابن الأثير
(ج ٤ ص ٢١٤) وراجع أيضاً Dozy; ibid; V. I. p. 271; Gibbon: Roman Empire, Chap. L. I.

لم يسعه إلا النزول على نصيح الخليفة . فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة في أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التي سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يولييه سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء ، بإرشاد يوليان ، وأصاب كثير من الغنائم ، واستقبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من مظاهر خصب الجزيرة وغناها ؛ ثم عادت سالمة ، وسر موسى بنتائج الحملة واستبشر بالفوز وجد في أهبة الفتح .

وفي شهر رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد اللبثي حاكم طنجة . وقد اختلف في أصل فاتح الأندلس ونسبته ، فقيل هو فارسي من همدان وإنه كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه ينتمي إلى بطن من بطون البربر وهو الأرجح (١) . وكان طارق جندياً عظيماً ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى خلاله ومواهبه ، فاختره لحكم طنجة وما حولها وهي يومئذ أخطر مناطق المغرب وأشدّها اضطراباً ؛ ثم اختاره لفتح الأندلس . وعبر طارق البحر بجيشه في سفن يوليان ونزل بالبقعة التي ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعني جبل طارق ، وذلك في يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ أبريل سنة ٧١١ م) واخترق الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، ثم زحف على ولاية الجزيرة واحتل قلاعها ، بعد أن هزم جمعاً من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان ردّيك أو للرّيق يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج في الولايات الشمالية ، فأسرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر الذي يهدد عرشه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته ، ولكن طارقاً هزمه وتابع سيره صوب عاصمة القوط .

وكان ردريك أميراً شجاعاً وافر العزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والخصومة . وكان حزب العرش القديم الذي يلتف حول أبناء الملك السابق وتيزا (غيطشة) يتربص به ويعمل على

(١) ارجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) ، ونزدة المشتاق للثريف الإدريسي (طبع رومة ص ١٧٦)

إسقاطه ؛ وكانت ربيع الخلاف والتفرق تعصف بالشعب القوطى كله . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد . واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم . واجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأبهة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون إثني عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان في قوة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون في أرض العدو في هضاب ووهاد صعبة ؛ ولكن قائدهم الجريء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم ، فكان اللقاء بين الجيشين في سهل شريش على مقربة من قادس شمالى مدينة شلونة أو شلونة (مدينة سيدونيا) على ضفاف نهر وادى لكه (الجوادليت) (١) ، وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يولييه سنة ٧١١ م) ؛ وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة لم تقع فيها بينهما سوى مصادمات بسيطة . وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة ، واستمر القتال بينهما على أشده مدى أربعة أيام ؛ وكان الجيش القوطى بالرغم من ضخامته مفكك العرى متحلل العزائم ؛ وكانت الخيانة تعصف بصفوفه وقيادته ؛ فلم يأت اليوم الرابع حتى كتب النصر للمسلمين وهزم القوط شر هزيمة ، ومزقوا شر ممزق ، وغرق ملكهم ردريك في النهر .

كانت شلونة موقعة الفصل ، وفيها دالت دولة القوط وغنى الإسلام ملك اسبانيا . وساد الرعب على القوط فاعتصموا بالحصون والجبال ، وتفرقوا في السهل ، وذاعت أنباء النصر في أنحاء العدو ، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالا صوب طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وسارت حملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة وإلبيرة ومالقة ومرسية ، فافتتحت كلها تباعاً . وبعد أن استولى طارق على

(١) وترى بعض البحوث الحديثة أن لقاء العرب والقوط ، وقع جنوبى شلونة على ضفاف شهر بارباق الصغير الذى يصب في المحيط على مقربة من رأس « طرف الغار » .

طليطلة ، تابع زحفه شمالا واخترق قشتالة وليون حتى أسترقة ، ثم جبال أستورياس (أشتوريش) (١) واستمر في سيره حتى أشرف على شواطئ بسكونيه (٢) . ثم عاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى إسبانيا .

- ٣ -

وقد اختلف المؤرخون في تعليل البواغث التي حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح . فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومولاه . فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ؛ فكتب إليه ألا يتقدم حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذا توغّل بغير إذنه (٣) . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه ألا يتجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط (٤) . وهذا تعليل حسن يتفق مع ما أثر عن موسى من الحيلة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا في أراض وممالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً في نفس موسى وفي تصرفه . وعلى أي حال فقد عبر موسى البحر إلى إسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، في سفن صنعها خصيصاً لذلك ، بحفره شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢ م) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة . ثم سار إلى قرمونة وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه ؛ وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس ، فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين ، ولكنها انتهت

• Viscaya (٢)

Asturias (١)

- (٣) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) وابن القوطية (ص ٩) وابن الأثير (٤ ص ٢١٥) وابن خلدون (٤ ص ١١٧) وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفع الطبيب ١ ص ١٢٦) .
(٤) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

بالتسليم في رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله ، فأنبه موسى وبالع في إهانتته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ؛ وقيل بل هم بقتله أيضاً . ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه (١) . ووضع الإثنان خطة مشتركة لافتتاح ما بقي من اسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقي واخترقا أراضي الثغر الأعلى (أراجون) ، وافتتحا سرقسطة وطركونة و برشلونه وغيرها من المدن والمعقل . ثم افترقا الفاتحان ، فسار طارق غرباً ليغزو جليقية وليتم القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالاً فاخترق جبال البرنيه (٢) ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبانيا وكانت عندئذ تابعة للملوك القوط ، واستولى على قرقشونة وأربونة (٣) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون حتى مدينة ليون (٤) . فاضطرب أمراء الفرنج وأخلوا في الأهبة لرد الغزاة ، ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونة .

وهنا فكر القائد الجريء في أن يحترق بجميع أوربا غازياً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجية كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون فيما يأتي : « وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة » (٥) . ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم . فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والبأس ؛ وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت ؛ وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الخلال شامل ؛ وكانت مملكة الفرنج وهي أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرق ؛ وقد بدأ العرب فعلاً

(١) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨ و ٢١٠) وابن الأثير (٤ ص ٢١٥) والمقري (١٢٧ ص ١٨١) وابن خلكان عن الحميدى (٢ ص ١٨١) . وذكر الطبري أن طارقاً ترضى موسى فرضى عنه وقبل عذره (القسم الثاني ص ١٢٥٤ في حوادث سنة ٩٣) .

(٢) في الجغرافية العربية جبال البرت أو البرتات .

(٣) قرقشونة Carcassone ، وأربونة Narbonne .

(٤) يسمى الرون في الجغرافية العربية بنهر رذونة . وتسمى ليون لوطون أو لودون .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

بغزوها ؛ ولم يتح للنصرانية بعد أن توحد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها في جبهة دفاعية موحدة ؛ ولم تكن أوروبا في ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة ؛ فكان الإسلام الظافر يستطيع غزوها وفتحها ؛ ولم يكن حليماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعترمه . ولكن سياسة التردد والإحجام التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتي كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ؛ وبعث الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ، ويأمره بالعود . فارتد موسى مرغماً أسفاً ، ولكنه تمهل في العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط ؛ فاخترق جليقية واستولى على معظم قلاعها ومعاقلها ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة التفت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ولجأت إلى قاصية جليقية . وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ويأمرهما بتعجيل العود . ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما بلغه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها ؛ أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه في الاستقلال بذلك الملك الجديد الثاني ؛ وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال التي جمعت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبيد . ومهما كانت البواعث التي دفعت الوليد إلى استدعاء فاتح الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام في اسبانيا . ذلك أن هذه الجموع الضئيلة من القوط ، التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام في اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفي ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى ، قد افتتح المنطقة الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخذ الثورة في إشبيلية وباجة ، وافتتح لبله وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والاعتدال والتسامح .

واتخذ موسى أهبة للعود إلى دمشق نزولاً على أوامر الخليفة ، فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله وجعل حاضرتها إشبيلية لاتصالها بالبحر ، وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبد العزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى . ولده عبد الملك ، وعلى إفريقية ولده الأكبر عبد الله . وفي شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس سنة ٧١٥ م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفي ركبته من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشرف السبي عدد عظيم (١) .

— ٤ —

وتختلف الرواية العربية في مصير موسى بن نصير وفي أمر لقائه بالخليفة . فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك وقدم إليه الأخماس والغنائم فأكرمه وأحسن إجازته ، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء أخيه سليمان ابن عبد الملك عرش الخلافة وإن سامان غضب عليه ونكبه (٢) . على أنه يمكن الجمع بين القولين أعني وفود موسى على الوليد ثم نكبه على يد سامان . وهناك ما يرجح لدينا أن موسى لحق بالوليد قبيل وفاته ، فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة القسطنطينية في أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين في طريقه إلى دمشق ، وقد توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة من هذا العام ، أعني بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف (٣) . ولما كانت مسافة السفر بين القسطنطينية ودمشق لا تتجاوز في هذا العصر بضعة أسابيع فإنه كان ثمة من الوقت ما يكفي لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط

(١) تفيض الرواية الإسلامية في وصف ما أصابه المسلمون في الأندلس من الغنائم الجليلة ، وتقول إن موسى بن نصير حل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حل منها ثلاثين ألفاً بينهم مئات من أشرف القوط ومن أجل شبابهم ذكوراً وإناثاً (راجع ابن القوطية ص ١٠ . والمقرئ في نفع الطيب ج ١ ص ١٢٠ و ١٣٥ و ١٣٦) .

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) وابن خلكان (ج ٢ ص ١١٨) ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (٤ ص ٢١٤) وابن خلدون (٤ ص ١١٨) .

(٣) فتوح مصر ص ٢١١ .

على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد في مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولي العهد يومئذ أن يتمهل في السير حتى يموت الوليد ، فيقدم عليه في صدر خلافته مما يحمل من جليل التحف والغنائم . فأبى موسى وجده في السير حتى قدم والوليد حتى ، فسلم إليه الأخماس والغنائم ؛ ثم توفي الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً سليمان على كرسي الخلافة ؛ فغضب سليمان على موسى ، وزاد في سخطه عليه ، ما قدمه في حقه طارق ومغيث فاتح قرطبة من مختلف التهم^(١) . وفي الحال أمر بعزله واتهمه وبذبه باختلاس أموال عظيمة وقضى عليه بردها ، وبألف في إهائته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ لديه ، فألح يزيد على سليمان حتى عفا عنه ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التي قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه^(٢) . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفي في منتهى البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك في سنة سبع وتسعين . بيد أنه لا يوجد ما يعبر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى وأقاله من محنته ، وتوفي موسى بعد ذلك بقليل في سنة سبع وتسعين . وقبل في سنة تسع وتسعين وهو في نحو الثمانين من عمره^(٣) .

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ؛ وأبدت الخلافة بهذا التصرف أنها لم تقدر في هذا الموطن للبطولة قدرها ؛ ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذي غنمته على يد رجلها وقائدها .

-
- (١) راجع أخبار مجموعة ص ٢٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ . ومغيث هو مولى الوليد بن عبد الملك ويعرف بمغيث الرومي وقد اشترك في فتح الأندلس وافتتح قرطبة وغيرها .
 (٢) ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص ٢١٣ ، والبلاذري في فتوح البلدان ص ٢٣٠ .
 (٣) يراجع في مصير موسى بن نصير فتوح مصر (ص ٢١١) وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) وابن اللطوية (ص ١٠ - ١١) وابن الأثير (٤ ص ٢١٦) ونفح الطيب (١ ص ١٣٤ و ١٣٥) وابن خلكان (٢ ص ١٨١) والإمامة والسياسة (٢ ص ٧٦ و ٨٩ و ٩٣ و ٩٦) .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين في القرن الأول للهجرة ، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديداً المراس يضطرم بعوامل الانتفاض والفتنة . وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب وبراعة في سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية غزير العلم والأدب ، متمكناً من الحديث والفقه ، عالماً بالفلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش وشهوة الحقد والحسد^(١) .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن أخفقت محاولته في العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية ؛ ومع أن سيل الفتح الإسلامي ردّ غير بعيد في سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر في اسبانيا قروناً يهبر بضوء مدينته الزاهرة جميع الأمم الأوروبية في العصور الوسطى .

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

صقر قریش

(١١٣ - ١٧٢ هـ) ، (٧٣١ - ٧٨٧ م)

لعل التاريخ الإسلامى كله ، وفى سائر عصوره وأقطاره ، لا يقدم إلينا شخصية ، تضارع فى قوتها ، وثبتت جنانها ، وروعة خلالها ، المثيرة المؤثرة معاً ، شخصية كشخصية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى ، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، وأصل هذه الشجرة الباسقة من الأمراء والخلفاء الذين أضفت عهودهم ، وأعمالهم المجيدة ومنشأتهم العظيمة ، على الدولة العربية الإسلامية فى إسبانيا ، أثوابها الوضاعة ، وتراثها الحضارى الرفيع .

خرج عبد الرحمن بن معاوية من غمار العدم ، بعد أن انهار ملك أسرته فجأة ، وتحطمت دولتهم بالشرق ، وهى ما تزال فى إبان قوتها وعنفوانها ، تحت ضربات المتوثبين من بنى العباس ، وكان من الفروع القلائل التى شاء القدر أن تنجو من الشجرة ، التى اجتثت الظافرون معظم فروعها ، فى مطاردة دموية شاملة ، ينذر أن يقدم إلينا التاريخ الإسلامى لها مثيلاً .

إن قصة فرار عبد الرحمن ذاتها ، من المشرق إلى المغرب ، بما يتخللها من الحوادث المؤسسية ، والمغامرات المدهشة ، تثير منا كل إعجاب وعطف ، فقد كان يرى الموت والأسر ينذرانه فى كل خطوة ، وقد استطاع أن يجوز من الشام إلى المغرب الأقصى مخترباً فلسطين ، ومصر وبرقة ، والمغرب الأوسط ، وأعين السلطات الحصيمة ، ساهرة تطارد فلول الأمويين ، وتكاد تضع يدها عليه فى كل لحظة . ومما هو جدير بالذكر ، أنه حينما وصل إلى برقة ، استطاع أن يتنفس الصعداء لأول مرة ، وأن يجد ملاذاً أميناً مؤقتاً عند أخواله بنى تفرقة ، وهم من برابرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وقد أقام لديهم طويلاً برقب الفرص . وفى خلال ذلك ، وصل إليه مولياه بدرّ وسالم ، أرسلتهما إليه أخته أم الأصبح بشيء من المال والجوهر . والظاهر أن محاولته الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجرىء المغامر ، فقد كانت إفريقية يومئذ مطمح الخوارج والمتغلبين ، ولكن عبد الرحمن ، لم يجد على ما يظهر أية

فرصة للعمل في هذا السبيل ، وكان صاحب إفريقية يومئذ ، عبد الرحمن بن حبيب ، يخشى على سلطانه من ظهور فلول بنى أمية في إفريقية ، فجد في مطاردة اللاجئين إليها منهم ، وقتل بعضهم ، واعتقل آخرين ، وصادر أموالهم . ولما وقف من عيونه على ظهور عبد الرحمن حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وأن يصل مع صحبه القلائل إلى المغرب الأقصى ، وأقام هنالك مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حظوة ، ثم نزل عند قوم من زناته ، وتجول حيناً في تلك الأنحاء ، يدرس أحوال الأندلس ، ويتلقى أخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وكانت الأندلس تلوح يومئذ ، بما عُرِف عنها من بسطة في الرقعة ، وضخامة في الثروات والمغانم ، درةً ترنو إليها أعين الطامعين والمتغلبين ، وكانت الأحوال فيها قد استقرت نوعاً ، بعد أن مرت بفترة عصيبة من الحروب والفتن الأهلية ، بين اليمنية والمضرية ، وتولى رياستها باتفاق الجماعة زعيم من المضرية هو يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ، وذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩ هـ . وكان المفروض أن ولاية هذا الزعيم لإمارة الأندلس ، إنما هي حل مؤقت لحالة طارئة ، حتى يأتي الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة . ولكن الخلافة الأموية ، لقيت مصرعها بعد ذلك بثلاثة أعوام ، واستمر يوسف في الرياسة ، ممثلاً لزعامة المضرية ، وهو يعمل بحزم ومثابرة على إصلاح الشئون واستقرار النظام ، ويواجه ثورات الخوارج عليه ، ويحطمها تباعاً ، حتى لاح له مدى حين ، أن سلطانه قد توطد ، في ذلك القطر العظيم النائي ، الذى رفعه القدر إلى رياسته ، ولكنه لم يقدر أن خطراً آخر ، سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدبيره بالانهيار .

ذلك أن عبد الرحمن الأموى ، كان في تلك الأثناء ، قد تلقى ، وهو في الضفة الأخرى من البحر ، الكثير من أخبار الأندلس وأحوالها ، وما تعانيه من اضطراب وخلاف على الرياسة ، وثورات مستمرة ، وأدرك أن الظروف تلوح قوية لتأييد دعوته ، وظهور أمره . والحقيقة أن ظروف الأندلس يومئذ ، كانت كلها ، مما يفسح المجال لدعوة عبد الرحمن . فقد كانت الأندلس ما تزال من الناحية الشرعية ، قطراً من أقطار الخلافة الأموية ، ولم تكن رياسة يوسف

مُدْعَمَةٌ بصك شرعى ، وكان عبد الرحمن سليل الخلافة الأموية ، ومن ورثتها الشرعيين . وكانت الأمة الأندلسية الناشئة ، تتطلع إلى رئاسة شرعية ، تلم شعها ، وتقضى على أسباب الفتنة فيها .

ومن ثم فقد قرر عبد الرحمن أمره ، وفى أواخر سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) بعث بدرًا مولاة إلى الأندلس ، ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بنى أمية ، وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل إلبيرة ، وكانت منزل جند الشام ، وفيها تجتمع عصابة بنى أمية . وكانت رئاسة الأمويين والشاميين يومئذ إلى رجلين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد ، فاجتمع بدر بأبى عثمان ، وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبث دعوته ، فاستجاب أبو عثمان لندائه ، ونشط وزميله عبد الله إلى بث الدعوة فى إلبيرة ، وبعثا عمالهما فى أنحاء الأندلس ، يدعون إلى يأيد عبد الرحمن .

وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة ، جهزها أبو عثمان ، ومعه عدة من أنصاره الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته . فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل إلبيرة فى ثغر المنكب الصغير ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه فى طرش ، وهى قرية حصينة تقع غربى المنكب ، على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ، ويدبر خططه .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس فى أثناء ذلك قد غادر سرقسطة بجيشه ، بعد أن قضى على الثورة فيها ، فلما اقترب من طليطلة ، وافاه رسول من قرطبة ، من قبل ولده عبد الرحمن ، ينبئه بمقدم الفتى الأموى ، وانتشار دعوته فى جنوب الأندلس ، فذعر يوسف ، وذاع النبأ فى الجيش ، فسرى إليه الخال ، وتسالت منه العناصر الناقمة ، فهورل يوسف فى بقية الجيش إلى طليطلة ، لبحث مع حاكمها الصمىل بن حاتم ، زميله فى زعامة المضرية ، خير الوسائل لرد هذا الخطر الجديد . وكانت الدعوة الأموية ، فى ذلك الحين ، قد اجتاحت جنوبي الأندلس كله ، والتف حولها عدة من زعماء القبائل والجند ،

وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد جموعاً كبيرة من الأموية وأهل الشام ، استعداداً للمعركة .

وعاد يوسف والصَّمِيل إلى قرطبة . وأشار الصَّمِيل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن الأموي وملاطفته ، وإغرائه بمصاهرته . فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرش ، وفدأ يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، وأن يقطعه كورة إلبرة أو كورة رِيَّة ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلاً يرغبه فيه بمحالفته ، ولكن عبد الرحمن لم يندع بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه وردّ رسله ، وكان في الواقع يسمو بأطماعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمع آماله .

ولم يبق إلا أن يتأهب الفريقان لمعركة فاصلة . وكان عبد الرحمن قد أيقن عندئذ بذبوع دعوته ، ووفرة أنصاره . فسار في صحبه من طرّش إلى رِيَّة ، ثم إلى شَدُونَة ، ثم إلى إشبيلية ، وعُصَمَاءُهَا يبايعونه تبعاً ، والجند والأنصار ، تحشد حول رايته ، واجتمع له في إشبيلية وحدها ثلاثة آلاف فارس ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضربة والتمنية وأهل الشام . ولما رأى أخيراً أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف ، سار في قواته صوب قرطبة . وكان ذلك في فاتحة ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م) .

وفي ذلك الحين كان يوسف والصَّمِيل ، قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جيش يوسف قد وهن ، وفقد الكثير من عديده . وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموي ، فزادته تفرقاً وضعفاً ، ومع ذلك فلم يكن ثمة بدٌّ من خوض المعركة . وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة في ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادي الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، في قرية مقابلة تسمى بلّة نوبه . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة . وفي اليوم الرابع ، وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر ، وانحسر في بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف والصَّمِيل في سبيل عقد الصلح ، وأصر عبد الرحمن على القتال في اليوم التالي ، أعنى في يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، مُتِمِّينَا في ذلك

بذكرى موقعة مَرَج راهط الشهيرة ، التي انتصر فيها جده مروان بن الحكم على قوات عبد الله بن الزبير ، وذلك في يوم الأضحى وقد كان يوم الجمعة أيضاً . سنة ٦٤ هـ ، وفي اليوم التالى ، دفع عبد الرحمن قواته لاحتحام النهر ، ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة ، ولكن قصيرة ، فلم يأت ضُحى اليوم حتى مزقت خيلُ يوسف ، وهُزِم جيشه هزيمة شديدة ، وفر يوسف صوب طليطلة ، وفر زميله الصُميل صوب جيتان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه مدينة قرطبة دون معارضة ، وصلى الجمعة بالجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع في الحال بالإمارة ، وذلك في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٨ مايو سنة ٧٥٦ م) .

* * *

تلك هى المرحلة الأولى من الملحمة العظيمة التى تقدمها إلينا حياة صقر قریش عبد الرحمن الأموى . ولقد كانت على ما اقترن بها من الظفر أهون المراحل وأيسرها . ذلك أن يوم المسارة ، كان بالنسبة لعبد الرحمن ، فاتحة الظفر لا غايته . فقد استطاع ، بعد أحداث وخطوب جمة ، أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يستولى على عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد ، وكان بينه وبين ملك الأندلس الحقيقى ، مراحل بعيدة ، وكانت الأندلس ، من جراء القلاقل والفتن العديدة ، التى جازتها فى أواخر عهد الإمارة ، قد انقسمت عُرُها ، وتفككت أوصالها ، وغدا صرحها يهتز فوق دعائمه الواهنة ، فكان من الضروري أن تبذل لتوطيده جهود مستمرة فادحة .

وكان يوم المسارة حاسماً فى مصائر الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحي . وكما أن يوم المسارة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذاك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم فى كل ناحية ، وانخلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتشرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، وغدت كل قبيلة ، وكل بطن ، تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة ، المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلى ، وتأتى الخضوع لإمارة سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس

موحدة مهاسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية ، فكانت المعركة في الواقع ، معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية ، والإقطاع المحلي ، معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر غنصراً قوياً في هذه المعركة ، يحتفظون دائماً بخصومتهم القديمة للعرب ، ويحرصون على ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من النواحي والضيايح . ثم كان هناك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام في الأندلس ، ونعني إسبانيا النصرانية التي استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنظم إلى مملكة جديدة في الشمال . وكذلك مملكة الفرنج القوية ، التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنزع الأراضي الإسلامية ، فيما وراء جبال البرنيه . وكان نصارى الشمال والفرنج ، يتربصون يومئذ بالأندلس ، ورون في تفرقها وضعفها ، فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج ، فيمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس ، وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفريه الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكي يغمر رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكن ذلك الأمير الفتى ، الذي لم يكن يوم ظفريه يجاوز السادسة والعشرين من عمره ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . ف قضى بقية عمره ، اثنين وثلاثين عاماً ، في كفاح مستمر ، لا ينتهي من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولا يجمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً ، إلا ليعقبه خارج آخر ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده ، بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب جميعاً ، واستطاع بكثير من الذكاء والعزم والإقدام والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصابر الأندلس بيده القوية ، وأن يحيي سلطان أسرته المندثرة ، في ذلك القطر النائي ، ليستقر ويزدهر أكثر من حزين ، وكان تفرق خصومه أهم عامل في ظفريه ، فلم تلك زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة متثرة في النواحي والمدن ، تعمل كل بمفردها حول

ترعيمها المحلى : وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء خصومه فى الميدان فرادى ، واستطاع أن يُنجم ثورتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو فى كل مرة يزداد قوة ومُنعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

ويجب ألا ننسى أن الأندلس ، كانت إلى جانب هذه المعارك الداخلية المضطربة ، التى كان عبد الرحمن يخوضها بلا انقطاع ، تتعرض إلى خطر الغزو الخارجى ، من جانب جارتها القوية من الشمال ، ونُغنى مملكة الفرنج : وكان عاهل الفرنج يومئذ الإمبراطور شارلمان أو كارل الأكبر ، أعظم ملوك النصرانية فى عصره . وقد ألقى شارلمان بالفعل فى حوادث الأندلس ، وما تجوزة من الفتن الداخلية ، فرصة لغزو اسبانيا ، وذلك حينما استدعاه الخوارج على عبد الرحمن فى الثغر الأعلى ، للقدوم بجيشه إلى اسبانيا ، بفكرة الاستعانة به على توطيد رياستهم المستقلة عن حكومة قرطبة ، ووعدوه بأن يسلموا إليه سرقسطة عاصمة الثغر ، وبعض المواقع الحصينة الأخرى . وقد سار شارلمان بالفعل بجيشه إلى اسبانيا فى أواسط سنة ٧٧٨ م (١٦١ هـ) ، فى الظاهر استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ، ولكن فى الحقيقة تنفيذاً لمشروعه المبيت فى غزو الأندلس ، وكانت مملكة الفرنج تخشى تلك القوة الجديدة ، التى يمثلها الإسلام فى الأندلس ، من التاحيتين الدينية والسياسية ، وتخشى من انسياب تلك القوة إلى الشمال ، وعبور جبال البرنيه مرة أخرى ، مثلما حدث من قبل ، حينما نفذت الجيوش الإسلامية إلى جنوب فرنسا بقيادة عبد الرحمن الغافقى ، واستمرت فى سيرها نحو الشمال ، إلى ضفاف نهر اللوار ، وكانت موقعة بلاط الشهداء الحاسمة ، التى هُزم فيها الجيش الإسلامى وارتد إلى الجنوب ؛ ومن جهة أخرى ، فقد كان شارلمان يخشى من تدفق الدعوة الإسلامية إلى أراضيهِ من الجنوب ، إلى جانب الغزو العسكرى ، فيتجدد الخطر على النصرانية من صولة الإسلام ، كما كان خطر الوثنية ، يهددها على يد الغزاة السكسون من الشرق . وفى خلال هذا الغزو الفرنجى لأراضى الأندلس الشمالية ، كان عبد الرحمن الأموى مشغولاً بكفاحه المستمر للثورات المتوالية فى مختلف النواحي : على أن العناية الإلهية ، قد شاءت أن يبوء عاهل الفرنج بالفشل ، بعد أن اختلف معه الخوارج المسلمون ، وانقلبوا

إلى مقاومته ، وأن يُنكب جيشه في موقعة باب الشزرى الشهيرة ، على يد المسلمين وحلفائهم البشكنس ، وأن ينتهى بذلك خطر الغزو الفرنجى لربوع الأندلس .

وليس من موضوعنا أن نتبع تلك المعارك والفتن العديدة التى اضطرب عبد الرحمن إلى خوضها ، والعمل على سحقها ، والتى استغرقت بقية حياته ، وذلك قبل أن يستقر على عرشه ، ويتوطد سلطان أسرته الجديد ، فهى قصة متماثلة ، وإن تعددت الأسباب والبواعث والأماكن . وكانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة ، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة فى تاريخ الإسلام . كان عبد الرحمن الأموى ، يتمتع بعبقريّة ممتازة ، وخلال نادرة ، وكان قرين جدّه العظيم معاوية بن أبى سفيان ، ينشئ مثله دولة ، ولكن فى ظروف أشق من ظروفه ، وهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه فى كل ميدان ؛ ولكننا نود أن نضيف إلى ذلك ، أن عبد الرحمن لم يدخر خلال هذا الكفاح الدموى ، وسيلة إلا استعملها فى سحق خصومه : الحرب والحديعة ، والغيلة ، والجريمة . ذلك أن عبد الرحمن لم يكن يرفعى شرعية الوساطة ، ولكنه كان يذهب توّاً إلى الغاية بأى الوسائل . وكانت الحنة المروعة التى نزلت بأسرته ، وحوادث حياته المشجية ، والظروف العصيبة التى يواجهها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التى تحيط به ، تحمل خلاله القوة إلى ذروة التطرف ، فراه يقرن وافر العزم ، بفيض من الجرأة واحتقار الخطر ، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك ، ويقرن وافر الحزم والصرامة ، بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة .

كان عبد الرحمن طاغية ، مسرفاً فى البطش والسفك ، لا يحجم لأقل بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه ، وقد ذهب فى صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه ، الذين آزره يوم مقدمه شريداً ، لا عصبة له ، وقتلوا معه ، وقادوه إلى الظفر والحكم ، بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نعى إليه أنهم يأتّمرون به .

على أن هذه الصورة القائمة لشخصية عبد الرحمن ، يجب ألا تحجب الناحية

الأخرى من صفاته المشرقة . أجل ، كان عبد الرحمن ، إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة ، وقد أجل ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير ، خلاله في تلك العبارات القوية . قال : « كان عبد الرحمن راجع الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الخزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يتكىل الأمور إلى غيره ، ثم لا يتفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخيّاً ، طلق اللسان » ، وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها في جملتها وتفصيلها حياة عبد الرحمن في جميع أدوارها .

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلاريب . بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص ، نحو هذه الشخصية الفريدة . ويرجع ذلك بلاريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التى خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التى نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التى بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته ، فى الحياة وفى الرئاسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة ، وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبد الرحمن على احترامه ، والإعجاب به . ولم يكن وصف عبد الرحمن (بصقر قریش) سوى أثر من آثار ذلك الإعجاب الذى غمر أصدقاءه وخصومه على السواء . وهو وصف أضفاه عليه ، ألد خصوم أسرته ، الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، فى حديث طريف تنقله إلينا الرواية ، وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه من « صقر قریش » من الملوك ؟ قالوا أمير المؤمنين الذى راض الملك ، وسكن الزلازل ، وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فعاوية . قال ولا هذا ، قالوا فبعد الملك بن مروان ، قال ، لا . قالوا فن يا أمير المؤمنين ؟ قال : « صقر قریش » عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده من سين الأسنة ، وطلبه السيوف ، يعبر القفر ، ويركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجيباً منفرداً بنفسه ، فحضر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام مملوكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب

تحكمه عليه عمرو وعثمان ، وذلل صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته ، واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطئ الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين .

ذلك هو صقر قريش ، وتلك هي قصته ؛ قصة فتي شريد ، يعمل القتل الذريع في أسرته وعصبته . وحيد ليس له أنصار ولا صعب ، ومع ذلك فإنه يتجه من وراء القفر الشاسع ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجنود ، ثم يفوز بافتتاح هذا القطر ، خلال حروب ومعارك لا يحمد أوارها ، ويقيم ملكاً عظيماً ، على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة ، ثم يرسى قواعده على أسس وطيدة ، ويغدو هذا الملك الجديد ، بعثاً لملك أسرته المندثر ، واستئناف مجدها العريض الشامخ . وإنها لقصة عجيبة ، ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها .

• • •

هذا ، وقد بذل عبد الرحمن لتوطيد هذا الملك الجديد وتنظيمه . جهوداً فادحة ، لا يتسع المقام لتفصيلها . ويكفي أن نقول إن عبد الرحمن كان يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، وأنه استطاع خلال الاضطراب الشامل ، أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يجمع كثيراً من ضروب الفساد والبغى ، وأن يوئد هيبة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه ونجبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع في ظل حكومته ، بأمن وطمأنينة ورخاء لم تعرفها منذ بعيد . ولولم يشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذل الصعب ، ومهد الطريق لعقبه ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التي غدت على يد بنيهِ من الأمراء والخلفاء ، أعجوبة العصور الوسطى .

وعنى عبد الرحمن بالحاضرة الأموية الجديدة ، خليفة دمشق العظيمة ، ونعنى مدينة قرطبة ، فحصنها ، وزينها بالمنشآت الفخمة ، والرياض الياقة ،

وأنشأ إلى جانبها منية الرصافة وقصرها المنيف. وكان قصر الإمارة ، بناءً قديماً ساذجاً ، يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ صاحبة ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بني أمية بالشرق ، فأنشأ في شمال غربي قرطبة ، قصرأ فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس من الشام وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرصافة تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام ، واتخذها مقاماً ، ومُتَنَزَهاً ، ومركزاً للإمارة . وكانت حدائق الرصافة أمماً لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية . وما تزال تقوم حتى اليوم في قرطبة ، ضاحية الرصافة الجديدة ، على موقعها القديم الذي اختاره عبد الرحمن .

ومن مآثر عبد الرحمن الباقية لإنشاؤه لجامع قرطبة العظيم ، الذي غدا على يد بنيه المتعاقبين ، أعظم مسجد جامع في الغرب الإسلامي ، وما يزال يقوم حتى اليوم ، رمزاً خالداً لعظمة فنون العمارة الأندلسية .

وقد كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية في المشرق ، فلما أنهار سلطان بني أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت الأندلس في عهده إمارة مستقلة : وتلقى عبد الرحمن الأموي تراث الإمارة ، كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بني أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك : وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير وأحياناً بالإمام ، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء بني أمية وحكمها . ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول أمراء ثلاثة من بني أمية هذا الاسم حكموا الأندلس هم : عبد الرحمن الداخل ، وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) ، ثم عبد الرحمن الناصر .

وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن وذاعت في منابرها ، ودعى لبني العباس في كثير من النواحي ، ثم دعى لهم في قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبي جعفر المنصور مدى أشهر . وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه عملاً من أعمال السياسة : ولكن جماعة من بني أمية الذين وفدوا إلى الأندلس ، اعترضوا على هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به

بنو العباس في حق بني أمية ، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بني العباس من الخطبة (١٣٩ هـ) ، وقطعت على أثر ذلك من سائر منابر الأندلس . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه سليل أفيالها ، ويرجع ذلك إلى بواعث سياسية عملية ، هي التي حملت عبد الرحمن على سلوك هذا المسلك ، والحرص على عدم التورط في رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها .

وكان عبد الرحمن جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يوثر لبس البياض ، ويعتم به ، يصلي بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنائز ويصلي عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويناطبهم . ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية ، إلا في أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالزام شيء من الترفع استبقاء لهيبة الملك ، والحذر من بوادر العامة ، ومخاطر الغيلة . وكان في نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « بالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجهم ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها . ولما لنختم هذه الصورة الجامعة لصقر قریش ، بالإشارة إلى ناحية من أبداع خلاله ، هي الناحية العلمية والأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشریعة ، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب . وقد انتهت إلينا بعض رسائله ، وفيها تبدو قوة بيانه ، ورفيع بلاغته .

وانتهى إلينا من نظم عبد الرحمن قصائد كثيرة تدل كلها على قوة شاعريته ، ورقة خياله . فمن ذلك قوله حين أشاد بعضهم أمامه بموقف الغممر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس أبي العباس عبد الله بن علي جلاد بن أمية المعروف بالسفاح ، ونعيه عليه أثمه في حقهم ، وسفكته لدمائهم ، وفقده لحياته ، ثمناً لجرأته . يقول عبد الرحمن معلقاً على ذلك :

شتان من قام ذا امتعاض	فقال ما قال واضمحلا
ومن غدا مُصَلَّتًا لعزم	مجرداً للعُدادة نَصلا
فجباب قفراً وشقّ بجرّاً	ولم يكن في الأنام كَلا
فنزّ مُلْكاً وشاد عزّاً	ومنبراً للخطاب فصلا

وجند الجند حين أودى ومصّر المصّر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعاً حيث انتابوا أن همّ لهم أهلاً

ومن قوله يتشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

أيها الركب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكىه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى بأجتماعنا سوف يقضى

ورأى بروض الرصافة ، وهى الضاحية المملوكة الجديدة التى أنشأها ،
نخلة منفردة ، فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرّب والنوى وطول التناى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فثلك فى الإقصاء والمتأى مثلى
سقتك غواذى المزن من صومها الذى يسرح ويستمرى السماكين بالويل

وهكذا يبدو لنا عبد الرحمن بن معاوية من خلال نظمه ونثره ، شخصية
لامعة وضّاء تثير الإعجاب والحب ، وتحجب شخصيته السياسية ، وخلالها
القائمة . والحقيقة أن عبد الرحمن ، كما أنه منشئ الدولة الأموية بالأندلس ،
فهو أيضاً أول شخصية بارزة ، ظهرت فى ميدان التفكير والأدب والشعر ،
فى هذا المجتمع العربى الجديد ، ويمكننا أن نعتبره بحق رائد تلك النهضة الأدبية
النثرية والشعرية ، التى تفتحت فيما بعد ، وازدهرت على يد خلفائه ، وغدت
من أعظم الحركات العلمية والأدبية فى العصور الوسطى .

والخلاصة ، أن صقر قريش يعتبر بسيرته العجيبة ، الحافلة بالأحداث
والحن المشجية ، وخلاله القوية المتباينة ، بالرغم مما يطبع بعض نواحيها من
ألوان قائمة ، وعبقريته الأدبية المؤثرة ، يعتبر بحق شخصية من أعظم شخصيات
التاريخ الإسلامى (١) .

(١) تناولنا سيرة عبد الرحمن الداخل ، ومراحل حياته بتفصيل شاف فى كتابنا « دولة

الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الرابعة) ص ١٤٧ - ٢٠٣ .

أسد بن الفرات

فاتح صقلية

(١٤٢ - ٢١٣ هـ) ، (٧٥٩ - ٨٢٨ م)

كان البحر الأبيض المتوسط الذى يضطرم اليوم بمنافسات الدول البحرية الكبرى ، فى القرن التاسع الميلادى ، مسرحاً لأطباع ومنافسات من نوع آخر ، وكانت الأساطيل الإسلامية قد بدأت منذ أوائل عصر الفتح تجوس خلال هذا البحر وتغزو جزره الغنية . وكان المسلمون قد استولوا فعلاً على قبرس ورودرس وإقريطش (كريت) فى شرقه ، والجزائر الشرقية (البليار) فى غربيه ، فلم تبق أمامهم سوى الجزر الثلاث الكبرى أعنى صقلية وسردانية وقورسقة . وكانت هذه الجزر الغنية الضخمة ، تجذب أنظار الغزاة ، فتقصدتها الحملات البحرية من وقت إلى آخر ، من ثغور إفريقية والأندلس ، وهى حملات كان ينقصها الطابع الرسمى فى أغلب الأحيان ، وتتألف عادة من جماعة من المجاهدين أو النواتية المغامرين ، الذين يجوسون خلال البحر فى طلب الغنائم والكسب على النحو الذى اتبعه فيما بعد كثير من أبطال البحر الإنجليز والإسبان فى القرن السادس عشر .

وكانت صقلية تقع فى هذا العصر تحت سيادة الدولة البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) الفعلية ، أما سردانية وقورسقة فكانتا تقعان تحت سيادتها الاسمية ؛ وكان الفرنج قد استولوا على قورسقة وانضوت تحت لواهم تطلب حمايتهم من الغزاة ؛ ومع أن السرايا البحرية الإسلامية غزت هذه الجزر غير مرة أيام الدولة الأموية ، فإنها لم تستطع فيما يظهر أن تقوم فيها بفتوحات ثابتة نظراً لضخامتها ، وبعدها عن شواطئ إفريقية والأندلس ، ونظراً لصغر الحملات المسيرة ، وطبيعة هذه الغزوات ذاتها .

ولكن الأساطيل الإسلامية بلغت فى أوائل القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع) فى إفريقية والأندلس مبلغاً من القوة والاستعداد لم تبلغه من قبل ؛ وحملت غزوات النورمانين لشواطئ الأندلس حكومة قرطبة ، على الاهتمام بإنشاء أسطول قوى

يستطيع حماية الثغور ورد العدوان بمثله . وكذلك عنيت حكومة الأغالبة في إفريقية (تونس) بالأسطول عناية كبيرة لحماية لشواطئها من عدوان البيزنطيين والبيزيين والفرنجة . وكان الأغالبة في الواقع يسيطرون من تونس على المياه الوسطى للبحر الأبيض ، وهي التي غدت في قمتها مسرح منافسة شديدة بين إيطاليا وإنجلترا ؛ وكانت أساطيلهم القوية تجوس خلال هذه المياه فيما بين قلّوريه (كلايريا) حتى سردينيا وقورسقة وتشخن في شواطئها . وكانت صقلية نظراً لضخامتها وغناها وقربها من الشاطئ الإفريقي تبدو لهم بالأخص غنيمة قيمة هينة ، فكانت مطمح أنظارهم ومرتب آمالهم ، يتحينون الفرص لاقتناصها وامتلاكها .

* * *

ولافتتاح المسلمين لصقلية قصة طريفة تبدو بما يمازجها من الظروف والوقائع الغريبة كأنها قطعة من الخيال الشائق . وكان افتتاحها على يد شخصية عجيبة تبدو لأول وهلة كأنها من شخصيات الأساطير الأولى . فأما قصة الفتح حسبما تقدمها إلينا الرواية البيزنطية ، فخلاصتها أن سيداً من أشراف صقلية يدعى يوفوس (ويسميه العرب فيمي) هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها ، ف قضى الإمبراطور وهو يومئذ ميخائيل الثاني ، بجدع أنفه عقاباً له على جرمه ، ففر إلى بلدة سرقوسة (سيراكوز) وثار في عصيته وأنصاره على حاكم الجزيرة البيزنطي ، وانتزع سرقوسة وبسط حكمه عليها ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بها طويلاً ، إذ هاجمته جند الإمبراطور وهزمته واستردت المدينة منه . ففر إلى إفريقية (تونس) واستغاث بأمرها وهو يومئذ زيادة الله بن الأغلب ، ودعاه إلى فتح صقلية ، ووصف له غناها وسهولة الاستيلاء عليها . واكن الرواية الإسلامية لا تذكر لنا شيئاً عن قصة الراهبة المخطوفة ، وتقول لنا فقط إن الإمبراطور غضب على فيمي وهو مقدم أسطوله ، وأمر بالقبض عليه ، وإنه ثار في شيعته واستولى على سرقوسة ، ثم انتزعها منه زعيم آخر يدعى بلاطة ، فسار فيمي في سفنه إلى إفريقية ، واستنجد بأمرها زيادة الله ، فاستجاب إلى دعوته ، وسير أسطوله إلى صقلية لافتتاحها بقيادة قاضي القيروان أسد بن القرات ، وذلك في ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) .

فمن هو هذا القاضي الجريء الذى يقود الأساطيل إلى الفتح ؟ إن ما نعلمه عن حياته الأولى ، لا يفسر لنا كيف تحول هذا الفقيه العالم إلى أمير من أمراء البحر . وهناك روايتان فى أصله ونشأته ، تقول الأولى ، وهى رواية ابن الأبار القضاعى ، إنه أسد بن الفرات بن سنان من أهل نيسابور ، وولد بجران ، ويكنى أبا عبد الله ، وقدم أبوه مع محمد بن الأشعث الخزاعى فى عسكره حين ولاه أبو جعفر المنصور إفريقية سنة أربع وأربعين ومائة ، وأسد إذ ذاك ابن سنتين . وقد كان مولده بجران سنة اثنين وأربعين ومائة (١) .

وتقول الثانية ، وهى رواية ابن الخطيب فى « الإحاطة » ، إنه أسد بن الفرات ابن بشر بن أسد المرمى من أهل قرية الصيرمورته من إقليم البساط من قرى غرناطة ، وأنه خرج إلى المشرق ، ولقى مالك بن أنس وروى عن سحنون بن سعيد (٢) .
والرواية الأولى تبدو بدقتها وتفصيلها ، أرجح الروائيتين

وعلى أى حال فقد نشأ أسد فى مهاد العلم لا مهاد الجندية ، وتخصص فى دراسة الفقه ، ورحل فى طلب العلم إلى المشرق ، وأخذ عن الإمام مالك فى المدينة ، وأخذ كذلك فى بغداد ومصر عن أكابر علماء العصر ، ثم عاد إلى إفريقية وصنف كتاب « الأسدية » أو « المختلطة » فى الفقه المالكى ، وولى قضاء القيروان فى عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة ، واستمر إلى جانبه أيام الفتنة مخلصاً للأسرة ، معرضاً عن إغراء خصومها . وفى عهد ولده زيادة الله عين فوق منصبه ، شيخاً للفُتيا أو قاضياً للقضاة ، وكان شديد الزهد والتقى والورع (٣) .

ومن الواضح أنه كان وقت ندبه لقيادة حملة صقلية ، شيخاً قد برز على السبعين من عمره . على أن هنالك ما يدل على أنه ندب لقيادة البحر قبل ذلك وأنه قام فى هذه المياه بغزوات بحرية سابقة ؛ فقد ذكر لنا ابن خلدون أن أسد ابن الفرات شيخ الفتيا ، فتح قوصرة أيام زيادة الله بن الأغلب (٤) ؛ وفى التواريخ

(١) ابن الأبار فى الحلة السيرة (القاهرة ١٩٦٤) ج ٢ ص ٣٨٠ .

(٢) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) المجلد الأول ص ٤٣٠ و ٤٣١ .

(٣) معجم ياقوت فى كلمة « صقلية » . وابن الأثير (مصر) ج ١ ص ١١٣ . وابن خلدون

ج ٤ ص ١٩٦ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢١١ . وقوصرة حسبما يبدو من وصف ياقوت هى جزيرة

بنتلاريا الصغيرة الواقعة بين تونس وصقلية (راجع معجم ياقوت ج ٧ ص ١٨٣) .

الإفريقية أن المسلمين قاموا منذ سنة ٨٠٦ م بعدة غزوات في قورسقة . وفي سنة ٨١٠ م ظفروا بالاستيلاء عليها مؤقتاً ، حتى أخرجتهم منها جنود كارل الأكبر (شارلمان) ولكنهم عادوا إلى غزوها بعد ذلك مراراً . ونستطيع أن نستخلص من تقارب الرواية والتاريخ أن فتح قورسقة الموقت ربما كان أيضاً على يد أسد بن الفرات ، ولكن في عهد عبد الله بن الأغلب لا في عهد أخيه وخلفه زيادة الله .

* * *

ولما اعتزم ابن الأغلب فتح صقلية ، استنفر الناس للجهاد ، فهرعوا لتلبية دعوته ، واجتمعت السفن من مختلف السواحل ، في مياه ثغر سوسة ، وندب ابن الفرات لقيادة الحملة ، وخرج القاضي وأمير البحر الشيخ ، على رأس سفنه مرة أخرى في ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) كما قدمنا متجهاً صوب صقلية . ولم تكن هذه الحملة من السرايا الصغيرة ، بل كانت فيما يظهر أعظم حملة بحرية قادها أسد بن الفرات ؛ فقد كانت حسبنا تذكر الرواية الإسلامية تضم تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير النواتية^(١) ، وكان معظم هؤلاء من الجند المجاهدين في سبيل الله . ورسست السفن الإسلامية في ثغر مازر (أو مازارا) في طرف الجزيرة الغربي وهو أقرب ثغورها إلى إفريقية ؛ ونفذ أسد بن الفرات على رأس جنده إلى شرقي الجزيرة لمقاتلة الروم ، الذين اجتمعوا حول زعيمهم بلاطة ، واجتمع إليه فيمى وأنصاره ليقاتلوا معه ، فأبى وطلب إليهم أن يعتزلوهم إذ « لا حاجة بهم إلى الانتصار بالكفار » ؛ ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها الروم ، وغنم المسلمون كل أسلابهم ودوابهم ، وفر بلاطة إلى قلورية وقتل هنالك بيد بعض خصومه . واستولى أسد بن الفرات على عدة حصون داخل الجزيرة ، ووصل في سيره إلى قلعة الكرات المنيع (كلتاچيروني) وقد احتشدت فيها قوة عظيمة من الروم ، فخادعوه بطلب المهادنة وأداء الجزية ، وشجعهم فيمى سرّاً ، وكان قد بدأ يخشى عاقبة توغل المسلمين في الجزيرة ؛ فاستمع أسد إلى ضراعتهم ، وتركهم أياماً استعدوا فيها للمقاومة ، وامتنعوا عليه ، فضرب الحصار حول القلعة ، وبث السرايا في نواحي الجزيرة ، وافتتح ما حول

(١) معجم ياقوت في كلمة « صقلية » .

سرقوسة ، وحاصرها برأ وحاصرتها سفن المسلمين من البحر ، ووصلته الأمداد من إفريقية ، فبعث إلى بكترم الجند والسفن لحصارها ، ولكن وصل في ذلك الحين إلى مياه سرقوسة أسطول بيزنطي ، بعثه الإمبراطور لإنقاذ الجزيرة ، فاشتدت المقاومة على المسلمين ، ونشبت بينهم وبين الروم في البر والبحر معارك مستمرة ، وأبدى أسد في تنفيذ خططه الحربية براعة وخبرة مدهشة كأحسن القادة العسكريين . وامتد خط القتال من سرقوسة في شرقي الجزيرة إلى بلرم في شمالها الغربي . وهنا وقع الوباء بمعسكر المسلمين في سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) فهلك فيه كثير منهم ، وحمل فيمن حمل أميرهم أسد بن الفرات . والظاهر أنه توفي في قصر يانة (كاستروچوفاني) أو على مقربة منها ، وأنها كانت يومئذ في قبضة المسلمين . ذلك أن الفقيه والقائد وأمير البحر الشيخ دفن بها حسبما تقول الرواية الإسلامية^(١) ، ومن يدرى فلعل رفاته ما زال يثوى بها إلى اليوم في قبر مجهول .

وتولى القيادة من بعده محمد بن أبي الجوارى . فلما رأى تفاقم الأمر على المسلمين حاول الانسحاب في السفن ففجعه السفن البيزنطية من ذلك ، فأمر عندئذ بحرق السفن وامتنع المسلمون بدخول الجزيرة ، وتفرقوا فيها أسراباً يغزون بسائطها ويحاصرون قلاعها حتى جاءتهم الأمداد من إفريقية ، ووصل للمعاونتهم في الوقت نفسه أسطول أندلسي من السرايا المجاهدة المغامرة في سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) فاشتد ساعدهم ومضوا في افتتاح مدن الجزيرة وثغورها تباعاً حتى أتموا افتتاح معظمها ، وكان تقدمهم بطيئاً لوعورة الجزيرة فاستقروا فيما افتتحوه منها . وفي سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) استولوا على سرقوسة آخر معاقلها فقم بذلك افتتاحهم لها ، وأسسوا بها إمارة كانت تابعة في البداية لحكومة إفريقية ، ثم استقلت بعد ذلك عنها حينما سقطت دولة الأغالبة . وقامت في صقلية دولة إسلامية لبثت زهاء قرنين ازدهرت فيها الجزيرة ، وغدت حديقة يانعة ، تزهر بعلومها وتجارتها وصناعاتها ، وأضحت في الوقت نفسه معقلاً إسلامياً تخرج منه البعث والحملات البحرية ، فتجوس خلال المياه الإيطالية وتفتتح ثغورها ، وتصل حتى رومة « ملكة العالم » ؛ حتى إذا أدرك الوهن والانحلال تلك الدولة الإسلامية الصغيرة ، توالت حملات الفرنج على الجزيرة حتى استعادها اللوق روجر (رُجَّار)

النورمانى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ، وانتهت بذلك دولة الإسلام فيها كما ينتهى
الحلم السعيد .

تلك هى قصة الفتح الإسلامى لصقلية ، وقصة فاتحها أسد بن الفرات ؛
وليس من النادر أن نرى فى الفتوحات الإسلامية الأولى فقيهاً أو محدثاً أو عالماً
يتولى قيادة البعوث والحملات ، وقد كان من تقاليد الفتوحات والحروب
الإسلامية دائماً ، أن يحتشد الفقهاء والعلماء المقربون من السلطان فى مؤخرة
الجيش ، ولكن هذا المنظر الرائع الذى يقدمه إلينا هذا الفقيه والقاضى الشيخ
والقائد الجريء وأمير البحر المغامر ، برياسة الأساطيل الغازية وقيادتها إلى
الفتح والظفر ، والذى يملأ النفس روعة وإعجاباً ، هو حقاً من المناظر الفريدة
فى التاريخ الإسلامى .

يحيى الغزال

شاعر وفيلسوف وسياسى

(١٥٦ - ٢٥٠ هـ) ، (٧٧٣ - ٨٦٤ م)

كان عصر الحكم بن هشام أمير الأندلس (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) (٧٩٦ - ٨٢١ م) ، بالرغم مما تخلله من ثورات وقلاقل ، بداية عهد استقرار ونهوض بالنسبة للدولة الأموية بالأندلس . وفيه استطاعت الدولة الأموية لأول مرة ، منذ ذهابها بالشرق ، أن تستعيد قسماً من بهاها القديم ، وأن تبدو فى حلل ملوكية جديدة ، وأن تبت إلى دولة التفكير والأدب روحاً جديداً . وكان بلاط الحكم ، فوق ما يضمه من أكابر القادة وأقطاب الحكم ، مجمع طائفة كبيرة من المفكرين والشعراء والأدباء ، يلوذون بحمايته ، ويتمتعون بعطفه . وكان الحكم ، وهو أديب وشاعر موهوب يتخذ منهم بطانته ، ويؤثرهم بصداقته ، ويجرى عليهم الأرزاق الحسنة .

وكان من أعلام عصر الحكم ، يحيى الغزال الجياني . وهو شخصية فذة جمعت بين الأدب والحكمة والسياسة . وهو أبو زكريا يحيى بن الحكم البكرى ، نسبة إلى بكر بن وائل . وأصله من جيان ، ولقب بالغزال لحماله وظرفه وإناقته ، وكان مولده ، وفقاً للحميدى ، فى سنة ١٥٦ هـ (٧٧٣ م) . وقد عاصر الغزال قبل الحكم ، أباه هشام بن عبد الرحمن ، وجده عبد الرحمن ، وبذا يكون قد عاصر خمسة من أمراء بنى أمية ، وعاش نيفاً وتسعين عاماً .

ونظم الغزال الشعر حدثاً ، وبلغ ذروة عنفوانه وشهرته فى عهد الحكم ، وكان شعره يميل إلى الدعابة والتهكم اللاذع ، ولكن تطبعه فى نفس الوقت نزعة فلسفية حرة . ذلك أن الغزال لم يكن شاعراً فقط ، ولكنه كان على قول ابن حيان « حكيم الأندلس ، وشاعرها وعرافها » . وكان متضلعا فى علوم عصره ، يأخذ بقسط من الفلسفة والفلك والتنجيم . وكان حر التفكير يتناول فى شعره أموراً تثير الريب فى عقيدته . ونحن نعرف أن عصر الحكم كان مليئاً بصنوف الجدل والمناقشات الدينية ، وأن الحكم كان هدفاً لسخط الفقهاء

وحملاتهم المرة ، لما جنح إليه من التضييق عليهم ، والقضاء على نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل في شئون الدولة ، وكان الفقهاء قد تبوءوا منذ عهد أبيه هشام مكانة رفيعة في الدولة ، وتغلغل نفوذهم في معظم الشئون العامة ، وأصبحوا خطراً على نفوذ العرش وسلطانته . فلما عمد الحكم إلى تحطيم نفوذهم ، ثاروا سخطاً عليه ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالوقية والدس ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأهداب الدين . وكان الحكم بإسرافه في مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على دعايتهم قوة ونحن نعرف ما انتهى إليه تحريض الفقهاء ووقيعتهم ، من اضطرام ثورة الربض ضد الحكم — ربض قرطبة الجنوبي المسمى شقنده — وقيام أهله بالزحف على القصر ومحاولة اقتحامه ، ورد الحرس والفرسان لجموع الثوار وقتل بهم ، وهدم ديارهم . وحدث ذلك كله في رمضان سنة ٢٠٢ هـ (مارس سنة ٨١٨ م) ، ثم أمر الحكم بإخراج الثوار من قرطبة ، وتفريقهم في الكور والثغور ، وعبر البحر كثير منهم إلى المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم في عدة سفن إلى الإسكندرية ، واشتركوا في حوادث الحرب الأهلية التي كانت قائمة يومئذ بمصر ، ثم أخرجوا منها ، وغادروا الإسكندرية في سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش بقيادة زعيمهم أبي حفص البلوطي ، وافتتحوها ، وأسسوا بها دولة إسلامية صغيرة زاهرة ، استمرت زهاء قرن وثلث .

ومن جهة أخرى فقد عمد الحكم إلى مقاومة خصومه من الفقهاء المتمردين الطاعنين في حقه بنفس سلاحهم ، فكان يحشد حوله جماعة من العلماء والفقهاء المستنيرين ، وكان الجدل يضطرم بين الفريقين من فوق المنابر ، وفي الرسائل والقصائد . وكانت هذه الجماعة المستنيرة من العلماء والأدباء والشعراء الأحرار الذين يلتفون حوله ، ويشدون أزره ، تشاطر آثار هذه الحصومة ، فلم ينبج أحد منهم ، من اتهام الفقهاء المتعصبين بالإلحاد والزيف ، وكان الغزال وصديقه الفيلسوف الرياضى عباس بن فرناس ، في مقدمة من لحقتهم هذه التهمة ، وقدم ابن فرناس بالفعل إلى القضاء متهماً بالزندقة ، وأكن القضاء لم يجد سبيلاً إلى إدانته .

ولبت الغزال طيلة حياته على خصومته للفقهاء ، يكثر من التعريض بهم ،
والطعن عليهم ، غير مكترث لاتهمهم ومساعدتهم للإيقاع به ، وهو القائل فيهم :
لست تلقى الفقيه إلا غنياً ليت شعري من أين يستغنونا
تقطع البر والبحار طلابُ الرزق والقوم هاهنا قاعلونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا
والواقع أن الغزال لم يكن متحفظاً في شعره ، وكان يقدم بنفسه من آن
لآخر إلى خصومه مادة الوقعة والطعن ، ومن ذلك قصيدة نظمها في ذكر
النفس والروح يقول فيها .

يا ليت شعري أى شيء محصل يرى شخص من قلد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأى فقل للقلوب النائبات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها وواقعه شبه الوقار سكون
وعرض الغزال في أرجوزته التي نظمها في أبواب العلوم إلى القدر وغيره
من الأمور الشائكة بطريقة لم يرض عنها فقهاء عصره ، وكانت مثار الطعن
في عقيدته .

على أن صفة الشاعر الفيلسوف والمفكر الحر ، لم تكن أخص ما تميزت به
شخصية الغزال ، فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر ، هي صفة الحكيم
الناصح ، والسياسي المحنك ، واشتهر بأصالة الرأي ، وحسن التدبير ، واللباقة
والدهاء . ومع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، فقد كانت هذه الخلال
تفسح له في بلاط قرطبة مكانة خاصة ، وتجعله موضع الثقة والتقدير . ولما توفي
الحكم بن هشام في سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) ، وخلفه ولده عبد الرحمن ، لبث
الغزال على مكانته في الدولة ، ونظم في سلك كتاب البلاط . وكان منصب
الكتابة من المناصب التي تسند عادة إلى المقربين من خاصة الأمير وجلسائه من
الأدباء والشعراء ، فتغلو لهم مورد رزق . وتوثقت بين الغزال وبين الأمير
الجديد صداقة متينة العرى ، وكان عبد الرحمن يستشير به في كثير من شئون
الدولة ، ومهامها .

وفي سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) وقع حادث سياسي كان له في بلاط قرطبة أعظم صدى ، ذلك أن الإمبراطور تيوفيلوس قيصر قسطنطينية ، أرسل إلى أمير الأندلس ، سفارة وهدية فخمة ، ووفد السفير البيزنطي ، واسمه قرطوبوس على بلاط قرطبة يحمل كتاب القيصر إلى عبد الرحمن ، وفيه يذكره بما كان بين الأوائل من بنى أمية وبين قياصرة قسطنطينية من أواصر المودة والصداقة ، ويشكو به من الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيشتما في أراضيه ، ويشير إليهما في كتابه بابن مراجل ، وابن ماردة ، تحقيراً وازدراء ، ومراجل هي أم المأمون ، وماردة هي أم المعتصم ، وكلتاها تجارية وأم ولد له ، كما يشكو إليه من استيلاء البحارة الأندلسيين بقيادة أبي حفص البلوطي على جزيرة إقريطش وهي من أملاكه ، ويطلب إليه استئناف هذه الصداقة القديمة بين القياصرة وبين بنى أمية ، ويشره بقرب انهيار الدولة العباسية ، ويرغبه في ملك آبائه بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويعده بنصرته في هذا المشروع .

واستقبل السفير البيزنطي في بلاط قرطبة بمنتهى الحفاوة والتكريم ، واعتزم عبد الرحمن بن الحكم أن يرد على هذه السفارة بما يليق من الاهتمام . وهنا توجهت الأنظار إلى يحيى الغزال صديق الأمير ، وكتابه ومستشاره . وكانت شخصيته الممتازة ، وكياسته ولباقته ، ترشحه لمثل هذه السفارة الخطيرة . وكان الغزال قد قارب السبعين يوماً ، ولكنه كان يبدو فتياً ، ويحتفظ بكثير من ظرفه وإناقته . وقبل الغزال تلك المهمة على غضاضة منه ، وندب ليقدم كتاب الأمير وهديته إلى قيصر قسطنطينية ، وغادر قرطبة مع زميله يحيى بن حبيب برفقة السفير البيزنطي إلى المشرق ، عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، عاينوا فيها الأهوال من اضطراب البحر ، ووروعة الموج . واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسي بحفاوة ، وقدم إليه الغزال كتاب عبد الرحمن وهديته . وكان عبد الرحمن يرد في كتابه على جميع ما توجه به الإمبراطور إليه ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل ، وابن ماردة ، ويرحب بصداقته ، ويشاطره السخط والنقمة على بنى العباس ، ويعده في شأن استرداد ملكه بالمشرق خيراً ، وأنه يعتقد أن ذلك سوف يكون

على يديه ، وهنا ظهر الغزال ببديع مواهبه وخلاله ، فسحر الإمبراطور والبلاط
البيزنطى بظرفه وذلاقتة ورائق حديثه ودعابته ، وعمل على إحكام الصلة
والمودة بين الإمبراطور ومليكه ، فى جو يفيض عطفاً وثقة . وقدمه الإمبراطور
إلى زوجته الإمبراطورة تيودورا ، فسحرتة برائع جمالها ، وبلغ من تأثره عندئذ
أن كاد ينسى وجود الإمبراطور ، وكاد يتعثر فى محادثته . ولما سأله الإمبراطور
عن سبب ذهوله ، لم يخف عليه حقيقة السبب ، وصرح له بأنه لم ير فى حياته
« صورة أحسن ، ولا منظرأ أنق » من هذه الملكة الحسنة التى « يهر وجهها
الشمس بضيائها ، ويكشفها بهائها ، ويذكر العاقل بقدرة الله على إبداع الخلق »
فسر الملكان من إجابته ، وأنست الإمبراطورة بحديثه ودعابته وخصته بعطفها ،
ووهبتة طائفة من اللآلى النادرة لكى يستعين بها على تجهيز بناته ، وقدمت إليه
ابنها الأكبر ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فى يافعا ، فسحرم
الفتى بظرفه ، وبارع خلاله ، وفيه يقول الغزال من قصيدة طويلة :

وأغيد لين الأطراف رخص	كحيل الطرف ذى عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه	يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغطارف قيصرى	العمومة حين ينسب والحوول
على قد سواء لا قصير	فتحقره ولا هو بالطويل
ولكن بين ذلك فى اعتدال	كغصن البان فى قرب المسيل

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرتة مظاهر
الحضارة البيزنطية ، وروعه البلاط البيزنطى ، وترك الغزال فى بلاط القيصر
وبطانته أجمل الأثر بما أبداه من فطنته وكياسته ، ورقيق شمائله .

* * *

هذا ، وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل فى سفارة هامة أخرى . وذلك
أنه على أثر غزو النورمانين (المحبوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية
واقترحهم لمدينة إشبيلية وردهم عنها (٢٢٩ هـ - ٨٤٣ م) ، بعث ملكهم رسلا
إلى عبد الرحمن بن الحكم فى طلب الصلح والمهادنة ، فأجابه عبد الرحمن إلى
طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسى ، أوردتها فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » فى حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال يحيى بن حبيب لمرافقته أيضاً فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط (المحيط الأطانطى) عن طريق « شلب » فى مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . فلما وصلت السفينة إلى مياه الركن الشمالى الغربى من جليقية ، عصفت بهم ريح شديدة ، وتعالّت الأمواج حتى صارت كالجبال ، وأشرف السفيران المسلمان على الهلاك ، وهو ما يصفه لنا الغزال فى الآيات الآتية :

قال لى يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
شقت القلعين وانبثقت عرى تلك الجبال
وتمطى ملك المو ت إلينا عن خيال
فأرأينا الموت رأى الع بين حالا بعد حال

وأخيراً ، وصل الغزال ورفيقه إلى بلاد الجوس . ويصف لنا ابن دحية بلاد الجوس هذه بأنها « جزيرة فى البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها جزائر كثيرة ، منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من الجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة . ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت فى ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (الجوس) . وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر وقسماً من اسكندناوه ، وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى هوريك . وكان النورمان يومئذ أحداثاً فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته

من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقي الغزال في البلاط النورمانى ، كثيراً من الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان فراعته حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعد ذلك مراراً ، ونظم في حسنها شعراً رقيقاً يورده لنا ابن دحية ، وفيه يخاطبها بقوله :

يا نود يا رود الشباب التى تطلع من أزرارها الكوكبا
إن قلت يوماً إن عيني رأت شبهه ، لم أعد أن أكذباً

اجتمع الغزال مراراً بالملكة نود ، وحدثت بينهما محادثات ومساجلات كثيرة رقيقة ، ونظم الغزال في محاسنها ومدحها غير قصيدة . وشاع ذلك وحُثِر الغزال من عواقبه ، فامتنع عن رؤية الملكة وأكفها استدعته ، وطمأنته بأن لا شائبة في تصرفاته ، فعاد إلى سابق عهده معها .

وعاد الغزال إلى الأندلس ، بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاب توصية وجواز إلى صاحب جليقية ، لكي يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية في طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة كان سنة ٢٣٢ هـ (أواخر سنة ٨٤٦ م) .

هذا وقد اعتقد العلامة المرحوم الأستاذ ليثى بروفنسال أن هاتين السفارتين اللتين اضطلع بهما الغزال إلى قسطنطينية وإلى ملك النورمان ، هما سفارة واحدة هى التى قصد فيها الغزال إلى قسطنطينية ، وإلى بلاط بيزنطة ، وأن رواية ابن دحية عن السفارة الثانية ، إنما هو فى الواقع تكرار للرواية الخاصة بسفارة قسطنطينية أو تحريف لها ، يدل على ذلك تكرار شعر الغزال فى الروایتين عن دروعة البحر وأهواله ، وما ذكر عن مقابلاته للإمبراطورة ، ويدل عليه أيضاً أن هذه الرواية الخاصة بالرحلة الثانية ، لم ترد فى أى مصدر آخر غير رواية ابن دحية المذكورة ، وهى رواية متأخرة جداً ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى . ومن ثم فإن الأستاذ بروفنسال يبدى ريبه فى صحة هذه السفارة الثانية فى رسالته التى وضعها فى هذا الموضوع بعنوان :

Un Echange, d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IX ème Siècle.

« تبادل سفارات بين قرطبة وبيزنطة في القرن التاسع الميلادي ». ويستند في ريبه إلى ما تقدم من القرائن .

بيد أننا نخالف صديقنا العلامة المرحوم فيما ذهب إليه ، ونعتقد بالعكس أن رواية ابن دحية بالرغم مما يختلط بها من فقرات تنصرف إلى رحلة قسطنطينية ، تدل دلالة واضحة على أن سفارة أندلسية قد أوفدت إلى ملك النورمان ، وأن ما ورد في هذه الرواية من إشارات جغرافية وتاريخية ، تحمل على الاعتقاد في صحتها . فأما من الناحية الجغرافية فإن رواية ابن دحية تشير إلى سفر الغزال من طريق شلب في الغرب ثم جليقية في الشمال ثم إلى عودته عن طريق شنت ياقب ، ويده جواز سفر من ملك النورمان إلى صاحب جليقية ، ومروره بطليطلة في طريقه إلى قرطبة . وليس من المعقول أن ينصرف مثل هذا البرنامج إلى رحلة يقصد بها السفر إلى قسطنطينية . ومن جهة أخرى ، فإن رواية ابن دحية تصف لنا بلاد الجوس والنورمان بأنها جزيرة في البحر المحيط ، وعلى مقربة منها جزائر صغيرة صغار وكبار .

وأما من الناحية التاريخية فإن الرواية تقول لنا إن أهل هذه الجزائر هم من الجوس . والجوس في الرواية العربية هم النورمان ، ثم تقول لنا إن هؤلاء الجوس كانوا يومئذ قد بدأوا يدخلون في دين النصرانية .

وأخيراً فإن الغزال نفسه يقول لنا في الشعر الذي نظمته في المائكة نود ، أن قلبه قد تعلق بمجوسية « تأبى لشمس الحسن أن تغرباً » وأن ذلك قد وقع بأقصى بلاد الله .

فهذه القرائن كلها من جغرافية وتاريخية ، تحملنا على الاعتقاد في صحة رواية ابن دحية بأن الغزال قد اضطلع بعد سفارة قسطنطينية ، بسفارة أخرى إلى ملك النورمان ، وأن ما يقصه علينا من تفاصيل زيارته للبلاط النورمانى وملوكته الحسناء ، إنما هي وقائع صحيحة بعيدة عن الريب والاختراع (١) .

(١) هذا ، وقد عاد الأستاذ بروفنسال إلى التحدث عن هذه السفارة إلى ملك النورمان في الطبعة الثانية من كتابه *Hist. de L'Espagne Musulmane* ، ولكنه يمامها في حديثه كخرافة ، ويستند في ذلك إلى قوله السابق ، وما ورد بها من تفاصيل مأخوذة عن سفارة الغزال إلى قسطنطينية . ثم يقول : إن ما حدث من سعى قصر بيزنطة الحشن ، وغزو النورمان لشواطئ إسبانيا ، قد نفذ إلى للعقبة الشعبية ، وبمقتى قيام أسطورة مشتركة ، طغت بالتدريج على الحقيقة التاريخية (V.I. p. 254) .

وليث الغزال على مكانته ونفوذه في بلاط قرطبة حتى توفي عبد الرحمن ابن الحكم في سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) ، وعاش الغزال بعد وفاة صديقه وحاميه ، دهرآ آخر ، وحضر شطراً من عهد ولده الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وهو يتمتع بمثل مكانته التي تبوأها في البلاط منذ عهد الحكم . ثم توفي في سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ، وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، وأدرك خمسة من أمراء بني أمية بالأندلس ، أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم .

وقد لبث الغزال زهاء نصف قرن يتبوأ مكانته الرفيعة في الشعر والأدب ، بيد أنه يالوح لنا أن الشاعرية لم تكن أخص مواهبه ، وأنه لم يبلغ في الشعر مرتبة الزعامة . وإنما اشتهر الغزال بالأخص بالحكمة والكياسة والبراعة والسياسة . فهو فيلسوف في شعره وفي تفكيره ، وهو سياسي من الطراز الأول ، وربما كانت هذه أبرز صفاته وأجلها (١) .

(١) انتفعت في كتابة هذا الفصل بمراجعة أوراق مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس . وراجع في ترجمة الغزال وأخباره نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ و ٤٤١ وما بعدها . ودوزي : **Recherches. app. 34** ، وليثي بروفسال **Un Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance** . وراجع رواية ابن دحية عن سفارة الغزال إلى ملك النورمان في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف في سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ - ١٤٥)

عبد الرحمن الناصر

(٢٧٧ - ٣٥٠ هـ) ، (٨٩٠ - ٩٦١ م)

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بني أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الحديدة ، وأخذت تزهو وتزدهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم ؛ ولكن عوامل الانقراض والتفكك سرت فجأة إلى هذا الصرح القوي ، ولبت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بني أمية أضحي على وشك الانهيار .

توفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخافه في نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبد الله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرف وقتله ؛ وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) ، وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريّا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم في كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ؛ وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حدائثه تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ، ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع في النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية ؛ وأقبل عليه جده الأمير بخصه بحبه وثقته ، وبرشحه لختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد . وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً مقضياً ؛ بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده . وما كاد الأمير عبد الله يسلم أنفاسه الأخيرة ، حتى بويع حفيده عبد الرحمن بالملك ، وكان أول من بايعه أعمامه وأعمام أبيه ؛ وساد البشر يوم

بيعته في القصر والمدينة ، وتوسم الجميع في الأمير الفتي آيات العظمة واليمن ،
وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفي ذلك يقول شاعر العصر ابن عبد ربّه
صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك في مستهل ربيع الأول
سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جديداً والملك غضّ جديداً
يا نعمة الله زیدی ما كان فيك مزید
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة
إلى الأعماق ، وتجاوزتها الأعاصير من كل صوب ؛ وكان الأمير الفتي يرى أن
خطة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطيرة
ولم تكن ناجعة ، وأنه لا بد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة
وزعمائها بأي الوسائل ؛ ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث
حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الحاجب بدر ، فاستخلصت قلعة رباح
ولاستجة من أيدي العصاة (جمادى الأولى) . وفي شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس
سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير
الفتي في الصفوف حماسه ، وأكبروا شجاعته وإقدامه ؛ واتجه عبد الرحمن إلى
جنوب شرق الأندلس حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن
حفصون أعظم الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من المدن والحصون
القوية فيما بين رندة ومالقة ، وسير بعض قواته لإنقاذ كورة رية التي كان يهددها
الزعيم الثائر فاستولت عليها وأمنها ، وقصد إلى الحصون والقواعد الثائرة فاحتل
منها متلون وشمستان ومنتيشة وغيرها ، وقدم إليه الزعماء الخوارج طاعتهم
فقبلها وعفا عنهم ؛ ثم سار إلى كورة إلبيرة فاحتل حصونها التي تدين بالطاعة
لابن حفصون ، واتجه بعد ذلك إلى وادي آش فاحتل حصونها ، ثم توغل في
شعب جبل الثلج (سيراً نقادا) وافتتح ما هنالك من المعقل والحصون ؛ وحاول
ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من
جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه ؛ وما زال عبد الرحمن في تلك الأنحاء يخضع

حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وعاد إلى قرطبة يوم الأضحى بعد أن قضى في غزوته ثلاثة أشهر .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير الذى كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع وتتحفز ، وعاد ابن حفصون إلى تنظيم خطته وقواته . وكانت لإشبيلية في مقدمة القواعد التى رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبد الله بنو حجاج ، وهم ينتمون بالرغم من أصلهم العربى إلى المولدين بطريق الأم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة ؛ وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين الذين أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية ، التى لم تندخر وسعاً فى الرفق بهم ، ومعاملتهم دون تمييز أو إحجاف أو تحامل . فلم تمض أشهر قلائل حتى بعث عبد الرحمن إلى إشبيلية حملة قوية استولت عليها بعد حصار طويل ، وانهارت دعائم الثورة بها ، وهدمت أسوارها (جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ) . وفى شوال من نفس العام خرج عبد الرحمن فى غزوة الثانية وقصد إلى كورة ربه والجزيرة . وكان ابن حفصون قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء وعادت الثورة تضطرم فيها ؛ فجال عبد الرحمن بين حصونها واستولى على كثير من معاقلها ، واشتبك مع ابن حفصون فى معركة شديدة هزم فيها الثائر وحلفاؤه النصارى وارتد بفلوله نحو الغرب . وما زال عبد الرحمن يطارد الثوار فى تلك المنطقة حتى دخلت فى طاعته معظم المعاقل والحصون التى مر بها ؛ ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل أثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء الذين قدموا خضوعهم وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح (١) .

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، وعمت الحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط

وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء . وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصبية وسعاً في بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة ؛ وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان لجهودهم أثر كبير في التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره في تهدئة الثورة والفت في عضد الثوار . ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك يقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف جهوده في سحق الثورة ، فسير قواته إلى كورة تدمير وإلى مدينة لبلة (٣٠٤ هـ) . وفي العام التالي أعنى في سنة ٣٠٥ هـ وقع حادث كان له أكبر الأثر في تفكك عرى الثورة وانحلالها : ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة ومثير ضرامها في جنوبي الأندلس . وكان ابن حفصون في الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح . وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التي تدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من الرعاية والتسامح يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين من رعايا الحكومة الإسلامية . وقد دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته في المناطق الشرقية الجنوبية فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلاً عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ؛ وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

وترك ابن حفصون أربعة أبناء تولوا مكانه رئاسة القواعد الشرقية الجنوبية ولا سيما ببشر حيث قام ولده جعفر . ولبث عبد الرحمن بضعة أعوام أخرى يغزوهم تباعاً أحياناً بنفسه وأحياناً على يد قادته ، حتى انتهى بسحقهم جميعاً والاستيلاء على قواعدهم وحصونهم وذلك سنة ٣١٥ هـ (٩٢٨ م) . وترك ابن حفصون أيضاً ابنة هي أرچنتا التي اعتنقت النصرانية ، فقبض عليها وأعدمت

لارتدادها عن الإسلام ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية في سلك القديسين والشهداء^(١) .

ولم يغفل عبد الرحمن في الوقت الذي كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه في جنوب شرق الأندلس تشغل معظم عنايته ، عن مطاردة الثورة في الأنحاء الأخرى ؛ فغزا الثوار في طليطلة وبطليوس (سنة ٣١١ هـ) ، ثم سار بعد ذلك إلى تدمير وبلنسية ، وقضى على الثورة وعلى زعمائها في سائر الأنحاء ، وسادت السكينة بعد ذلك أرجاء الأندلس ، ولم يبق عليه إلا أن ينازل عدو الأندلس التاريخي ونعني إسبانيا النصرانية .

— ٢ —

كانت إسبانيا النصرانية في خلال تلك الفترة التي اضطربت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة في النواحي ، تسير قدماً في سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس وممالأة ثوارها ، والعيث في أراضيها ؛ وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ومملكة ناغار (نبرة أو بلاد البشكنس) ؛ وكانت ليون وهي الواقعة في الشمال الغربي بين المحيط ونهر دويرة أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية في ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التي تتاخم مملكة ليون مثل أستورقة وسمورة وشلمنقة وشقوية وميراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر لقلتهم في تلك الأنحاء ، وكثرة اعتداء النصاري عليهم ، وتوالى القحط في تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) فقتل من بقي في تلك المنطقة من المسلمين ثم ارتد إلى جباله ؛ وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء . وانتهز ألفونسو تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة ، واختط هناك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها

(١) راجع تفاصيل ثورة ابن حفصون وأبنائه من بعده في البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ . وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، وفي كتابي دولة الإسلام في الأندلس ، الطبعة الرابعة ص ٣٨٢ - ٣٨٩ . وراجع أيضاً : Dozy : Ibid; V. II, p. 109

النصارى قواعد الإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسامين الغزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيخوخ ، ونهب الأموال والمتاع ؛ وجرى ولده غرسية (جارسيا) على هذه السياسة الدموية الغاشمة . وكانت اسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ومواردها الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعماتها الوفرة وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة ، وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى حتى يفرغ من أمر الثورة . ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرص إبان الفتنة واضطرام الثورة فى الأندلس ؛ فما كاد عبد الرحمن يلى الملك حتى بادر أردونيو الثانى (أرذن) ملك ليون بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، وزحف على مقاطعة ماردة وعاث فيها (سنة ٣٠٢ هـ - ٩١٤ م) وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي . وكانت منطقة ماردة من المناطق الثائرة ، ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم الأراضى الإسلامية ، فلم يمتص عامان حتى سير حملة بقيادة وزيره أحمد بن أبى عبده ، ليقابل عدوان النصارى بمثله ، فأثنى المسلمون فى أراضى ليون ، وهزموا النصارى فى عدة وقائع . وانتقم أردونيو لهزائمه بالإغارة على منطقة طلبيره وحرق مدينها وانتساف زروعها ، فسير عبد الرحمن حملة أخرى بقيادة ابن أبى عبده وزحف المسلمون على قلعة شنت إشتين وتسمى أيضاً (كسترومورس) وهى أمنع قلاع النصارى على الحدود وضربوا حولها الحصار ، وهرع أردونيو لإنجادها فى جموع ضخمة . وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى العدد مختل النظام ، يتألف سواده من البربر والمرزقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ؛ فلما نشبت الموقعة بين المسلمين والنصارى دب الهرج إلى صفوف المسلمين ، وتسالت وحدات كثيرة منهم من المعركة ، ولكن قائدهم الشجاع صمم على أن يثبت إلى النهاية فأصيب المسلمون بهزيمة فادحة ، وقتل ابن أبى عبده وعدة كبيرة من ضباطه ، ومزق المسلمون شرمزق ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (سبتمبر سنة ٩١٧ م) .

وكان لذلك الخطب وقع عميق في بلاط قرطبة ، وأتبع النصارى ظفرهم باعتماد جديد . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو ملك نافار (بلاد البشكنس) إلى غزو الأراضى الإسلامية ، وعائثا في أحواز ناجرة وطيطة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لهزيمة الفادحة ومقتل قائده الشهم ، فخرج من قرطبة في جيش ضخم في المحرم سنة ٣٠٦ هـ (يولييه سنة ٩١٨) ، وهرع إليه أهل الثغور من كل ناحية ظمئين إلى الجهاد والانتقام ؛ وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل إلى قلب ليون ، وهاجموا النصارى بالرغم من اعتصامهم بشعب الجبال ؛ ونشبت بين الفريقين بالقرب من مكان يسمى « مطونية » معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة . وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (أغسطس سنة ٩١٨ م) (١) .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت في عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالاً بين الفريقين مدى أشهر ، وكثر العيث والسبي في مناطق الحدود . فعندئذ رأى عبد الرحمن أن يسير بنفسه إلى مقاتلة النصارى مرة أخرى ، فسار في جموع كبيرة من جيش الأندلس وأهل الثغور في المحرم سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) وعبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة وأحرقها ، ثم سار إلى قلعة شنت إشتين واستولى عليها واجتاح هذه المنطقة كلها ، واستولى على معظم القواعد والحصون ، وارتد النصارى مؤثرين القتال في المواقع الوعرة التى اختاروها . ولما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو فاجأه سانشو ملك نافار بقواته ، ولكنه لم يفلح في مفاجأته ، وردّه المسلمون بقوة فارتد إلى شعب الجبال ، وانضم إلى حليفه أردونيو ، وجمع الملكان قواتهما لقتال المسلمين . ولما نفذ عبد الرحمن بقواته إلى مفاوز البرنيه أخذ النصارى في إرهاقه وأصيب المسلمون ببعض الخسائر ، وشعر عبد الرحمن بخطر المأزق فبادر بالخروج إلى السهل المنبسط ؛ وهنا طمع النصارى في قتال المسلمين فأنحدروا إلى السهل بعد أن كانوا في حمى الجبال ، والتقى الفريقان عند مكان يسمى « چرنكيرا » فدفع النصارى ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون

فيهم قتلاً وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ؛ وانهارت كل مقاومة ، وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم ، وهدم عبد الرحمن حصون العدو وقلاعهم ، وأصلح حصون المسلمين وفي مقدمتها حصن بقرية المشرف على حدود ناغار ؛ ثم قفل راجعاً إلى قرطبة فوصل إليها في سبتمبر سنة ٩٢٠ م بعد أن قطع في غزوته زهاء ثلاثة أشهر (١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر في ردع النصارى ووقف عدوانهم ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقرية واقتحمها وقتل كل من كان فيها من المسلمين ، فضجت الأندلس لهذا الاجتراء ، وبادر عبد الرحمن فسير حملة إلى الثغر الأعلى (أراجون) بقيادة وزيره عبد الحميد بن بسيل (٣١١ هـ) فزحف على تطيلة وعاث في أراضي النصارى ، ثم لحق به عبد الرحمن في المحرم سنة ٣١٢ هـ (أبريل ٩٢٤ م) في جيش ضخم وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ؛ ودخل أراضي ناغار في شهر ربيع الآخر (يوليه) ، فساد الدعر بين النصارى . وترك العدو معظم قلاعهم وحصونه دون دفاع ، واستولى عبد الرحمن على عدد من القواعد والحصون الهامة ، وقتل كل من وجده فيها من النصارى . ثم نفذ إلى قلب ناغار وزحف على عاصمتها بنبلونة ؛ وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه في شعب الجبال ، فكان يرد كل مرة بخسائر فادحة . ودخل عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجمع سانشو قواته مرة أخرى وحاول دفاعاً عن ملكه فهزم هزيمة فادحة ، ومزقت قواته كل ممزق ؛ وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع ناغار وسميت قواتها (ربيع الثاني ٣١٢ هـ - أغسطس ٩٢٤ م) (٢) .

وفي العام التالي (٩٢٥ م) توفي أردونيو ملك ليون فثارت عقب وفاته حول العرش حرب أهلية بين أولاده استمرت بضعة أعوام ، وانتهت بفوز ولده رامرو وجلسه على العرش في سنة ٩٣٢ م . وانتهز الناصر فرصة انشغال ليون بحربها الأهلية فضى في جهوده لسحق الثورة والقتال الداخلية وتوطيد السكينة ، ومقاومة دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ - ١٨٩ . وكذلك : Dozy : Ibid, V. II. p. 141-143

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ ، وكذلك : Dozy : Ibid, II. p. 144-145

وكان راميرو الثاني أو رذمير ، كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس ؛ فما كاد يلي العرش حتى نشط إلى استئثار الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية ، هو خير السبل لتبديد قواها ؛ وكانت طليطلة قد عادت إلى الثورة وسار عبد الرحمن إلى حصارها ، فحاول راميرو لإنجاد المدينة الثائرة تلبية لدعوة أهلها ، ولكن القوات الإسلامية ردتته قبل أن يصل إليها ، وأرغمت طليطلة على التسليم والخضوع بعد أن أضنتها مصائب الحصار ، ودخلها عبد الرحمن ظافراً في صيف سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) . وفي العام التالي عاد ملك ليون إلى محاربة المسلمين واحتل مدينة أوسمة ، فسار الناصر إلى قتاله ونفذ إلى أراضي قشتالة ، واقتحم مدينة برغش عاصمتها وخرّبها ، وقتل على مقربة منها عدداً كبيراً من أحرار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م)^(١) .

ولما توفي سانشو ملك نافار قامت بالأمر بعده أرملته طوطه وصية على ولده غرسية ؛ وكانت امرأة وافرة العزم والجرأة ، فلم يمض سوى قليل حتى تحرك البشكنس وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) ؛ وكان بنو هاشم سادة سرقسطة وزعيمهم محمد بن هاشم التجيبي يضطرمون بأطماع خفية ، ويضمرون الخروج على حكومة قرطبة ، وخصوصاً لما رأوه من نشاط عبد الرحمن في إخضاع الولاة المحليين وسحق سلطان الأسر القديمة . فلما اضطرت الحرب بين ملك ليون والناصر ، رأوا الفرصة سانحة لتحقيق مشاريعهم ، وعقد محمد التجيبي صاحب سرقسطة معاهدة سرية مع راميرو ، ثم جاهر بالخروج على عبد الرحمن والاعتراف بسيادة ليون ، وعقد محمد وراميرو بعد ذلك محالفة مع طوطه ملكة نافار ، وبذلك تحالف الشمال كله على عبد الرحمن .

فسار عبد الرحمن إلى مقاتلة أعدائه في جيش ضخم في ربيع سنة ٩٢٧ م ، وبدأ بالزحف على قلعة أيوب فاقتحمها وقتل صاحبها مطرف التجيبي ومن معه من حلفائه النصاري ، ثم عهد بحصار سرقسطة إلى أحمد بن إسحاق قائد الفرسان وعينه حاكماً للثغر ، وأكثه تهاون في الحصار وتواني ، لمرض في نفسه ولأطماع كانت تجيش بها نفسه . ونمى إلى عبد الرحمن أنه يأتمر به مع أخيه أمية بن إسحاق

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ، وكذلك : Dozy : Ibid V. II p. 148

فاعتقلهما واكتفى بניהما من الأندلس ؛ فالتجأ أمية إلى راميرو وتحالف معه ، وحاول أحمد أن يتصل بعمال الفاطميين في عدوة المغرب ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه وأمر بإعدامه ؛ واستمر حصار سرقسطة أشهراً حتى سقطت وأسر صاحبها محمد بن هشام . وبذلك انهارت ثورة بني هاشم في الشمال ، والتس محمد العفوم الناصر فعفا عنه ، وردّه إلى منصبه جرياً على أسلوبه مع الزعماء قوى البأس والعصية .

ولم ينس عبد الرحمن أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ؛ ففي الوقت الذي كانت جنوده تحاصر فيه سرقسطة ، سار في بقية الجيش إلى بنبلونة عاصمة نافار وخرّبها ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ؛ وهرعت إليه طوطة ملكة نافار تقدم إليه خضوعها وطاعتها ، فقبل الناصر خضوعها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نافار في طاعته وتحت حمايته .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقي من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ، ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثاني ملك ليون وهو محور النضال الحقيقي . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف وعهد بقيادته إلى نجدة الصقلي . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوؤوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ في بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة في القصر والجيش ؛ وكان لهذه السياسة التي أسرف الناصر في اتباعها أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب ، وفي انحلال قوى الجيش المعنوية . وفي صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم متجهاً نحو سيانقة دون أن يفتن إلى ما يفترق في عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية . وتأهب راميرو الثاني لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوّده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ، وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثة لعهداها ؛ وبذلك اتحدت قوى إسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً في شأن الموقعة التي نشبت

بين المسلمين والنصارى ، وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والتحفظ . وفي موطن واحد فقط تقدم إلينا الرواية الإسلامية تفصيلاً للموقعة تقترب فيه من أقوال الرواية الفرنجية ، وذلك بالرغم مما يشوبه من لون القصص والأسطورة ؛ فتقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمورة Zamora عاصمتها وكانت في غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتوى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين ، وهزموا هزيمة شديدة وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً . وكان ذلك في يوم ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) وسميت الموقعة بموقعة الخندق لشوبها على خنادق سمورة (١) .

ولدينا من الروايات الأندلسية ، رواية ابن حيان في «المقتبس» وهي التي ينقلها عن عيسى بن أحمد الرازي ، وهو مؤرخ عاش قريباً من العصر ، وخلاصتها أن الناصر ، لما عزم على غزو أهل جليقية ، جد في الاستعداد والحشد ، وخرج في حشوده إلى الغزو في شعبان سنة ٣٢٧ هـ (يونيه ٩٢٩ م) ، وقصد إلى أرض العدو بطريق طليطلة ، ونفذ إلى قشتالة ، فألقى النصارى قد أدخلوا معظم بلاد هذه المنطقة . وكان محمد بن هاشم التجيبي والى سرقسطة ، قد تقدم في قواته ، فعبر نهر شنت مانكش (سيانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولاً ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة وقتل منهم جموع غفيرة ، وأسر محمد بن هاشم (١٣ شوال ٣٢٧ هـ) وارتد المسلمون في تراجعهم إلى خندق عميق هو الذي تنسب إليه الموقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير . فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فلكها العدو في الحال ، واحتل الناصر على النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هنالك يومه ، وقد ساد

(١) هذه رواية المسعود في مروج الذهب (ببلاق) ج ١ ص ٨٧ ، ونقلها المقرئ في فتح الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الخلل في الجيش ، وأيقن الناصر بتمحيص المسلمين ، ثم رحل قافلا حتى وصل إلى مدينة وادي الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

وزيد ابن حيان على ما تقدم ، أن هذه الواقعة التي اشتهر حديثها بالاندلس ، قد نالت الخليفة والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير ، واستولى العدو على محلة السلطان وسراجه وآلاته السلطانية . ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان أنه قد بدا في هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان ، فقبعوا للصفوف ، وسارعوا في الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة » .

ورأى الناصر أن يعتذر لدى شعبه عما لحقه من الهزيمة ، فأصدر باسمه كتاباً عن الواقعة ينقل إلينا ابن حيان نصه ، وفيه يحاول كاتبه أن يفصل أدوار المعركة ، ويستخلص منه « أن المعركة سارت أولاً في صالح المسلمين ، واستطاع المسلمون أن يردوا النصارى إلى أن سقط محمد بن هشام التجيبي قائد الطليعة عن فرسه وأسرته النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم . ثم استؤنف القتال في اليوم الثالث ، وقد تضخم حشود النصارى بما ورد إليهم من أمداد كثيفة ، واضطربت المعركة من جديد بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية أيضاً بانتصار المسلمين . وفي اليوم التالي عاد النصارى إلى الهجوم ، واحتدم القتال ، وهزم النصارى كرة أخرى . ثم أمر أمير المؤمنين بالرحيل ، والعلو يلاحق ساقته ، وسار الناصر في اتجاه حصن شانت مانكش ، ثم أشرف في مسيره على خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها النصارى ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت الحرب ، ودافع أمير المؤمنين ب رجاله وخاصته عن المسلمين ، حتى تقدم أكثرهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبته . فلما رأى النصارى ذلك ، نزلوا من متن الجبال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب الثقلة ، وحامى الخليفة عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقه حتى أسهلوا ، وانتظمت جموع أمير المؤمنين وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد » ، وقد أرخ هذا الكتاب في الثامن من ذى القعدة سنة

وكتاب الخليفة اعتذار ، وزخرف من القول لا ينفي الحقيقة التاريخية ، وهي أن المسلمين قد أصابهم الهزيمة الفادحة .

وتقول الرواية الفرنجية من جهة أخرى إن عبد الرحمن سار بجيشه في اتجاه سيانقة الواقعة على مقربة من نهر دوبرة شرقي مدينة سمورة ، فلقى راميرو وحليفه طوطة في قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة في ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية في القتال فتوراً ، وتراجعوا أمام النصاري ، ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون . ذلك أن النصاري طاردوهم وألحوا في قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربي حتى محلة صغيرة في جنوبي مدينة شامنقة تسمى ألا نديجا (الخنديق) ثم وقفوا وكروا على النصاري بفتور وتحاذل ، وهجم النصاري عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصاري فيهم قتلاً وأسراً ، فساد الخلل في الجيش الإسلامي ، ومزقت منه فرق برمتها وقتل قائده نجدة بن حسين الصقلي ، وأسر محمد بن هشام حاكم سرقسطة ، ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن في هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثنى عبد الرحمن نفسه جراحاً ولم ينبج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة في نفر من الفرسان^(١) . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين ، ويقال إن الذي منعه من مطاردتهم هو أمية بن إسحاق إذ حذرهم من الكمين ، ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة ، ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامي بأسره^(٢) . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم في أوروبا وفي العالم الإسلامي ؛ بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر في قوة الأندلس ومنعتها . ولم يدخر عبد الرحمن منذ عودته إلى قرطبة جهداً في تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطيرة التي أدت إلى هذه الكارثة ؛ ولكن موقعة الخندق كانت خاتمة أعماله الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه . واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه ؛ وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه راميرو بعد

(١) Dozy : Ibid; V. II. p. 155 & 156 وكذلك Aschbach :

der Omajaden in Spanien V. II. p. 150 وما بعدها حيث يورد الروايات النصرانية .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

أن لبث في سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ؛ وشغل النصراني مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ؛ واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

على أن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع خلال الأعوام التالية ، فقد قام المسلمون بعد ذلك بعدة غزوات متعاقبة في أراضى ليون . ولما توفي راميرو الثاني في سنة ٩٥٠ م ، ثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو وانتهى الأمر بجلوس أردونيو ، وغزا المسلمون أراضى ليون خلال ذلك وعاثوا فيها ، ثم عقد الصالح بين الفريقين واستقرت بينهما علائق السلم حيناً .

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التي اجتاحت شمال إفريقيا ، وامتدت بسرعة إلى عدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطئ الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج ديني وسياسي معاً ؛ وكانت في قوتها وعنفوانها تهدد طرفي إفريقية أعني مصر والمغرب ؛ فنذ عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها في تونس نحو مصر والمغرب غازية ، وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول ، وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدو ويفاضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففي سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً استولى عليها من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزناتة إلى طاعته ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس ، وبعث إليه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول في طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى سؤله وأمدّه بالأموال والهدايا ، وقوى أمره في المغرب . وفي سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى ، أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمي لغزو المغرب والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت ، ثم توفي عبيد الله في

العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى بقيادة ميسور الصقلي ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته . وجازت جيوش عبد الرحمن بعد ذلك مراراً إلى المغرب لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ؛ واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المخالفين له .

ولما تولى المعز رابع الخلفاء الفاطميين ، وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها ، وأخذت أساطيلها تزعج الدولة البيزنطية بغزو شواطئ قلورية (جنوبى إيطاليا) كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق ؛ والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية . وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن وعاثت فى ألمرية ؛ فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب إلى شواطئ إفريقية (تونس) فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس ، ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية التى زحفت بقيادة جوهر الصقلي حذاء الشاطئ إلى عدوة المغرب ، وعبرت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدراجهم (١) .

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر وانسيابها إلى المغرب الأقصى على مقربة من شواطئ الأندلس ، فى مقدمة البواعث التى

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ، ونفع الطب ج ١ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ و ٢٣٨ . وراجع

حدث بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحية ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس . وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبني العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة ، واكتفى بلقب الإمارة ، وسار بنوه على أثره ؛ وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير بعيد أن تستعيد مجدها السالف في عهد الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط ، فإن أمراء بني أمية لم يفكروا في الإقدام على منافسة بني العباس في ألقاب الخلافة . وقيل في تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، وإنهم أبعد عن نيلها لقصورهم عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية ، وإنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين ^(١) . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية ؛ فلما ظهرت الدعوة الفاطمية في إفريقية ، ونمت بسرعة في أوائل القرن الرابع الهجري ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى عما انتهت إليه الدولة العباسية في المشرق من الاضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحية ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك في مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نص الوثيقة التي صدرت بذلك وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فلنأخذ حق من استوفى حقه ، وأجلر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انخراطهم إلينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب

(١) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ، والمسموعى في مروج الذهب (هامش نفع الطيب ج ١ ص ١٩٩) وابن الأبار في الحلة السيرة (ليدن) ص ٩٩ .

عنا ، وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة ، على يقين بأفضليته وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (ينار سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمر المؤمنين ؛ وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة ؛ ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة في سنة ٣٢٧ هـ ، أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام وهو تحريف واضح ينقضه وثيقة الدعوة الرسمية (٢) .

* * *

وكان من أبرز الحوادث الداخلية في عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مسرة الجبلى ، واهتمام الناصر بمقاومتها والقضاء عليها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير في شأنها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس العلوم الدينية وتبحر فيها ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة في التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، ودرس على المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى آراءه ونخلته الحقيقية تحت شعار من النسك والورع . وكان ذلك في بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه وسحر بيانه ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصاحب والأتباع . واختلف الناس في أمر ابن مسرة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٨٧) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا فيها .

فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة ، وترويج البدع ، والانحراف عن مبادئ الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرة بقرطبة في شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) ، ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه . وكان أهل السنة من جهة أخرى يهاجون هذه الآراء ، وينوهون بانحرافها عن مبادئ الدين الصحيحة : ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى ولاية الأمر ، ولم يصدر قرار السلطة العليا في شأن ابن مسرة وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته . وأخيراً ، صدر المرسوم الخلافي يدمغ تعاليم ابن مسرة وآراءه ، وقرئ على الناس بالجامعين بقرطبة والزهراء في يوم الجمعة التاسع من ذى الحجة سنة ٣٤٠ هـ . ويبدأ الكتاب الخلافي بالتنويه بشأن الإسلام وأفضليته على سائر الأديان ، ورسالة محمد خاتم النبيين ، ويحمل على « الفرقة التي لا تبتغي خيراً ولا تأتمر رشداً » ، وعلى ما انزلت إليه من الضلال ، والمبادئ المغرقة ، وما تزعمه من خلق القرآن وتحريم التأويل ، وأنه لما شاع أمر هذه الجماعة ، وفشا غيها ، واتصل بأمر المؤمنين خبرها ، وقدحها في الديانة ، وخروجها عن الحادة ، أمر بالضرب على أيديها ، وإنذارها إنذاراً فظيعاً ، واعتزم أن يوقع بها العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، وأن يقرأ هذا الكتاب في سائر الأقطار والكور ، وأن ينفذ عهده إلى سائر عماله ، كي يقوموا بمطاردة هذه الطغمة الخبيثة التي اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » ، ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتبث أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواقعهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته .

وهنا ، نجد الدولة تغني بشدة بأمر تلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرة وتلاميذه ، وهي التي استحوطت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً كما يصورها المرسوم الخلافي ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم كانت بالعكس حركة تفكير فلسفي حر ،

لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ، ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم ، وسلطانهم المطلق (١) .

— ٥ —

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان في الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، وفيه بلغت الدولة الأموية بالأندلس ذروة القوة والبهاء ، وكان حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان في مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها في المشرق بهاء وفخامة . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر وهو مقام الملك ، قصرًا جديدًا سماه دار الروضة وجلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى نوابغ المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة ، ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والمايادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومتنزهاً ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة ، فلما بلغ الناصر للدين الله ما أراد من توطيد ملكه وحق أعدائه في الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولإنشاء الزهراء قصة

(١) أورد لنا ابن حيان في المقتبس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) نص هذا الكتاب الخلافى الذى صدر بشأن ابن مسرة كاملاً . وقد نشرناه بنصه الكامل فى كتابنا دولة الإسلام فى الأندلس ، (الطبعة الرابعة ج ٢ ص ٤٣٣) .

ربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلمًا كالذي رآه قسطنطين فأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته الزهراء ، وإنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيرا وأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى ، فأوحت إليه « الزهراء » أن ينشئ بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها^(١) . بيد أننا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهرة وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويذكره رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ والسلطان المؤثر ، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك أبيات قالها في هذا المعنى :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم شأنه أضحي يدل على عظيم الشأن

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها في سفح جبل يسمى جبل العروس^(٢) . وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) ، وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة^(٣) ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ولا سيما من بغداد وقسطنطينية^(٤) ، وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من ألمرية وريه ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ومن الشام وقسطنطينية^(٥) . وكان يشتغل في بنائها كل

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) نزهة المشتاق للإدرسي (طبع رومة) ص ١٩٣ ، والمسالك والممالك لابن حوقل .

(ص ٧٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

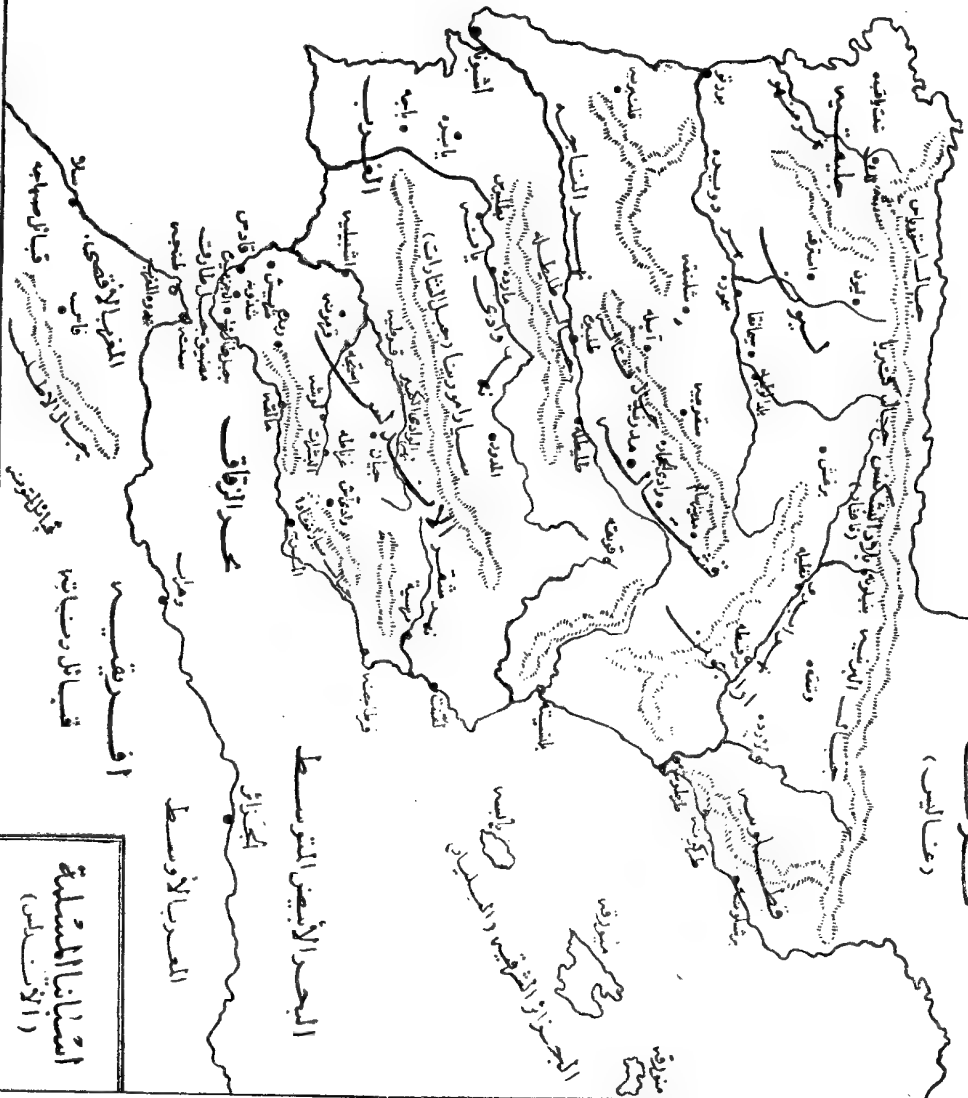
(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

خليج بسكونييه

فرنسا

(عاليه)

المحيط الاطلسي



استانامنا المسلمة

(الانسان)

يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة في اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلاثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعني مدى خمسة وعشرين عاماً ؛ هذا عدا ما أنفق عليها في عهد الحكم (١) . وابنتي الناصر في حاضرتة الجديدة قصر آ منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً في تنميته وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ؛ وأنشأ فيه مجلساً ملكياً جليلاً سمي بقصر الخلافة ، صنعت جدرانها من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة (٢) . وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس ، بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير الذي أهدى إليه من قيصر قسطنطينية ، وأقام عليه اثنتي عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها إلى الحوض (٣) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر الزهراء أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يكن في أم الإسلام مثله في الروعة والإناقة والبهاء (٤) .

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال (٥) ؛ وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظلة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلي (٦) . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصولاً السلطان المؤنث ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ . (٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٦ . (٤) » » ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥ .

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٦٢٤ . (٦) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعني حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفين زهاء أربعين سنة^(١) . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذمومة بناء القصر والمسجد في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية المملوكية الشهيرة ، أوصاف وأرقام مدهشة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والفخامة ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس ، أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما أهدها قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفاً وسبعمئة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرها^(٢) . وقد لا نجد في المنشآت المملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوي أو قصر الفاتيكانيان الشهير برومة وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسي المملوكي الفخم يحتوي على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبناء والساحات والأورقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع ، من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلاً كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة ، وأن يحجر على الخليفة الطفل هشام المؤيد ولد الحكم ، ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ . (٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها بجوار قرطبة على نهر الوادى الكبير وسماها « الزاهرة » ، وبذلك اختتمت حياة الزهراء الملوكية .

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مراردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج ، فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء .

ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء اسبانيا والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف ؛ وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه فأنشأ له وحدات جديدة قوية ، وأصبح للأندلس من ذلك العهد أسطول قوى كامل الأهبة يسيطر على مياه اسبانيا الجنوبية ، والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر الأبيض المتوسط . وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيها احتوته الزهراء من القصور والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضحامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند

وفاته في بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف (خمسـة آلاف مايون) دينار ؛ وكان يقسم الحياة من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة وثلث يدخر للطوارئ (١) . ولم يتردد المؤرخ الحديث في قبول هذه الأرقام ، حتى أن العلامة دوزي ينقلها ويقول أن الناصر ترك عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب (٢) . ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادي الذي زار قرطبة في هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره وأنه وبنيو حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم في ذلك العصر (٣) . وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل في عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

وبلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة الرخاء والنماء والأمن والعزة ، وزهت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش ، ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وضواحيها ثمانية وعشرين ، وازدانت بعدد كبير من القصور والمنتزهات الفخمة ، ودوت شهرتها في الآفاق ووصلت إلى قاصية الشمال حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التي اشتهرت بنظمها في أواخر القرن العاشر ، أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا » (٤) .

— ٧ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالي والصقالية واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصيبة التي أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التي أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان والمغرب ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٢) Dozy : Ibid ; Vol. II. p. 173

(٣) ابن حوقل المسالك والممالك ص ٧٧ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٥ ، وكذلك Dozy : Ibid; V. II. p. 179

واصطناع البربر والموالى ، الذين آزره وقت المحنة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جواهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالبة يشتد في البلاط وفي الدولة . وكان الحكم يعيش مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فنص البلاط الأموى في عهده بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة . بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، مقصوراً على شئون القصر والخاص . واقتنى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل في الاستراة بالقبائل العربية ذات البأس والعصبية ، وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ، واستأثر بكل سلطة حقيقية في الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق لا ينى عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف في سبيله ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نعى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه^(١) . وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض عمومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على إثباتهم^(٢) . وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم^(٣) .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق في الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمعنى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون في البطانة وفي القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الجليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللومبارديين والإيطاليين^(٤) ، وكان معظمهم يوثى بهم أطفالاً بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجليسيين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) Dozy : Ibid ; V. II p. 153

(٤) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥ .

حبادئ الإسلام ، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد يومئذ عهد الناصر يشتهد نفوذ الصقالية في شئون الإدارة والحكم فضلا عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى في القصر والإدارة والجيش ؛ ومالبت أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم في عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم يومئذ في القصر والبطانة بثلاثة عشر ألفاً وسبعائة وخمسين ، وبلغوا في رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين ، وفي رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعائة وخمسين . وعلى أى حال فقد كان منهم الحرس الخلافي ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ ، ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم لينذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم (١) . بل كان منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلاح صاحب الخيل ، وودرى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحباً النظر على الخاص (٢) ؛ وكان لهذه السياسة غير بعيد أسوأ الأثر في انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صلور الضباط والجند العرب من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ؛ وكانت هزيمة الناصر في موقعة الخندق الشهيرة (الأنديجا) (٣٢٧ هـ) ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوي ، الذي سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية (٣) .

كانت الأندلس بما اجتمع لها في عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأ مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ في دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها في المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الحاذية الدبلوماسية في العالم الإسلامي ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية في طلب المودة وعقد العلاقات الدبلوماسية .

(١) Dozy : Ibid; Vol. II. p. 153 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٣) Dozy: Ibid; V. II. p. 153

وكان عصر الناصر من أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية ، فكانت ثمة معاهدات وسفارات وعلاقات سياسية بين قرطبة ومعظم الأمم النصرانية ، وتوالت وفود ملوك النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ينشدون الحلف والصدقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام في الغرب . ففي صفر سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع إمبراطور قسطنطينية المعروف ببورفيروجيتوس بهدية ثمينة ، واحتفل الناصر بقدومهم في يوم مشهود زين فيه القصر الخلافي بأبدع زينة ، وركبت العساكر في أكمل نظام ، وجلس الناصر على عرشه الفخم يحف به أعضاء الأسرة الملكية والوزراء والحجاب ، وأقبل الرسل فهاهم ما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا إلى الناصر كتاب الإمبراطور مكتوباً باليونانية ، وعلى الكتاب طابع ذهبي على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الإمبراطور مصنوعة من الزجاج الماون البديع وفي ترجمة عنوانه ما يأتي : « من قسطنطين ورومانين^(١) المؤمنين بالمسيح الملكين العظمين ملكي الروم ، إلى العظم الاستحقاق الفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه » . وخطب أعلام الإسلام يومئذ فنوهوا بما بلغه الإسلام على يد الناصر من الإعزاز والقوة واجتماع الكلمة .

ولما انصرف رسل الإمبراطور ، بعث الناصر معهم سفره هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ، ويوثق عرى التحالف بين المملكتين ، فرجع بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء .

وتفيض الرواية الإسلامية في تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة^(٢) ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصدقة القديمة التي رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم لتكون شبه تحالف مثالي ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة ، وربما كانت ترمى في الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة لمقاومة الدولة الفاطمية

(١) هو رومانوس الثاني ابن قسطنطين السابع .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ - ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ ، ونفع الطيب

الفتية ، التي بدأت تزعج البيزنطيين في أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى .

ثم توالى سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر ، فوفدت عليه رسل ملك الصقلية وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس^(١) ، فاحتفل بقدمهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم . ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع ، في طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ هي سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ؛ وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة في غموض وإيجاز وتصف أوتو بملك الصقلية أو ملك « اللمان » وتسميه « هونوا » أو « هونتو »^(٢) . ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية في تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٢ هـ الموافقة سنة ٩٥٤ م ، ففي ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو جبر يدعى يوحنا الجورزني نسبة إلى الدير الذي ينمى إليه في جورزني على مقربة من ماز ، وكان يوحنا من أكابر العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن يوحنا كان مكلفاً بالدفاع عن قضية النصرانية لدى زعيم الإسلام ؛ بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الكنسية أن مهمة سفارته الأصلية ، كانت بشأن توغل المستعمرات الإسلامية المغامرة في جنوبي فرنسا وليجوريا وسويسرة وبعثها في تلك الأنحاء ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذي تنتمي إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها . ووصل يوحنا إلى قرطبة ومعه طائفة من الهدايا النفيسة ، فاستقبل بحفاوة ، ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ؛ ولما ألح يوحنا في المقابلة أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل إلى أوتو رسولا حبراً فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ، وأنه سيعتقله أى يوحنا أضعاف هذه المدة لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية ؛ وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك ألمانيا رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ، ويبقى يوحنا معتقلاً حتى يعود السفير ،

(١) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كانت يومئذ تعرف بملكة الصقلية .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

واختير لهذه السفارة قس من رعايا الخليفة ، هو ربيع الأسقف ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى أوتو في تورنجن حيث كان يتفق معظم أوقاته ؛ وكان أوتو يعاني يومئذ بعض المتاعب الداخلية ، فأبدى تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة وأكرم مثنوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة بعد سنتين من سفره (٨٣٤٤ - ٩٥٥ م) : فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن بروية يوحنا سفير الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة في حفل فخم ، وأفضى السفير إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، هو أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العربية في غاليس (جنوب فرنسا) وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها ولا تستطيع أن تبذل نصيحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها^(١) . بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر في نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعي السائد في ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين في ظل هذا النظام من الاستقلال الداخلي ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام قائلاً : « إن ملككم أمير حكيم ماهر ولكن في سياسته شيئاً لا أسيفه ، وهو أنه بدلاً من أن يقبض بيديه على جميع السلطة ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته معتقداً أنه يكسب عطفهم بذلك ، وهذا خطأ فادح فإن مدارة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد في كبريائهم وتذكى رغبتهم في الثورة »^(٢) . وفي ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر في الحكم المطلق ، وسياسته في سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالية والمولدين .

تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة ، التي تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر زعيماً النصرانية والإسلام في عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية ، فقد تلقى الناصر بعد ذلك في سنة ٨٣٤٤

(١) راجع في موضوع هذه السفارة وتفاصيلها في : **Reinaud : Invasions des Sarrazins** :

p. 197-193 وكذلك ابن خلدون ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٢) **Dozy : Ibid; V. II. p. 153**

سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه وأرسل في السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو ؛ وفي سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطة ملكة نافار بنفسها إلى قرطبة ومعها ولدها غرسية ، وسانشو أمير ليون وطائفة من الأحرار والعظماء النصاري ، فاستقبلهم الناصر في قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ؛ ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثاني عشر في طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا^(١) ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح في الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامي .

— ٩ —

في أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً وعاد إلى الجلوس في القصر ، ولكنه أصيب بنكسة وعاد إلى احتجابه ؛ ولبت أشهراً تشدد به العلة حيناً وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم في شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (أكتوبر سنة ٩٦١ م) وكانت وفاته بقصر الزهراء في الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهي أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمي بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام في عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة ، ولم تصل الدولة الإسلامية في الغرب إلى ما وصلت إليه في عصر الناصر من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ ؛ وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع في شخصية واحدة عسكرية وإدارية ، ويحمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره في تلك العبارة : « ظهر لأول ولايته من يمن طائره وسعادة جدّه واتساع مأكله وقوة سلطانه وإقبال دولته وخود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصويره الأوهام »^(٢) . وكان عالماً

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) الحلة السيرة (ليدن) ص ٩٩ - ١٠٠ .

أديباً يهوى الشعر ويقرب الأدباء والشعراء ؛ ويفيض شاعره الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد في مناقبه ويستعرض غزواته في أرجوزة طويلة^(١) ؛ ويصفه ابن الأثير بأنه كان أبيض أشهل حسن الوجه عظيم الجسم قصير الساقين^(٢) ، وترك الناصر من البنين أحد عشر ولداً ، منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر الله .

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة ، ورعاً كان أبلغ ما قيل في ذلك تلك العبارات القوية التي يختتم بها العلامة دوزي حديثه عن عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكننا نجد إذا ما درسنا ذلك العهد الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة بأكثر مما يثيرهما المصنوع ؛ تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها ، والتي كانت تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر كما تدعو إليه في أسمى الأمور . إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذي استأثر بمقاليد الحكم وأسس وحدة الأمة ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي ، والذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين ، لأجلد بأن يعتبر قريباً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى »^(٣) .

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ (٣) Dozy; Ibid, V. II. p. 175

صبح أم المؤيد

(توفيت نحو ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م)

حظية خليفة ، أم خليفة ، سيدة مطابقة الرأى ، تولى وتعزل الوزراء والقادة ، وتدير شئون السلام والحرب ، حسناء يغتم جمالها ملكا ، وبأس خليفة ، ويسيطر على قصر وحكومة ، صاحبة السلطان المطلق فى دولة من أعظم دول الإسلام ، نصرانية نافارية مع ذلك : تلك هى صبح أو صبيحة أو « أورور » قرينة الحكم المستنصر بالله الأموى خليفة الأندلس وأم ولده هشام المؤيد بالله .

يقدم إلينا التاريخ الإسلامى أمثلة كثيرة لنساء أجنبيات من الرقيقى أو الأسرى سطعن فى قصور الخلفاء والسلطين ، وتمتعن بالسلطان والنفوذ ، ولكنه لا يقدم إلينا كثيراً من المواطن التى تستأثر فيها أجنبية نصرانية بالسلطان والحكم المطلق فى دولة إسلامية قوية ، وتسهر على مصائر هذه الدولة بذكاء وعزم ، وتقودها لخبر الإسلام والخلافة . والواقع أننا لا نستطيع أن نجد لذلك مثلاً أسطع من مثل صبح أو « أورور » تلك الفرنجية الحسنة ، التى لبثت زهاء عشرين عاماً تسيطر يسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة ، وتقوم بتدبير شئونها فى السلام والحرب مع أعظم رجالات الأندلس . ولم تك صبح سوى إحدى كواكب هذا الثبت الحافل من النساء الفرنجيات ، اللاتى يقدمهن إلينا تاريخ الأندلس منذ الفتح ، واللاتى يتركن أثرهن فى سير الحوادث أحياناً . ونستطيع أن نذكر منهن « إيلونا » القوطية أرملة رُدريك (للريق) ملك القوط عند الفتح وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » فقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير أول حاكم للأندلس بعد الفتح ، وكان نفوذها ووجها السيئ من الأسباب التى أدت إلى مقتله على يد الخوارج عليه (سنة ٩٥ هـ) . ومنهن لامبيجيا الفرنجية الحسنة ابنة أودو أمير أكويتين ، تزوجها « منوصة » الذى تسميه الرواية الفرنجية « منوزا » أو « مونز » وكان حاكماً للولايات الشمالية (البرنيه) ثم تحالف مع أبها الدوق أودو ، وأخذ يدير الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بولايته ، ولكن عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس يومئذ ، وقف على مشروعه وأرسل لقتاله جيشاً قوياً لبث

يطارده في الجبال حتى أخذ وقتل ، وأسرت زوجته الأميرة الحسنة لاميبيجا وأرسلت إلى بلاط دمشق (سنة ١١٣ هـ) . ومنهن ماريّا الإسبانية النصرانية زوج الأمير محمد بن محمد ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الإسلام في الأندلس . ويسمى العرب « مزنة » ؛ ومنهن أخيراً « ثريا » النصرانية زوج السلطان أبي الحسن النصرى ملك غرناطة ، وهى فتاة إسبانية وابنة قائد شهير أخذت أسيرة في بعض المعارك التى وقعت بين المسلمين والنصارى ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فأحبها السلطان أبو الحسن وتزوجها ، وكان لنفوذها ودسائسها أثر كبير في إضرام الحرب الأهلية في غرناطة ، وفي سير الحوادث التى أدت إلى ذهاب دولة الإسلام في الأندلس .

ظهرت صبح في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) (٩٦١ — ٩٧٦ م) . ولسنا نعرف كثيراً عن نشأتها وحياتها الأولى ، وكل ما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية في ذلك هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية^(١) أى نافارية^(٢) . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر في بعض المواقع بين المسلمين والنصارى أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة « أورورا » *Aurora* الفرجية ومعناها الفجر ، أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر^(٣) . وكانت صبح فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم وأغلق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر^(٤) . ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . وكان الحكم حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره ولم يكن رزق ولداً بعد ، وكان يتوق إلى ولد يرث الملك من بعده ، فحققت أمنيته على يد صبح ، ورزق منها بولد سماه عبد الرحمن وذلك في سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٢ م) ، وفرح بمولده أيما فرح وسمت لديه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ ، ودوزى *His. des Musulmans d'Espagne* (الطبعة الجديدة) ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) يسمى العرب إقليم نافار (نبرة) ببلاد البشكنس محرفة عن اسمها القديم « *Bascony* » وأحياناً يسمونها « بشكنيه » .

(٣) راجع : Dozy : *Ibid*, V. II. p. 190 .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

مكانة صبح. ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولد آخر سماه هشاما (سنة ١٣٥٤هـ) ولكن الحكم رزئ بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبد الرحمن ، فاشتد حزنه عليه وعقد كل آماله على ولده هشام ، ولبت صبح تستأثر في البلاط والحكومة بكل نفوذ وسلطان . بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم بارعة في تدبير الشئون مخلصه لسيدها ، تعاونه في تدبير مهام الحكم بذكاء وبصيرة ، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية . ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية ، ولكن هنالك ما يدل على أن صبحاً كانت تتمتع في البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية ؛ فالرواية الإسلامية تنعها بالسيدة صبح أم المؤمنين^(١) ، وتصنفها التواريخ الإفريقية « بالسلطنة صبح »^(٢) ، بيد أن هنالك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و « أم ولد » فقط . وتصنفها الرواية الإسلامية بعد موت الحكم بأنها « أم ولد »^(٣) . وهو في الشريعة وصف الجارية التي حملت من سيدها وأصبحت أمّاً لولده .

وعلى أي حال فقد كانت صبح تحتل مكان الملكة الشرعية ، وتتمتع في البلاط والحكومة بنفوذ لا حد له ، وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها في معظم الشئون ، وكانت كلمتها هي العليا في تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان كبير الوزراء الحاجب جعفر بن عثمان المصنفي يجتهد في خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير ؛ واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة قلرها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصائر الأندلس ، تلك هي شخصية فتى مغمور يدعى محمد ابن عبد الله بن أبي عامر المعافري ، أصله من الجزيرة الخضراء من قرية طرش ، ووفد على قرطبة حدثاً ، ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً وبرع في الآداب والشريعة ، وكان طموحاً مضطرب النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال ، وكان في نحو السابعة والعشرين من عمره حينما أراد الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب المصنفي فيمن رشح لتولى هذا

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) راجع دوزي ج ٢ ص ١٩٠ و ١٩٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ ، والمعجب للمراكشي ص ١٤ .

المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روايته وظرف شمائله فاخترته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) (١) ، ولما توفي عبد الرحمن عين مشرفاً لأملاك أخيه هشام . وتقدم بسرعة في وظائف الدولة ، فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة ، ثم عين للنظر على خطة الموارث فقاضياً لكورة إشبيلية ، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة ، وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (ناظراً للخاص) .

ويرجع الفضل في تقدم محمد بن أبي عامر بتلك السرعة إلى مواهبه وكفائته الباهرة ، ولكنه يرجع بالأخص إلى عطف صبح عليه وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء لا تزال في زهرة شبابها ، ولا يزال قلبها يضطرم حبا وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب ، وسيم الحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان يفتن من جهة أخرى في خدمة صبح وإرضائها ، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهدها ذات مرة قصرأ صغيراً من الفضة بديع الصنع والزخرف ، لم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمله من دار ابن أبي عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب الألباب ، ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً ، فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ، وتزيدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به ؛ وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفثه ابن أبي عامر إلى حظيته وإلى نساء قصره جميعاً ويعجب له ، ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرماً حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عليم أو خادم لبيب وإني خائف على ما بيده » (٢) . ولم تلبث علائق صبح وابن أبي عامر أن ذاعت وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب في أنها

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . ويقدم المقرئ عن ابن حبان رواية أخرى من اتصال ابن أبي عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر ليكتب للخدم والمترافين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فعرفها به من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر فاستحسن كتابته وعينه أميناً لبعض شئونها (فتح الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٦٨ .

استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية ، وربما ارتاب الحكم في طبيعة هذه العلائق وثاب له رأى في نكبة ابن أبي عامر ؛ وسعى لديه بعض خصومه وأتباعه بأنه يبدد الأموال العامة التي عين للنظر عليها في شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها ، وكان في الخزانة عجز لجأ ابن أبي عامر في تداركه وسده إلى صديقه الوزير ابن حدير ، فأغاثه وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه وتوطدت ثقته فيه ؛ واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه يندب لعظيم المهام والشئون ، وهو خلال ذلك كله يحرص على عطف صبح ويستزيد منه ، ويصانع الحاجب جعفر ويجهد في إرضائه وكسب ثقته ، ويخلق حوله حزباً من الصاحب والأنصار ، بسحر خلاله ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه .

وكانت أعظم أمنية للحكم في آخر أيامه أن يضمن البيعة من بعد وفاته لولده أبي الوليد هشام ، وهو يومئذ غلام في نحو العاشرة من عمره ، وكانت أمه صبح تشاطره هذه الأمنية ، وكان أشد ما يخشاه الحكم أن ينتزع الملك من بعده أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، فرأى تفادياً من ذلك أن يعلن بيعة ولده أثناء حياته ويضع رجال الدولة والأمة أمام الأمر الواقع ، ونفذ هذا المشروع في جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ (فبراير سنة ٩٧٦ م) وعقدت البيعة لهشام في حفل جامع بالقصر ، وأعلن الحكم أنه يقلد ولده الخلافة من بعده ، وأخذت له البيعة من الحاضرين ، ودعى له في الخطبة على المنابر ونقش اسمه في السكة ، وأنفذت الكتب إلى النواحي لأخذها من الأكابر والأعيان ؛ وتولى تنظيم البيعة والشهادة محمد بن أبي عامر وهو يومئذ مدير الشرطة وناظر المواريث ، وميسور الكاتب مولى صبح ، واطمأن الحكم بذلك على مصير ملكه ومستقبل ولده نوعاً ، ولكنه لم يعيش بعد ذلك سوى بضعة أشهر ، وكان المرض يشتد عليه منذ حين ثم أصابه الشلل ؛ وتوفي في الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) .

* * *

ولما توفي الحكم المستنصر بالله ، كانت مقاليد السلطة مجتمعة في أيدي ثلاثة : هم صبح أم هشام ، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ومحمد بن أبي عامر ، وكان قد أضيف إليه النظر على الحشم (نظر الخصاص) . ولم يكن يعترض على

بيعة هشام سوى صقالبة القصر ، وكانوا زهاء ألف ولهم نفوذ عظيم ، وكان رأيهم أن تأخذ البيعة للمغيرة بن الناصر أخى الحكم ، ولكن الحاجب جعفر وقف على مشروعهم فى الحال ، واستدعى القواد والجند الذين يثق بإخلاصهم تحوطاً للطوارئ ، واتفقت الكلمة على تولية هشام وقتل المغيرة ، ولم تمض ثلاثة أيام على وفاة الحكم حتى بويج ولده هشام ولقب بالمؤيد بالله ؛ وتولى الحاجب جعفر وابن أبى عامر تنظيم البيعة ، وتولى ابن أبى عامر فى نفس الوقت تدبير مقتل المغيرة بن الناصر ، فنفذ إليه الجند ليلة البيعة وقتلوه . ومنحت السيدة صبح الوصاية على ولدها ، وكان فى نحو الثانية عشرة من عمره ، وتم بذلك مشروع الحكم المستنصر ، ومشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً أن يوازر ابن أبى عامر صاحبه والمحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بنفوذه ، وليستطيع أن يحقق على يدها ومن طريق تغلبها على ولدها ، ما يضطرم به من الأطماع الخفية . أما الحاجب جعفر فكان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى أن يتولى الملك رجل قوى كالمغيرة فيفقد نفوذه وسلطانه ؛ وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين الثلاثة ، ولكن هذا التحالف الذى أملتته الضرورة المؤقتة لم يكن طبيعياً ، ولا سياً بين الحاجب جعفر ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر ، وكانت العلاقة بين صبح وابن أبى عامر فى عهد الحكم تزداد كل يوم تمكناً ووثوقاً ، وكان ابن أبى عامر يرى عندئذ فى صبح ملاذ حمايته ورعايته لدى الحكم ، وكان وجود الحكم يحد يومئذ كثيراً من أطماعه ومشاريعه ؛ ولكنه منذ توفى الحكم وأضحت السلطة الشرعية كلها مجمعة فى يد صبح بوصايتها على ابنها هشام ، أخذ يتأهب للعمل فى طريق آخر ، ويرى فى خليطته صبح أداة صالحة هينة يستطيع أن يخضعها لإرادته ويسخرها لمعاونته ، وكانت صبح من جانبا تغدق كل عطفها وتفتها على هذا الرجل ، الذى سحرها بخلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته ، وتضع كل آمالها فيه لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض بضعة أيام على تولية هشام حتى رفع ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى رتبة الوزارة ، فى نفس الوقت الذى أقر فيه هشام حاجب أبيه جعفر المصحفى حاجباً له (١) ، وبدا

أشرك ابن أبي عامر في تولي السلطة المباشرة مع المصحفي ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الحكومة على ذلك الاختيار سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ونكراً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهرأ ، وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه ويرتاب في أطماعه ونياته ، ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك في نتيجته .

وهكذا تولى محمد بن أبي عامر مقاليد الحكم مع الحاجب جعفر بمعونة صبح وتديرها ، وبدأ الصراع بين الرجلين على الاستئثار بالسلطة . وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه أم بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازنة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذي تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوي ، ولكنها كانت ترجع أيضاً إلى ثقة صبح في مقدرته وبراعته ، وفي أنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي مُلك ولدها الفتى ، وأن يوطد السلام والأمن في المملكة . فكان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الأمير الفتى ، هشام المؤيد بالله ، ميالاً بطبعه وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شيء من تلك الخلال الرفيعة التي تهيب الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضي كل أوقاته في اللهو واللعب بين الحصيان وآلات الطرب . وكان ابن أبي عامر يشجع هذه الميول السيئة في نفس الأمير ويراها ملائمة لمقاصده ؛ ومذولى هشام ، حجر عليه ابن أبي عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برويته أو مخاطبته ، وكان يحمل صباحاً بدعائه وقوة عزمه على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غداً هشام شبه معتقل أو سجين في قصره ، لا يعرف شيئاً عن العالم الخارجي ، إلا ما يسمح له من ضروب اللهو واللعب . وفي ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي : « حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة . وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه رنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »^(١) . ويروي كوندى

أن سيداً فارسياً يدعى سابور كان من أمناء القصر أيام الحكم ، جاء من ماردة إلى قرطبة يوم البيعة لهشام ليؤدى يمين الطاعة ، وحاول رؤية الأمير فلم يستطع (١) . وفي القرص النادرة التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج كان ابن أبي عامر يتخذ أشد التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخرق شوارع قرطبة بصفوف كثيفة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان الحجر على هشام عماد ذلك الانقلاب العظيم ، الذي اعتزم ابن أبي عامر أن يحدثه في نظم الدولة تمكين سلطانه وطغيانه ، وجمع سلطات الخلافة كلها في يده .

ولا يتسع المقام للإفاضة في شرح الوسائل والإجراءات المتعاقبة التي تذرع بها ابن أبي عامر لتحقيق مشروعه ؛ ولكننا نقول فقط إنه سار إلى غايته بسرعة مذهشة ، ولجأ في تحقيقها إلى أشد الوسائل ؛ واستطاع بعزمه وصرامته وبراعته أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . وفي ذلك يقول لنا ابن خلدون : « ثم تجرد (أى ابن أبي عامر) لروضاء الدولة ممن عانده وزاحه ، فإل عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم » (٢) . وكان أشد ما يخشى منافسة الحاجب جعفر ، ودسائس الحصيان الصقالبة بالقصر ؛ فبدأ بالتخلص من الصقالبة ، وحل جعفر على نكبتهم وتشريدهم ، فقتل منهم عدد كبير واعتقل الباقيون أو شردوا ؛ ولبت بعد ذلك حيناً يتربص بجعفر ، ويحرض صبحاً عليه ، وينوه كلما سنحت القرص بقصوره وسوء تدبيره ، ثم اعتقله أخيراً وأودعه السجن حتى مات ؛ وجد بعد ذلك في مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، وصحى كل من يصلح للولاية والراية . وفي ذلك يقول ناظم منه :

أبني أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

وعمد ابن أبي عامر إلى الجيش ، فنظمه من جديد ليؤكد عونه وإخلاصه ، وأبعد عنه كل العناصر المريية ، وملاه بصفوف جديدة من البربر والمرترقة ؛

(١) كوندى ج ١ ص ٤٩٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أنشأ مدينة جديدة في ضاحية قرطبة على ضفة الوادي الكبير وسماها بالزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة والدواوين ؛ وأنشأ له حرساً خاصاً من البربر والصقالبة ؛ واتخذ سمة المُلْك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونقش اسمه في السكة ؛ وتم بذلك استنثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم (١) .

* * *

ماذا كان موقف صبح إزاء ذلك الانقلاب ؟ لقد كانت أكبر عون لابن أبي عامر على إحداثه ؛ وكان حبا المظطم لذلك الرجل الذي ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى موازرتة والإذعان لرأيه ووحيه ؛ وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعمها دائماً عن إدراك الغاية الخطورة التي يسعى إلى تحقيقها ؛ هذا إذا لم نفرض أن تلك الفرنجية المضطربة الجوانح كانت تذهب في حبا إلى حد الاثمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علاقتها بابن أبي عامر ، أو المنصور كما نسميه فيما بعد ، انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة وتناولها بلاذع التعليق والهجو ؛ وظهرت في ذلك الحين قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، في التشهير بحجر المنصور على هشام ، وعلائقه بصبح . فمن ذلك ما قيل على لسان هشام في الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه ؟
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه (٢) ؟
ومن ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح ؛ وقاضيه ابن السليم :
اقرب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة ياعب في مكتب وأمه حبل وقاض (٣) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، وابن الأبار في الحلة السيرة (طبعة دوزي) ص ١٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩١ وما بعدها .

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسي .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٠ ، وفقح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

وهذه المقطوعات اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها من الحملات المممة . وتتفق الرواية الإسلامية في الإشارة إلى هذه العلائق الغرامية بين صبح والمنصور ، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ؛ ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة لكاتب مغربي يدافع فيها عن المنصور ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب^(١).

ولم يخدم جذوة هوى صبح زواج صاحبها المنصور ، بل كان موقفها من هذا الزواج دليلاً جديداً على إخلاصها ووفائها ، وكانت زوج المنصور أسماء ابنة القائد غالب مولى الحكم وصاحب « مدينة سالم » ، وهى فتاة بارعة الجمال والخلال ؛ زفت إلى المنصور سنة ٣٦٧ هـ ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ؛ ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ذاته بإشراف الخليفة ، وبعبارة أخرى بإشراف أمه صبح ؛ وأغدقت صبح على العروس رائع الهدايا والتحف ؛ وكان زواجاً سعيداً موقفاً لبث مدى الحياة^(٢) ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره المنصور ، ووقعت بينهما حرب هزم فيها غالب وقتل .

* * *

لبث المنصور زهاء عشرين عاماً يقبض بيديه القويتين على مصائر الأندلس ، ويسير من ظفر إلى ظفر ، ويشحن فى ممالك اسبانيا النصرانية ؛ ولم تبلغ اسبانيا المسلمة ما بلغت فى عهد المنصور من القوة والسؤدد ، ولم تبلغ اسبانيا النصرانية ما بلغت فى عهده من التمزق والضعف ؛ وقد غزا المنصور زهاء خمسين غزوة ، وجاز إلى أمنع وأنأى معاقل اسبانيا النصرانية ، ومع ذلك لم يشغله تعاقب الغزو عن مهام السلام ؛ فكانت الأندلس فى عهده تتمتع بفيض من الرخاء والأمن ؛ ووطد أيضاً سلطة حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى ، وكان قد فتح فى عهد الحكم المستنصر ؛ ولكن المنصور كان يفرض على الأندلس حكماً من الطغيان المطبق ، وكانت وسائله العنيفة الصارمة ، الدموية فى أحيان كثيرة ، تذكى من حوله أوار البغض والتربص ؛ وكان اجترأوه بالأخص على مقام الخلافة واستلاب

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ودونى ج ٤

سلطانها ، والحجر على صاحبها الشرعى ، تقدمه دائماً إلى الشعب فى ثوب الطاغية المغتصب ، فكان الشعب يعجب به ولا يحبه ، على أن المنصور كان يسير دائماً فى طريقه معتمداً على قوته ووسائله ، لا يحفل برأى الزعماء أو الشعب ؛ فلما استتب له كل أمر ، واجتمعت فى يده كل السلطات ، ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الملك ومظاهره ، فبدأ بالتخلى عن لقب الحاجب ، وخلعه على حلى ولده عبد الملك ، وهو فى فى الثامنة عشرة ؛ وتسمى بالمنصور فقط ؛ ثم أصدر أمره بأن يخص دون سائر أهل الدولة بلقب « السيادة » فى المخاطبات ، وتسمى عندئذ « بالملك الكريم » (١) . وكانت هذه دلائل واضحة على حقيقة الغاية التى يعمل لها المنصور ويرجو أن ينتهى إليها ، وهى أن ينسخ الخلافة الأموية حكماً كما نسخ ساطانها فعلاً ، وأن ينشئ دولة عامرية تتمتع بمراسيم الملك والخلافة .

ولم تلك ثمة معارضة نخشى بأسها المنصور ؛ وكان هشام المؤيد قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ولكنه لبث خاملاً ضعيف العزم والإرادة ، لا تسنده أية قوة ؛ وقد سحق المنصور كل زعامة وكل قوة خصيمة ، وجمع حوله الجيش . ولكن كانت ثمة قوة لم يحسب المنصور حسابها : تلك هى صبح أو « أورور » صاحبة القديعة ، وعونه السابق فى الوصول إلى ذرى الحكم ، وفى الحجر على الخليفة واستغلال ضعفه . فقد ثارت صبح لما تبينته من نيات المنصور وغايته ، وكانت صبح يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد تصرم ذلك الحب الذى شغفها بالمنصور دهرأ ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها كل سلطة ؛ وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام مثل هذه العاطفة ، وتدفعه بكل ما وسعت إلى مناوأة المنصور ، ومنازعته واسترداد سلطانه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ؛ وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين على المنصور دعاية شديدة ، وأتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ، ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . ولم تقف عند هذا الحد ، بل فكرت فى القيام بمحاولة عملية لمقاومة المنصور وإسقاطه ، ففاوضت زيرى بن عطية حاكم المغرب الأقصى من قبل المنصور ، وأرسلت إليه الأموال سرأ ليحشد الحند وليتأهب للعبور إلى الأندلس ؛ وكان زيرى بن عطية أقوى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

زعماء المغرب ، وكان مخلصاً لبني أمية يقوم بدعوتهم ويؤيدها ؛ فلبى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة . ولكن المنصور فطن إلى المؤامرة قبل نضجها ، فبادر بروية هشام المؤيد سرّاً ، وتفاهم معه ، وانتهى بأن أخذ منه تفويضاً كتابياً جديداً بالحكم ؛ ونقل الأموال من القصر إلى الزاهرة حتى لا تمتد إليها يد خصومه . ثم تحول إلى زيرى بن عطية فعزله من منصبه وقطع رواتبه ؛ فرد زيرى بأن محا اسمه من الخطبة وطرده عماله بالمغرب ، وتأهب للحرب ، وبعث المنصور إلى المغرب الأقصى جيشاً ضخماً بقيادة مولاة واضح فهزمه زيرى وارتد إلى طنجة ؛ واستمرت الحرب حيناً بين الفريقين ، وسار المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء وبعث إلى المغرب جيشاً كثيفاً بقيادة ولده عبد الملك ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة هزم في نهايتها زيرى ومزق جيشه ، وفر إلى الصحراء الداخلية (٣٨٨ هـ — ٩٩٧ م)^(١) .

* * *

وهكذا فشلت صبح في محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر ، إلا عن توطيد سلطان المنصور وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح في الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوي ، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء ، ولم يبق الخليفة الأموي سوى شبح فقط . ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية بالأندلس قد انتهت فعلاً بانتهاء عهد الحكم المستنصر ، ولم يكن استمرارها صورة على يد هشام المؤيد ، أيام المنصور ، ثم تجددتها بعد ذلك على يد الزعماء الثائرين من بني أمية ، إلا مرحلة السقوط النهائي . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدي ، لجأت إلى السكينة والعزلة ؛ فلانسمع عنها بعد ذلك في تاريخ الأندلس ؛ ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ؛ ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور (سنة ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م) أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك ، إن وفاتها كانت أيام ولدها هشام^(٢) . والظاهر أنها توفيت قبيل وفاة المنصور حوالي ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لا نعرّ باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٣ ، ودوزي ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

وللشاعر الأندلسي أبي عمر بن محمد بن دراج القسطلي قصيدة طويلة يرثي فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » نقتطف منها ما يأتي :

بقاء الخلائق رهن الفناء	وقصر التداني وشيك التناي
لقد حل من يومه لا قتراب	وقد حان من عمره لانتها
هل الملك يملك ريب المنون	أم العز يصرف صرف القضاء
هو الموت يصدع شمل الجميع	ويكسو الربوع ثياب العفاء
ألم تر كيف استباح يدا	ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو	ك مصاباً وأودى بحسن العزاء

* * *

وحاشا لرزئك أن يقتضيه	عويل الرجال ولتدم النساء
لبيض أياديك في الصالحا	ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فيا أصف الملك من ذات عز	تعوض منها بعز العزاء
فتلك ما ثرها في التقى	وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاء بأعمالك الزاكيا	ت خير المجازين خير الجزاء
ولقيت في ضحك ذاك الضريح	نسيم النعيم وطيب الثواء ^(١)

(١) تراجع هذه القصيدة كاملة في ديوان ابن دراج القسطلي المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى ص ١١٩ - ١٢٣ .

المعتمد بن عباد

(٤٣١ - ٤٨٨ هـ) ، (١٠٣٩ - ١٠٩٥ م)

لما انهارت دعائم الخلافة الأموية بالأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري ، وقامت على أنقاضها دول الطوائف ، كانت دولة بني عباد في إشبيلية أقوى الدول الجديدة وأعظمها شأنًا ؛ وكان أمراء الطوائف في شقاق مستمر ، يقاتلون بعضهم بعضاً ، وينزع القوى منهم أملاك الضعيف ، ويحالفون النصاري بعضهم على بعض ؛ وكان الأمراء النصاري يرحبون بهذه الفرص للتفريق بين الأمراء المسلمين وإضعاف شوكتهم ، ثم إخضاعهم وانتزاع أراضيهم تباعاً . ولم يشذ بنو عباد عن هذه السياسة الخطرة ، فذ قام عميدهم ومؤسس دولتهم القاضي أبو القاسم محمد ابن إسماعيل بن عباد في إشبيلية (٤١٤ - ٤٣٣ هـ) ، اتجهت أطماعهم إلى محاربة جيرانهم المسلمين وانتزاع ما في أيديهم ، واشتبك أبو القاسم ، ومن بعده ولده أبو عمرو عباد الملقب بالمعتضد بالله (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) ، في سلسلة من الحروب الطاحنة مع أمراء غرناطة ومالقة وقرطبة ، وإمارات ولايات الغرب ، انتهت باستيلاء بني عباد على قرطبة وقرمونة وإستجة ومورور ورندة وما حولها من الأراضي ، وفي الغرب على لبلة وشلب وباجة ، واتسعت بذلك مملكة إشبيلية وغدت أعظم قوة في جنوبي الأندلس .

وخلف المعتضد بالله ولده أبو القاسم محمد بن عباد في سنة ٤٦١ هـ ؛ وتلقب بالمعتمد على الله والظاهر بحول الله ، وكان فتي في الثلاثين من عمره إذ كان مولده بمدينة باجة في سنة ٤٣١ هـ ؛ وكان المعتمد من أعظم ملوك الطوائف إن لم يكن أعظمهم جميعاً ، وقد اشتهر بخلاله الباهرة ، من النباهة والشجاعة والفروسة والحدود ، والبذخ ، كما اشتهر برفع أدبه ورائع نظمه ، وكما اشتهر بمحنته وخاتمته المؤسسية ؛ وفي عهده سطعت مملكة إشبيلية ، وكادت أن تعيد بهائنها وفخامة بلاطها مجد قرطبة الزاهب . وكان المعتمد يجمع حوله عدداً من الوزراء من ألمع كتاب هذا العصر وشعرائه مثل أبي بكر بن عمار ، وأبي الوليد بن زيدون ، وأبي بكر الداني المعروف بابن اللبانة ، وابن حديس الصقلي ، وغيرهم ، وكانت زوجه

اعتماد الرميكية ، ملكة إشبيلية الأثرية ، التي يقال إن المعتمد ، اتخذ لقبه اشتقاقاً من اسمها ، وهي أيضاً من نوى البراعة في الشعر والأدب ، تمثل في كثير من مجالس الشعر والأدب ، وتضفي بجمالها ، وبارع خلالها ، على تلك المجالس كثيراً من الروعة والسحر . وكانت قصور بني عباد إشبيلية ، ومنها المبارك والزاهي ، تعتبر نموذجاً للروعة والفن الرفيع : وعلى الحملة ، فقد بلغت مملكة إشبيلية في عهد المعتمد ، ذروة القوة والبهاء . ولكن هذا البهاء الخلب ، كان يغشاه كدر الشقاق المستمر بين الإمارات الإسلامية ؛ وكان المعتمد بالرغم من ذكائه وفطنته ، يرى نفسه مضطراً إلى سلوك نفس المنحدر الخطر ، الذي انساق إليه أبوه وجده من قبل في سبيل السيادة والملك ؛ ولم ير بأساً في سبيل تحقيق أطماعه أن يمالئ ملك قشتالة على إخوانه المسلمين ، وأن يتعهد له بدفع الجزية ؛ وكان ملك قشتالة يومئذ أميراً وافر العزم والدهاء هو ألفونسو السادس ، وكان يعمل بكل ما وسع للضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، ويؤلب بعضهم على بعض ولا يضمن على حلفائه منهم بعونه وتأييده ؛ وكان المعتمد بن عباد ، يرى في جيرانه بني ذي النون أمراء طابطة أشد خصومة خطراً عليه ، ويسعى جهده إلى إسقاطهم ويحق دولتهم ؛ وقد نشبت بينه وبين يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون عدة وقائع دموية ، فقد المعتمد خلالها قرطبة وقتل بها ولده سراج الدولة ؛ ثم عاد فاستردها ، وهو يضطرم وجداً وحنقاً ويزعم الانتقام من بني ذي النون بأي الوسائل . ولما توفي المأمون ، وخلفه حفيده الضعيف يحيى الملقب بالقادر ، انتهز المعتمد هذه الفرصة فغزا أراضي طابطة واستولى على كثير من أنحائها . على أنه لم يقنع بهذا النصر الجزئي ؛ وكان جل همه أن تسحق مملكة بني ذي النون حتى يخلو له الجو في جنوبي الأندلس وفي شرقيها ؛ ولم يكن يحول دون غايته سوى تحالف بني ذي النون مع ملك قشتالة . وكان ألفونسو السادس بالرغم من صداقته الظاهرة لبني ذي النون ، الذين عاونوه وأكرموا وفادته أيام محنته ، حينما هزمه أخوه سانشو ، واستولى على مملكته قبل ذلك بأعوام ، يضمهم لهم في الواقع أخبث النيات ، ويتطاع إلى انتزاع مملكتهم المتداعية . ولم يكن يخشى في ذلك سوى مناوأة ابن عباد وخصومته ؛ وعلى ذلك فقد سعى المعتمد إلى التفاهم مع ملك قشتالة ، وأوفد إليه وزيره الشهير الشاعر

أبا بكر بن عمار ، وقد كان يومئذ أربع ساسة الأندلس ، لمفاوضته ، وعقدت بين الملكين محالفة سرية ، تعهد فيها ألفونسو بمعاونة المعتمد على محاربة خصومه من الأمراء المسلمين أو النصارى ، وتعهد المعتمد من جانبه بأن يترك ألفونسو حراً في محاربة طليطلة والاستيلاء عليها ، وأن يؤدي له جزية الخضوع ؛ وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن المعتمد قبل أن يقدم إحدى بناته وتسمى زائدة زوجة للملك قشتالة ، وأنها حظيت لديه فيما بعد ، وتنصرت باسم اليزابيث ، وأنجب منها ولداً هو سانشو الذى قتل حدثاً في موقعة « إاقيش » . وهى رواية باطلة كشفت عن حقيقتها البحوث الأندلسية الحديثة (١) .

وتم للملك قشتالة ما أراد ، ولم يمض سوى قليل حتى استولى على طليطلة بعد حصار قصير (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) وانتهت بذلك مملكة بني ذى النون ، وسقط أمتع معاقل الأندلس الشمالية في يد اسبانيا النصرانية ؛ وشهدت الأندلس جامدة مروعة تلك الكارثة التى تنذر بها بسوء المصير ؛ وسرعان ما أدرك المعتمد ابن عباد سوء تصرفه وفداحة الخطأ الذى ارتكبه . ذلك أن حليفه ألفونسو ما كاد يفتح طليطلة ، حتى انقلب عليه يطالبه بالجزية ، ويطلبه بتسليم بعض الأراضى والحصون التى كانت تحت حكمه ، بحجة أنها تابعة لطليطلة ؛ وثار الخلاف بين الحليفين ، وتوعد ألفونسو المعتمد بشر العواقب . وشعر المعتمد بالخطر الذى يهدده من حليفه القديم ، وشعر أمراء الأندلس جميعاً بأن ملك قشتالة سوف يحتاج قواعدهم وأراضهم كلها ، إذا لم يبادروا إلى الاتحاد والتضافر على قمع الخطر المشترك ؛ واجتمعت كلمتهم على توحيد القوى والخطط ؛ بيد أنهم رأوا أن قواهم المضعضة لم تعد تكفى وحدها لدرء الخطر ، وانتهوا بعد البحث والتشاور إلى وجوب الالتجاء إلى إخوانهم المسلمين فى الضفة الأخرى من البحر ، ودعوتهم

(١) وخلاصة ما انتهى إليه البحث فى ذلك هو أن زائدة هذه لم تكن ابنة للمعتمد ، وإنما كانت زوجة لولده الفتح حاكم قرطبة . ولما هاجم المرابطون قرطبة فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعث الفتح بزوجه وولده وماله إلى حصن المدور . ولما قتل الفتح مدافعاً عن قرطبة ، التجأت زائدة إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، ففتن الملك النصرانى بحماها ، واتخذها حظية ، ثم تزوجها ، ونصرت باسم « اليزابيث » وأنجب منها ولده سانشو الذى قتل صبيها فى معركة اقليش (٥٠١ هـ) . راجع مقالاً للاستاذ ذليق بروفنسال عنوانه *Zaida la Mora* نشر فى مجلة *Hiapérís* (XVIII - 1934) وراجع كتابنا « دول الطوائف » الطبعة الثانية ص ٣٤٦ و ٣٤٧ والمراجع .

إلى إنجادهم وغوثهم . وهكذا استغاث ملوك الطوائف بعاهل المغرب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين اللمتوني^(١) ، وكان المرابطون يومئذ في أوج سلطانهم وقوتهم ؛ واستجاب أمير المسلمين يوسف إلى نداء أمراء الأندلس ، وعبر إليهم في جيش ضخم ؛ وسارت قوى الإسلام المتحدة إلى قتال ألفونسو السادس ؛ والتقى الفريقان في سهل « الزلاقة » ، على مقربة من مدينة بطليوس . وبذلت الجيوش المرابطية والأندلسية جهوداً فادحة ، وأبلى المعتمد خلال المعركة خير بلاء ، شهد به عاهل المرابطين فيما بعد في رسالته عن الموقعة . وانتهى الأمر بأن هزم النصراني هزيمة فادحة ، وكانت الزلاقة من أيام الإسلام المشهودة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ، وفيها حطمت قوى إسبانيا النصرانية ، وانقشع الخطر الداهم عن الأندلس واستمدت حياة جديدة .

— ٢ —

وعاد يوسف إلى المغرب بعد أن شهد أحوال الأندلس وأحوال أمرائها ، وأدرك هذا الأمر النابه الذي كان يؤثر العيش الحشن على ملاذ الملك ونعائه ، أن الحياة الناعمة التي انغمس فيها أهل الأندلس هي التي قوضت منعتهم ، وفتت في رجولتهم وعزائمهم ، وأن الشقاق الذي استحکم بينهم ، والذي لم ينقطع من بعد عودهم ، سوف يقضى عليهم جميعاً بلا ريب إذا تركت الأمور في مجراها ، وسوف يمهّد لاستيلاء النصراني على جميع أنحاء الجزيرة في أقرب وقت ؛ ومن ثم فقد اعتزم أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها الغائبين المتنازعين ، المترامين على أعتاب العدو في سبيل قتال بعضهم بعضاً .

وفي سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) عبر يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة برسم الجهاد ، وكان قد عبر إليها للمرة الثانية قبل ذلك بعام ولكنه لم يقيم يومئذ بغزوات ذات شأن ؛ وازداد سخطاً على أمراء الأندلس لما بدا من تقصيرهم في نصرته . ولما عبر للمرة الثالثة كانت تحدوه نيات خطيرة ؛ وسار توجاً إلى غرناطة فاستولى عليها ، وبعث بأمرها عبد الله بن باكين سجيناً إلى أغمت ؛ ثم ألقى أوامره بافتتاح قواعد الأندلس الأخرى ولاسيا إشبيلية إلى قائده سير بن أبي بكر ،

(١) نعتي بترجمة يوسف بن تاشفين في الفصل القادم .

وارتد إلى العدو يجهز الجيوش والأمداد . وزحفت الجيوش المرابطية على معظم قواعد الأندلس واقتحتها تباعاً ، وقتل جميع أمراءها أو أسروا ، وكان بين القتلى الأمير الشاعر ابن الأفطس عمر المتوكل صاحب بطليوس وولديه . وسار سير بن أبي بكر بنفسه إلى إشبيلية ، وأدرك المعتمد بن عباد أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرتة بكل ما وسع به واستغاث بحليفه ألفونسو السادس فأمدته بجيش كبير ، ولكن المرابطين هزموه على مقربة من قرطبة ؛ وامتنع المعتمد بحاضرتة لإشبيلية ، واستعد داخلها للدفاع لما شهد من تفوق المرابطين عليه في الكثرة والأهبة ؛ وشدد المرابطون الحصار على إشبيلية ؛ وسقطت في تلك الأثناء قرطبة في يد المرابطين ، وقتل فيها الفتح ولد المعتمد مدافعاً عنها ؛ ثم سقطت رندة ، وأسر فيها ولده يزيد الراضى بالله ، وقتل بالرغم من العهود التي قطعت بتأمينه . وشعر المعتمد بالأمل يغبض في نفسه شيئاً فشيئاً ، ولكنه استمر على مقاومته ، حتى اقتحم المرابطون إشبيلية عنوة ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً ، واستقبلهم المعتمد في خاصته على باب قصره يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، فاستولى المرابطون على المدينة ، وأسروا المعتمد وآله ، واحتوا على قصره وماله ومتاعه ، وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م) .

وهكذا سقطت مملكة بني عباد كلمح البصر ، وخبا نجمها الذي سطع حيناً في سماء الأندلس ، ولكنها سقطت أية كريمة ، في مناظر من الفروسة الرائعة تخلق بالألى شادوها ؛ ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عبيدها الباسل . ومن الخطأ التاريخي ما تزعمه بعض الروايات من أن المعتمد سالم عاصمته إلى المرابطين بالأمان مختاراً^(١) . والحقيقة التي تجمع عليها معظم الروايات الإسلامية والأندلسية بنوع خاص ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية وأخذوها عنوة في

(١) ينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن إشبيلية سلمت للمرابطين بالأمان (ص ١٠١) . ولكن ابن الأثير (ج ١٠ ص ٦٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٠ و ٤١) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) ، والفتح بن خاقان في قلائد العقيان (ص ٢١ و ٢٢) والمراكشي في المعجب (ص ٧٧) والمقرئ في نفع الطيب (ج ٢ ص ٤٥٣) يتفقون جميعاً على أنها أخذت عنوة . ويأخذ دوزي بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٤٩ و ١٥٠) .

مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة في الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، حتى اقتحم الأعداء قصره ، وأسروه . وقد انتهت إلينا في ذلك رواية شاهد عيان هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة شاعر المعتمد وصديقه ، فهو يصف لنا في كتابه « نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية » مناظر سقوط إشبيلية التي شهدها بنفسه في قوله :

« إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب في الأمر الواقع ، واتسع الحرق على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه وتراميه ، على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة في البلد ، ولم يبق فيها على سيد لأحد ولا لبد ؛ وخرج الناس عن منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى . . . » (١) .

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ومعاصرهم تقريباً منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه في تلك العبارات القوية المؤثرة : « ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) ، والموت يتسعر في ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتصائه ، فلقبهم في رجة القصر ، وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فِرَقاً ، وملأهم فِرَقاً ، وما زال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردتهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحال ، وعاد إلى إلى قصره ، واستمسك به يومه وليلته ، مانعاً لخودته ، دافعاً للذل عن عزته . . . » (١) .

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه في وصف ذلك اليوم المشهود إذ يقول :

(١) نقله فتح الطيب (ج ٢ ص ٤٥٣) .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ في ترجمة المعتمد بن عباد ؛ وقد كتب أفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاماً .

إن يسلب القوم العدا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسيـل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهوى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره بعد سقوط حاضرتة وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه وتقاه ، فاستسلم إلى هوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى جميع ولده ونسائه وآله .

وكان يوسف بن تاشفين قد قرر مصير بنى عباد كما قرر مصير من قبلهم من الأمراء المغلوبين ؛ وقد رأينا كيف بطش المرابطون بأمراء الأندلس فقتلوا بعضهم ، وأسروا البعض الآخر وألقوا بهم إلى غيابة السجن ، وكان بين القتلى الفتح ويزيد الراضى بالله ، ولدا المعتمد بن عباد ؛ قتل الأول مدافعاً عن قرطبة ، وأسر الثانى ثم قتل عند سقوط رُنْدَة . أما المعتمد نفسه فكان نصيبه الأسر والننى ؛ وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث أخرى غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيئون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه كما رأينا ؛ وربما أراد سيد المرابطين بذلك أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ فى التراب ذلك الذى كان قطب الفتنة فى الأندلس ، وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه . وعلى أى حال ، فقد انتزع المعتمد وآله من « قصر » لإشبيلية المنيف ، وحملوا جميعاً إلى السفن التى أعدت لنقلهم إلى المنفى ؛ وسارت السفن من لإشبيلية فى نهر الوادى الكبير فى طريقها إلى المغرب ، فى مناظر تذيب القلب حزناً وأسى ؛ وضجت جموع الشعب الغفيرة التى احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد

بالبكاء والنواح ، حينما شهدت سيدها وراعياها بالأمس مع آله رهين الأسر والذل ،
يفادر موطن عزه إلى مصيره المجهول . وفي ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر
المداني (ابن اللبّانة) ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، من قصيدة طويلة :

نسيت إلا غداة النهر كونهم	في المنشآت كأموات بالحداد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق أرباد
حط القناع فلم تستر مخذرة	ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداة ومن فادى
سارت سفائهم والنوح يتبعها	كأنها لبل يخلو بها الحادى
كم سال في الماء من دمع وكم حملت	تلك القطائع من قطعات أكباد ^(١)

وأنزل المعتمد وأسرته أولا بطنجة ، واعتلقوا فيها أياماً ؛ وهناك زاره
الحصرى الضرير الشاعر ، وألحف في طلب الصلة ، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها
ولم يراع في ذلك حرج الموقف ؛ وأبت على المعتمد أريجته المملوكية أن يرده ،
فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالا ، وقطعة شعر يعتذر فيها عن ضالة الهبة ؛ فكانت
آخر صلاته المملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة ، وقضوا هنالك أشهراً قبل
أن يحمّلوا إلى مقرهم النهائي^(٢) .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم إلى أعنات ، وهي مدينة صغيرة تقع على مقربة
من مراکش عاصمة المرابطين ؛ وكانت قد اختيرت لتكون منى للأمرء
الأندلسيين ، وإليها سيق عبد الله بن بلكين أمير غرناطة وآله من قبل ؛ وحل
المعتمد بن عباد وآله في أعنات في أواخر سنة ٤٨٤ أو أوائل سنة ٤٨٥ هـ ،
وزجوا إلى قلعتها المنيعه ؛ وهناك قضى المعتمد عدة أعوام يرسف في أغلال
الأسر ، ويتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد المعنّى ؛
ولم يكن مقام المعتمد بأعنات معتقلاً عادياً ، بل كان سجنأ شديعاً بكل معانى الكلمة .
ضيق فيه على المعتمد وآله أشد تضيق ، ولم يكن يطلق إليهم ما يكفهم من
النفقة ، فكان المعتمد وزوجه اعتماد الرميكية التي كانت تسطع في الأنديلس

(١) راجع هذه القصيدة في قلائد العقيان ص ٢٢ ؛ وفتح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و ٤٥٣ ،

والمراكشى في المعجب ص ٧٩ و ٨٠ .

(٢) المراكشى في المعجب ص ٨٠ و ٨١ .

يجمها وخلصها البارعة ، وأبناؤه الأمراء ، وبناته الأقمار (١) ، يرتدون الثياب والأطمار الخشنة ؛ وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن ، وهناك ما يدل على أن المعتمد كان مصفداً بالحديد في قدميه على الأقل في أواخر أيام أسره ، ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة بلا ريب ، وكانت قسوة لا مبرر لها من الظاهر ، ولم تكن تتفق في شيء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين من القروسية والخلال الحسنة ؛ وسرى فيما بعد كيف يفسر موقفه وكيف يلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوج المعتمد ، ولم تقو طويلاً على مغالبة الحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ، ثم توفيت ، ودفنت بأعجمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ؛ فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وأذكت الحنة شاعرية المعتمد ؛ وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاه الروحي ؛ فصدرت عنه في معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية وكلها تلهف على سابق مجده وبكاء على ماضيه ، ورثاء لمحتته ، فمن ذلك قوله :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقاً	بل قد عممن جهات الأرض إطلاقاً
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم	حتى أتت شرقها تنعك إشراقاً
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة	وأغرق الدمع أماقاً وأحداقاً
قد ضاق صدر المعالي إذ نعت لها	وقيل إن عليك القيد قد ضاقاً

وقوله يوم عيد ، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروا	فساءك العيد في أعجمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة	يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية	كانها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت إساعته	فكان فطرك للأكباد تفتطيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممثلاً	فردك الدهر منهياً ومأمورا

(١) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . فمن أولاده الذين تذكرهم الرواية الرشيد والمأمون والراضي والفتح ، وأبو هاشم وعبد الجبار ، وغيرهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عنهن ، سوء ابنته للشاعرة بثينة .

من بات بعدك في ملك يسر به . فانما بات بالأحلام مغرورا
وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررن به . سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة . ولكن حينئذ إن شكلي لها شكل
فأسرع فلا شمل صديق ولا الحشى . وجيع ولا عينان يبيكما شكل

وأذكت مأساة بني عباد في الوقت نفسه دولة الشعر بالأندلس ، ونظم أكابر
شعراء العصر في رثاء دولتهم والتوجع على أيامهم طائفة من القصائد المؤثرة ،
التي ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها ؛ وكان أغزرهم في ذلك مادة ،
أبو بكر بن اللبانة شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على صلاته ووفائه للمعتمد ،
وزاره في سجنه بأغمت ، ونظم في دولته وأيامه ، وفي محتته وأسرده ، عدة من
قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه في تاريخ بني عباد عنوانه « كتاب نظم
السلوك في مواضع الملوك » (١) .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ؛ بيد أنه استطاع في غمر الحنة
والبؤس الطاحن أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع
في ظلمات سجنه كما يشع ضوء الشمس إذا أهدق بها الغمام (٢) ؛ وفي أواخر أيامه
شدد يوسف في التضيق عليه ، وأمر بتصفيده بسبب ثورة محلية قام بها ولده
عبد الجبار في حصن أركش من حصون إشبيلية الجنوبية ؛ وكان ممن أفلت عند
سقوطها . وفي اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) توفي المعتمد
في سجنه بأغمت ، بعد أسر دام زهاء أربعة أعوام ، وكان سنه عند وفاته سبعاً
وخمسين سنة وبضعة أشهر . ودفن بأغمت إلى جانب زوجه اعتماد الريمكة . ومما
قاله في رثاء نفسه قبيل وفاته ، وأمر أن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الراح الغادى حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت بالخصب إن أجذبوا بالرئى للصادى

(١) تراجع بعض هذه القصائد في قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠ ، وفي ابن خلكان ج ٢ ص
٤١ وما بعدها . ولم يصل إلينا كتاب ابن اللبانة .

(٢) يوسف أشباح في كتابه « تاريخ الأنندلس في عهد المرابطين والموحدين » الطبعة الثانية

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا
بالدهر في نغم بالبحر في نعم
نعم هو الحق حاباني به قدّر
ولم أكن قبل ذاك النقش أعلمه
كفأك فارفق بما استودعت من كرم
بالموت أحر بالضرغامه العادي
بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
من السماء فوافاني لميعاد
أن الحبال تهادي فوق أعواد
رواك كل قطوب البرق رعّاد

وهكذا اختتم المعتمد حياته الباهرة في غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله في مختلف الأنحاء . ولكن ذكره لبث طويلا حية في المغرب والأندلس ؛ ولبت محنته وخاتمته مضرب الأمثال في قلب الحدود وعبر الدهر ، وبعد وفاته بقليل وفد على أنعمات أبو بحر بن عبد الصمد وهو من شعراء دولته وخاصته المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخرّ أمامه ، وغمره بقبلاته وببله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التي احتشدت من حوله مراثيته الغراء في المعتمد بن عباد ، ومطلعها :

ملك الملوك أسمع فأنادى
لما خلت منك القصور ولم تكن
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعي
فإذا بدمعي كلما أجريته
فبكى الناس أحر بكاء ، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيح ، وكان منظرا يفتت الأكباد (١) .

ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو أربعين عاما غدا قبر المعتمد بن عباد وقبر زوجته الرميكية في أنعمات مزارا يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصورا . وفي سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين بن الخطيب ووصفه لنا بقوله : « وهو بمقبرة أنعمات في نشر من الأرض ، وقد حفت به سورة وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته ، مولاة

وميلك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الحمول ، من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها » . وأنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمت رأيت ذلك من أولى المهمات
أناف قبرك في هضب بمنزه فنتحيه حفيّات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت عللاً فأنت سلطان أحياء وأموات
مارومى مثلك في ماضٍ ومعتدى أن لا يرى الدهر في حال ولا آت

وزاره المقرئ مؤرخ الأندلس في سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠٢ م) وراه كما ذكره ابن الخطيب فوق ربوة في مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً^(١) ، وقد زرنا نحن أغمت ، وشهدنا قبر المعتمد وزوجه اعتماد ، وقد أضحي كومة من الأحجار المتناثرة تحف بها الأعشاب البرية ، وشعرنا أمام هذا القبر المغمور بكثير من الخشوع .

— ٤ —

كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة من أروع المآسي الملوكية ؛ وما زالت محنة هذا الأمير الشاعر تحتفظ إلى يومنا بالرغم من كثر العصور بألوانها المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص في روايات مؤرخي الأندلس والمشرق ؛ وفي كثير منها يصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ؛ ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ويصمه بأقسى الصفات ، فيقول لنا ابن الأثير مثلاً في التعليق على أسر بني عباد واعتقالهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعلاً لم يسلكها أحد ممن قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة . . . وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولوئم قدره »^(٢) .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص ، على سيرته وعلى خلالته محباً لم تمحها جميع الأعذار التي انتحلت لتبرير عمله ، وتتلخص هذه الأعذار في أن المعتمد كان سياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ،

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

وتحالفه مع النصارى على إخوانه فى الدين ، وتعريضه مستقبل الإسلام فى الأندلس إلى الخطر تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة ذنبه ، على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات ثقيلة ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب ، وظهر شبح الخطر على الإسلام ، كان أول الداعين إلى الوحدة وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم ييخل فى ذلك السبيل بتضحية حصونه التى طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى فى موقعة الزلاقة أعظم البلاء ، وعاون فى نيل النصر أعظم معاونته . كذلك لا ريب أن البواعث التى دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها لم تكن دينية فقط ، بل كانت دينوية أيضاً ، وأن الأندلس كانت تجذب المرابطين نخبها وغناها ونعمائها ، وإنه ليحق لنا أن نتساءل أى ضرورة ، أو أى حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يعمدوا فيهم قتلاً وتعذيباً على النحو الذى اتبعوه بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم ؟ وأي ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لا حول لهم ولا قوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه ، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلاً بتبعات عمله كأمر وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه ، للتكفير عما آثم بسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشيء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

هذه تأملات تثيرها فى النفس محنة المعتمد بن عباد ، ولا ريب أن هذه الخاتمة المؤسسية ، قد أسبغت على المعتمد ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

يوسف بن تاشفين

(نحو ٤١٠ - ٥٥٠ هـ) ، (١٠١٩ - ١١٠٦ م)

رجلان عظيمان ، يتبوآن في تاريخ المغرب مكانة خاصة ، كلاهما عبقرية ذات خواص متميزة ، وكلاهما مؤسس إمبراطورية عظيمة ، هما يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وأبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدي .

ظهر أولهما في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، أي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي . وظهر الثاني في أوائل القرن السادس الهجري أو أوائل القرن الثاني عشر الميلادي . وشاد الأول صرح الدولة المرابطية الشاخنة ، التي سطعت في المغرب والأندلس لمدي قصير ، ثم انهارت دعائمها كما قامت بسرعة مدهشة ، وأقام ابن تومرت وخلفاؤه على أنقاضها دولتهم العظيمة التي عرفت بدولة الموحدين .

لا يعرف التاريخ شيئاً أو لا يعرف كثيراً عن نشأة يوسف بن تاشفين وحياته الأولى . وأول ما تحدثنا الرواية عنه في منتصف القرن الخامس الهجري حيث تقدمه إلينا رئيساً وحاكماً . وكل ما نعرفه عن نسبه أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقين بن منصور بن مصالة بن أمية الحميري ، وأنه ينتمي إلى قبيلة لمتونة من بطون صنهاجه إحدى قبائل البرانس ، وأعظم القبائل البربرية في ذلك العصر عدداً وعصبية وجاهاً . وأما تاريخ مولده فهو على أرجح الأقوال في بداية المائة الخامسة للهجرة ، وأما عن نشأته وتربيته فلا تقدم إلينا الرواية أية تفاصيل شافية . بيد أنها تنوه بخلاله الممتازة ، من الحكمة والشجاعة والعدل والتقوى . ومن المرجح أيضاً أن يوسف لم يتلق من العلم قسطاً يذكر أو لم يتلق منه شيئاً . فقد كانت قبائل المغرب الأقصى يومئذ تسودها البداوة والجهل ، ويسودها نوع من الوثنية ، ولا تعرف من الإسلام سوى الاسم .

ولما نشأ يوسف في بيت رياسة في لمتونة ، ولرياسة لمتونة في هذا العصر قصة خلاصتها أن زعيم كدالة ، وهي شقيقة قبيلة لمتونة ، في أوائل القرن الخامس

الهجرى ، يحيى بن إبراهيم الكدالى ، لما رأى ما انتهى إليه قومه من الجهل والبداءة والتأخر ، فكر فى العمل على تهذيبهم وتثقيفهم فى أمور دينهم ، ورحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وقضاء فريضة الحج . ولما عاد إلى قومه استقدم معه من القيروان فقيهاً يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى ، ليعلمهم أمور دينهم . وكان عبد الله من أولئك الدعاة الذين يضطرمون غيرة وحماسة ، وكان فوق تقشفه وورعه ، خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فاستطاع بعد جهود شاقة أن يستميل إليه أولئك البدو الصحريين ، وأن يثقفهم فى أمور الدين ، وأن يبث إليهم كثيراً من الحماسة الدينية . ولما تمكنت هيئته من نفوسهم ، وأصبح صاحب الأمر فيهم ، دعاهم إلى الجهاد ، وبثّ تعاليم الإسلام الصحيحة بين القبائل ، فلبوا الدعوة وحاربوا القبائل المخاورة وأخضعوها تبعاً ، حتى دانت لهم سائر لمتونة وكدالة ومسوفة ومسطاسة وغيرها من بطون صنهاجة . وتولى عبد الله بن ياسين الزعامة الدينية ، وتولى يحيى زعامة الحيوش . ولما توفى يحيى بن إبراهيم الكدالى نذب عبد الله للرياسة مكانه ، أبا زكريا يحيى بن عمر اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد .

وكانت هذه القبائل تعرف عندئذ بقبائل المثلثين ، لأنها كانت تتخذ اللثام شعاراً لها ، وقيل فى سبب ذلك إنهم كانوا كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم ، أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، أو أنهم كانوا يقتلون فى ذلك قبيلة حمير التى كانوا ينتسبون إليها ؛ فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين لقباً جديداً وسماهم بالمرابطين . والمرابط هو من لازم الثغر لدفع العدو وذلك إشارة إلى اضطلاعهم بمهمة الجهاد فى سبيل الله ، وعرفوا من ذلك الحين بهذا الاسم الجديد .

* * *

واستمر عبد الله بن ياسين فى غزواته لقبائل المغرب وإماراته ، وافتتح بلاد درعة وسلماسة الواقعة فى جنوب شرقى موقع مدينة مراكش — ولم تكن أنشئت بعد — ثم افتتح أعجمات ؛ وتوفى أبو زكريا يحيى بن عمر اللمتونى فى تلك الأثناء ، فنذب

عبد الله للرياسة مكانه أخاه أبا بكر بن عمر ، وذلك في سنة ٤٤٨ هـ . وعين أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً لمقدمة جيشه ، وسار نحو الجنوب مفتتحاً بلاد السوس ، بينما كان عبد الله بن ياسين يدفع فتوحه نحو الشمال والشرق ، حتى قتل مجاهداً في بعض حروبه ضد أهل تامسنا ، وهي أقصى فتوحه شمالاً وذلك في سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) .

وهكذا تذكر الرواية لأول مرة اسم يوسف بن تاشفين ، وتقدمه إلينا في معرض الرياسة والقيادة . أما قبل ذلك فقلماً تذكر عنه شيئاً .

ولما توفي عبد الله بن ياسين ، استقل أبو بكر بن عمر اللمتوني بالزعامة والحكم ، وتابع حروبه وغزواته ، ثم سار إلى الصحاري الجنوبية ، فتوغل في بلاد السودان مما يلي جنوب المغرب الأقصى ، واستخلف ابن عمه يوسف في حكم المغرب . ونزل له عن زوجته الحسنة زينب بنت إسماعيل النفاوية بعد أن طلقها ، حتى لا تشاطره خشونة الصحراء ، فتزوجها يوسف فيما بعد .

وشغل يوسف في تلك الأثناء بتوسيع سلطانه ، فبث جيوشه في مختلف أنحاء المغرب ، وأخذت الجيوش المرابطية في محاربة القبائل الخصيمة ، ولاسيما مغراوة وزناتة وبني يفرن ، ودوختها ، وغلبت على سائر أراضيها ، ولم يمض قليل على ذلك حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحي المغرب الجنوبية والوسطى ، فعاد من غزاته المظفرة إلى أنعمات في أواخر سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، وقد عظم أمره ، وذاع صيته في أنحاء المغرب .

وبينما كان أبو بكر مشغولاً بحروبه في الصحراء ، كان يوسف يفتح مدن المغرب العريقة واحدة بعد أخرى . فسار أولاً إلى مدينة فاس أعظم قواعد المغرب الأقصى وافتتحها سنة ٤٥٥ هـ ، واخترق بعد ذلك مفاوز غمارة غازياً حتى طنجة ، واستمر يفتح القواعد والثغور تبعاً حتى دوخ قبائل المغرب كلها ، وخضعت له زناتة وغمارة ومصمودة ومغراوة ، بعد حروب شديدة استمرت عدة أعوام . وفي سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، عني يوسف بأن يخطط لنفسه محلة حسنة الموقع ، تكون قاعدة لجيوشه ، ومستودعاً ل ذخائره ، ووقع اختياره على أرض تقع شمال غربي أنعمات ، وكانت لبعض المصامدة فاشتراها يوسف ، واختط

بها قصبة ومسجداً ، وكان يعمل في بناء المسجد بنفسه مع الفعلة ، فكان هذا مولد مدينة مراكش العظيمة ، التي غدت حاضرة الدولة المرابطية ، ثم الدولة الموحدية من بعدها . وكانت الحاضرة المرابطية الجديدة تقع في حمى جبل درن من شعب الأطلس ، وتقع من جهة أخرى في قلب بلاد المصامدة ، وقد كانوا من أقوى قبائل المغرب ، وأكثرهم جمعاً ، وكانوا يؤلفون أغلبية الجيوش المرابطية .

وفي سنة ٤٧٠ هـ استولى يوسف على طنجة من واليها الحاجب سكوت البرغواطي ، وكان شيخاً في التسعين من عمره فقاتل الفاتحين حتى قتل . وزحف يوسف بعد ذلك على المغرب الأوسط فافتتح تلمسان ووهران ، واستمر في فتوحه حتى الجزائر ثم تونس . وكانت مدن المغرب وثغوره يومئذ جميعاً في يد الزعماء والأمراء المحليين ، يحكمونها مستقلين عن كل سلطة مركزية ، ففضي يوسف على سلطانهم ، وبسط حكمه على جميع أقطار المغرب ، من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن البحر المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً .

ويجب أن نشير هنا إلى حادث كان له أثر حاسم في مصير الدولة المرابطية الفتية . وقد ذكرنا من قبل أن الأمير أبا بكر اللمتوني ، عميد الدولة المرابطية الأصلي ، قد استخلف ابن عمه يوسف في حكم المغرب ، وسار إلى الصحاري الجنوبية ليحارب القبائل الوثنية السودانية ، وقد أنفق في غزواته بضعة أعوام ، ثم عاد إلى الشمال ليستطلع أحوال المغرب ، وكان قد نعى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة ، وقدم أبو بكر إلى المغرب في سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) ، ونزل بمدينة أغمات على مقربة من الحاضرة المرابطية الجديدة ، وبعث بعض صحبه إلى يوسف ليسبروا الأحوال ويدرسوا الموقف . فاستقبلهم يوسف بالترحاب وعمرهم بصلاته . ولما وقف أبو بكر على ما شهدوا من أحوال يوسف وضخامة ملكه ، وتوطد سلطانه ، أدرك أن المغرب قد أفلت من يده ، وأنه لا سبيل إلى منازعة يوسف في أمره . والتقى الرجلان ، أبو بكر ويوسف في موضع بين أغمات ومراكش ، فأوصى أبو بكر ابن عمه باتباع العدل والرفق في حكمه ، ثم ودعه ليعود إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، وهكذا عاد أبو بكر في صحبه إلى الصحراء ، ليستأنف الجهاد

والغزو ، واستمر مجاهداً حتى قتل في بعض غزواته في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، وهكذا قامت دولة المرابطين الكبرى ، وأقامتها عبقرية رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الأولى ففيه متواضع هو عبد الله بن ياسين ، واستحالت بسرعة من زعامة دينية محلية إلى ملك سياسي ضخم ، وتلقب يوسف بأمر المسلمين .

وكان يوسف في بداية أمره يلقب بالأمر ، فلما فتح المغرب ، وترامت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة ، فأبى واكتفى باتخاذ لقب « أمير المسلمين ، وناصر الدين » وأصدر مرسومه بأن يدعى له بذلك اللقب ، وذلك في سنة ٤٦٦ هـ . وفي أواخر عهده بعد أن ملك الأندلس ، حسباً نذكر بعد ، نصح له الفقهاء ، بأن تكون ولايته صادرة عن الخليفة الشرعي لتجب طاعته على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسي ببغداد ، سفيره العلامة ابن العربي ، ومعه هدية جائلة وكتاب بما فتح الله عليه من الملك . وطلب تقليده الولاية ، على ما يحكم من الأراضي ، فاستجاب المستظهر لرغبته ، وبعث إليه بمرسوم الولاية ، وبالخلع والتشريف . وذكر صاحب « روض القرطاس » ، أن يوسف تلقب باللقاب الخلافة ، وهي رواية ضعيفة لا يعتد بها .

وهنا ننتقل إلى صفحة أخرى من حياة يوسف بن تاشفين .
لم يكن لإنشاء هذه الإمبراطورية المغربية الشامخة أعظم ما في حياة هذا الفاتح العظيم ؛ فهناك في سيرة حياته صفحة أروع من هذه وأبعد أثراً .
كانت الأندلس في الوقت الذي قامت فيه دولة المرابطين القوية في الضفة الأخرى من البحر ، تجوز مرحلة من أخطر وأدق مراحل تاريخها ؛ وكانت الخلافة الأموية قد انهارت منذ فاتحة القرن الخامس الهجري ، وسقطت الأندلس فريسة الاضطراب والفوضى ، وتوالت الزعماء الطامحون إلى الرياسة فتقاسموا أشلاءها . وقامت في مختلف المقاطعات والمدن ، عدة كبيرة من الدويلات

للصغيرة ، عرفت بدول الطوائف ، وتشبه أمراؤها بالخلفاء في ترتيب القصور
الباذخة ، واتخاذ الألقاب الضخمة على حد قول ابن رشيقي :

مما يزهدي في أرض أندلس تلقيب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

والواقع أن دول الطوائف إذا استثنينا دولة بني عباد في إشبيلية ، كانت
دولا هزيلة ، يقتصر معظمها على مجموعة صغيرة من المدن . وكان انقسام
الأندلس على هذا النحو خطراً على مستقبل الإسلام في الأندلس ، سيما وقد
كانت اسبانيا النصرانية ترقب الفرصة دائماً للبطش باسبانيا المسلمة . وكان ملوك
الطوائف فوق ذلك يخاصم بعضهم بعضاً ، ويحاول كل منهم أن ينتزع ما في يد
جاره من الأراضي والمدن . وكانت الحرب الأهلية تضطرم بينهم بلا انقطاع .
وكانت اسبانيا النصرانية قد اتحدت كلمتها يومئذ والتأم شملها إلى مملكتين هما
قشتالة وأراجون . وكان على عرش قشتالة في ذلك الحين ملك قوى البأس والعزم
هو ألفونسو السادس ، فرأى للفرصة سانحة للبطش بهذه الدويلات الإسلامية
للصغيرة ، وافتتاحها واحدة بعد الأخرى . ولم يقطن ملوك الأندلس في البداية
إلى هذا الخطر الداهم فلم يكتفوا بقتال بعضهم بعضاً ، بل أخذ كل منهم يستظهر
على أخيه بمخالفة ملك النصارى ، والانصواء تحت لوائه ودفع الجزية له .
وآلفونسو السادس يشجعهم على هذه السياسة ويؤلب بعضهم على بعض . وكان
المعتمد بن عباد كما قدمنا في ترجمته أقوى ملوك الطوائف ، وأشدّهم تورطاً في تلك
الخطّة . ولم تلبث هذه السياسة الخطيرة أن أثمرت ثمرتها ، وبدأ ملك النصارى في
تنفيذ خطته في الاستيلاء على قواعد الأندلس . وكانت طليطلة أول قاعدة
أندلسية يهدف ملك قشتالة إلى انتزاعها ، أولاً لوقوعها على مقربة من حدود
قشتالة ، وثانياً لتخاذل صاحبها القادر بن ذى النون ، وتخلي باقي ملوك الطوائف
عن إنجادهما ، ولم تلبث هذه القاعدة الأندلسية العتيقة أن سقطت في أيدي
القشتاليين ، وكان سقوطها ، بعد حصار دام تسعة أشهر ، في فاتحة صفر
سنة ٤٧٨ هـ (٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ م) . وكان لسقوطها دوى هائل في الأندلس
وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي . وتوالى غزوات ألفونسو السادس لدول الطوائف
وأخذ يهدد سر قسطة وإشبيلية وبطليوس وغيرها من قواعد الأندلس . وشعر

ملوك الطوائف — وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد حسبنا أسلفنا — أن مصيرهم جميعاً إلى السقوط والهلاك إذا لم تجتمع كلمتهم ، وإذا لم يتداركهم غوث من الخارج ، واتجهوا جميعاً بأبصارهم إلى الضفة الأخرى من البحر : إلى المرابطين لإخوانهم في الدين ، وإلى أميرهم يوسف بن تاشفين . وكان يومئذ في ذروة القوة والسلطان ، وقد ذاع صيته ، واشتهر أمر فتوحه ، وعظيم بأسه وسلطانه في الأندلس وفي سائر العالم الإسلامي .

وهكذا أجمع ملوك الطوائف أمرهم على الاستغاثة بفتح إفريقية والمغرب ، وبعثوا إليه برسلهم وكتبهم ، يستنصرون به على محاربة النصارى ، ويصفون له ما أصاب الأندلس على يدهم من الحزن ، وما يهددها من خطر السقوط والفتناء ، إذا لم يتداركها بغوثة ونصرته . وتردد يوسف بن تاشفين في البداية في إجابة مطلبهم ، لأنه لا يعرف أحوال الجزيرة ، ولم يشترك من قبل قط مع النصارى في ميدان الحرب . ولكنه اعتزم في النهاية ، بعد أن استشار قومه وفقهائه ، أن يستجيب إلى دعوتهم وأن يبادر إلى إنقاذهم . ولا ريب أن يوسف كانت تحذوه في ذلك نزعة جهاد دينية ، وربما كانت تحذوه أيضاً فكرة غامضة في الاستيلاء على وديان الأندلس الحميلة ، التي طالما سمع العجائب عن خصبها وغناها .

وحشد يوسف جيشاً عظيماً من المرابطين وعبر البحر إلى الأندلس في قواته ، فاستقبله أمراء الأندلس في الجزيرة الخضراء ، ثم سار بجيشه إلى إشبيلية حيث وافته جيوش الأندلس . وكان ألفونسو السادس في ذلك الحين مشغولاً بمحاربة ابن هود أمير سرقسطة ، فلما علم بعبور المرابطين إلى الجزيرة ، ترك في الحال محاربة ابن هود وجمع الجند من سائر الأنحاء ، ولجى ملوك النصارى الآخرون دعوته وسارعوا إليه في قواتهم . وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء الجيوش الإسلامية المتحدة . والتقى الفريقان على مقربة من بطليوس في سهل تسميه الرواية العربية بالزلافة وتسميه الرواية النصرانية « ساكرالياس » ، وذلك في أوائل شهر رجب سنة ٤٧٩ هـ . وفي يوم الجمعة ١٢ رجب الموافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ، اشتبك الفريقان في معركة هائلة ، وكادت قوى الأندلس التي تؤيدها طلائع المرابطين تسحق في البداية ، ولكن يوسف وثب عندئذ في نخبة جنده وحرسه الخاص إلى قلب المعركة ، ولم تلبث أن دارت

الدائرة على النصارى وهزموا هزيمة ساحقة ، وقتل معظمهم أو أسر ، ولم ينج ملكهم من الأسر إلا بصعوبة ، وفر في بضعة مائة من جنده جريحاً مهيباً .

* * *

وكان ظفر الزلاقة ظفراً للإسلام كله على النصرانية كلها . فارتد خطر النصرانية عن الأندلس إلى حين ، بعد أن كانت على وشك القضاء ، وكتبت لها حياة جديدة امتدت إلى أربعة قرون أخرى .

وعاد يوسف إلى المغرب متوجاً بتاج الفخار والظفر . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الجزيرة بجيش جديد ليحارب النصارى إلى جانب قوات الأندلس للمرة الثانية تحت أسوار حصن لبيط أو (ألبو) في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولكن لم تقع بين الفريقين هذه المرة مواقع فاصلة ، وترك يوسف بعض قواته في اسبانيا بإمرة خيرة قواده سير بن أبى بكر اللمتونى .

ولم يمض على ذلك نحو عام حتى عاد يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة بجيش ضخم . ولم يكن عبوره هذه المرة لمقاتلة النصارى ، بل كانت تحذوه خطط ومشاريع أخرى . فقد رأى بنفسه جمال الأندلس ووفرة خصبها وغناها ، ورأى في الوقت نفسه ما كان عليه أمراء الأندلس من التنابد والتخاذل والإفراط في البذخ والترف والعيش الناعم ، وإهمال شئون الرعية . واعتزم أن يبذل ملكهم ، وأن يستخلص الأندلس من أيديهم ليقوم هو بحكمها والذود عنها . واتخذ عندئذ لذلك كل أهبة ، ووزع قواته في أنحاء الأندلس . وبدأ بالاستيلاء على غرناطة ، ثم سير قواته إلى أراضى إشبيلية أقوى دول الطوائف بقيادة كبير قواده سير بن أبى بكر اللمتونى ، ودافع المعتمد بن عباد عن عاصمته وملكه حسبما فصلنا أجد دفاع وأروعه ؛ ولكن ذلك لم يغنه شيئاً فسقطت إشبيلية في يد المرابطين ، وذلك في رجب سنة ٤٨٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩١ م) وأسر المعتمد وسائر آلِه . واستولى المرابطون في نفس الوقت على قرطبة ، وقتلوا بها المأمون ولد المعتمد ، وقتلوا ولده الراضى بالله في رندة ، ثم استولوا على ألمرية وفيلنسية ومرسية . ثم غزوا بطليوس واستولوا عليها وقتلوا أميرها ابن الأفطس الملقب بالمتوكل وولديه في مناظر مؤسفة ؛ وأثارت هذه الحنة دولة الشعر كما أثارتها حنة بنى عباد ،

وتظم الشاعر الأشهر الوزير ابن عبدون في رثاء حماته بنى الأفتس قصيدته الرنانة التي مطلعها :

الدهر يفجع بعند العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور (١)
ولم تمض أعوام ثلاثة حتى كانت الأندلس كلها قد سقطت في أيدي المرابطين وذلك في سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .

وهكذا احتوى يوسف بن تاشفين على تراث الأندلس بضربة سريعة حاسمة ، وانقلب المنتقد المنجد إلى فاتح متغلب ، واستطاع البربر لأول مرة منذ فتح الأندلس ، أن يفرضوا سلطانهم على الأندلس كلها .

وأبدى يوسف في معاملة أمراء الأندلس الذين نجوا من القتل قسوة ظاهرة ، فوضعهم في الأصفاد ، وبعث بهم إلى المعتقل في المغرب ، وخص المعتمد بن عباد وآله بأعظم قسط من هذه القسوة حسبما فصلنا .

وأسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ونحو المعتمد بنوع خاص ، على سيرته وعلى خلاله ، سحاً لم تمحها جميع الأعذار التي انتحلت لتبرير عمله .

وقد عرضنا في ترجمة المعتمد إلى عناصر هذه المأساة ونواحيها المختلفة ، وإلى الصدى العميق الحزن الذي تركته في صفح الأندلس والمشرق ، وإلى كونها تعتبر بحق وصمة خالدة في سيرة يوسف لم يمحها كالعصور .

بقيت بعد ذلك كلمة عن خلال يوسف بن تاشفين وصفاته . لقد كان أمير المرابطين بلا ريب من أولئك الرجال الأفذاذ الذين خلقوا للزعامة وإنشاء الدول ، وكان يتمتع بمواهب وصفات بارعة من الذكاء والشجاعة والفطنة وبعد النظر ، وكان في الحرب قائداً عظيماً وجندياً مجرباً وفارساً شجاعاً ، وكان التقشف من أخص صفاته ، فقد كان رغم ملكه الشامخ يعيش كأبسط رعاياه ، بعيداً عن كل مظاهر الترف والنعماء ، وبلغ من تقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ، ولا يشرب سوى لبن الإبل ، وقد وهبه الله بسطة في الجسم وصحة

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في المدجب للمراكشي ص ٤٢ وما بعدها .

بديعة ، واستطالت حياته إلى مائة عام أو تسعين عاماً على قول آخر ؛ وتوفي سنة خمسمائة من الهجرة (١١٠٦ م) ، بعد أن حكم زهاء خمسين عاماً ، وقام بأعظم فتوحه وأعماله ، وأنشأ إمبراطورية المرابطين الشامخة ، بعد أن جاوز الستين ، وحارب في موقعة الزلاقة وهو في نحو الثمانين .

وترك يوسف مملكته لابنه الأصغر علي ؛ ولكن دولة المرابطين القوية لم يتح لها أن تعيش طويلاً بعد وفاة مؤسسها العظيم ، بل نستطيع أن نقول إن وفاة يوسف كانت نذيراً بانحلالها وتفككها . ولم تمض ثلاثون عاماً أخرى حتى سقطت هذه الدولة العظيمة الشامخة فريسة لغزوة دينية أخرى ، كان مثير ضرامها أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدي مؤسس دولة الموحدين الكبرى^(١) .

(١) رجعنا في هذا الفصل إلى تاريخ ابن خلدون ، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع الفاسي ، وإلى الحلل الموشية ، ونفح الطيب للمقر ، وإلى العلامة دوزي *Histoire des Musulmans d'Espagne V. III* . وراجع في سيرة يوسف وقيام الدولة المرابطية كتابنا دول الطوائف الطبعة الثانية ص ٢٩٨ - ٣١٩ ، وكتابنا عصر المرابطين والموحدين (القسم الأول) ص ٢٦ - ٥٦ .

محمد بن تومرت المهدي

(٤٧٣ - ٥٢٤ هـ) ، (١٠٨٠ - ١١٢٩ م)

كانت الدولة المرابطية الكبرى ، التي بسطت سيادتها على المغرب والأندلس منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، من ضفاف نهر دويرة فى اسبانيا شمالا ، حتى مشارف الصحراء الكبرى فى إفريقيا جنوباً ، ومن ليبيا شرقاً حتى المحيط الأطلنطى غرباً - كانت هذه الدولة العظيمة تبدو فى أوج قوتها ورسوخها ، فإذا بها تجد نفسها فجأة أمام ثورة دينية صغيرة ، يضطلع بها فقيه متواضع ، وتضطرم بسرعة مدهشة ، حتى تغمر كل شىء فيها ، وتستغرق كل قواها ومواردها ، ثم تنتهى بعد صراع قصير الأمد بالقضاء عليها - تلك هى ثورة المهدي ابن تومرت .

إن التاريخ الإسلامى ، قلما يقدم إلينا حركة أكثر تواضعاً فى بدايتها ، وأبعد مدى فى نتائجها من تلك الحركة التى قام بها محمد بن تومرت السوسى ، المتشع بثوب المهدي ، والتى أسفرت عن قيام دولة من أعظم الدول الإسلامية وأضخمها رقعة ، وأعظمها قوة وسلطاناً ، هى الدولة الموحدية الكبرى .

ولقد كانت حركة ابن تومرت هى الثانية من نوعها فى الغرب الإسلامى ، وكانت الأولى هى حركة الشيعة التى أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية فى إفريقيا (تونس) والتى كان زعيمها الروحى وأول خلفائها عبيد الله ، يتشع كذلك بثوب المهدي المنتظر ، وبالرغم من أن الدولة الفاطمية قد انتقلت بعد ذلك إلى مصر ، فإن نشاطها وفتوحاتها ، وسلطانها الروحى والسياسى ، قد استمرت بالمغرب رديحاً من الزمن ، على يد ولائها من القبائل البربرية التى كانت هى المادة الآدمية التى استندت إليها فى قيامها وتوطدها بالمغرب .

يبد أن حركة المهدي ابن تومرت هى حركة مغربية مستقلة لم تنبعث كما هو الشأن فى قيام الدولة الفاطمية من الدعوة الشيعية المشرقية ، وإن كانت مع ذلك تستند إلى نظرية المهدي المنتظر ، وهى بذلك تمتاز بتخصصها القوى ، وصيغتها

المحلية البربرية العميقة ، كما تمتاز بأسامها الدينية الواضح الذي انبعثت منه ، قبل أن تتطور بسرعة إلى حركة سياسية ، يتزعمها الإمام المعصوم والمهدي المنتظر ، وهي تتجه في خصومتها المذهبية إلى الصراع المحلي المحض ، وتستمد لمقوماتها العوامل الدينية المحلية ، التي اختص بها المغرب منذ عصور .

ثم هي فوق ذلك تمثل معركة قومية داخلية تضطرم بين فريقين من القبائل البربرية ، تستظل كل منهما بشعارها الديني الخاص . ذلك أن المرابطين قاموا في البداية للجهاد في سبيل الله ، وإحياء السنة ومحاربة البدع والضلالات ، والانحراف عن أحكام الإسلام ، وقد كانت هذه الحالة تسود يومئذ كثيراً من القبائل البربرية ، ثم استقرت رئاسة الدولة المرابطية في قبيلة لمتونة ، وحليفاتها كدالة ومستوفه وغيرها من بطون صنهاجة . وكذلك فإن حركة ابن تومرت ، قامت في البداية على شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبدأت رياسته السياسية في وطنه بالسوس الأقصى ، وفي قبيلته هرغة ، وغيرها من بطون مصمودة ، وإذن فقد كانت المعركة بين المرابطين والموحدين ، تصطبغ في نفس الوقت بالصبغتين الدينية والقومية .

— ١ —

في سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) وقعت بمدينة مراكش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة الدينية التي اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية . ففي ذات يوم جمعة من هذه السنة دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد ، متواضع الهيئة ، وجلس على مقربة من الخراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين ، فلما اعترض على ذلك بعض سدة الجامع تلا الآية « إن المساجد لله » . ولما حضر أمير المسلمين على بن يوسف ، نهض سائر الحضور إلا ذلك الرجل ، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على علي ، وقال له فيما قال « غير المنكر ببلادك » ، فأنت المسئول عن رعيتك « فلم يجبه أمير المسلمين بشيء ، ولما عاد إلى القصر ، بعث إليه من يسأله عن حاجته ، فقال الرجل ليس لي حاجة ، وما قصدى إلا تغيير المنكرات .

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت ، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق

ونزل بمراكش ، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية ، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأصل هذا الرجل من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة^(١) الكبرى ، من قوم بها يعرفون « بابسرخن » وهم الشرفاء في لغة المصامدة . وقد ولد بضبعة تقع في جنوبي السوس الأقصى تسمى « بايجلى ان وارغن » . وقد اختلف في تاريخ مولده ، وتضعه الرواية فيما بين سنتي ٤٧١ هـ و ٤٩١ هـ ، ويقول لنا ابن الأثير إنه توفي في سنة ٥٢٤ هـ عن إحدى وخمسين عاماً أو خمسة وخمسين عاماً مما يجعل تاريخ مولده في سنة ٤٧٣ هـ أو ٤٦٩ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده في العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ ، وابن الخطيب في سنة ٤٨٦ هـ ، وابن سعيد في سنة ٤٩١ هـ ، ويضعه الغرناطي في سنة ٤٧١ هـ ، وهو أقدم تاريخ ينسب إليه مولد ابن تومرت^(٢) . وأما عن نسبته فإن الرواية أشد تبايناً واختلافاً . ومن المتفق عليه أنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، وكان يقال لوالده تومرت وامغار ، ومعناه في لغة المصامدة الضياء الذى يقاد في المسجد ، ومن ثم فقد عرفه التاريخ باسمه الدائع ، وهو محمد بن تومرت ، كما عرفه بلقبه الديني وهو المهدي ، ومن الحق الذى لا يقبل ذرة من الجدل ، أن ابن تومرت بربرى الجنس ينتسب إلى هرغة ومصمودة ، ومع ذلك فإنه نظر ألانتحاله صفة المهدي والإمام المعصوم ، لم يعلم رواية تنسبه لآل البيت ، إذ لا بد ، وفقاً لأسطورة المهدي المنتظر أن يكون المهدي منهم ، ومن ثم فإننا نجد إلى جانب نسبة ابن تومرت البربرية المحضة ، نسبة أخرى ترجعه إلى آل البيت ، أما نسبته البربرية فهي أنه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون ابن أنكليدس بن خالد أو أنه محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصال بن حمزة بن عيسى . وهذه النسبة الثانية تمتد بعد ذلك على يد بعض الرواة إلى آل البيت على النحو الآتي : ابن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله^(٣) . وأما نسبته العربية العلوية فهي أنه محمد

(١) المعجب ص ٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٤ و ٢٢٥

(٢) يراجع في مولد ابن تومرت الزركشي في تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس

١٢٨٩ هـ) ص ١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت لابن بكر الصنهاجي (المنشور بعناية الأستاذ ليث

بروفنسال) ص ٢١ .

ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن ياسر بن العباس بن محمد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب . ويؤيد هذه النسبة ابن رشيقي في شجرة أنساب الخلفاء والأمراء ، وابن القطان ، وابن صاحب الصلاة مؤرخا للدولة الموحدية^(١) ، ويقول لنا المراكشي ، إنه رأى بخط المهدي نسبه المتصلة بالحسن ابن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب^(٢).

يبد أنه يوجد إلى جانب ذلك من المؤرخين من ينكر هذه النسبة على ابن تومرت ويعتبره دعياً فيها . ومن هؤلاء ابن مطروح القيسي ، وهو يصف ابن تومرت بأنه « رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي » . وقال بعضهم إنه من قبيلة جنفيسة .

ونحن لا نرى في هذه النسبة العربية النبوية التي يدعيها ابن تومرت لنفسه ، والتي يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم ، إلا نحلة باطلة ، وثوباً مستعاراً ، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدي التي انتحلها شعاراً لإمامته ، ورياسته الدينية والسياسية ، ومما يلفت النظر أن كثيراً من القبائل والأسر البربرية التي تشق طريقها إلى السلطان ، تحاول دائماً أن تنتحل الأنساب العربية كما هو الشأن في بني حمود الذين يرجعون نسبهم إلى آل البيت ، وفي قبيلة صنهاجة وهي الأم الكبرى للمتونة ، صاحبة الرياسة في الدولة المرابطية فلما تزعم أنها تنتمي في الأصل إلى العرب الجمانية^(٣).

ولست لدينا أية تفاصيل شافية عن نشأة ابن تومرت وحداثته . وكل ما يقال لنا من ذلك أنه نشأ في بيت نسل وعبادة ، وشب قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى في حداثته « أسافور » ، ومعناه الضياء ، لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد التي يلازمها^(٤) . ولكن الرواية تتبع سيرة حياته منذ سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)

(١) الحلل المشوية ص ٧٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، والزركني ص ١٠ .

(٢) المعجب ص ٩٩ .

(٣) روض القرطاس ص ٧٥ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، وروض القرطاس ص ١١٠ .

ففي تلك السنة أو السنة التالية (٥٠١ هـ) حسبنا نقل إلينا ابن القطان ، وهو من أوثق مؤرخي الموحدين عن الشيخ يحيى بن وسنا من أهل خسين ، غادر ابن تومرت وطنه بالسوس في طلب العلم ، وعبر البحر إلى الأندلس ، ودرس في قرطبة حينئذ ، ثم جاز من ثغر ألمرية إلى المشرق ، ومر في طريقه على المهديّة ، وأخذ بها على الإمام المازري ، ثم قصد إلى الإسكندرية ودرس بها على الإمام أبي بكر الطرطوشي ، وقضى بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سافر إلى بغداد ، وهناك درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام ، ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره^(١) . وفي بعض الروايات أن ابن تومرت لقي الإمام أبا حامد الغزالي ودرس عليه في بغداد ، وقيل بل لقيه بالشام أيام تزده^(٢) . ونحن نقف قليلا عند هذه الرواية التي يرددها كثير من مؤرخي المشرق والمغرب ، إذ متى وأين كان هذا اللقاء ، وفي أي الظروف ؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه في طلب العلم في سنة ٥٠٠ أو ٥٠١ هـ ، وقضى فترة في الأندلس ، وفي المهديّة وفي الإسكندرية ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد على أثر ذلك إلى بغداد ، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥ هـ . وقد كان الإمام الغزالي ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي ٤٨٤ و ٤٨٨ هـ (١٠٩١ - ١٠٩٥ م) ، وفي سنة ٤٨٨ هـ غادر العاصمة العباسية ، في رحلته التأملية الشهيرة التي استطلت حتى سنة ٤٩٩ هـ ، والتي زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة . وإذن فيكون من المستحيل مادياً ، أن يكون ابن تومرت الذي غادر وطنه لأول مرة في سنة ٥٠٠ هـ ، قد استطاع أن يلتقي بالغزالي في بغداد أو غيرها من المدن التي زارها في خلال رحلته ، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عود الغزالي إلى بغداد . ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، ثم رحل منها إلى نيسابور حيث قام بالتدريس فيها ، استجابة لدعوة السلطان

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، والحلل الموشية ص ٧٥ ، والزركشي ص ١ ، والمعجب ص ٩٩ .

(٢) الحلل الموشية عن ابن القطان ص ٧٥ ، والمعجب ص ٩٩ ، ورض القرطاسي ص ١١٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ ، والزركشي ص ١ .

ملك شاه ، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس ، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفي في جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ (ديسمبر ١١١١ م) .

ويتضح من ذلك جلياً بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالي من الناحية التاريخية . وفضلاً عن ذلك فإنه يوجد دليل مادي آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة . ذلك أنها تقرن بواقعة أخرى خلاصتها أن ابن تومرت حينما لقي الإمام الغزالي ، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه « إحياء علوم الدين » بالمغرب والأندلس ، تغير وجهه ، ورفع يده بالدعاء ، والطلبية يؤمنون ، فقال « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » وأن ابن تومرت ، رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده ، فاستجاب الإمام ودعا الله بذلك (١) .

وينقض هذه الواقعة من أساسها أن قرار المرابطين بحرق كتاب « الإحياء » قد صدر لأول مرة في سنة ٥٠٣ هـ ، في أوائل عهد علي بن يوسف ، وذلك أيضاً حسبما نخبرنا ابن القطان ، أعني بعد أن غادر الغزالي بغداد إلى نيسابور لآخر مرة ، وقبيل وفاته بنحو عام . فأين إذن ، ومتى كان لقاء ابن تومرت به ، وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية أن نصدق تلك القصة التي نسجت حول إحراق كتاب الإحياء ؟ .

هي أسطورة إذن ، نسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت ، لتغدو هالة تحيط بشخصه وسيرته ، وتذكر عناصر الخفاء والقدسية حول شخصه وإمامته . وقد اختير الإمام الغزالي لبطولتها بالذات ، لتبوئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع في العالم الإسلامي ، ولشهرته الذائعة في المغرب ، وصلاته المعروفة بعاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وتأثيره الشرعي لديه ، وتأنيده لدولته . ويبدو لون الأسطورة في هذه القصة التاريخية بنوع خاص ، فيما تزعمه الرواية من أن الإمام الغزالي ، حين رؤيته لابن تومرت ، شهد من صفاته وشأئله ، وتبين فيه من العلامات والآثار ، ما يدل على أمره ومستقبله ، وأنه كان يقول لحلسائه « لا بد لهذا البربري من دولة ، أما إنه يثور بالمغرب

الأقصى ، ويظهر أمره ، ويعلو سلطانه ، ويتسع ملكه ، فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته ، وبأن عنه في شمائله . ثم تزيد الرواية على ذلك ، أن بعض الصحب نقل ذلك إلى ابن تومرت ، وأخبره أن ذلك عند الشيخ في كتاب ، فلم يزل ابن تومرت يجتهد في خدمة الشيخ ويتقرب إليه ، حتى اطلع على الأخبار التي كانت فيه ، فلما تحقق من ذلك ، اعتزم الرحيل إلى المغرب ليتابع قدره ، ويبحث عن مصيره (١) .

ولم يقف أمر هذه الأسطورة التي تجمع بين الغزالي وابن تومرت عن هذا الحد ، بل لقد كان من آثارها أنه يوجد كتاب منسوب للغزالي عنوانه « سر العالمين ، وكشف ما في الدارين » أو بعنوان أقصر « السر المكتون » ، وقد جاء في أوله ما يأتي : « أول من استنسخه ، وقرأه على بالمدرسة النظامية سرّاً من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر ، رجل من أرض المغرب يقال له محمد بن تومرت من أهل سَلَسْمِيّة ، وتوسمت فيه الملك » (٢) .

وليس أشد إمعاناً من ذلك كله في عالم الأسطورة ، ومن ثم فلما نجد كثيراً من المؤرخين والمفكرين ، يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها ، فابن الأثير ينفى بصراحة ويقول لنا « والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أى الغزالي) » (٣) ويبدى ابن خلدون ريبه فيها ، ويحملها على محمل الزعم (٤) . وكذلك فإن البحث الحديث ينكرها وينفيا . ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألماني ميللر (٥) ، والعلامة المستشرق لاجناس جولدمسيهر . ويستعرض جولدمسيهر بنوع خاص ما في هذه القصة من مفارقات ومتناقضات تاريخية . ثم يقول : « ويبدو من ذلك كله أنه يحق لنا أن نلغى من ترجمة ابن تومرت ، قصة الغزالي ، فهي غير مقبولة إطلاقاً ، سواء من حيث ترتيب الحوادث الزمنية ، أو من حيث منطق الحوادث نفسها . وكل ما هنالك أننا نرى فيها تحقيقاً لحاجة الناس ، بأن يجدوا

(١) روض القرطاس ص ١١٠ و ١١١ .

(٢) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية رقم ١٨٠ مجاميع .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠١ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٥) (A. Müller : Der Islam in Morgen und Abendland) (Berlin 1885 ,)

(٦) B. II. p. 611

سبباً موجهاً غير الصفات الشخصية ، لارتفاع رجل ، وصل في لمعة نور خازقة إلى السلطان ، وإلى سحق الدولة القائمة (١) .

على أن ذلك كله لا يعنى أن ابن تومرت لم يتأثر في تعاليمه الدينية بآراء الغزالي ونظرياته ، ومن المسلم به أن ابن تومرت ، قد تأثر خلال دراسته بالمشرق ، بالنظريات المشرقية في علوم الكلام والأصول والسنة . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه تأثر بتعاليم الأشعرية ، وأخذ عنهم ، واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلطانية والدفاع عنها ، وفي تأويل المتشابه من القرآن والحديث (٢) .

وأما فيما يتعلق بتأثير الغزالي ، فإن هذا التأثير يظهر في آراء ابن تومرت ومشاريعه الدينية ، وخصوصاً فيما أبداه ابن تومرت من المعارضة للتقاليد الدينية الكائنة بالمغرب ، فإن هذه المعارضة كانت تعكس في صور كثيرة ، ما كان قائماً من نظرية الغزالي الكلامية ، وبعض النظريات الأخرى في المشرق . على أن هذا التأثير بتعاليم الغزالي ، لم يصل في رأى جولدمسير إلى الأعماق ، ولم يكن كبيراً ، ويلاحظ جولدمسير بالأخص أن المهدي ، بالرغم مما يوصف به في تراجمه من الورع والزهد ، لم يبد قط ميلاً إلى المعارف الصوفية ، وإلى ذلك الجهد النفسى ، الذى يسمح للإنسان بالحياة في ضمير الحقائق الدينية ، وهو الغرض الأساسى في بحوث الغزالي الدينية . هذا إلى ما كان بينهما من خلاف في المناهج ، وفي علم الشريعة ، وفي بعض النقط الكلامية الأخرى (٣) .

ولما أتم محمد بن تومرت بغيته من الدراسة بالمشرق ، اعتزم العودة إلى المغرب ، وكان قد قطع في دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى ، حتى غدا على قول ابن خلدون : « بحراً متفجراً من العلم ، وشهاباً واريماً من الدين » . وركب ابن تومرت البحر من الإسكندرية في أواخر سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، ويقال إنه خرج منفياً من الإسكندرية لما ترتب من شغب على نشاطه في مطاردة المنكر .

(١) مقدمة العلامة جولدمسير (I. Goldziher) لكتاب محمد بن تومرت (أعز ما يطالب)

Le Livre de Mohamed ibn Toumert (Alger 1903) Introduction p. 12

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٣) مقدمة جولدمسير الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السابقة الذكر ص ٢٠ .

بيد أنه استمر في دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو على ظهر السفينة التي أقلته . فألزم ركاها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن ، واشتد في ذلك حتى قيل ، إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر ، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعة من الماء ، وقد عظم في نفوسهم ، وبالغوا في إكرامه (١) . ولما وصل إلى المهديّة ، نزل بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا ، فتسامع به الناس ، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم ، وكان إذا شاهد منكراً من آلات الملاحى ، أو أواني الخمر ، بادر إلى إزالته وكسرها ، وأصابه بسبب ذلك بعض الأذى . ووصل خبره إلى الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك إفريقية فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سمته ، واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء (٢) . ثم غادر المهديّة إلى بجاية ، وجرى فيها على نفس أسلوبه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان يقوم بدعوته بلا كلل ، حتى وقعت ذات يوم بسبب تشدده في إزالة المنكر ، ضجة وشغب ، وكان والى البلدة العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجى ، رجلاً فظاً قاسياً ، نسخط عليه هو وخاصته ، وخشى ابن تومرت العاقبة ، فغادر بجاية إلى ناحية قرية منها تسمى ملالة ، ونزل في كنف أصحابها وهم من أعيان صنهاجة ، فأووه وأكرموه وطلب إليهم والى بجاية تسليمه إليه ، فأبوا ، ولبت بينهم حيناً يدرس العلم ، وكان إذا فرغ يجلس على صخرة بقارة الطريق قريباً من ملالة . ففى ذات يوم وفد إليه كهل وفتى حسن التكوين رائع الجمال ، ولم يكن هذا الفتى الوسيم سوى عبد المؤمن بن على بن سلموى الذى شاء القدر أن يغدو فيما بعد أعظم أصحاب المهدي ، وأعظم قادته ، وخليفة تراثه ودولته . وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان فى طريقه إلى المشرق ، ليطلب العلم ويقضى فريضة الحج ، فسأله ابن تومرت عن شخصه وعن أحواله ، ولما وقف على مقصده ، قال له « إن العلم والشرف والذكر التى يطلبها موجودة ، وإنما تسأل بصحبته ، ودعاه إلى معاونته فيما هو قائم به من إمانة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخاد البدع » .

(١) المعجب ص ٩٩ و ١٠٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ .

وأعجب عبد المؤمن كذلك بشخصية ابن تومرت وغزير علمه ، وعول على البقاء إلى جانبه . وهنا تدخل الأسطورة مرة أخرى ، فيقال إن ابن تومرت قد اطلع على كتاب في الحفر من علوم آل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، من ذرية الرسول ، وإن استقامة أمره ، وتوطد مركزه يكون على يد رجل من أصحابه ، هجاء اسمه كاسم عبد المؤمن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة ، وأنه أى ابن تومرت كان يبحث عن هذا الرجل أينما حل ، فلما رأى عبد المؤمن وسمع اسمه « أدرك أنه هو الشخص المبتغى »^(١) . وقيل إن ابن تومرت التقى بعبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة ، وإن عبد المؤمن كان عندئذ يشتغل بتعليم صبيان القرية المذكورة^(٢) ، وبقي عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت ، وانقطع إليه واختص به ، ودرس عليه حيناً مملالة ، ثم غادرا مملالة معاً ، وذهبا إلى وانشريش ، وهناك انضم إليهما رجل من قبيلة هرغة أى قبيلة ابن تومرت ، هو أبو محمد البشير . وقصد ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى تلمسان ، وقد تسامع الناس بخبره ، وذاع صيته فاستدعاه قاضيهما ، وهو ابن صاحب الصلاة وأنبه على مسلكه ، ومخالفته لعقائد أهل عصره ، وطلب إليه العدول عن دعوته ، فأعرض عنه ابن تومرت ، وسار مع صحبه إلى قاس ، ثم إلى مكناسة ، وهناك اشتد في مطاردة المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والأذى ، فغادرها إلى مراکش^(٣) .

ونزل ابن تومرت بالحاضرة المرابطية ، وكان ذلك في سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م) وعكف على طريقته في مطاردة المنكر وإزالته كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتقى في المسجد الجامع بأمير المسلمين على بن يوسف ، وجرى بينهما ما سبقت الإشارة إليه من الأحاديث . واستمر ابن تومرت في حملته الدينية الأخلاقية دون هوادة . وقد كانت مراکش وغيرها من المدن المغربية ، تبدى أيام المرابطين كثيراً من مظاهر التسامح الديني ، أو بعبارة أخرى ، كثيراً من مظاهر الاستهتار والفساد ، فقد كانت الخمر تباع علناً في الأسواق ، وكان النبيذ يشرب دون تحفظ ، وكانت الخنازير تسرح في أحياء المسلمين ، وكان القصف ذائعاً بسائر

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ ، والمعجب ص ١٠٠ .

(٢) المعجب ص ١٠٠ .

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٧٧ و ٧٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

صنوفه ، ومظاهر التدنيس ضعيفة باهتة ، هذا إلى ما كان يسود الإدارة من تفكك ، والقضاء من انحلال ، واغتصاب أموال اليتامى ، وغير ذلك من ضروب الفساد^(١) .

وهو ما يلخصه المراكشى في قوله مشيراً إلى عهد علي بن تاشفين « واختلت حال أمير المسلمين ، بعد الخمسةائة اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد . . . واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من المتونة ومستوفه مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خرم ومانخور ، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه »^(٢) .

ووقع ذات يوم حادث زاد في لفت الأنظار لابن تومرت ولدعوته . وذلك أن الصورة أخت أمير المسلمين خرجت في موكبها ، ومعها عدد من الجوارى الحسان ، وهن جميعاً سافرات على عادة المرابطين ، من سفور النساء ، واتخاذ الرجال اللثام . ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الأميرة عن دابتها ، ووقع الاضطراب والهزج ، ورُفع الأمر إلى أمير المسلمين على بن يوسف ففاوض الفقهاء في شأن هذا الداعية المضطرم ، وكانت المعلومات التي جمعت عنه منذ خادثة المسجد ، هو أنه حديث العهد بالوصول إلى مراكش ، وأنه يؤلب الناس ، ويقول لهم إن السنة قد ذهبت . وكان على بن يوسف قد أمر وزيره ينتان بن عمر أن يكشف عن مذهبه وعن أحواله ومطلوبه ، فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها ، وكان جواب ابن تومرت حسباً أشرنا من قبل ، أن لا حاجة له إلا تغيير المنكر^(٣) .

ورأى أمير المسلمين أن يناظر الفقهاء هذا الرجل . وكان الفقهاء المرابطون يحقنون على ابن تومرت لاعتناقه مذهب الأشعرية ، وما يميل به من تأويل المتشابه ولحملة عليهم ، وإنكاره لجمودهم ، إزاء مذهب السلف ، وإقراره كما جاء

(١) مقدمة جوليسير لكتاب محمد بن تومرت للسالفة الذكر ص ٩٧ .

(٢) المعجب ص ٩٩ .

(٣) البيان المنرب في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .

به ، وذهابه إلى حد تكفيرهم ، فأغروا الأمير باستدعائه للمناظرة معهم^(١) ، وقبل ابن تومرت هذا التحدى ، وأبدى فى مناظرته للفقهاء المرابطين تفوقاً ظاهراً . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس ملخصاً لتلك المناظرة ، التى وقعت بين ابن تومرت وخصومه ، ويقول لنا إن من حضر ذلك المجلس من الفقهاء المرابطين ، كان جلهم من علماء الفروع ، وليست لهم معرفة بالأصول والجدل ، وقد جرى معظم الجدل حول طرق العلم ، وهل هى تنحصر أو لا تنحصر ، وعن أصول الحق والباطل . وقد كان أخص ما تمتاز به هذه المناظرة الدينية هو أن ابن تومرت أبدى فى مناقشته تمسكه بأصول الشريعة ، إزاء الفقهاء المرابطين ، وهم أقطاب مذهب الفروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمناهج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجرى على الأصول لا الفروع ، وأبدى فى عرضه لأصول الشريعة . أنه يرجع خاصة إلى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط إلى قول مستخرج ، ولا يعتبر الاجتهاد مرجعاً من مراجع الشريعة^(٢) . ولم يكن بين الفقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت وتبحره فى علوم الدين ، سوى فقيه أندلسى هو مالك بن وهيب قاضى مراکش ، وقد كان من أكار العلماء والأدباء ، وكان متمكناً من علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان لا يظهر من علمه إلا ما يروج فى ذلك الزمان^(٣) . فبين لأمر المسلمين خطورة هذا الرجل وخطورة دعوته وتعاليمه ، وقال له إن هذا رجل ، لا يبغي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنه يبغي تضليل العامة ، وإثارة الفتنة ، والوصول إلى السلطان ، وأشار عليه بقتله ، وأشار البعض الآخر على أمير المسلمين باعتقال الرجل وسجنه ، وعبر عن ذلك أحدهم بقوله للأمير : « ألقه فى الكبول لئلا يُسمعك الطبول » . وخالفهم فى ذلك الوزير ينتان بن عمر ، وقال لعل بن يوسف إن هذا وهن فى حق الملك ، ونوه بضعف الرجل وضآلة شأنه . فأمر على بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياماً حتى يرى فيه رأيه . ولم تمض أيام

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب محمد بن تومرت ص ٣٩ و ٤٠

(٣) المعجب ص ١٠٢ ، ويقول لنا المراكشى إن مالك بن وهيب هذا ، قد وضع كتاباً فريداً

فى بابيه اسمه « قراضة الذهب فى ذكر لثام العرب » ضمنه لثام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأنه رأى هذا الكتاب فى خزائنه بنى عبد المؤمن .

على ذلك حتى جاءت الأنباء بوقوع الفتنة في قرطبة ، وأخذ على بن يوسف في التأهب للعبور إلى الأندلس . فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت ، فحضر بين يديه ، وقال له على بلغنى عنك ما صنعت ببجاية وغيرها ، فتوزع الناس عن قتلك ، فعرفني بحقيقة غرضك ، فقال ابن تومرت غرضي تغيير المنكر ، ورفع المغارم ، وألا تولي من قبيلتك أحدا ، وأن تتركوا اللثام لأنه من شأن النساء ، ولا تجوز به صلاة ، فزجره أمير المسلمين ، وأمر بإخراجه من مراکش . وكان ذلك في أوائل سنة ٥١٥ هـ (١) .

غادر محمد بن تومرت وصحبه مدينة مراکش إلى أغمات ، وفي بعض الروايات أنه بالعكس استمر حيناً يقيم في صحبه بن مقابر المدينة ، وينال عليه الناس والطلاب ، وهو ييث فيهم الدعوة ضد المرابطين ويرميهم بالتجسيم والكفر ، ولكنه اضطر أن يغادر مكانه حيناً بلغه أن القوم يضمرون اعتقاله وقاتله (٢) ، ولما حل ابن تومرت بأغمات استمر فيها على طريقته ، من مطاردة المنكر والحملة على المرابطين ، واتخذ لصلاته ودعايته مسجداً خارج أغمات ، فأمر صاحب المدينة بإخراجه وإبعاده (٣) . فعندئذ قصد ابن تومرت وصحبه إلى بلاد السوس ، ولحق بجبال المصامدة ، وذهب أولاً إلى تيفنوت ، ثم إلى هنتاة ، ثم إلى إيكين ، ومر في خلال ذلك بكثير من المحلات البرية ، وهو يتوقف أوقافاً في بعضها ، ويبني المساجد ، وينضم إليه الصحب والأتباع . وقد فصل لنا أبو بكر الصنهاجي صاحب ابن تومرت برنامج رحلته منذ خروجه من أغمات ، ومسيره خلال جبال المصامدة ، ومن لقيه خلال رحلته من الصحب والأتباع . ورحل ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى قرية إيجليز أو جبل إيجاز من بلاد هرغة ، ببلده ، وموطن قومه وعشيرته ، وهناك أنهال إليه المصامدة من كل فج ، وكثر

(١) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ، وروض القرطاس ص ١١٢ ، والحلل الموشية ص ٧٣ و ٧٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، والمعجب ص ١٠٢ و ١٠٣ ، وراجع كتاب أخبار المهدي ابن تومرت صفحة ٦٨ و ٦٩ .

(٢) هذه هي رواية أبي بكر الصنهاجي أحد أصحاب المهدي في كتابه « أخبار المهدي ابن تومرت » ص ١٦٩ ونقلها صاحب روض القرطاس (ص ١١٣) .

(٣) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة المشار إليها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

صحبه وأتباعه ، وهو يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى قتال المحسنيين المرابطين ، وكان يعنى بالأخص بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه نظرية المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، وما ورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة ، وبعث الخاصة من دعائه بين رؤساء القبائل بمهلدون لتلك الدعوة ويبشرون بها . ولما شعر ابن تومرت بأن دعائيه قد أتت ثمرتها ، وأضحى الميدان ممهداً للعمل ، اعتزم أن يعلن إمامته^(١) . وفي اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٢١ م) قام ابن تومرت خطيباً في أصحابه ، وأعلن إليهم أنه المهدي المنتظر^(٢) في خطبة قصيرة ينقل إلينا نصها صاحب نظم الجمان فيما يلي :

« الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضي بما يشاؤه ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله ، المبشر بالإمام المهدي ، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ماثت جوراً وظلماً ، يبعثه الله إذا نُسِخَ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه المغرب الأقصى منبته ، وزمانه آخر الزمان ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم . وقد ظهر جور الأمراء ، وامتألت الأرض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل »^(٣) .

وعلى أثر ذلك ، وفي ظل شجرة خروب وارفة ، هرع إلى المهدي عشرة من أصحابه الملازمين له ، وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، وهؤلاء العشرة الأوائل من أصحاب المهدي هم : تاحميد وألصق الناس به عبد المؤمن بن علي ، وكان أول من بايعه ، وأبو محمد عبد الله محمد بن محسن الوائشريشي المسمى بالبشير ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص بن يحيى الهنتاقي ، وأبو حفص عمر بن علي أزنح (أصناك) ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن

(١) المراكشي في المعجب ص ١٠٣ .

(٢) هذه رواية روض القرطاس (ص ١١٣) ويؤيدها ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٢٨) والحلل الموشية ص ٧٨ ، والزركشي ص ٤ ، ويقول ابن عذاري إنها كانت في سنة ٥١٨ هـ (الأوراق المخطوطة المنقولة من مكتبة جامع القرويين الساقفة الذكر) . وجاء في نفس الأوراق عن ابن القطان أنها كانت في سنة ٥١٦ هـ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان - مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمديرية لوجدة ١٣٣ .

إسماعيل الخزرجي ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي ، وأبو عمران موسى ابن تماري ، وأبو يحيى بن بكيت . وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة^(١) ، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلاً ، فسموا أهل خمسين ، وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدي^(٢) ، ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة الثالثة . وكانت هذه الطبقات الثلاث تضم أخلص أنصار المهدي ، وأقدرهم . وقسم ابن تومرت بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره إلى طبقات تلي هذه ، فالطبقة الرابعة تتكون من طلبة العلم ، والطبقة الخامسة تتكون من الحفاظ ، وهم صغار الطلبة ، والطبقة السادسة تتكون من أهل الدار وهم أقارب المهدي وعشيرته ، والطبقة السابعة تتكون من أهل هرغة بلد المهدي وموطن قبيلته ، والطبقة الثامنة تتكون من أهل تينملل ، والطبقة التاسعة من أهل جلدميوه ، والطبقة العاشرة من أهل جنفيسة ، والطبقة الحادية عشرة من أهل هنتانة ، والثانية عشرة تتكون من الحند ، والثالثة عشرة من الغزاة والرماة . ووضع المهدي فيما بعد نظاماً خاصاً لمهام هذه الطبقات ورتبها ، وجعل لكل منها مهمة تختص بها ، ورتبة لا تتعدها ، سواء في السفر أو الحضر ، وكان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلية .

ولما كملت بيعة ابن تومرت على هذا النحو ، لقبه أنصاره بالمهدي والإمام المعصوم ، وكانوا من قبل يقتصرون على تلقيبه بالإمام ، وسمى المهدي أصحابه وأهل دعوته بالموحدين . ويقول لنا ابن خلدون إنه اختار لهم هذه التسمية تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم^(٣) . ووضع لهم في التوحيد كتاباً باللغة البربرية سماه « المرشدة » يحتوي على معرفة الله تعالى ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والإيمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتضمن الأعشار والأحزاب والصور ، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد ، فليس بموحّد ، وإنما هو كافر لا تجوز

(١) الحلل الموشية ص ٧٩ وروض القرطاس ص ١١٣ ، ويورد أبو بكر الصنهاجي في كتابه أخبار المهدي بن تومرت أسماء أخرى ويذكر نفسه ضمن العشرة الأوائل (ص ٧٣) . وكذلك يذكر ابن خلدون بعض أسماء أخرى ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٢) ذكر لنا أبو بكر الصنهاجي صاحب كتاب أخبار المهدي ابن تومرت أسماء أهل خمسين

ص ٣٣ و ٣٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

إمامته ، ولا تؤكل ذبيحته . قال صاحب روض القرطاس « فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا »^(١) ، ووضع لهم بالبربرية كتباً أخرى في العقيدة منها كتاب سمي « بالقواعد » وآخر سمي « بالأمانة » ، ودونها كذلك بالعربية ، وكان ابن تومرت أبرع أهل عصره في إتقان اللغتين العربية والبربرية . ثم وضع بالعربية فيما بعد كتابه في العقيدة والعالم والإمامة الذي رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي والذي يفتتحه بقوله « أعز ما يطلب » ، وهي عبارة أصبحت تعتبر عنواناً للكتاب ذاته .

ولبث المهدي بن تومرت ييث دعوته ، ويعمل على توطيدها في نفوس أنصاره بنصاحته وذلافته ورقيق وعظه ، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ويدعون إلى إمامته ومهديته ، والناس يقفون عليه من كل صوب جمعاً غفيرة يبايعونه بالإمامة ، ويتبركون برويته ، حتى استفحل أمره ، وعلا صيته وكثر جمعه ، وأضحى يمثل ، بما تنطوى عليه حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة ، خطراً داهماً على سلطان المرابطين .

وقد تحقق هذا الخطر بالفعل ، إذ نهض المهدي في أصحابه ، يحارب القوات المرابطية ، ويحوز ضدها نصراً بعد نصر . ولم تهزم قواته سوى مرة واحدة في موقعة البحيرة في ظاهر مراکش في سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ، وكانت هزيمة شديدة ، ثم توفي المهدي على أثر ذلك في شهر رمضان من هذه السنة (أغسطس سنة ١١٣٠ م) ودفن بمسجده بتيتمل ، واستأنف تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي الكفاح ضد المرابطين ، واستمر يهزمهم تباعاً ، حتى دخل مراکش في أواخر سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وقتل آخر أمراءهم إبراهيم بن تاشفين بن علي ، وقامت بذلك الدولة الموحدية ، التي شاء القدر أن تحكم المغرب والأندلس ، وأن تغدو من أعظم الدول في الغرب الإسلامي .

والآن نعطف بإيجاز على تعاليم المهدي وتراثه الديني . ولقد انتهى إلينا لحسن الطالع من هذا التراث ما يلقي أكبر الضياء على المبادئ والآراء التي اتخذها

المهدي سنداً لدعوته الدينية ، والتي جعل منها عقيدة جديدة يمكن أن توصف بالعقيدة الموحدية .

ويجتمع تراث المهدي الفكري والديني في كتابين ، أولهما يضم مبادئه ونظرياته في الأصول وفي الإمامة ، وفي التوحيد والعلم ، وهو أهم الكتابين ، وقد عرف بكتاب « أعز ما يطلب » لاستهلاله بتلك العبارة ، والثاني كتاب « الموطأ أو موطأ الإمام المهدي » ، وقد وضعه المهدي في العبادات والمعاملات والحدود ، أو بعبارة أخرى في علم الفروع على مثل موطأ الإمام مالك .

وفيتح المهدي كتابه الأول بتلك الفقرة الرنانة :

« أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

ويبدأ المهدي حديثه عن العلم ، وينوه بأهميته في تمييز الحقائق والخصائص ، وطرق العلم عنده تنحصر في الحس والعقل والسمع . ويقسم كلا من هذه الطرق إلى أقسام فرعية عديدة ، ثم يتحدثنا عن الصلاة ، ومعناها ، وبيان فضلها وحكمها وتفصيلها .

على أن أهمية تعاليم ابن تومرت ونظرياته تبدو في عدة مسائل خاصة ، هي التي تعتبر قوام مذهبه الديني . وأول هذه المسائل هو رأى ابن تومرت في أصول الشريعة ، وهو يرى قبل كل شيء أن الشريعة لا تثبت بالعقل . وعنده أن أصول الشريعة تنحصر في القرآن والسنة . وهو لا يعتبر القياس والإجماع من تلك الأصول . وهو كذلك ينكر الاجتهاد كأصل من هذه الأصول ويحمل عليه . وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد من الأمور المنطقية ، لأنه يتشع بثوب الإمام المعصوم الذي لا تبحث آراؤه . ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة أن موقف ابن تومرت من الاجتهاد يعارض رأى الإمام الغزالي ، الذي يعلق أهمية كبيرة على مبادئ الاجتهاد . ومن جهة أخرى فإن الغزالي يعارض نظرية الإمام المعصوم في غير كتاب من كتبه مثل كتاب « المتقذ من الضلال » وغيره .

ثم يحدثنا ابن تومرت بعد ذلك عن العقيدة ، وعن التوحيد . والتوحيد هو أساس مذهب ابن تومرت الديني ، وهو الذي استحال فيما بعد إلى مبدأ سياسي ، هو الذي غدا أساس الدولة الموحدية ودعامة سلطانها الأولى . ويقدم إلينا ابن تومرت صيغ التوحيد والتسييح التي وضعها لأتباعه ، وهي صيغ تردد مضمون عبارات التوحيد والتقديس التي عرفت منذ مختلف العصور .

على أن أهم ما يتضمنه كتاب ابن تومرت هو كلامه عن الإمامة ، وعن الإمام المعصوم ، وعن المهدي المنتظر وعلاماته ، وعن قيام الطائفة التي تقوم في آخر الزمان لتقاتل في سبيل الحق . ويمكننا أن نعتبر هذا الفصل لبّ الكتاب ولبّ مذهب ابن تومرت كله . ولبّ دعوته السياسية كلها . فإن الإمامة الدينية هي شعار السياسي الذي انتحلّه ابن تومرت دعامة لزعامته وسلطانه . ونظرية المهدي المنتظر هي الثوب الروحي الذي اتشح به لتأييد شرعية إمامته وقديسيها .

وفي رأى ابن تومرت أن الإمامة أمر يجب الإيمان به لدى الكافة ، وأنها ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمدة الشريعة . وأن هذا الإمام لا يمكن إلا أن يكون معصوماً من الباطل ، لأن الباطل لا يهدم الباطل ، ومعصوماً من الضلال ، لأن الضلال لا يهدم الضلال ، وأن يكون معصوماً كذلك من الجور ، ومن البدع ومن الجهل ، لأن هذه لا تهدم إلا بعصمته . ثم يلخص لنا أهمية الإيمان بالإمامة في قوله :

« والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان ، وهو دين السلف الصالح ، والأئمة السالفة إلى إبراهيم وما قبله ، فاعتقادها دين ، والعمل بها دين ، والتزامها دين ، ومعناها الاتباع والافتداء ، والسمع والطاعة ، والتسليم ، وامثال الأمر ، واجتناب النهي ، والأخذ به في القليل والكثير » .

ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة في كل زمان ومكان ، لا بد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد شرعيتها ، وتزيد في قديسيها ، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة ، وتلك هي صفة المهدي المنتظر . وهذه النظرية ، نظرية المهدي المنتظر يعرضها لنا ابن تومرت بقوة وحماسة ، ويؤكد لأتباعه وأنصاره

أنه لا بد من طاعة المهدي ، والإيمان برسائله ، والتسليم لأمره ، والانقياد لكل ما يقضى به ، وأن هذه الطاعة إن هي إلا طاعة الله ورسوله ذاتها .

أما أولئك الذين تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدي ومعارضته ، أو الشك في أمره ، فويل لهم ، ومصيرهم إلى النكال والبوار .

ولم ينس ابن تومرت في الوقت الذي يعرض فيه دعوته ، ويشيد بنظرية الإمام المعصوم والمهدي المنتظر ، أن ينظم حملته الهدامة ضد أصحاب الأمر القائم ، وهم المرابطون الذين كان يرمى إلى تحطيم دولتهم والاستيلاء على تراثهم . ومن ثم فإنه يخصهم في كتابه بفصل يشهر فيه عليهم حملة الخصومة والبغض ، ويحاول أن يسبغ على حملته لواء القدسية ، وأن يردّها إلى أصول دينية ، وهو ينعتههم « بالمبطلين ، والمثمين ، والمحسمين » ، ويقول لنا إن لهم علامات خاصة ، منها ما كان قبل توليهم السلطان ، وأهمها أنهم حفاة ، عراة ، عالة ، جاهلون بأمر الله ، ومنها ما كان بعد توليهم الملك ، وهي أنهم يأتون في آخر الزمان ، وأنهم ملوك ، وأنهم يتناولون في البنيان ، وأنهم صم وبكم عن الحق ، وعلامات أخرى يحاول ابن تومرت أن يقيم الدليل على صحتها بإيراد طائفة من الأحاديث النبوية . ثم يتناول ابن تومرت بعد ذلك مثالب المرابطين ، وما أحدثوه من المناكر والمغارم في كلام طويل ، ويحاول أن يثبت كل أقواله بإيراد الأحاديث المناسبة .

وعلى العكس من ذلك ، فإن هناك طائفة أخرى يقول لنا ابن تومرت إنها هي الطائفة التي بشر الرسول بظهورها ، وهي التي تقاتل على حق ، وتقوم به حتى آخر الزمان ، وأنها ظاهرة على من عدلها إلى يوم القيامة . ومن الواضح أن ابن تومرت يعنى بها طائفته ، أي طائفة الإمام المعصوم والمهدي المعلوم ، وهو يحاول هنا أيضاً أن يدعم أقواله بإيراد الأحاديث المناسبة .

ويتناول ابن تومرت بعد ذلك طائفة من المسائل الدينية الأخرى التي لا تتصل أصلاً بدعوته الدينية ، أو السياسية ، ولكنها تتضمن مع ذلك بعض وقائع وأقوال تتصل بهذه الدعوة ، فيحدثنا عن الطهارة ، وعن رفع العلم ورفع الدين ، والموالاتة ، ثم عن الغلول أي الخيانة ، ثم عن تحريم الخمر ، ووجوب مطاردتها

وإراقتها وكسر أوانها ، ويستعرض ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث .
أما الفصل الأخير من كتاب ابن تومرت وهو كتاب « الجهاد » فهو ليس
من تأليفه وإنما هو من تأليف الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وذلك
حسبما يبدو من النبذة التي اختتم بها هذا الفصل .

هذا عن كتاب « أعز ما يطلب » . وأما الكتاب الآخر الذي تركه لنا
لنا ابن تومرت بالعربية ، فهو كتاب « الموطأ » أو « موطأ الإمام المهدي » ، وهو
كتاب ضخيم يتناول فيه على نسق كتاب الموطأ للإمام مالك ، أبواب العبادات
والمعاملات والحدود . ولم يأت المهدي في كتابه بجديد ، وكل ما هنالك أنه قام
باختصار كتاب الإمام مالك مع شيء من التقديم والتأخير .

ومن الواضح أنه ليس في كتاب « موطأ المهدي » ما يهمننا من الناحية
التاريخية . بيد أننا نستطيع أن نتخذ تأليفه دلالة على ما كان يتصف به ابن تومرت
من النشاط العلمي ، والمقدرة الفقهية . ومن الحقائق الهامة في نشاط ابن تومرت
العلمي ، أن كتبه كانت تنشر بين قومه بالبربرية ، فكان ذلك مما يضاعف
أثرها ونفوذها . وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت ، مقدرته البارزة في
إتقان اللغتين العربية والبربرية ، وكان وعظه ومحاضباته لقومه بالبربرية ، تنفذ إلى
سويداء قلوبهم ، وتزيدهم فتنة به وتعلقاً بدعوته . وكانت كتب ابن تومرت بعد
القرآن السنة ، هي أشد الكتب الدينية احتراماً . بين أقوام الموحدين على اختلاف
قبائلهم ، لأنها نظراً لكتابتها بالبربرية ، كانت شديدة الذبوع ، وكانت في
متناول كل إنسان .

— ٣ —

كان ابن تومرت ، حسبما تصفه الرواية ، رجلاً ربة أسمر ، عظيم الهامة ،
غائر العينين ، حديد البصر ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء على كتفه
الأيمن . وكان من أعظم الدعاة الدينيين ، وأعزهم علماً ، وأشدهم دهاء ،
وأقوامهم نفساً ، وأشدهم تأثيراً في النفوس . وكان إلى جانب ذكائه ودهائه
يتمتع بمنطق قوي ، ومحاجة قاطعة ، ودلاقة مؤثرة . وكان خطيباً مفوهاً ،
فصيحاً في العربية والبربرية معاً ، يستميل الجموع برائع بيانه ووعظه ، وكان

متمكناً من علوم القرآن والسنة والأصول ، شديد التقشف والزهد والورع ، لا يقبل على شيء من متاع الدنيا . وكان ظهوره في ذلك المجتمع البربري الساذج الذي اختير مسرحاً لدعوته ، والذي كان يخيم عليه الجهل المطبق ، يتسم بصفات الزعامة الجارقة أو النبوة ، ومن ثم فقد أنفى ابن تومرت الطريق ممهداً ليعلن دعوته ، وليتشح بثوب المهدي المنتظر ، ويذبح صفة الإمام المعصوم .

ولكن ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات الخلابة ، كان يتسم بطائفة من الصفات المثيرة ، فقد كان شديد التعصب ، صارم النفس ، سفاكاً للدماء ، غير متورع فيها ولا متحوط ، يهون عليه سفك دم عالم من الناس في سبيل رأيه وبأوغ مقصده ، لا تأخذه شفقة ولا رحمة في دماء خصومه ، ويستحل سبي نسائهم وأولادهم ونهب أموالهم ، ويسبغ على هذا السفك المروع صفة الشرعية ، لما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة ، أو لمبدأ التوحيد الذي اتخذ شعاره ، وربما كان فيما ذكر عن المهدي من أنه « كان حصوراً لا يأتي النساء » (١) ما يفسر بعض عوامل هذه القسوة المروعة ، وهذا الظماً إلى سفك الدماء .

* * *

لبث قبر ابن تومرت في تينملل عصوراً طويلة مزاراً شهيراً يحج إليه المؤمنون من كل صوب ، ويخصه ملوك الموحدين بأعظم آيات الإجلال . وقد نقل إلينا عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب قصيدة ، أنشأها في تخليد ذكرى ابن تومرت والإشادة برسالته ، شاعرٌ من أهل الجزائر ، وفد على الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقام على قبر ابن تومرت وأنشد قصيدته بحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين . وإليك بعض ما ورد فيها ، وفيه شرح لأسطورة المهدي :

سلام على قبر الإمام المجد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحي علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد

بقسط وعدل في الأنام مخلد
وملك عرباً من متغير ومنجد
فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد
وطائفة المهدي بالحق تهتدى
يصدون عن حكم من الحق مرشد
أبادت من الإسلام كل مشيد
ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويقتسمون المال بالترس عن يد
يذيقونه حد الحسام المهند
إمام فيدعوهم لخراب مسجد
بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
ويخبرهم حقاً بعز مجدد
إلى آخر الدهر الطويل المرمد
على النأي منى والوداد المؤكد
وما صدر الوارد عن ورد مورد

أنتنا به البشرى بأن يملأ الدنيا
ويفتح الأمصار شرقاً ومغرباً
وتتبعه للنصر طائفة المهدي
هي اللة المذكور في الذكر أمرها
بهم يجمع الله الجبارة الأولى
ويقطع أيام الجبارة التي
فيغزون أعراب الجزيرة عنوة
ويفتحون الروم فتح غنيمة
ويغدون للدجال يغزونه ضحاً
وينزل عيسى فيهم وأميرهم
يصلي بهم ذاك الأمير صلاتهم
فيمسح بالكفن منه وجوههم
وما إن يزال الأمر فيه وفيهم
فأبلغ أمير المؤمنين تحية
عليه سلام الله ما در شارق

ومهما كان في تصوير دعوة ابن تومرت وأسطورة المهدي على هذا النحو
من إغراق ومبالغة ، فلا ريب أن العامل الديني كان أعظم دعامة في قيام دولة
الموحدين . ومع أن هذه الدولة نشأت في البداية كدولة المرابطين دولة دينية ساذجة ،
فإنها ما لبثت أن استحالت إلى إمبراطورية دينية وسياسية عظيمة ، بسطت
سلطانها على المغرب والأندلس ، وأعادت بقوتها على الإسلام في اسبانيا منعت
القدمية ، وبعثت إلى الأندلس حياة جديدة ، استطالت إلى أكثر من ثلاثة
قرون أخرى .

محمد بن الأحمر

مؤسس مملكة غرناطة

(٥٩٥ - ٦٧١ هـ) ، (١١٩٨ - ١٢٧٢ م)

يعرض لنا تاريخ الأندلس (إسبانيا المسلمة) منذ قيام الدولة الأموية ، ثلاث مراحل تمتاز كل منها بسميزات خاصة : الأولى مرحلة القوة والتفوق أعنى تفوق الدولة الإسلامية على إسبانيا النصرانية . والثانية مرحلة الفوضى والكفاح خلال عصر الطوائف والمرابطين والموحدين . والثالثة مرحلة الضعف والانحلال أيام مملكة غرناطة وهى مرحلة الكفاح الأخير . ومن الغريب أن هذه المراحل الثلاث تكاد تتساوى فى مداها الزمنى ، إذ يمتد كل منها زهاء قرنين ونصف قرن ؛ فقد عاشت الدولة الأموية منذ سنة ١٤٠ هـ إلى أواخر القرن الرابع . وامتدت دول الطوائف وسيادة المرابطين والموحدين منذ أواخر القرن الرابع إلى أوائل القرن السابع . وعاشت مملكة غرناطة منذ سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٨٩٧ هـ (١٢٣٨ - ١٤٩٢ م) .

وقد كان شبح الفناء يهدد الأندلس منذ انحدرت إلى عمر التفكك والفوضى ، عقب انهيار الدولة الأموية وقيام دول الطوائف الصغيرة يقاتل بعضها بعضاً ، والعدو المشترك أعنى إسبانيا النصرانية يتربص بها ، ويؤلب إحداها على الأخرى ليسحقها تباعاً ، وقد ظفر غير بعيد بالاستيلاء على مدينة طليطلة ، أول قاعدة أندلسية كبيرة تسقط فى يد إسبانيا النصرانية (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) ، ولأح شبح الخطر قوياً يهدد الأندلس كلها بالفناء . ولم ينقل الأندلس فى تلك الآونة العvisية من هذا الفناء سوى مقدم المرابطين من إفريقية إلى الجزيرة استجابة لصريخ أمراء الطوائف ، وانتصارهم فى موقعة الزلاقة الشهيرة على النصارى (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) ، ثم اجتذبت الأندلس بنعمائها ومروجها الجميلة أولئك الغزاة البربر فاستولوا عليها ، وقضوا على ملوك الطوائف ، وقطعت الأندلس فى ظلهم ثم فى ظل خلفائهم الموحدين ، الذين استولوا على ملكهم فى المغرب والأندلس

زهاء مائة وخمسين عاماً ، وكانت حقبة مضطربة مليئة بالفكاح والحروب الأهلية . ولكن عناصر القوة والتكافؤ ، كانت فيها سجالات بين المسلمين والنصارى .

ولما انهيار سلطان الموحدين في الجزيرة في أوائل القرن السابع الهجرى ، عاد شبح الفناء يهدد الأندلس مرة أخرى ، وكان انهيار سلطانهم بالأندلس يرجع أولاً إلى ضعف خلافتهم بالمغرب ، وما شجر بينهم حول كرسى الملك من حروب أهلية ، وثانياً إلى نهوض قوى أندلسية جديدة في شكل ثورات وزعامات محلية ، ترمى إلى مقاومة النصارى ، وتحرير الجزيرة من نير الموحدين . وقد انتهزت إسبانيا النصرانية فرصة هذه الفورات الجديدة ، وهذا الصراع الجديد في الأندلس بين مختلف القوى ، وأخذت تتزعزع من أشلاء الأندلس ما استطاعت . وهكذا أخذت القواعد الأندلسية العظيمة الباقية تسقط تباعاً في يد إسبانيا النصرانية : قرطبة (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) وبلنسية (٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م) ومرسية (٦٤٠ هـ - ١٢٣٤ م) وإشبيلية (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م) . ولكن عناصر الاضطراب والفوضى أخذت تتمخض هذه المرة عن ظاهرة جديدة من التجمع والاستقرار ، وأخذت عناصر القوة والتماسك تجتمع رويداً في الركن الجنوبي الغربى من الجزيرة لتكون مهداً لمولود مملكة إسلامية جديدة ، هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة في الطرف الجنوبي للدولة الإسلامية القديمة يرجع إلى عوامل تاريخية وجغرافية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير ، آخر الحواجز الطبيعية بين إسبانيا النصرانية وبين الأندلس ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر : إلى عدوة المغرب وشمال إفريقيا حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم أن تستمد الغوث والعون من إخوانها فى الدين ؛ وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صربخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعى ، حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٦ هـ ، وكان الصربخ موجهاً من أميرها أبى جمبى زيان إلى الأمير أبى زكريا الحفصى ملك إفريقيا (تونس) وهو الذى رده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درساً

وهب لها من عزيز النصر ما التمسست فلم يزل منك عز النصر ملتصبا
وفي قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخي ، الذي لبث أحقاباً يربط بين
الأندلس ، وبين الدول الإسلامية الشقيقة في عدوة المغرب ، وقد كان يتمثل
واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولاح لها شبح القضاء في جزيرتها
المنقطعة قوياً رهيباً .

في أوائل القرن السابع الهجري ظهر في شرق الأندلس في منطقة مرسية
أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود سليل بني هود أمراء سرقسطة السابقين ،
وأعلن الخرج والثورة على الموحدين . وكان سلطان الموحدين قد أخذ يضطرب
ويتصدع في الثغور والنواحي . وبدأ ابن هود فانتزع مرسية من الموحدين
(٦٢٥ هـ) ، وبويع بها ، ودعا للخليفة العباسي المستنصر بالله ، وأخذ أمره
يشتد من ذلك الحين ، وأعلن أنه يعزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى
معاً . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت في طاعته عدة من قواعد الأندلس ، ومنها
جيان وقرطبة وألمرية وماردة وبطليوس . ثم استولى على غرناطة سنة ٦٢٨ هـ ،
واستمر حيناً يخوض مع الموحدين والنصارى ومنافسه ابن الأحمر معارك متعاقبة .
واستطاع النصارى في تلك الأثناء غزو قرطبة والاستيلاء عليها وذلك في سنة
٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) فكان لسقوطها أعظم وقع في الأندلس وسائر أنحاء العالم
الإسلامي . وشغل ابن هود حيناً بمشاريعه الخاصة ، ثم لم يلبث أن توفي في أوائل
سنة ٦٣٥ هـ في ثغر ألمرية في ظروف غامضة ، وقيل إن وزيره ونائبه في ألمرية
أبو عبد الله الرميمي هو الذي دبر قتله غيلة ، فكانت لوفاة نتائج هامة . ذلك
أنه على أثر تحطيم سلطانه وانهيار مشاريعه ، انفسح الطريق وصفا الأفق لمنافسه
ابن الأحمر . ولم تكن ثورة ابن هود على الموحدين وبجاحه في تحطيم سلطانهم ،
في الواقع سوى مقدمة لمرحلة جديدة من مراحل التاريخ الأندلسي ، أو بعبارة
أخرى مقدمة لقيام مملكة أندلسية جديدة هي مملكة غرناطة .

ويرجع الفضل في قيام مملكة غرناطة التي شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة
الأندلسية دهرأ طويلاً آخر ، إلى عبقرية رجل من قوى النباهة والعزم والتواضع
معاً هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خيس بن نصر المعروف

بابن الأحمر ، سليل بنى نصر ، وهم فى الأصل سادة حصن أرجونة ، على مقربة من جنوبى أنبوجر ، من أعمال قرطبة ، ويرجعون نسبهم إلى الصحابى سعد بن عبادة سيد الخرج ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية . وولد محمد بن يوسف فى أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، ونشأ فى مهاد الفضيلة والتقى ، جندياً وافر الجراءة والعزم ، يتزعم قومه ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من نقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ؛ وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ، فلما تفاقمت الفتنة ، واضطربت الشئون فى الثغور والنواحي ، وضعف أمر الموحدىن ، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود ، وأخذ ينتزع منهم القواعد والثغور تباعاً ، رأى بنو نصر الفرصة سانحة للظهور على مسرح الحوادث ، ونهض كبيرهم محمد بن يوسف بن نصر لمعارضة ابن هود فى جنوبى الأندلس ودعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، وأطاعته جيان وشريش ومالقة من القواعد الخنوية (سنة ٦٣٠ هـ) ، وكان ابن هود وابن الأحمر يطمح كلاهما إلى الاستئثار بزعامة الأندلس ، وكان لا بد أن يقع بينهما الصدام ، وقد وقع فعلاً ، واشتدكا على مقربة من إشبيلية فى معركة هزم فيها ابن هود (٦٣١ هـ) . وحاول ابن الأحمر على أثر ذلك أن يبسط سلطانه على إشبيلية ، ولكنه لم ينجح لمعارضة أهلها لرياسته ، وتمسكهم بدعوة ابن هود ، وكانت رياسة ابن هود بالفعل أوسع نطاقاً ، وأكثر تمكناً فى شرق الأندلس وأواسطه ؛ فلما شعر ابن الأحمر أن الأمر قد استتب لابن هود ، وجاءته موافقة الخليفة العباسى على دعوته ، سعى إلى التفاهم معه فعقد معه الهدنة والصلح أولاً ، ثم لم ير بأساً من مصانعته والانضواء تحت لوائه وجاهر بطاعته ، ولكن ابن هود لم يلبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ كما قدمنا ، فانهارت دولته بسرعة ، وعندئذ بادر ابن الأحمر بالاستيلاء على ألمرية من يد حاكمها الرميمى نائب ابن هود وقاتله ، وقامت مدينة غرناطة فى الوقت نفسه بدعوته ، ودعاه زعمائها إلى دخولها ، فدخلها مغرب يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٢٨ م) فى حفل بسيط مؤثر وجعل بها مقر حكمه وقاعدة سلطانه .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة من عمر القوضى التى سادت الأندلس عند انهيار دولة الموحدىن . ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد . وكان

ابن الأحمر يواجه في سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية وانتشرت إلى حكومات ومناطق عديدة . وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسي ولا سيما في الجنوب ، ولكن أصاغر الزعماء والحكام كانوا يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ في ظله بمدنهم وقواعدهم ، على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة يرى في ابن الأحمر ، بعد وفاة ابن هود ، زعيم الأندلس الحقيقي والخصم الذي يجب تحطيمه ؛ وكان ابن الأحمر ، وهو يعمل على توطيد مملكته الناشئة ، يشعر دائماً بخاطر النصارى ويرقب حركات فرناندو الثالث في توجس وحذر . والواقع أن سائر القواعد الوسطى ، ولا سيما جيان وأحوازها ، قد أضحت منذ سقوط قرطبة تحت رحمة القشتاليين ، وكان فرناندو الثالث قد سير بالفعل جيشاً ، عاث في منطقة جيان ، واستولى على حصن أرجونة ، موطن ابن الأحمر وقومه (بنى نصر) ، وعدة حصون ومواضع أخرى من أملاك ابن الأحمر . ثم زحف القشتاليون جنوباً صوب غرناطة ذاتها ، وضربوا حولها الحصار ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بنجسارة فادحة ، (٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م) . وفي العام التالي زحف النصارى على جيان وحاصروها حتى كادت أن تسقط في أيديهم ؛ فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعيث المقاومة آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه في معسكره وقدم إليه طاعته ، واتفق على أن يحكم أراضيه باسمه وفي ظله ، وأن يؤدي له جزية سنوية قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب . وتعهد بمعاونته في حروبه ضد أعدائه ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش ، وسام إليه قلعة جيان رهينة بحسن طاعته . وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وارتضى ابن الأحمر أن يضحي استقلاله مؤقتاً احتفاظاً بأراضيه وحتى تتوطد دعائم إمارته . وعاون النصارى في محاصرة إشبيلية والاستيلاء عليها تنفيذاً لعهد (٦٤٦ هـ) . وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر في تاريخ الأندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم في الدين احتفاظاً بالملك والسلطان .

ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم راعماً ، إنفاذاً لتراث لم يكتمل

الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس كلها تحت لوائه ، وإدماج ما تبقى من ترانها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه ؛ ولم تكن تحلوه رغبة في توسع يجعله إلى الأبد أسيراً لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف ، بل كانت تحلوه قبل كل شيء رغبة في الاستقرار والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة ، ومن ثم كانت مصانعه للنصارى ومهادنتهم في البداية . وكان جرياً على السياسة الأندلسية الماثورة يستمد عون ملوك العدو ويوثق معهم أواصر المودة .

وكان تطور الحوادث في الأندلس ، شرقها وغربها ، وتفاقم محتها ، وتوالى سقوط قواعدها في أيدي العدو ، قد أخذ يحدث صداه قوياً في الضفة الأخرى من البحر ، في المغرب ، حيث أخذ نجم الدولة المرينية يتألق ، وتبلو ضخامة حشودها وقواتها ومواردها ، مشجعة على الالتجاء إليها ، وطلب لإنجادهها وغوثها ، وكانت التجذات الأولى من متطوعى بنى مرين قد أخذت تعبر إلى شبه الجزيرة . وقامت في داخل المغرب حركة قوية للحث على إنجاد الأندلس وتداركها قبل أن يفوت الوقت ، ويتم العدو القوى الإجهاز عليها ، واشترك في هذه الحركة شعراء نظموا القصائد المبكية ، وعلماء أدباء توجهوا برسائلهم البليغة . بيد أنه كان لا بد أن تمضى أعوام أخرى حتى توثق هذه الحركة ثمارها العملية ، ويعبر بنو مرين بقواتهم الحرارة إلى شبه الجزيرة .

وبالرغم من أن ابن الأحمر استطاع غير بعيد أن يصمد لمقاومة القشتاليين ومحاربتهم ، وقد استطاع بالفعل أن يهزمهم حينما غزو أراضيهم في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، فإنه لبث يعانى من عدوانهم وغزواتهم المتوالية . فلما تفاقم أمر هذه الغزوات ، وزحف القشتاليون على غرناطة للمرة الثانية (٦٦٤ هـ) ، ورأى ابن الأحمر أنه عاجز عن رد هذا البلاء ، اضطر أن يتقدم خطوة أخرى ، في سبيل طلب المهادنة والسلام ، وأن يبذل لتحقيق هذه الغاية مزيداً من التضحية ، فعقد مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة في أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) معاهدة صداقة وسلم جديدة ، نزل له بمقتضاها عن عدد كبير من البلاد والحصون ، وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر بمقتضى هذا الصلح لملك قشتالة من البلاد والحصون الإسلامية المسورة ، بلغ مائة وخمسين من بلاد غرب الأندلس .

وقد أدكى هذا الانهيار الفادح لصرح الوطن الأندلسى ، وما أصابه من

فقد معظم قواعده التالدة ، فى نحو ثلاثين عاماً فقط ، لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر ، أبو الطيب صالح بن شريف الرندى ، مريثته الشهيرة فى رثاء الأندلس ، وبكاء قواعدها الذاهبة ، وهى قصيدة ما تزال تحتفظ حتى اليوم برنينها المؤسئ وهذا مطلعها :

لكل شئ إذا ما تم نقصان فلا يُغفر بطيب العيش لإنسان
هى الأمور كما شاهدها دول من سره زمن ساءته أزمان

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه فى توطيد مملكته ، وتنظيم شئونها ، وكان منذ سنة ٦٦٢ هـ قد أعلن البيعة بولاية العهد لمحمد أكبر أولاده ، وبذلك أسبغ على رئاسة بنى نصر صفة الماوية الوراثية . ثم توفى فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر سنة ١٢٧٢ م) عقب جرح أصابه فى معركة ضد جماعة من الخوارج عليه ، وقد قارب الثمانين من عمره .

وكان ابن الأحمر يتمتع بخلال باهرة ، من الشجاعة والإقدام وشغف الجهاد والمقدرة على التنظيم والبراعة السياسية ، وهذا إلى جم البساطة والتواضع ؛ وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمر المسلمين ، وهو اللقب الذى غاب على سلاطين غرناطة فيما بعد . ويصفه ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية فى قواه : « كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السداحة ، والسلامة ، والجمهورية ، جندياً ، شهياً ، ثغرياً أيداً ، عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً للتشف ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد الزم ، موهوب الإقدام ، عظيم التشمير ، مصطنعاً لأهل بيته ، فظاً فى طلب حظه ، حامياً لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه » ، وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير وجعله داراً للملك ، وجلب له الماء ؛ وسكنه بأهله ووالده . ويقول البعض إن تلقب محمد ابن يوسف بابن الأحمر وتلقب أسرته ببني الأحمر ، إنما يرجع إلى إنشائه لحصن الحمراء ذاته . ويقول البعض الآخر إن ذلك يرجع إلى تضارة وجهه واحمرار شعره . وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويدقق فى جمع الأموال والجبايات ، حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين فى الأسبوع ، يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود وينشده الشعراء ؛ وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى رأى .

والتيك كيف يصور النقد الغربي الحديث خلال منشي مملكة غرناطة وظروف مملكته : « كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة في الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جريئاً بعيد الغور ، ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى خبث طبيعته ، بل إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً على مقارعتهم . ففي العصور الوسطى كان قانون الأمم ، وعقد المعاهدات ومجاملات القروسية ، وشروط السلم الشريف ، تفهم بطريقة ناقصة ، وكثيراً ما تنهك بعمد ؛ وكانت معظم نقائص هذا الأمير ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة ، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء ، مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير ، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سيطرته . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة هزعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فتزايد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة وصفات هي أثنى من الثروة للدولة منحلة : النشاط والاقتصاد والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المخزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببعض النصرانية . وكان الاندفاع السياسي لهذه الجماعات المنفية المضطهدة في حماية الجبال التي تظل ملاذها الأخير ، هو الذي عاون في حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحتنها الغامرة » (١) .

ولما توفي محمد بن الأحمر سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) كانت مملكة غرناطة الصغيرة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بني الأحمر الفتي على أسس ثابتة ، وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر في مملكة غرناطة زعماء خوارج ينازعون بني نصر زعامتهم ، ولذا لم نشهد في هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرانية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية جديدة ، وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الزاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة وأجلد أن تسهر على تراث الإسلام في الأندلس زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى (٢) .

(١) راجع Scott : The Moorish Empire, in Europe V.II. p. 433

(٢) رجعتنا في هذا الفصل إلى تاريخ ابن خلدون ، وإلى كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، واللمعة البدرية في تاريخ الدولة النصرانية لابن الخطيب ، وإلى نفع الطيب وأزهار الرياض للمقري . وراجع في نهوض ابن الأحمر وقصة كفاحه كتابي « عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس » ج ٢ ص ١٤ - ١٦ ، وص ٤٣٠ - ٤٣٦ .

الكتاب الثالث

تراجم أندلسية

- ٢ -

من أعلام التفكير
في الغرب الإسلامي

عباس بن فرناس

عبقريّة علميّة أدبيّة فذة

(نحو ١٩٠ - ٢٦٠ هـ) ، (٨٠٥ - ٨٧٣ م)

يحفل تاريخ العلوم الإسلاميّة بمختلف العبقريات ، التي استطاعت خلال ظلمات العصور الوسطى ، أن تحقّق أروع الغزوات ، في ميادين العلوم المحضة ، كالطب والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات والحيوان وغيرها ، وأن تمهد باكتشافاتها العظيمة ، الطريق للأجيال اللاحقة من علماء العصر الحديث .

وربما كان ابن فرناس القرطبي أعجب هذه العبقريات العلميّة الإسلاميّة . ذلك أنّه لم يقتصر على معالجة البحوث العلميّة التي كانت سائدة في عصره ، ولكنه جنح إلى أنواع فريدة لم يفكر فيها إنسان من قبله ، وامتاز بصفات عديدة ، قلما تجتمع في شخصيّة علميّة أخرى . فهو فيلسوف ، وعالم رياضي وطبيعي ، وكيميائي وفلكي من الطراز الأول ، وهو موسيقي بارع ، وهو أديب وشاعر فذ ، وهو فوق كل ذلك أول عالم حاول أن يغزو الجو وأن يخترع أداة للطيران ،

وهو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس . وأصله من كورة تاكرت (رُنْدَة) بجنوب الأندلس في شرق المثلث الإسباني ، وينتمي إلى أسرة من البربر ، إلى ذلك الجنس الذكي النابه ، الذي اعتنق الإسلام والعروبة في عصر مبكر ، واضطلع بأعظم قسط في فتح الأندلس ، وفي الغزوات الإسلاميّة الكبرى فيها وراء البرنيه ، ثم بعد ذلك في حماية الأندلس وامتداد حياتها عصوراً ، وساهم أخيراً بقسط بارز في تراثها الحضاري العظيم .

ونشأ ابن فرناس بقرطبة في أواخر القرن الثاني من الهجرة (أواخر القرن الثامن الميلادي) ودرس بها ، وبرع منذ شبابه في الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك ، وبرع في نفس الوقت في الشعر والأدب والموسيقى ، وظهر منذ أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس المتوفى سنة ٢٠٦ هـ (٨٣٢ م) . وعاصر من بعد ولده عبد الرحمن بن الحكم ، ثم حفيده محمد بن عبد الرحمن ، وحظي لدى

هؤلاء الأمراء الثلاثة ، وأنحفهم بمدائحهم وأدهشهم بمخترعاته ، وتوفى في أواخر أيام الأمير محمد وقد أربى على الثمانين .

* * *

وعرف ابن فرناس أولاً ببراعته في الحكمة والشعر والأدب ، وانتظم بين أعلام العلماء والشعراء الذين يضمهم بلاط الحكم بن هشام . بيد أنه ما لبث أن ظهر في ميدان آخر ، هو ميدان العلوم البحتة ، وهو الميدان الحقيقي الذي تفتحت فيه مواهبه المدهشة ، ذلك أنه انكب على معالجة البحوث الطبيعية والكيميائية والفلكية ، ولم يقتصر في معالجتها مثل كثير من أسلافه على النواحي النظرية والتجريبية ، لكنه اندفع إلى ميدانها العملي ، وانتهت تجاربه في ميدان الكيمياء الصناعية إلى اختراع صنع الزجاج من الرمال والحجارة ، فكان لظفروه بهذا الاكتشاف دوى عظيم ، وكانت له فيما بعد نتائج عملية باهرة ، وطارت شهرته في سائر أنحاء الأندلس . ثم عكف ابن فرناس في نفس الوقت على الدراسات والبحوث الرياضية والفلكية ، وانتهى فيها إلى اختراع عدد من الآلات الفلكية الدقيقة ، وقد ذكر لنا منها مؤرخ العصر آتين ، يصفهما لنا على النحو الآتي :

الأولى واسمها « ذات الحلتى »^(١) ، وقد رفعها ابن فرناس إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) مرفقة بهذه الأبيات التي تعرب عن وظيفتها وفائدتها :

أعيا الفلاسفة الجهابذ دوى	قد تم ما حملتنى من آلة
لم ليشقل بجداول القانون	لو كان بطليموس ألهم صنعة
بعث إليه بنورها الموزون	فإذا رآته الشمس في آفاقها
دون العيون بكل طالع حين	ومنازل القمر التي حجبت معاً
بالليل في ظلماتهن الجون	يبدون فيها بالنهار كما بدت

والثانية هي آلة لمقياس الزمن ، سماها ابن فرناس « بالمقاته » ، ورفعها إلى

(١) وهي عبارة عن عدة حلقات متداخلة ، في وسطها كرة معلقة تمثل حركة الكواكب السماوية وهي التي تسمى في اللغة الحديثة Sphère Armillaire .

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) ، وقد نقش فيها
الآيات الآتية :

ألا إنني للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس النهار ولم تنس كواكب ليل حالك الظلمات
ييمن إمام المسلمين محمد تجملت عن الأوقات كل صلاة

وتجلت معارفه الرياضية والهندسية في كثير من الاختراعات والتحسينات
الفنية بالقصر وحدائقه ، على النحو الذي يصنفه المؤرخ المعاصر فيما يلي : « كان
عباس بن فرناس الحكيم الشاعر لا يزال من تفوه قريحته الحكيمة ، يخترع الطرف
الملوكية ونوادير الطرف العجيبة ذات الصور الجميلة والحركات البديعة ، يبلولها
وإفراغها المياه منها في البرك وغيرها ، ويستعنى في إقامة أشخاصها ومعالجة
هندمتها بالصبغ عريف التجارين بالقصر » .

* * *

وبرع ابن فرناس في الموسيقى وصياغة الألحان ، وفي الغناء ، وكان الأمير
محمد بن عبد الرحمن يستدعيه إلى مجالس أنسه ، فكان يقدم إليه أناشيد من رقيق
نظمه ويغنيها بحضرته . وقد أورد لنا المؤرخ من ذلك مقطوعتين : الأولى مطلعها :
الجهل ليل ليس فيه نور والعلم فجر نوره مشهور
والثانية قطعة من أربعة أبيات كتبها ابن فرناس بالذهب على تفاحة محجولة
رفع بها إلى الأمير وجاء فيها :

تفاحة مصفرة البعض نحو فيها من ألم العض
أمنها ذاك وكسيتها حسناً بذنا من ذنوب محض
وقلت فيها الحق من بعد ذا وما لقول الحق من نقض
محمد أكرم مستخلف من خلفاء الله في الأرض

قال المؤرخ « فاستملح الأمير التفاحة واستحسن الأبيات ، فأمر أن يغني
بها ، وأمر لعباس بأربعماية دينار بعدد مفاصله ، وقال لو زادها لزدناه » .

على أن أشهر ما اقترن باسم ابن فرناس ، وهي محاولته اختراع آلة يستطيع
الإنسان أن يطير بها في الجو ، وقد انتهى بالفعل إلى القيام بتجربته الخطيرة على

مشهد من أهل قرطبة ، « فكسى نفسه الريش على سرق الحرير ، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره » ، ثم صعد إلى ربوة عالية بناحية الرصافة ، واندفع منها في الهواء طائراً « فخلق فيه حتى وقع في مكان مطاره على مسافة بعيدة » ؛ واشتهر ابن فرناس بهذه التجربة المدهشة التي ملأت مشاهديه من أهل قرطبة روعاً وإعجاباً ، وكان ذكره في كل مكان ، حتى قال فيه مؤمن بن سعيد أكبر شعراء العصر :

يطم على العنقاء في طبرانها إذا ما كسى بجثمانه ريش قشعهم

ومن الغريب أن ابن فرناس على تفرده في ميادين الاختراعات العلمية على هذا النحو المدهش ، كان يحتل بين شعراء العصر مكانة ممتازة ، وكان ، إلى جانب معاصريه ، الشعارين الكبارين مؤمن بن سعيد ، وأبي عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، من خواص شعراء الأمير محمد ، وله في مديح الأمير ، وفي الإشادة بحوادث العصر قصائد رنانة ، ومنها قصيدته الشهيرة في موقعة وادي سلبط التي انتصر فيها الأمير محمد على ثوار طليطلة وحلفائهم النصاري الإسبان (٢٤٠ هـ - ٨٥٤ م) وكان من شهودها إلى جانب الأمير وهذا مطلعها :

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف لهوم الفلا عبل القبائل ملتف
إذا أومضت فيه الصوارم خلتها بروقاً تراءى في الغمام وتستخفي

* * *

على أن أعجب صفحة في حياة ابن فرناس ، وأكثرها إبلاماً هي محاكمته الشهيرة بتهمة الزندقة والكفر ، فقد أثار هذا العلامة الفذ ببحوثه واختراعاته العلمية الفريدة ، حسد الفقهاء وشكوكهم ، كما أثارت بحوثه الكيميائية والفلكية بداره بالربض الغرى من قرطبة ثم محاولته للطيران ، ظنون الكافة ودهشتهم ، واعتقادهم أن الرجل مارق ، يتمتع بقوى شيطانية خارقة ، وقد أثمرت سعاية خصومه من الفقهاء وغيرهم في النهاية إلى اتهامه بالكفر والزندقة ، وإتيان الخوارق الشيطانية ، فاعتقل وقدم للمحاكمة ، أمام قاضى قرطبة سليمان بن أسود الغافقى ، وعقدت المحاكمة بالمسجد الجامع ، وهرع الناس لشهودها ، واجتمع حشد من العامة للشهود عليه . وقد نقل إلينا المؤرخ المعاصر ، بعض أقوال أولئك الشهود ،

فمنهم من قال : سمعت ابن فرناس يقول : « مفاعيل مفاعيل » ، ومنهم من قال : « رأيت الدم تغور من قناة داره ليلة ينير » إلى غير ذلك مما يصفه المؤرخ « بأحوقات من غتراء شهود عليه ذوى جهل وقدامة » وكان القاضي سليمان ابن أسود بالرغم من صرامته ، ذهنًا مستنيرًا ، فلم ترقه تلك الترهات ، ولم يجد فيها طائلا ، فشاور جماعة الفقهاء ، فيما قيد منها ، ولم يجد سيلا إلى مؤاخذه ابن فرناس ، وقضى ببراءته وإطلاق سراحه .

وهكذا نجا ابن فرناس من محنة كانت تهدد حريته وحياته ، ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن هذا العصر الذى بدت فيه طوابع الحركة العلمية الكبرى فى الأندلس ، كانت تهب فيه ريح المطاردة الفكرية من آن لآخر ، وقد اتهم فيه إلى جانب ابن فرناس ، عدة آخرون من العلماء والفقهاء منهم صديقه وزميله يحيى الغزال الحياىى الشاعر والفيلسوف ، ومنهم بقى بن مخلد عميد فقهاء العصر ، وقد اتهمه زملاؤه بالزندقة ، وحاولوا الإيقاع به ، ولم يسعفه سوى الأمير محمد ذاته ، حيث عقد له مجلساً لمناظرة متهميه ، وانتهى بدحض أقوالهم وإلزامهم الحجة . وكانت هذه الإتهامات من خواص العصر ، ومن ورائها الأحقاد المنافسات الشخصية ، ومن ورائها أحياناً بواعث السياسة (١) .

(١) استقيت معظم ما ورد فى هذا الفصل من الوقائع والتفاصيل ، من قطعة مخطوطة من تاريخ ابن حيان حصلت على صورتها من مكتبة جامع القرويين بفاس .

ابن حيان مؤرخ الأندلس

وكتابه المقتبس

(٣٧٧ - ٤٦٩ هـ : ٩٨٧ - ١٠٧٦ م)

يعتبر أبو مروان ابن حيان ، بين مؤرخي الأندلس ، أصدقهم رواية ، وأبلغهم أسلوباً وأبرعهم نقداً . وقد كنا حتى ربيع القرن الأخير ، ندرس شخصية ابن حيان ، وخواص منهجه التاريخي ، في معظم الأحيان ، مما ينقله إلينا المؤرخون المعاصرون أو المتأخرون من تاريخه ، من شذور وفصول مختلفة ، ولكن ما أسفرت عنه البحوث الأخيرة من العثور على عدة قطع مخطوطة من تاريخه الكبير ، يضع أمامنا مادة غزيرة من تراث هذا المؤرخ البارع ، نستطيع على ضوئها أن نقدر أهمية هذا التراث بالنسبة لتاريخ الأندلس بصفة عامة ، وبالنسبة لتاريخ العصر الذي عاش فيه ابن حيان ، وهو عصر انهيار الخلافة ، وعصر الطوائف بصفة خاصة ، ونستطيع من جهة أخرى ، أن ندرس بصورة أفضل خواص منهجه التاريخي وأسلوبه النقدي .

وينتمي ابن حيان إلى أسرة ناهية من الموالي . وهو أبو مروان حيان بن خلف ابن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان . وكان جده الكبير حيان مولى للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، أو عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، ومؤسس دولة بني أمية بهاء .

وولد ابن حيان في قرطبة في سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) ودرس بها . وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبي عامر . وكانت قرطبة قد غدت يومئذ أعظم مركز للدراسات الممتازة بالأندلس ، وأضحت جامعها الشهيرة ، منذ أواخر عهد الحكم المستنصر ، وأوائل عهد المنصور ، أعظم الجامعات الأندلسية . ودرس ابن حيان الحديث والأدب واللغة ، وكان بين أساتذته أبو جعفر عمر بن نايل النحوي صاحب أبي على القالي ، وأبو العلاء صاعد البغدادي نزيل قرطبة ، وأخذ عنه كتاب الفصوص .

وبرع ابن حيان في الأدب والرواية حتى غدا من أعلامها ، وخاصة تحقيقها ، وكانت نشأته الأرستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع ، والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية . وشهد ابن حيان في شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم انهيارها ، وقيام دول الطوائف في بداية القرن الخامس الهجري . أو الحادى عشر الميلادى ، ولا ريب أن هذه الأحداث المثيرة ، التى مزقت وحدة الوطن الأندلسى ، قد أذكت مخيلة ابن حيان وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية ، التى نراها ماثلة في معظم ما كتبه عن حوادث عصره .

وقد سنحت لابن حيان ، وهو معاصر لدول الطوائف ، ومدون لأحداثها ، فرصة لكى يدرس أحوال هذه الدويلات عن كثب . فقد ولى الوزارة لبني جهور سادة قرطبة ، وحكامها عن طريق نظام « الجماعة » أو الشورى . وكان بالأخص من معاونى أبى الوليد محمد بن جهور ، ولد أبى الحزم بن جهور مؤسس حكومة الشورى ، ثم وزر من بعده لولده عبد الملك بن جهور .

ولسنا نعرف إن كان ابن حيان قد استمر فى منصبه فى الوزارة حتى سقطت دولة بنى جهور ، على أثر افتتاح المعتمد بن عباد لقرطبة فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) ، واستأثر بنو عباد بهذا الفتح دون بنى ذى النون أصحاب طليطاة ، وقد كانوا ييغون الاستيلاء على قرطبة ، فسبقهم بنو عباد إلى انتزاعها . ولكننا نعرف أن ابن حيان ، قد وجه على أثر هذا الفتح إلى المعتمد بن عباد رسالة تهنئة حارة ، نقلها إلينا ابن بسام فى الذخيرة ، وفيها يحمل ابن حيان على المأمون ابن ذى النون ، فى عبارات ملتهبة لاذعة .

وهنا نقف قليلا لنسجل على ابن حيان موقف تناقض مؤلم ، ذلك أنه حسب ما ينقل إلينا ابن بسام ، يهدى مؤلفه التاريخى العظيم ، وهو الذى لم تصل إلينا غصوله الأولى ، فى مقدمته ، إلى المأمون بن ذى النون ، ويصفه « بالأمير الموثل الإمارة ، ذى المجددين ، الكريم الطرفين » . وبالرغم من أن ابن بسام يشيد بمجهود ابن حيان التاريخى ، وينقل عنه فى كتابه « الذخيرة » شلورا ضافية ، ويستشهد به فى كثير من المواطن ، فإنه ينتهز هذه الفرصة للحملة على ابن حيان

لمواقفه المتناقضة من أمراء الطوائف ، وتردده في ذكرهم بن المديح والذم . وفي رأيه أن هذا التاريخ ، بالرغم مما لقيه لدى بعض أولئك الأمراء من ترحاب وتقدير ، وما أجزلوه عنه من صلات ، فإن ابن حيان « قد أخطأ التوفيق وما أصاب » ، « إذ جاءت معظم أقواله كالسهام المرسلة ، من قدح في الأحساب والأعراض ، وطمس للمعالم والأنوار » ، وسوف نرى إلى حد يمكننا الاعتداد بأقوال ابن بسام في الحكم على مجهود ابن حيان .

ذلك أن مجهود ابن حيان التاريخي ، يحظى بالعكس بأعظم تقدير ، ويبدو هذا المجهود في أروع مظاهره في كتاب ابن حيان الجامع « المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس في أخبار أهل الأندلس » ، وهو تاريخ الأندلس حتى عصره ، أى عصر الطوائف . وقد كنا إلى ما قبل ثلاثين عاماً لا نعرف من هذا المؤلف الضخم سوى أجزاء يسيرة . ولكننا اليوم ، وقد كشفت البحوث الحديثة عن عدة أجزاء كبيرة من هذا المؤلف الجامع ، وهو ما سنتحدث عنه بعد ، نستطيع أن نكون فكرة واضحة عن كتاب « المقتبس » ، وهو بلا ريب أقيم ما في تراث ابن حيان التاريخي ، بل هو إلى جانب مؤلفات الرازي ، أقيم ما انتهى إلينا من تواريخ الأندلس في عصر الإمارة والخلافة . وقد اشتهر ابن حيان في عصره بصدق الرواية ، وبلاغة الأسلوب ، ونحن نشعر على ضوء معاييرنا المعاصرة ، أن ابن حيان يقدم إلينا أقيم الروايات وأنفسها ، وأفضلها بالتعليقات النقدية ، وأن أسلوبه التاريخي يتسم بروح علمي وتقدي بارز . وفي رأينا أن ابن حيان يضارع من مؤرخي المشاركة المسلمين ، السعودي وابن الأثير ، وأنه يجمع في أسلوبه القوى بين بلاغة العرض التي يمتاز بها السعودي ، وبين روح التحقيق والنقد التي يمتاز بها ابن الأثير .

ويمكننا من جهة أخرى أن نشبه ابن حيان ، من حيث بلاغة أسلوبه ، وقوة تعبيره ، بماكولى أو جيبون من مؤرخي العصر الحديث .

ومن أهم ما يمتاز به ابن حيان ، بعد نظره الصادق ، في تحليل الحوادث ونتائجها البعيدة المدى . ومن ألمع ما عرف عنه من ذلك ، تحليله لحادث سقوط يربشر في أيدي الفرنج (النصارى النورمان) في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) ، وما أصاب المسلمين خلال سقوطه من أنواع العدوان الشنيعة ، وما يربته

ابن حيان على تفرق كلمة المسلمين في الثغر الأعلى من النتائج البعيدة ، التي سوف تنتهي بذهاب الثغر وانهيار سلطان المسلمين . وقد أورد لنا ابن بسام في الذخيرة هذه النبذة المليئة بالنذير :

ومما جاء فيها : « وقد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عن قبلهم من آثاره ، ولا شك عند أولى الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك ، والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا في القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك ما لحق الذى قبله ، فثل دهرنا هذا — لا قدس — بهم الشبه ، ما أن يباهى بعرجه فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضماثرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا في سبيل الرشيد بأتقياء ، ولا على معالى الغنى بأقوياء ، نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل ، على فرط جهلهم ، اعتزازهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرىهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراض دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بهم » .

ويرجع ابن حيان بالأخص إلى أسلافه من مؤرخى الأندلس ، ولا سيما أحمد ابن موسى الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) صاحب كتابي « أخبار ملوك الأندلس » و « الاستيعاب في أنساب أهل الأندلس » وهما من المؤلفات التي لم تصل إلينا ، وإلى ولده عيسى بن أحمد الرازى ، وإلى ابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) ، ومعاوية بن هشام الشبسى من كتاب أو كتب لم يذكرها ، كما ينقل إلينا عن بعض أكابر معاصريه ، مثل ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) وابن عبد البر النيرى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) .

ويعنى ابن حيان عناية خاصة بإيراد الوثائق الرسمية الهامة ، وهو يورد لنا منها عدة لا نجد لها في أى مصدر آخر من مصادر التاريخ الأندلسى ، مثل كتاب

الحكّم بن هشام عن ثورة الربض ، وكتاب الناصر في الحملة على ابن مسرة وتعاليمه الإلحادية ، وكتابه عن موقعة الخندق ، ووثائق كثيرة أخرى عن حوادث ومناسبات مختلفة ، تلقى كثيراً من الضياء على سير الحوادث وروح العصر ، وهي وثائق لم نقف عليها إلا في تراث ابن حيان المخطوط .

وفضلاً عن ذلك فإن لاهتمام ابن حيان بنقل الوثائق الأميرية والخلافية أهمية مزدوجة . وذلك أن هذه الوثائق فضلاً عما تلقى من الضياء على أحداث العصر ، وعلى سياسة الإمارة أو الخلافة ، فإنها في نفس الوقت تقدم إلينا نماذج من النثر الفنى ، وأساليب الكتابة الرسمية والدبلوماسية ، في تلك العصور ، وهو ما يعنى مؤرخ الآداب أن يقف عليه وأن يدرسه .

أما ما ينسبه ابن بسام إلى ما ورد في روايات ابن حيان المعاصرة عن رجالات عهد الطوائف من المديح والذم ، ومن ميل مع الهوى ، ومجانبة للحق ، فمسألة ترجع إلى روح العصر ذاته .

ولقد عاش ابن بسام في أعقاب عهد الطوائف وفي أوائل عهد المرابطين ، بعد أن غاضت قصور الطوائف ، وغاضت معها تلك الحلقات الأدبية الزاهرة التي امتازت بها تلك القصور ، ولم يمارس ابن بسام تلك الصلات الشخصية التي كان يمارسها كتاب عصر الطوائف مع أمراء عصرهم ، ولم ينضو تحت حماية أحد من الأكابر ، ولم يلتحق بخدمة أحد منهم . أما في عصر الطوائف فقد كان كل بلاط يضم جمهرة من الكتاب والشعراء تسطع حوله ، وكان كل كاتب أو شاعر ينضو تحت لواء أمير من الأمراء ، وكان تنقل الكتاب والشعراء بين مختلف القصور من الأمور الذائعة في ذلك العصر . ولم يشذ ابن حيان عن هذه القاعدة ، فهو قد خدم الدولة الجهورية ، وهو قد اتصل بأكثر من أمير من أمراء عصره ، وفي مقدمتهم بنو عباد ، وبنو ذى النون ، وهو قد عاصر كثيراً من الأحداث التي كانت تقع بين مختلف القصور والأمراء ، وإذن فقد كان من الطبيعي أن يتأثر ابن حيان بمختلف المؤثرات الشخصية والعاطفية ، المترتبة على تلك الصلات وتلك الظروف . ولم يكن ذلك شأن ابن حيان وحده ، وإنما كان شأن معظم الكتاب والرواة الذين عاصروا الطوائف ، وخدموا قصورها ، واتصلوا بأمرائها . وفي رأينا أن هذه النزعة العاطفية التي تسربت

إلى بعض ما كتبه ابن حيان عن أمراء الطوائف ، لا تنتقص كثيراً من قيمة ذلك التراث التاريخي النفيس الذى خلفه لنا .

على أن ابن حيان ينوه بما كانت عليه دول الطوائف من الفساد والانحلال ، وبما كان يلتزمه الفقهاء إزاء ذلك من موقف سلبي يكشف عن ملقهم ونفاقهم . وهو يجعل ذلك الموقف فى تلك الفقرة البليغة القوية :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح ، فيهم الأمراء والفقهاء ، قل ما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهما لدينا بما لا كفاية لهم ، ولا مخلص منه . فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن منهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أثمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتقية فى صدقهم » .

ونحن نعرف أن ابن حيان قد كتب غير « المقتبس » مؤلفين آخرين هما « المتين » وهو تاريخ للأندلس تبالغ بعض الروايات فى ضخامته ، وتصفه بأنه يقع فى ستين جزءاً ، وكتاب « المآثر العامرية » ، أو « أخبار الدولة العامرية » ، وهو أيضاً مؤلف ضخيم ، يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور بن أبى عامر ، وتفاصيل غزواته ، ولو وصل إلينا هذا الكتاب أو بعض أجزائه لكان لدينا عن المنصور أعظم الروايات والوثائق ، لأن ابن حيان نشأ فى أواخر عهد المنصور ، وكان أبوه ضمن وزراء المنصور ، ولكن لم يصلنا مع الأسف الشديد شيء منه . ولابن حيان فوق ذلك كتاب « البطشة الكبرى » ، وهو كتاب يتضمن تفاصيل سقوط دولة بنى جهور أمراء قرطبة الذين خدمهم ابن حيان . ولم يصلنا شيء من هذه المؤلفات الأخيرة غير بعض الشلور القليلة التى نقلها الكتاب المتأخرون ، وقد كتب ابن حيان رسائل أخرى منها كتاب معرفة التابعين ، وهو فيما يبدو فصل من المقتبس ، وأخبار القضاة ، والجامع للمآثر بنى خطاب . ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذه الرسائل أكثر من عناوينها .

وعاش ابن حيان أكثر من تسعين عاماً ، وتوفى فى اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٤٦٩ هـ (٣١ أكتوبر سنة ١٠٧٦ م) . ودفن بمقبرة

الربض في جنوب شرقي قرطبة ، على مقربة من نهر الوادي الكبير ، وكانت
مثنى العظماء والكبراء .

* * *

هذا عن المؤرخ ، وأما عن مؤلفه العظيم « المقتبس » ، وعما انتهى إلينا منه ،
فإننا نستطيع أن نقدم عنه المعلومات الآتية ، وكلها عن دراسة شخصية لكل
ما وصل إلينا من كتاب « المقتبس » .

لقد انتهت إلينا حتى اليوم من المقتبس ، عدة قطع مخطوطة نحاول التعريف
بها على النحو الآتي :

(١) القطعة الأولى ، وقد وقف عليها المرحوم الأستاذ ليثي بروفنسال في
خزانة القرويين بفاس ، وذلك قبيل الحرب العالمية الثانية ، وحملها معه بقصد السعي
إلى نشرها . وهي تضم نحواً من ستين لوحة كبيرة وتحتوي على حوادث الأندلس
من سنة ١٨٨ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ ، وبها معلومات هامة فريدة عن يحيى الغزال
الجياي ، وابن فرناس ، وغيرهما من شخصيات العصر ، لا توجد في غيرها ،
وقد تفضل الأستاذ بروفنسال حين وجوده بالقاهرة في سنة ١٩٣٧ ، بإطلاعي
على هذه القطعة ، وانتفعت بها انتفاعاً كبيراً في كتابي دولة الإسلام في الأندلس ،
بيد أنه من الأسف أن هذه القطعة قد ضاعت بعد ذلك ، ولم توجد بين أوراق
الأستاذ بروفنسال بعد وفاته .

(٢) القطعة الثانية ، وهي تلي القطعة الأولى من حيث الترتيب التاريخي ،
وهي تحفظ حتى اليوم بخزانة جامع القرويين ، وهي قطعة كبيرة تحتوي على
٩٥ لوحة كبيرة أي ١٩٠ صفحة ، ولكنها بالية جداً ، ومتآكلة صعبة القراءة
والتحقيق . وهي تتضمن السفر الثاني من « المقتبس » ، وتحتوي على تاريخ
الأندلس من سنة ٢٣٣ هـ إلى سنة ٢٦٧ هـ ، وهي تنتمي للجزء السابق ، وهي
تتعلق بالأخص بحوادث عصر الحكم بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم ، والأمير
محمد بن عبد الرحمن ، وتورد لنا تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وعن
أحواله في هذا العصر ، وعن الصقالية والوزراء والعمال ، ويقوم الآن على نشر
هذه القطعة الدكتور محمود علي مكى ، وكيل معهد الدراسات الإسلامية السابق
بمليد ، وسوف تصدر عما قريب .

وقد انتفعت بهذه القطعة أعظم انتفاع في كتابي « دولة الإسلام في الأندلس »
في طبعته الثالثة (سنة ١٩٦١) والرابعة (سنة ١٩٦٩) .

(٣) القطعة الثالثة ، وهي توجد بالمكتبة البودلية بأكسفورد ، وتتكون من
١٠٧ لوحة ، وتتضمن في معظمها حوادث عهد الأمير عبد الله بن محمد ،
وأخبار ثوار الأندلس خلال الفترة الكبرى من سنة ٢٧٦ هـ إلى نهاية عهد الأمير
عبد الله في سنة ٣٠٠ هـ . وقد قام بنشر هذه القطعة المرحوم الأب الأوغسطيني
ملشور أنتونيا ، وصدرت في باريس في سنة ١٩٣٧ .

(٤) القطعة الرابعة ، وهي قطعة صغيرة تتكون من نحو ستين ورقة من
القطع الصغير ، وتحتوي على أحداث أربعة أعوام من حكم الخليفة المستنصر بالله
هي أعوام ٣٦٢ — ٣٦٥ هـ ، وتحتوي على معلومات هامة عن الشؤون الإدارية
في هذا العصر . وقد قام باستنساخ هذه القطعة المرحوم العلامة فرنسيسكو كوديرا
في بعثته في المغرب والجزائر سنة ١٨٧٢ ، من إحدى المكتبات الخاصة بمدينة
قسنطينة بالجزائر ، وأودعت بعد ذلك مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وقد
قام أخيراً بتحقيقها ونشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجى ، وصدرت في بيروت
سنة ١٩٦٥ .

* * *

والآن نتحدث عن أعظم اكتشاف من نوعه لكتاب « المقتبس » ، وهو
العثور على السفر الخامس منه ، المتعلق بعصر عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم
من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ نحو أربعة أعوام بين موجودات
الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيج لنا الاطلاع عليها ،
ودراسة محتوياتها عقب اكتشافها مباشرة . وهي تمثل اليوم بين نوادر ذخائر
المكتبة الملكية .

وهي عبارة عن جزء ضخيم من كتاب « المقتبس » يقع في مائة وخمسة
وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة في كل صفحة منها ٢٣ سطراً ، وفي
كل سطر نحو ١٤ كلمة . ولا يحمل المخطوط عنواناً ، لأنه ناقص من أوله ،

واكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخي ، وأسلوبه النقدي ، ومصادره التي يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة ، أنه أمام جزء كبير من المقتبس . على أننا عثرنا إلى جانب ذلك ، فيما قرأنا من حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عن موقعة الخندق ، بنص يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، وهو قوله خلال حديثه عن قتل من المسلمين في الموقعة : « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والمحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدنا حيان ، الأمثل طريقة ، أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

والخطوط قديم ، وبه خروم كثيرة ، ولكنه رمم اليوم وأصبح في حالة جيدة من الحفظ ، وهو مكتوب بخط أندلسي واضح ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته ، وربما ترجع كتابته إلى القرن التاسع أو العاشر الهجري ، وقد كتب على جلده الفني (سنة ١٠٦٩) ، ولكننا لا نعتقد أن ذلك هو تاريخ كتابته لأنه يبدو أقدم من ذلك .

ويضم هذا المجلد الضخم « السفر الخامس » من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسبما ورد في ختامه . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر ، ومن ثم كانت أهميته البالغة . بيد أنه مع ضخامته ، لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠ وينتهي في سنة ٣٥٠ هـ . بل تنقص هذا « السفر الخامس » من المقتبس في البداية نحو ستين صفحة ، ومن ثم فإن المخطوط بعد أن تحدثنا عن أبناء الناصر ، وكيفية تربيتهم ، وعن أثر الناصر في حماية « السنة » والقضاء على فتنة ابن مسرة ، ويورد لنا كتاب الناصر عن هذه الفتنة ، وأخبار بعض غزوات الناصر ضد الثوار — بعد ذلك كله يبدأ المخطوط بحوادث سنة سبع وثلاثمائة أى بعد جلوس الناصر بسبعة أعوام ، وإن كان يتناول بعد ذلك حوادث وقعت في أعوام سابقة ، وينتهي بحوادث سنة ٣٣٠ هـ أعني قبل وفاة الناصر بعشرين عاماً ، وإن كان مع ذلك يورد في بعض المواضع حوادث وقعت بعد ذلك حتى سنة أربعين وثلاثمائة ، ومعنى ذلك أن هذا السفر الضخم من كتاب « المقتبس » لا يغطي من عهد الناصر سوى النصف .

وفيما يلي بعض محتويات المخطوط الهامة نثبتها بإيجاز مرتبة وفق ورودها .

وذلك لكي نستطيع أن نكون فكرة واضحة عن أهمية هذه الذخيرة الجديدة من ذخائر التاريخ الأندلسي .

ذكر أثر الخليفة الناصر لدين الله في حماية السنة وإنكار البدعة ، ويلحق بذلك بيان الناصر عن فتنة ابن مسرة — غزاة المتلون — الوزراء والعمال — مولد ولي العهد الحكم — الشعراء في عهد الناصر — خبر سلم المارق عمر بن حفصون — خبر مهلك عمر بن حفصون — غزوة الناصر إلى كورة البيرة — وقعة بقرية — غزوة ببلونة — غزوة إشتين — غزوة مدينة ببشتر — فتح مدينة ببشتر وكتاب الناصر عن ذلك — الشدة — مشاهير العمال — ذكر الأشراف الحسينيين المتآمرين بالعدوة — خبر فتح مدينة سبتة — خبر الأسطول — الحريق العظيم بسوق قرطبة — غزوة الخندق وكتاب الناصر عنها — خبر وشقة — المشروع في سلم الطاغية رومير — خير العدوة — الوزراء والعمال . وآخر المخطوط في حوادث سنة ثلاثين وثلاثمائة — القحط والاستسقاء — الوزراء والعمال . هذا مجمل ما يحتويه « السفر الخامس » من المقتبس . وقد كتبت الموضوعات المتقدمة بإفاضة لا مزيد عليها ، وبأسلوب نقدي بارع ، هو الذي يتميز به ابن حيان في كل ما يكتب ، وتخللها عشرات الوثائق والنصوص .

* * *

هذا ما انتهى إلينا حتى اليوم من أجزاء المقتبس ، وهو في ذاته مقدار عظيم من محتويات هذا المؤلف . بيد أنه لم ينته إلينا حتى اليوم شيء منه من بقية عصر الناصر وإنشائه للزهراء ، وعن عصر المنصور ، وإنهيار الخلافة الأموية ، وعصر الطوائف ، وهي التي عاصرها ابن حيان أو عاش قريباً منها . ومن المحقق أن ابن حيان قد كتب ما كتبه من تاريخ هذه الفترة بإفاضة لا مزيد عليها . فإذا تذكرنا إلى جانب ذلك ما نقله المؤرخون المعاصرون عن ابن حيان مثل ابن بسم وغيره ، من الفصول والشنور الكثيرة عن مختلف العهود والأشخاص ، وما نقله المتأخرون مثل المقرئ وغيره ، كذلك من « شنور » لا نهاية لها ، أدركنا ضخامة هذا المؤلف العظيم ، أعنى كتاب « المقتبس » ، واستطعنا أن نقدر أنه كان يتألف من خمسة أو ستة مجلدات كبيرة على الأقل ، فهو في الحقيقة موسوعة ضخمة عن تاريخ الأندلس ورجالها حتى منتصف القرن الخامس الهجري .

وأما عن منهج ابن حيان التاريخي فهو مزيج من طريقة الفصول وطريقة الحوليات ، ويتخلل ذلك في أحيان كثيرة الحديث عن الشخصيات الهامة ، وطريقة الحوليات تتعلق بالأخص بالغزوات والحوادث العسكرية ، وابن حيان أبرع مؤرخ أندلسي في تصوير الشخصيات ، وإبراز فضائلها أو نقائصها ، وهو في ذلك قوى التعبير ، على نحو ما نعهده في كتابات مؤرخ حديث مثل جيبون . وهو يلجأ إلى السجع في أحيان كثيرة ، ولكنه يجمع المعاني والفكر ، الذي لا يخل بالعرض التاريخي أو النقدي المقصود ، كما أنه يلجأ إلى المحسنات البديعية دون أن ينتقص ذلك من بلاغة التعبير ووضوحه .

ولم ينسج أحد من مؤرخي الأندلس اللاحقين على منوال ابن حيان ، ولم يضطلع أحد منهم بكتابة موسوعة مثل موسوعته ، ولكننا نستطيع أن نذكر من بين مؤرخي الأندلس المتأخرين مؤرخاً عظيماً ، يمكن أن يشبهه بابن حيان في أسلوبه القوى النقدي ، ذلك المؤرخ هو الوزير ابن الخطيب . وإذا كان ابن الخطيب لم يصل في كتابة التاريخ من ناحية المنهج الفني ، إلى المستوى الذي بلغه ابن حيان — فإنه يمكن أن يقال في نفس الوقت إن أسلوبه التاريخي ، سواء من حيث قوة العرض ، أو بلاغة التعبير ، لا يقل عن أسلوب ابن حيان ، إن لم يفقه في مواطن كثيرة ، ولا سيما المواطن السلطانية التي برع ابن الخطيب في عرضها وروعة صياغتها .

أبو بكر بن عمار

شاعر وسياسي ومغامر

(٤٢٢ - ٤٧٧ هـ) ، (١٠٣١ - ١٠٨٥ م)

قضيت يومين في مدينة شلب البرتغالية الصغيرة . ولم يكن ذلك لأن شلب من مدن السياحة أو الزهرة ، أو لأنها في ذاتها تستحق الزيارة والإقامة ، ولكن لأنها فقط تمثل في تاريخ الأدب الأندلسي مثولا قوياً ، إذ كانت موطن الشاعر الكبير أبي بكر بن عمار ، وثانياً لأنها كانت منزلاً للأمير الشعر المعتمد بن عباد ، حكمها في شبابه من قبل أبيه المعتمد ، وما زالت ثمة بها بقية من أطلال قصر الشراحيب الذي تغنى به المعتمد .

وشلب Silves مدينة صغيرة مشرقة ، تقع في أقصى جنوبي البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطي ، فوق ربوة متدرجة ، تشرف على نهر أراد الصغير الذي يصب في المحيط ، قرب ثغر بورتماو الصغير . ودروبها قصيرة ملتوية ، وأحيائها غير منسقة ، ولكن جميلة مؤثرة ، ولها طابع خاص يغلب عليه القدم ، ومظاهر العصور الوسطى ، ومنازلها كثيرة الألوان ذات طابقين أو ثلاثة ، وتحيط التلال العالية بالمدينة ، إلا من ناحية مدخلها فوق النهر ، حيث تقوم القنطرة العربية القديمة ، وهي قنطرة حجرية ذات أربعة عقود ، تصل المدينة بالطريق الكبرى ، وهنا على جانبي المدينة تمتد البساتين الخضراء ، والحقول الياقة .

وفي قرية من أرباض شلب تسمى « شنبوس » ولد شاعر الأندلس الكبير ، أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري ، وذلك في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، في أسرة متواضعة لم يكن لها في الظهور شأن . ووفد على مدينة شلب ، فنشأ بها ، وتلقى دراسته الأولى ، ثم رحل إلى قرطبة ، فأكمل بها دراسته على جماعة من شيوخ العصر ، وبرع في الأدب ، ونظم الشعر فتي ، واتخذ وسيلة للتكسب ، فكان يمدح كل من وصله ، مهما كانت مكانته أو مركزه . ثم قصد إشبيلية ، ومدح أميرها المعتمد بن عباد ، وكان بلاط إشبيلية

يسطع يومئذ في ظل بني عباد حماة الشعر والأدب ، ويحتشد فيه جماعة من أكابر شعراء العصر وكتابه ، أمثال أبي الوليد بن زيدون ، وأبي محمد بن عبد البر ، وأبي عبد الله البزلياني وغيرهم . فنظمه المعتضد في سلك شعرائه وأمنائه ، ولما ندب المعتضد ولده محمداً المعتمد لحكم شلب على أثر افتتاحها من يد بني مؤزى في سنة ٤٥٥ هـ ، اتصل به ابن عمار ، وألقى المعتمد في صفاته وأدبه ، ورقيق نظمه ، ما حبه إليه ، فعهد إليه بوزارته ، وتوثقت بينهما علائق المودة والصفاء ، حتى غدا أثر المعتمد ، ينظمه في مجالس أنسه ، ولا يصبر على فراقه ، وكانت براعة ابن عمار في النظم ، هي أحب صفاته لأميره الشاعر . ولما توفي المعتضد في سنة ٤٦١ هـ ، وخافه ولده المعتمد في الملك ، عين ابن عمار والياً لبلدة شلب . وقد تركت حياة المعتمد في شلب ، وما تقلب فيه في ربوعها الجميلة من مجالى اللهو والأنس ، في نفسه ذكريات عميقة ، تصورها لنا تلك الأبيات التي نظمها المعتمد مخاطباً صديقه ورفيق صباه ابن عمار حين وجهه إلى شلب ليتولى رياستها :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر	وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشرا جيب من فقى	له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم	فناهيك من غيل وناهيك من خلد
فكم ليلة قد بت أنعم جنحها	بمخضبة الأرداف بمجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتي	فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل يسد النهر هوأ قطعته	بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم	نضير كما انشقت الكمام عن الزهر

ولم تطل إقامة ابن عمار بشلب ، ذلك أن المعتمد لم يصبر على فراقه ، فاستدعاه إلى إشبيلية ، وولاه وزارته . وظهر ابن عمار يومئذ بمقلرته ودهائه ، فكان المعتمد يعهد إليه بمهام الأمور ، ويندبه إلى سفاراته ، وتنفيذ مشاريعه الخطيرة ، فيؤديها ابن عمار على أحسن وجه . وتجلت مقدرة ابن عمار بنوع خاص في تنظيم علائق المعتمد مع ملك قشتالة ، ألفونسو السادس ، أقوى ملوك شبه الجزيرة يومئذ ، وتوثيق أواصر المودة بينهما . واستمر ابن عمار على حظوته ومكانته لدى المعتمد أعواماً طويلة ، إلى أن فسد الحو بينهما ، بتدخل اعتماد الرميكية ، زوجة المعتمد ، فكان ذلك إيذاناً بنكبتها ، على ما نذكره بعد .

وكان من أهم المشاريع التي اضطلع بها ابن عمار يومئذ لحساب المعتمد ، استيلاءه على مدينة مرسية ، وهو مشروع تجلت فيه مقدرته السياسية ودهاؤه الواسع . وكانت مملكة إشبيلية ، تمتد يومئذ من ناحية الشرق حتى لورقة وشقورة على مقربة من مرسية ، وهي الحاضرة الجنوبية لشرق الأندلس . وكانت مرسية يومئذ تحت حكم بني طاهر ، وأميرها أبو عبد الرحمن بن طاهر ، أحد كتاب العصر وبلغائه ، يجد في حكمها صعباً جمة ، ويعارضه من أهلها حزب قوى ، وقد كتب عدد منهم إلى المعتمد يستدعونه لافتتاحها ، ويؤكدون له ضعف الدفاع عنها . وعهد المعتمد إلى ابن عمار بوضع الخطة اللازمة لافتتاح مرسية ، فسار ابن عمار إلى شرق الأندلس ، وعقد مع الكونت رامون برنجان أمير برشلونه اتفاقاً ، يتعهد فيه بأن يعاونه بفرسانه على فتح مرسية مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب تؤدى إليه ثمناً لكونه ، وقدم المعتمد ولده الرشيد رهينة لديه ، وبعث بقواته إلى ابن عمار ، وبعث إليه الكونت بفرسانه . وحاصرت القوات المتحالفة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد تأخر في أداء المال ، وقبض الكونت على ابن عمار ، وكان ابن عباد على رأس قواته على مقربة من شقورة ، فبادر بأداء المال ، وأفرج الكونت عن ابن عمار ، وعن الرشيد . ولم تنجح هذه الحملة الأولى في افتتاح مرسية . فجهز المعتمد حملة ثانية ، وقدم عليها ابن عمار ، واستعان ابن عمار في طريقه بقائد حصن بلج ، وهو يومئذ عبد الرحمن بن رشيق ، فسار معه ، وتذبذبه للقتال ، وحاصر ابن رشيق مرسية ، ولبث على إرهاقها ، وتحريض أهلها ضد حاكمها ابن طاهر ، حتى تم له الأمر ، وفتحت المدينة أبوابها بطريق الخيانة ، ودخلها جند ابن عباد ، وقبض على ابن طاهر واعتقل حتى أذن ابن عباد بتسريحه ، فلحق ببلنسية ، وكان افتتاح مرسية على هذا النحو في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) .

وهنا يكشف ابن عمار عن دخيلة نفسه ، وينقلب الشاعر إلى مغامر مضطرم الأطماع . كان ابن عمار يرغب أن يستولى على مرسية لنفسه ، وأن يستقل بحكم هذه المدينة النائية ، بعيداً عن سلطان مايكه . وقد عمد بالفعل إلى حكمها بحكم أمير مستقل ، وتجاهل أوامر ابن عباد ورغباته ، وأخذ يدمس الدسائس بين أمراء هذه الناحية . ولكن هذه المغامرة لم يطل أمدھا . ذلك أن ابن رشيق ،

وهو فاتح المدينة الحقيقي ، كان يتربص بابن عمار ، ويتحين فرصته . وفي ذات يوم غادر ابن عمار مرسية لتفقد بعض الحصون القريبة ، فوثب ابن رشيق واستولى على المدينة ، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار ، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيانتة .

ولم ير ابن عمار أمامه سوى الفرار ، فسار إلى قشتالة ، وقضى وقتاً قصيراً في بلاط ألفونسو السادس ، ولكنه لم يلق منه عوناً ، فقصده إلى سرقسطة ، ملتجئاً إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته واستخدمه في شتونه ، ولكنه ما لبث أن توفي بعد قليل ، فبقى ابن عمار في خدمة ولده الموثمن حيناً . وهنا غلبت ابن عمار بحبته في الإغراء والدس ، فحرض الموثمن على غزو حصن شقورة ، وهو يومئذ من أعمال دانية . وقصد ابن عمار إلى ذلك الحصن في جماعة قليلة من أصحابه ، وكان حاكمه رجلاً وافر الدهاء يدعى ابن مبارك ، فدعا ابن عمار وصحبه إلى الدخول ، وهش لاستقباله ، فخدع ابن عمار بموقفه ، وما كاد يستقر في الحصن ، حتى هوجم وقبض عليه ، ووضعت في يده الأغلال ، وزج إلى ظلام السجن ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ . (١٠٨٤ م) .

ووقف ابن عباد على ذلك الخبر ، فبعث إلى ابن مبارك يطلب إليه تسليم ابن عمار ، وبعث إليه مالا وخيلاً ، فاستجاب لدعوته ، وسلم ابن عمار لرسله وعلى رأسهم ولده يزيد الراضي ، فأخذ أولاً إلى قرطبة ، حيث كان المعتمد يومئذ ، وأدخل إليها مكبولا في هيئة زرية ، وقد احتشد الألوف من أهلها لرويته ، وقد كانت تهتز لموكبه حين كان يدخلها أيام عزه . ثم أخذ بعد أيام قلائل إلى إشبيلية ، فاعتقله المعتمد في مكان خامل في قصره ، ولبث فيه ينتظر مصيره .

والواقع أن مصير ابن عمار كان يهتز في يده القدر ، وكانت ثمة ظروف قاهرة تدفع به إلى نهايته المحزنة . وقد سبق أن أشرنا إلى موقف اعتماد الرميكية زوجة المعتمد من ابن عمار ، وقد كانت بينهما وحشة تزداد على ممر الأيام . وكانت الرميكية ، وهي ملكة إشبيلية الأثيرة ، تحتل مكانة بارزة في حياة المعتمد وفي بلاط إشبيلية . وكانت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه ، وكانت

تعيش في هذا الأفق الأدبي الرفيع ، الذي يسيطر على بلاط إشبيلية ، ويجتمع في ظله أعظم شعراء العصر ، وتشترك في كثير من الأحيان في مجالس الشعر والأدب . وكان ابن عمار ، وهو يومئذ يشغل منصب الوزارة ، من أساطين هذه المجالس الأدبية ، وكان يومئذ في إبان مجده ونفوذه ، يستأثر لدى المعتمد بثقته ، ويملك عليه كل حبه وعطفه ، وكانت الرميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه بعين السخط ، وكان ابن عمار من جانبه يحقد عليها ، ويخشى بأسها وسعائها ، واستمرت معركة الدسائس والمنافسة حيناً بين اعتماد الوزير ، لتسفر عن نتائجها الطبيعية ، وهى هزيمة الوزير وتغير مليكه عليه . ثم جاءت حوادث غزو مرسية ، وتصرف ابن عمار الغادر في شأنها ، لتحسم الموقف ، ولتدفع ابن عمار إلى مصيره المحتوم .

ولما وقع ابن عمار أخيراً بين يدي المعتمد ، وزجه المعتمد إلى سجن القصر ، كان المعتمد يستحضره من آن لآخر ، ويبالغ في عتبه وتأنيبه ، وابن عمار يمعن في استعطافه واسترحامه . ويقال إن المعتمد تأثر في النهاية بمحنته ووعدته بصفحه . ولكن خصوم ابن عمار في البلاط ، الساعين في هلاكه ، وفي مقدمتهم الوزير أبو بكر بن زيدون ، وهو ولد الشاعر ، ضاعفوا سعائهم ، وأبرزوا للمعتمد أبيتائاً من الشعر بخط ابن عمار ، نظمها أيام أن كان في مرسية ، وفيها يتعرض بالهجو اللاذع لبني عباد ، ولاعتماد الرميكية زوجة المعتمد .

وقد أورد لنا ابن الأبار في ترجمته لابن عمار ، تلك القصيدة التي قبل لإنها كانت سبباً في نكبة ابن عمار ومصرعه ، وهذا مطلعها :

ألا حيّ بالغرب حياً حلالاً	أناخوا جيمالا وحازوا جيمالا
وعرج بيومين أم القرى	ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرماد	ولم تر للنار فيها اشتعالا

ويومين هي قرية من قرى إشبيلية ، ومنها كانت أولية بني عباد : ومنها في هجو الرميكية :

تخيرتها منى بنات المهجين	رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار	لثيم النجادين عما وخيالا

قصار القلود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالاً
ثم يشير ابن عمار إلى أيام شبابه مع المعتمد إشارات بذيئة ويخاطبه بقوله :
سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً وأهتك سترك حالاً فحالاً

وعلى أى حال فقد اجتمعت العوامل السياسية والشخصية لتؤكد محنة ابن
عمار . وقد وجه ابن عمار في سجنه إلى المعتمد قصائد في الاستعطاف تذيب
الجماد ، أو على قول ابن الخطيب « تعالج بمرامها جراح القلوب ، وتعنى على
هضاب الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب ، والأجل المحسوب » .
ومن أشهرها تلك القصيدة المؤثرة التي تهز أوتار القلوب ، والتي مطلعها :

سجايك إن عافيت أندى وأسمح
وإن كان بين الخطتين مزية
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع
ومنها :

أقلني بما بيني وبينك من رضى
وعف على آثار جرم سلكتها
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم
له نحو روح الله باب مفتوح
بهبة رحى منك تمحو وتصفح
كل إناء بالذى فيه يرشح

على أن تضرع ابن عمار لم يؤثر في مليكة الصارم ، ولم تجد الرحمة سيلاً إلى
قلبه . ويقال إنه مما قضى على عطف المعتمد ، وحفزه إلى التعجيل بالقضاء على
وزيره ، هو أن ابن عمار حينما وعده المعتمد بصفحة ، حدث بذلك ولده الرشيد ،
وذاعت القصة بعد ذلك ، ونقلها أبو بكر بن زيدون عدو ابن عمار الألد إلى
المعتمد ، فاضطرم سخطاً على ابن عمار ، ونهض من فوره وفي يده طبرزين^(١)
كان قد أهداه إليه ألفونسو ملك قشتالة ، وذهب إلى حيث كان ابن عمار يرسف
في أغلاله ، ففرع ابن عمار لرويته ، وارتدى على قدميه يقبلهما ، ويبللها
بدموعه ، ولكن المعتمد أخذ يضربه بتلك الآلة حتى أجهز عليه ، ولم يتركه إلا جثة
هامدة ، ثم أمر به فغسل وكفن ، ودفن في ركن من « القصر المبارك » . وكان
مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسى في أواخر سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٥ م) ،

(١) هو آلة تشبه البطة .

وهكذا قتل المعتمد بن عباد بيده ، وزيره الشاعر الكبير رفيق صباه ،
ويده البني في كثير من المشاريع الخطيرة ، في بادرة من الحقد المضطرم ،
والقسوة التي لا تحبو ، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطائه ، ويقال
إن المعتمد ندم فيما بعد على تسرعه ، ونغصت عليه هذه الفعلة صفاء حياته .

وكان ابن عمار من أعظم رجالات الأندلس في عهد الطوائف ، فكان وزيراً
نابهاً ، وقائداً مجرباً يقود الحملات العسكرية الناجحة ، وسياسياً بارعاً ، ومفاوضاً
لا نظير له ، يعقد الصلات البعيدة المنال ، وينذل المشكلات الصعبة . بيد أنه
كان في نفس الوقت سياسياً مغامراً ، قليل الولاء والوفاء ، ميكيا فيليبيا ، يسعى
إلى تحقيق غايته بأي الوسائل ، ودون اعتبار لخلق أو مبدأ .

وكانت مواهبه الأدبية والشعرية ألمع ما في خلاله ، وقد كان ابن عمار
بلا ريب من أعظم شعراء الأندلس في عصره ، وكان هذا العصر الذي سطعت
فيه قصور الطوائف ، عصرًا اجتمع فيه بالأندلس من أكابر الشعراء جبهة
لم تجتمع في أي عصر آخر ، ويكفي أن نذكر من هؤلاء ، بنو عباد ، وفي
مقدمتهم المعتمد ، وابن زيدون ، وولادة بنت المستكفي ، وأبو بكر بن اللبابة ،
والمعتصم بن صمادح ، وبنو القبطرنة ، وابن عبدون . وكان ابن عمار في طليعة
هذه الجبهة الشاعرة ، وقد ملأ الأندلس بروائع شعره ، كما ملأها بذكر
أعماله ومغامراته . وقد جمع شعر ابن عمار ، ورتبه في ديوان خاص ، أبو الطاهر
محمد بن يوسف التميمي . وأورد لنا ابن بسام في « الذخيرة » طائفة كبيرة من
أخبار ابن عمار ، كما وضع تأليفاً خاصاً في تاريخه . وخصه كل من الفتح
ابن خاقان في « القلائد » ، وابن الأبار في « الحلة » بترجمة حافلة . وهذه العناية
بسيرة ابن عمار وتراثه الشعري من معاصريه ، ومن بعدهم ، تنبئ عن أهمية
هذه الشخصية البارزة في تاريخ الطوائف ، وعن رفيع مكانتها السياسية والأدبية .

أبو بكر الطرطوشي

وكتابه سراج الملوك

(٤٥١ - ٥٢٠ هـ) ، (١٠٥٩ - ١١٢٧ م)

كان عصر الطوائف بالأندلس ، عصرًا غريبًا ، يمتاز من الناحيتين السياسية والاجتماعية بعدة خصائص تجعله عصرًا قائمًا بذاته . فمن الناحية السياسية نرى الأندلس في عصر الطوائف تنتثر إلى دويلات عديدة ، متنازلة متنافسة ، يسودها الخلاف والتفرق ، وتشبك في حروب أهلية صغيرة لا نهاية لها . ونرى اسبانيا النصرانية ، تستطيل عليها ، وتربص بها ، وتحاول أن تؤلب بعضها على بعض ، وأن تنتزع منها ما استطاعت من القواعد والأراضي . ومن الناحية الاجتماعية ، نرى في دول الطوائف مجتمعات منحلة ، يغلب عليها الضعف والخور ، والانهماك في الترف ، وحياة الخجون والدعة والاستهتار .

على أن أغرب ظاهرة تبدو خلال هذا الانحلال الشامل ، الذي كان يسود مجتمع الطوائف ، هو أن هذا المجتمع ، كان من الناحية الأخرى ، يبدو في أثواب لامعة زاهية ، ويسطع بنهضة أدبية شاملة . وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء ، وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين ، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسي ، والفكر الإسلامي بصفة عامة .

في هذا المجتمع المترف ، الذي يعيش متع الحياة المادية ، ومن بين هذه الجمهرة الحاشدة من أئمة العلوم والآداب ، ظهر مفكر أندلسي من نوع خاص ، يتخذ من بين أوضاع هذه الدول الصغيرة - دول الطوائف - ومن أحداثها وسياسة ملوكها مادة لتأملاته ، ويتأثر بها في تفكيره ، ويصوغ لنا منها مبادئ ونظريات خاصة .

هذا المفكر هو العلامة أبو بكر الطرطوشي ، وقد أودع نظرياته السياسية والاجتماعية ، كتابه الشهير المسمى « سراج الملوك » .

وهو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي
الفهرى الطرطوشي ، ويعرف بابن أبي رندقة . ولد بـبغـر طـرطـوشـة في ٢٦ جمادى
الأولى سنة ٤٥١ هـ (يوليه ١٠٥٩ م) ، وقد كانت طرطوشته يومئذ ، ثغر مملكة
سرقسطة الأندلسية الأول ، وكانت مملكة سرقسطة تتمتع في ظل أمرائها من
بنى هود ، بفترة من الإزدهار والرخاء ، وكانت فوق ذلك مركزاً من مراكز
العلوم الأندلسية ، وكان بلاط بنى هود منتدى للعلماء والأدباء . وكان أمير
سرقسطة في هذا الوقت الذى ظهر فيه الطرطوشي ، وتلقى دراسته الأولى هو
المقتدر بن هود (٤٣٨ — ٤٧٤ هـ) ، وكان من أكابر علماء عصره يشغف
بدراسة الفلسفة والفلك والرياضة ، وله في ذلك كتب ضاعت ولم تصل إلينا .
وكان من أكابر العلماء المنتمين إلى بلاطه ، العلامة الكبير أبو الوليد الباجي ، إمام
عصره في الفقه وفي مسائل الخلاف . فقصده الطرطوشي إلى هذا المهل العزيز ،
وتلقى عن الباجي كثيراً من علمه ولا سيما مسائل الخلاف ، ولازمه أعواماً خلال
إقامته بسرقسطة . وتأثر الطرطوشي في تفكيره وفلسفته الكلامية بتفكير هذا
المفكر العظيم ، كما تأثر كذلك بتفكير صنوه وقرينه في غزارة الفقه ومسائل
الخلاف والفرق ، العلامة ابن حزم القرطبي . وشهد في شيابه أحداث دول
الطوائف ، وشهد بالأخص أحداث مملكة سرقسطة ، — وطنه — عن كتب ،
وهي التي أملت عليه فيما بعد ، بعض نظرياته السياسية والاجتماعية .

* * *

ورحل الطرطوشي إلى المشرق في سنة ٤٧٦ هـ ، وهو في نحو السادسة
والعشرين من عمره ، وحج ، ثم قصد إلى بغداد ، ودرس فيها على أبي بكر
محمد بن أحمد الشاشي ، وأبي أحمد الخرجاني ، وأبي سعد بن المتولي ، وهم يومئذ
أئمة الفقه الشافعي ، وتلقى في البصرة على أبي علي التستري . ثم رحل إلى الشام
واستوطنها مدة ، ودرس بها ، واشتهر يومئذ بغزير علمه وبعد صيته ، كما
كما اشتهر بورعه وزهده ، وكان جم التواضع ، يعيش في شظف وتقشف ،
بعيداً عن متاع الدنيا ومباهجها . ثم غادر الشام ونزل حيناً بيت المقدس ،
يقرئ بها ، ثم غادرها إلى مصر ، ونزل بالإسكندرية يسبقه صيته ، فهرع إليه
الطلاب من كل صوب .

وكان نزوله بالإسكندرية حول سنة ٤٨٨ هـ ، في بداية عهد الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الحمالي ، وهو في نحو الثامنة والثلاثين من عمره . وكانت الإسكندرية دائماً مهبط علماء المغرب والأندلس المفضل ، فكان بها في نفس الوقت الذى نزل بها الطروشى ، مواطنه العلامة أمية بن أبى الصلت الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٩ ، ونزلها من بعده بنحو نصف قرن مواطنه العلامة المقرئ الشهير أبو القاسم الرعينى الشاطبى الضرير ، إمام القراءات المتوفى سنة ٥٩٠ هـ ، وهو الذى أورث مصر علم القراءات ، ونزلها في منتصف القرن السابع الهجرى العلامة الأندلسى المتصوف أبو العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ . وغيرهم ممن لا يتسع المقام لذكرهم من علماء المغرب والأندلس .

وفى الإسكندرية ، استقر الطروشى ، وأقبل عليه الطلاب ينهلون من علمه فى الحديث والفقه ومسائل الخلاف . ولم يمض سوى قليل حتى تزوج الطروشى من سيدة مصرية وأنجب منها ، وذلك حسبما يحدثننا فى كتاب « سراج الملوك » ، وبدأ عندئذ يتنوق حياة الهدوء والدعة . ثم ذهب إلى القاهرة واستقبله وزيرها الحاكم بأمره الأفضل شاهنشاه . وهو يحدثننا فى كتابه المذكور عن هذه الزيارة ، ويقص علينا كيف قام بوعظ هذا الوزير القوى ، ونصح به بتقوى الله وطاعته ، وبإقامة العدل ، وقمع الظلم ، والرفق بالرعية . ولم يلبث عقب عوده إلى الإسكندرية أن نشبت بينه وبين قاضيه مكين البولة ابن حديد ، خصومة شديدة بسبب ما كان يثريه الطروشى من نقد حاد ، حول تصرفات هذا القاضى فى شئون الأموال والمكوس والمغارم الظالمة ، وغيرها من التصرفات الإدارية والقضائية . هذا فضلاً عما كان يصدره الطروشى من فتاوى تثير الرأى العام فى بعض الشئون ، مثل قوله بتحريم الخين الذى يأتى به الروم إلى المدينة ، وهذا إلى حملاته المتكررة على كثير من العادات السائدة فى المجتمع السكندرى ، وهو ما كان ينعته الطروشى بالبدع المحرمة .

ولما ضاق القاضى ابن حديد وأعدائه ذرعاً بمسلك الطروشى ، بعثوا فى حقه إلى الخليفة بالقاهرة ، شكاوى وتقارير مرة ، وصوروه فيها شخصاً خطراً على النظام ، مثيراً للشغب فى المدينة . وبادر الأفضل شاهنشاه فأرسل إلى والى الثغر أن يرسل الطروشى إلى القاهرة ، فأرسل إليها مع خادمه ، وأدخل إلى

الأفضل ، فلم يسيء مقابلته ، ولكنه أمره بالإقامة في مسجد الرصد بالفسطاط ، حتى يبت في شأنه ، وقدر له راتباً شهرياً ضئيلاً .

وقد كان ذلك فيما يبدو في بداية سنة ٥١٥ هـ ، فلبث الطرطوشي في هذا المعتقل بضعة أشهر ، حتى سئمت نفسه وغلب عليه اليأس ، وأضرب عن تناول الطعام الذي يشتري بنفقة السلطان ، وأمر خادمه أن يجمع له شيئاً من « المباح في الأرض » ، فجمع له شيئاً من النباتات تقوت به مدى ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب في اليوم الثالث قال لخادمه « رميته الساعة » ، يقصد بذلك الأفضل . وتضيف الرواية إلى ذلك أن الأفضل قتل بالفعل في الغد ، وكان ذلك هو اليوم السابق لعيد الفطر في سنة ٥١٥ هـ (أواخر سنة ١١٢١ م) .

وكان ذلك نذير الخلاص ، فعاد الطرطوشي إلى الإسكندرية ، واستأنف حياته السابقة ، حياة اللرس والإقراء . وبدأ في نفس الوقت في كتابة مؤلفه « سراج الملوك » ، مهتدياً في كتابته ، بمختلف الأحداث والتطورات التي شهدتها بالأندلس في شبابه ، وشهدتها في العراق والشام ومصر ، في كهولته ونضجه . وهو يخص بكتابه « الأجل المأمون تاج الخلافة » عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الأموى « يقصد بذلك الوزير المأمون البطائحي ، الذي خلف الأفضل شاهنشاه في الوزارة ، وقد قصد الطرطوشي بالفعل إلى القاهرة ، وقدم كتابه بنفسه إلى الوزير ، واستقبله الوزير بمنتهى المودة والإكرام ، وأغدق عليه عطفه ورعايته . وتحدث الطرطوشي بهذه المناسبة إلى الوزير في بعض المسائل والشئون التي يراها مخالفة للشرع في نظره ، وقد حاول الوزير أن يرضي الفقيه ما استطاع ، بتحقيق وجهات نظره في بعض هذه الشئون . وعاد الطرطوشي بعد ذلك إلى الإسكندرية ليستأنف حياته العلمية الهادئة .

* * *

يتناول الطرطوشي في كتابه من الموضوعات ما يعتقد أنه متفق مع العنوان الذي اختاره له ، وهو محاولة نصيح الملوك وإرشادهم وتوجيههم .

وهو يلخص لنا محتويات كتابه في مقدمته ، بأنه جمع فيه ما تنطوى عليه سيرة الأئمة السابقة ، وبالأخص ملوك الطوائف وحكام الدول ، وأنه وجد ذلك

فى ست من الأمم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند ، والسند هند ، وأنه عمد فى ذلك إلى استعراض ما ألفاه فى كتبهم من الحكم البالغة والسير المستحسنة ، هذا إلى ما رواه وجمعه فى سير الأنبياء وآثار الأولياء ، وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن العزيز .

ولنفصل بعض الشيء ، فنقول إن الطرطوشى يفتح كتابه بالكلام عن الخصال التى يقوم عليها الملك ، وتلك التى تؤدى إلى هدمه ، وعن الخصال المحمودة فى السلطان والتى تمكن له ملكه ، وتسبغ الكمال عليه ، ثم تلك التى توجب ذمه ، وما يجب على الرعية إذا جنح السلطان إلى الجور ، وعن صحة السلطان وسيرته مع الجند ، وفى اقتضاء الحباية وإنفاق الأموال .

أما تلك الخصال المحمودة فى السلطان ، فهى العدل والتواضع والحزم والخنز والحلم ولين القول ، ويقترن بذلك الحديث عن خير السلطان وشره . ويحدثنا الطرطوشى خلال ذلك عن العقل والدهاء والمكر والصفات البشرية ، من الحلم والجود ، والشج والبخل ، والصبر وكتبان السر ، والشكر . ثم يحدثنا عن الظلم وسوء عواقبه ، وعن السعاية وقبحها ، وعن القصاص وحكمه ، ويقترن ذلك كله بأخبار ملوك العجم وبعض الحكم الماثورة ، وكلام منوع عن الملوك والأنبياء والناس ، وعن الزهد والحكم والوصايا والبطات .

ثم يحدثنا الطرطوشى عن الوزراء وصفاتهم وآدابهم ، وعن المشاورة والنصيحة وكونهما يعتبران من أسس الملك ، وعن قواعد السلطة ، ويقترن ذلك كله بإيراد الحكم والأخبار ، من أقوال الإسكندر ، وأزدشير ، وأنوشروان ، وبزرجمهر . ويستأنف الحديث بعد ذلك عن خصال السلطان وسيرته مع الجند ، وتصرفاته نحو الأموال والحباية والإقطاع ، وعن سياسته نحو العمال ؛ ثم يحدثنا عن سياسة الخلافة نحو الذميين وعن أحكام أهل الذمة ، وعن الحرية وأحكامها ، وعن القضاة والعمال ، وعن الحروب وتديرها ، ويختتم بالتحدث عن أخبار ملوك العجم وحكاياتهم وحكم حآهم .

تلك هى محتويات كتاب « سراج الملوك » . وإنه ليلبو لأول وهلة أن الطرطوشى يعالج فى كتابه ما اصطلاح المفكرون المسلمون على تسميته بسياسة الملك أو « السياسة الملكية » . ويقول لنا الطرطوشى فى مقدمته « إن كتابه لم يسبق

إلى مثله أقلام العلماء » ، ولكن الواقع أن هذا الموضوع قد عالجته قبل الطروشى أكثر من مفكر مسلم . لو يكنى أن نذكر هنا أن ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ قد عالجته فى كتابه « عيون الأخبار » ، وعالجته « إخوان الصفا » فى أواسط القرن الرابع فى بحوثهم المتعلقة بالسياسة ، ثم عالجته أبو الحسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ فى كتابه « الأحكام السلطانية » ، وفى رسالته عن « الوزارة وسياسة الملك » ، ولكن الطروشى يمتاز على أسلافه بالتوسع والإفاضة ، وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

والحقيقة أن كتاب « سراج الملوك » هو أكبر مؤلف من نوعه من حيث ضخامة مادته وتنوع موضوعاته ، ولكن الصفة الدينية تغلب على أسلوبه ، ولانقول الصفة الفقهية ، وهى التى تغلب على بحوث الماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية » . ثم هو يتخذ على الأغلب صورة الوعظ ، ويتضمن كثيراً من الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة ، وهو يورد موضوعات مستقلة متباعدة ، ينقصها الربط والتنظيم .

ومع ذلك فإن الطروشى يذهب فى بحوثه إلى آفاق جديدة ، لم تخطر لأسلافه الذين عالجوا قبله موضوع السياسة الملكية . فهو يحاول فى بعض نظراته أن يستقرئ أحداث عصره وخواصه ، وأن يستخرج منها بعض المبادئ الاجتماعية على نحو ما فعل ابن خلدون فيما بعد ، حيث جعل من المجتمع كله ومن تاريخه مادة لتأملاته . ويصارعنا ابن خلدون نفسه فى مقدمته بأن الطروشى كاد أن يطرق نفس موضوعه ، وأنه « قد حوم فى كتاب سراج الملوك ، وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله » ، ثم يضيف إلى ذلك قوله « لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يبوب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار . . . وكأنه حوم على الغرض ، ولم يصادفه ولا تحقق قصده » . والواقع أن ابن خلدون يعالج فى مقدمته بعض الموضوعات التى يعالجها الطروشى فى كتابه مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب ، وعواقب الظلم ، واستظهار صاحب الدولة بالموالى والمصطنعين ، وشئون الجباية والمكوس وغيرها ، ولكنه ينحو فى العرض والتدليل

منحى آخر ، ولا نلمس في كتاب الطرطوشي أثر ذلك المذهب الاجتماعي المبكر
الذى يسيطر على بحث ابن خلدون من مبدئه إلى منتهاه .
ولقد تأثر الطرطوشي في عرض نظرياته الاجتماعية بالأخص ، بما شاهدته في
وطنه - الأندلس - من أحداث وتطورات غير عادية ، فهو قد عاصر أيام الطوائف
بالأندلس ، وقضى شطراً من شبابه في مملكة سرقسطة - إحدى دول الطوائف
في ظل بني هود - وشهد عن كثب أساليب ملوك الطوائف في تدعيم سلطانهم
وحشد جيوشهم ، وإنفاق أموالهم ، وكان من أبرز نظريات الطرطوشي في
ذلك ، أن عصبية الدولة أوقوتها الحامية ، إنما تقوم على الجند ، قبل المال ، وأن
الأموال يجب أن تنفق على الاستكثار من الجند ، وأن خير ما يدعم هذه
العصبية « هم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة » ، أى الجند المرتقة الذين
يتناولون أجورهم كل شهر . ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ، ويقول
« إنها لا تنطبق على الدولة في أولها ، وإنما تنطبق على الدولة في نهاية عهدها ، بعد
التمهيد واستقرار الملك ، واستحكام الصبغة » ، وأن الطرطوشي قد أدرك الدولة
الهودية (مملكة سرقسطة) عند هرمها ، ورجوعها إلى الاستظهار بالموالي
والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورأهم بالأجر على المدافعة ، وأدرك دول
الطوائف ، وذلك عند اختلال الدولة الأموية وانقراض عصبيتها من العرب ،
واستبداد كل أمير بقطره ، وعاش في ظل بني هود بسرقسطة ، ولم يكن بقى لهم
من أمر العصبية شيء ، لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثائة من السنين
وملاكمهم ، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره ، وقد استحكمت له
صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية ، فهو يستعين على أمره بالأجراء
من المرتقة . والظاهر أن الطرطوشي قد تأثر تأثراً شديداً بما شهدته من اعتماد
بني هود في حماية ماكهم على معاونة الجند النصارى ، ولا سيما أيام السيد
الكبيادور ، وسعيهم إلى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء
دولتهم حتى نهايتها . وقد كان ذلك في نفس الوقت شأن كثير من ملوك
الطوائف الآخرين .

ويرى الطرطوشي أن من أسباب ضعف المسلمين بالأندلس ، هو اهتمام
ملوكهم بجمع المال ، وعدم إنفاقه على إعداد الجند ، ويقول لنا إن الدفاع في

الرجال لا في المال ، وإنما يُدفع بالأموال بواسطة الرجال ، ويعبر عن ذلك بقوله ،
إنه لاشك أن بيت رجال خير من بيت مال ، وقد تأثر الطرطوشي في صوغ
نظريته بما شهده لدى ملوك الطوائف من شدة اهتمامهم بجمع الأموال من رعاياهم
وإنفاقها قبل كل شيء على حياتهم المترفة ، وعلى إنشاء القصور الفخمة ، واقتناء
العلمان والحواري ، وإهمال قضية الدفاع القومي ، والاستعانة عند الضرورة بمحمد
المرتزقة النصراني ، وقد كانت تمحّد في معظم الأحيان لتحقيق المشاريع العدوانية
ومباشرة الحروب الأهلية ، التي كان ينزلت إليها ملوك الطوائف باستمرار ،
والتي كانت كذلك من أسباب ضعفهم ، وعدم التفاتهم إلى قضية الدفاع القومية
الأصلية ، وهي الوقوف في وجه العدو الخالد ، إسبانيا النصرانية ، ومحاولة التعاون
على كبح عدوانها وأطماعها في انتزاع أراضيهم ، والقضاء عليهم ، وعلى
سائر تراثهم القومي .

ويجذب الطرطوشي كذلك ، إنفاق السلطان للمال في سبيل العلم والعلماء ،
ويعتبر ذلك أيضاً من دعائم الملك والدولة ، ويستشهد على ذلك بقصة الوزير الشهير
نظام الملك مع مليكه أبي الفتح بن ألب أرسلان ملك الترك ، فقد احتج هذا
الملك على وزيره بضخامة ما ينفقه من الأموال على دور العلم والعلماء ، وأهل
الصلاح والفقراء ، في سائر أنحاء المملكة ، أو بعبارة أخرى على من لا ينفع
ولا يغني من الناس ، وأنه كان من الأفضل لو أن هذه الأموال أنفقت على إقامة
جيش يوجه لافتتاح قسطنطينية ، فأجابه نظام الملك بأنه ينفق هذه الأموال على
ما يسميه « بجيش الليل » ، وأن هذا الجيش متى نامت جيوش الملك ، يقوم جنده
صفوفاً بين يدي ربهم يرسلون دموعهم ، ويطلقون بالدعاء ألسنتهم للملك
ولحيوشه ، وأن الجيوش السلطانية إنما تعيش في خفارة هذا الجيش الروحي ،
وتبيت بدعائه وترزق ببركاته ، وقد بكى الملك لشرح وزيره بكاء شديداً ،
وغمره بعبارات الشكر والرضى ، وطلب إليه أن يكثر من هذا الجيش الميمون .

وتقف معظم نظرات الطرطوشي النقدية والاجتماعية ، عند أحداث وطنه
— الأندلس — أو بعبارة أخرى عند أحداث ممالك الطوائف ، التي عاصرها
في أواخر عهدها ، والتي كانت مملكة سرقسطة وطنه الأصلي ، نموذجاً بارزاً

من نماذجها . ولا نكاد نجد بعد ذلك في عرض الطرطوشي غير السير والحكم والمواظ ، وهي التي تغلب حسبنا أسلفنا على محتويات كتابه .

وقد بلغ الطرطوشي في أواخر حياته ، كفقيه من أقطاب الفقه المالكي ، مرتبة الإمامة ، ومن ثم فلما نرى عاهل المرابطين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يطلب رأيه وفتواه ، إلى جانب الإمام أبي حامد الغزالي ، في أخطر شئونه السياسية والعسكرية ، ومن ذلك مشروعه في خلع ملوك الطوائف وافتتاح ممالكهم ، باعتبارهم خارجين على أحكام الشريعة والدين — وهو ما أفتى به فقهاء المغرب والأندلس . وقد أيد الطرطوشي هذه الفتوى ، ونفذ أمير المسلمين مشروعه بافتتاح ممالك الطوائف والاستيلاء على الأندلس ، وضمها إلى إمبراطوريته الكبرى .

وكان الطرطوشي فوق تضلعه في الشريعة ومسائل الخلاف ، أديباً بارعاً وشاعراً محسناً ، ومن شعره قوله في الغزل الروحي وهو من أجمل شعره :

أقلّب طرفي في السماء تردداً	لعلّي أرى النجم الذي أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة	لعلّي بمن قد شم عرفتك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها	لعل نسيم الروح عنك يخبر
وأمشي ومالي في الطريق مأرب	عسى نغمة باسم الحبيب تذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة	عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وقوله في الرشوة :

إذا كنت في حاجة مرسلاً	وأنت بإنجازها مغرم
فأرسل بأكمه خلاصة	به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى	رسول يقال له الدرهم

وللطرطوشي غير سراج الملوك ، عدة مؤلفات ورسائل أخرى ، في التفسير والفقه والوعظ ، تربي على العشرين ، وقد انتهى إلينا الكثير منها .

وتوفي الطرطوشي بئر الإسكندرية في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٢٠ هـ (٢٠ يونيو سنة ١١٢٧ م) في التاسعة والستين من عمره « ودفن بمقبرة وعلة قريباً من البرج الحديد ، قبلي الباب الأخضر » ، وقد عرف قبره فيما بعد ، وأقيم عليه مسجد يسمى بمسجد الطرطوشي ، وهو ما يزال قائماً حتى يومنا .

ابن بسام الشنتريني

وكتابه «الذخيرة»

توفي سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)

منذ بضعة أعوام كنت في زيارة للبرتغال ، وكان من برنامجي أن أزور بها عدة مدن أندلسية ، منها باجة ، وشلب وشنترين ويايرة . وكانت تحفزني إلى زيارة هذه المدن الأندلسية القديمة ، فضلاً عما بها من الآثار الأندلسية ، أسماء لامعة في تاريخ التفكير والآداب الأندلسية . ففي باجة ذكرت الفقيه العلامة الأصولي الكبير أبا الوليد الباجي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، وفي شلب كانت تساورني ، وأنا أطوف بأطلال قصر الشراجيب ، ذكرى ابنها الشاعر الكبير أبي بكر بن عمار المتوفى سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٥ م) وزير المعتمد ابن عباد وشاعره ، وفي يابرة ، ذكرت ابنها الكاتب والشاعر الكبير ابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وزير بني الأفطس ، وناظم مرثيتهم الشهيرة : وأما عن شنترين فقد كانت تساورني ، وأنا أسير وئيداً في الطريق الجبل الصاعد إليها ، ذكرى ابنها الكاتب الأندلسي الأشهر ، ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب «الذخيرة» الذي وضع مصنفه التاريخي والأدبي الرائق ، قبل سقوط وطنه شنترين في أيدي النصارى بأعوام قلائل .

وتقع شنترين في شمال شرق أشبونة ، على قيد خمسين كيلومتر منها . فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية للنهر ، وقد كانت في الوقت الذي غادرها فيه ابن بسام من أعمال مملكة بطليوس ، آخر دول الطوائف في غربي الأندلس ، وقد كانت لنائها عن بطليوس هدفاً لغزوات النصارى ، وكادت تسقط في أيديهم غير مرة ، لولا أن أنقذها لابن الأفطس أمراء بطليوس بدفع الجزية ، وكان ابن بسام في الواقع صادق الحس ، بعيد النظر ، فإنه لم تمض على مغادرته لوطنه شنترين أعوام قلائل حتى سقطت في أيدي النصارى ، واستولى عليها ألفونسو السادس في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، وذلك خلال غزو المرابطين لمملكة بطليوس ، وعجز المسلمون

عن المسير للدفاع عنها . وقد استردها المسلمون بعد ذلك ، ولكنها سقطت نهائياً في أيدي البرتغاليين في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) واستولى عليها ألفونسو هنريكينز ملك البرتغال ، بمعاونة حليفه الفارس الشهير جيرالدو سيمافور .

ومما هو جدير بالذكر أن مدينة شنترين ، تشتهر في تاريخ الأندلس أيضاً بحادث محزن ، هو هزيمة الموحدين الفادحة تحت أسوارها في محاولتهم لاستردادها ، ومصرع عاهلهم الخليفة أبي يعقوب يوسف من الجراح التي أصابته في الموقعة . وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ (يولييه ١١٨٤ م) .

ولد أبو الحسن علي بن بسام بمدينة شنترين ، فهو إذاً أندلسي برتغالي من أهل ولاية الغرب الأندلسية ، وهو الاسم الذي كان يطلق يومئذ على المنطقة الشاسعة التي تمتد من غربي نهر الوادي الكبير حتى المحيط الأطلنطي ، وتشمل النصف الجنوبي من البرتغال الحديثة . ولا نعرف بالتحقيق تاريخ مولد ابن بسام ، كما أننا لا نعرف ظروف نشأته وحياته الأولى . وكل ما نعرفه من ذلك ، أنه غادر موطنه شنترين في حدثاً . وهو يقص علينا قصة مغادرته لوطنه في تلك الفقرة من مقدمة كتابه « الذخيرة » :

« وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب ، لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الاخناء ، وفكر خامد الذكاء ، بين دهر متلون تلون الحرباء ، لا تنبأذي كان من شنترين قاصية الغرب ، مقلول الضرب ، مروع السرب ، بعد أن استنفد الطريف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، بتواتر طوائف الروم علينا في عقر ذلك الإقليم » .

وغادر ابن بسام شنترين مع من غادرها من بنينا ، خوفاً من سقوطها في أيدي البرتغاليين ، وقصد إلى مدينة إشبيلية . وهناك قضى بضعة أعوام في بوئس ومشق ، يدرس على شيوخها ، ويتعيش بقلمه وأدبه . وفي سنة ٤٩٤ هـ قصد إلى مدينة قرطبة ، ودرس على شيوخها واستقر بها بقية حياته . وكانت قرطبة قد فقدت يومئذ كثيراً من أهميتها القديمة ، وبهاثا السالف ، ولكنها احتفظت بكثير من سمعتها وتقاليدها العلمية القديمة ، ولبثت مركزاً من أهم مراكز الدراسة بالأندلس .

وقد نشأ ابن بسام وعاش في عصر موثم من عصور التاريخ الأندلسي ، وهو أواخر عصر الطوائف ، وأوائل الفتح المرابطي . وكانت الأندلس قد انتشرت في ظل الطوائف إلى إمارات متعددة ، تناهض بعضها بعضاً ، وتضطرم بينها الحروب الأهلية بلا انقطاع . وكانت اسبانيا النصرانية ، انتهزاً لهذه الظروف المواتية ، تعمل للضرب والتفريق بين هذه الإمارات المتنافسة المتخاصمة ، وتقطع منها ما تستطيع اقتطاعه من الحصون والأراضي ، وانتهت هذه السياسة المدمرة باستيلاء اسبانيا النصرانية على أول قاعدة أندلسية كبيرة ، هي مدينة طليطلة عاصمة مملكة بني ذى النون ، وكان سقوطها في أيدي القشتاليين (الإسبان) في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٥ م) . وعندئذ فقط استيقظ ملوك الطوائف من سباتهم وأدركوا فداحة الخطأ الذي تردوا فيه بتفرقهم وتنازلهم ، وأجمعوا على الاستنجد بإخوانهم فيما وراء البحر ، بأولئك المرابطين الذين غلبوا على المغرب وقامت فيه دولتهم قوية شامخة . واستجاب المرابطون لصريخ إخوانهم في الدين ، وعبروا في حشودهم الحرارة إلى شبه الجزيرة ، واجتمعت الجيوش الأندلسية والمرابطة المتحدة بقيادة البطل المرابطي يوسف بن تاشفين ، والتقت بالجيوش النصرانية المتحدة في موقعة الزلاقة الشهيرة ، وهي التي كتب فيها النصر الباهر للمسلمين (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) ، وعندئذ ارتدعت اسبانيا النصرانية ، ولزمت السكينة حيناً . وأدرك يوسف بن تاشفين ، مما شاهده من أحوال دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة ، أن سلامة الأندلس تقتضي أن تزول هذه الدول ، وأن يضطلع المرابطون بحكم الأندلس والدفاع عنها ، فقام بافتتاح دول الطوائف تباعاً ، وأصبحت الأندلس من ذلك اليوم ولاية مغربية تخضع لحكومة مراکش .

ولقد كان افتتاح المرابطين لدول الطوائف ، أو بعبارة أخرى للأندلس ، عمل عدوان عسكري وسياسي ، ما في ذلك من شك ، ولكننا نستطيع أن نصفه عمل إنقاذ في نفس الوقت . ذلك أن الشعب الأندلسي ، قاسى في ظل طغيان الطوائف كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم ، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة ، التي كان يعيش في غمارها ، وانقلاب الأوضاع في سائر مناحي الحياة ، وتوالى الفتن والحروب الداخلية ، ولكنه كان يقاسى في نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغاة ، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم

ضيقاً خاصة يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها ، ويجعلون من شعوبهم عبيداً ، يستصيفون ثرواتهم ، وثمار كدهم لإرضاء لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الخواري والعبيد ، والانهماك في حياة الترف الناعم ، والإغداق على الصحب والمناقين . هذا فضلاً عن حشد الجند ، لإقامة نيرهم ، وتدعيم طغيانهم . وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية ، واختلط الحق بالباطل ، والحلال بالحرام ، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة ، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية ، وتحقيق الكسب بأي الوسائل .

ذلك هو العصر الذي عاش فيه ابن بسام . ولقد كان عصر الطوائف ، على ما كان يتخلله من الفتن والحروب المتوالية ، وما كان يغشاه من ألوان الانحلال والفوضى ، عصرآ زهت فيه العلوم والآداب بحق . وكان ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم المطلق ، من حماة العلوم والآداب . وأنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء ، وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب ، فكان أولئك الملوك والرؤساء ، بالرغم من صفاتهم المثيرة كحكام وطغاة ، يغدقون رعايتهم وصلاتهم على أقطاب العلم والأدب . وقد حفل عصر الطوائف بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين ، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسي ، والفكر الإسلامي بصفة عامة . ويكفي أن تعلم أن هذا العصر هو العصر الذي نبغ فيه ابن حزم ، وابن حيان ، وأبو الوليد الباجي ، وابن عبد البر ، والمعتمد بن عباد ، وابن عمار ، وابن زيلون ، وابن عبدون ، وغيرهم من أعلام التفكير والأدب .

وجاء ابن بسام في أواخر هذا العصر الذي زهت فيه الآداب ، فبهرت هذه النهضة الأدبية التي عاصر جمهرة من أعلامها ، وتذوق الكثير من روائعها من المنشور والمنظوم ، وجالت بخاطره في نفس الوقت فكرة لم تخطر لأحد من قبله . هي أن الأدب الأندلسي لم ينصف من مواطنيه ولم يقدر قدره ، واعتزم أن يقدم لمواطنيه أروع صورة من أدب الأندلس ، وأدب الطوائف بنوع خاص ، فكتب مؤلفه الضخم « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » بمدينة قرطبة ، وانتهى من كتابته في سنة ٥٠٣ هـ . وللعنوان الذي اتخذته ابن بسام لكتابه مغزى واضح ،

ويضارحنا ابن بسام في مقدمته بالدافع النفسى ، الذى دفعه إلى تصنيف كتابه « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره ، إلى أدب المشرق والتزود منه ، والإعجاب به ، وإهمال أدب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة وجميع ما تضمنه من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأنه من حقهم أن يزهاوا بأدبهم ، وأن يتنوقوه ، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق . ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه في محاسن أهل الجزيرة ، أى جزيرة الأندلس ، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبي صاحب « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » ، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان ، يدعو كل منهما إلى تنوق محاسن قطرهما . فضلاً عن هذه الظاهرة التى حرص ابن بسام على أن يؤكدها لكتابه ، فلمن كتاب « الذخيرة » ، يعتبر بمحتوياته من التراجم القوية العديدة ، لعشرات من رجال الأندلس ومفكرها وأدبائها ، والمختارات الثرية والشعرية المتنوعة ، والنبد التاريخية الكثيرة الموضوعة والمقتبسة ، من مصادر عديدة سابقة ومعاصرة - يعتبر من أنفس مصادرنا التاريخية والأدبية والاجتماعية ، ولاسيما عن عصر الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه .

ويشتمل كتاب « الذخيرة » وفقاً لتصنيف مؤلفه على أربعة أقسام :
القسم الأول « لأهل حضرة قرطبة وما يصادقها من بلاد متوسطة الأندلس » .
ويشتمل من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة .
والقسم الثانى « لأهل الجانب الغربى من الأندلس » ، وذكر أهل حضرة إشبيلية ، وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومى ، وفيه من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب جملة موفورة . ويخصص القسم الثالث « لأهل الجانب الشرقى من الأندلس » ، ومن نجم من كواكب العصر فى أفق ذلك الثغر الأعلى ، إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك ، وفيه من القصص وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء طوائف . والقسم الرابع يختص « بمن طرأ على هذه الجزيرة فى المدة المورخة من أديب شاعر وأوى إلى ظلها من كاتب ماهر ، وذكر طائفة من مشهورى أهل تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصرنا بإفريقية والشام والعراق » .

تلك هي أقسام كتاب «الذخيرة» ومحتوياته . وإنه لما يدعو إلى الغبطة أن البحث قد استطاع أخيراً ، أن يضع يده على النص الكامل لكتاب «الذخيرة» بأقسامه ومجلداته الأربعة ، بعد أن لبث مدة طويلة مفتقداً لبعض أجزائه . ويتبع ابن بسام في تأليف كتابه منهجاً خاصاً . فأما من الناحية التاريخية ، فهو يصارحنا في مقدمة كتابه ، بأنه يعتمد في التعريف بأخبار ملوك الجزيرة ، وسرد قصصهم الماثورة ، ووقائعهم المشهورة على ابن حيان ، وينقل عنه ما سطر ، وأنه عول على تاريخه الكبير في أكثر ما يكتبه في هذا الباب ، وذلك إعفاء لنفسه من المسئولية ، ومعارضة من أحرز في وقته قصب السبق . وهذا الموقف في الاعتماد على ابن حيان ، يشهد لابن بسام بالروية ، وسعة الأفق ، ذلك لأنه لا يحجم في الفصل الذي خصصه لابن حيان في الذخيرة عن مهاجمته والحملة عليه ، وانتقاده لأنه في حديثه عن ملوك الطوائف وأمراءهم ، يتقلب بين المديح والذم ، وفقاً لمواقفه وأهوائه ، ويورد لنا في التدليل على ذلك ، ما يختتم به مقدمة كتابه «المقتبس» من إهدائه للمأمون بن ذى النون في عبارات لإجلال وتقدير ، ثم ما عمد إليه بعد ذلك من توجيه رسالة تهمة حارة إلى ابن عباد فاتح قرطبة ، والمنتصر على ابن ذى النون ، وابن بسام ينكر هذه الخلة في القلب والتناقض على ابن حيان . ومع ذلك فإن ابن بسام ، يفرد في الذخيرة فصلاً كبيراً خاصاً بابن حيان ، ويعرب لنا في أكثر من موضع عن عميق تقديره للمؤرخ الكبير ، ولكتابه الجامع ، وينقل منه عشرات الشنور التي تشهد بروعة عرضه لمختلف الحوادث ، كما تشهد بقوة ملاحظته وبراعة النقدية .

وفيما عدا المسائل التاريخية البحتة ، فإن ابن بسام يتولى بأن يقدم إلينا مختلف الشنور الأخرى ، ثم هو في أحيان كثيرة يعرض لنا بعض الحوادث التاريخية بقلمه وبأسلوبه الخاص ، ويعرفنا صراحة بأنه هو كاتبها في قوله « قال أبو الحسن » أو « قال ابن بسام » ، وأكثر ما يقدمه إلينا الشنور والصور الأدبية ، ويخصص ابن بسام لأكثر الشعراء والكتاب البارزين ، في كتابه ، فصولاً إضافية ، وقد يصل ما يكتبه أحياناً عن أحدهم قدر كتاب برمته ، وهذا ما فعله مثلاً في الكتابة عن أبي عامر بن شهيد ، وأبي الوليد بن زيدون .

ويقدم إلينا ابن بسام شخصياته ما بين خلفاء وأمراء ووزراء وكتاب

وشعراء بطريقة خاصة ، تقوم أولاً على ذكر ما اتصفوا به من الصفات الأدبية ،
وثانياً على تقديم ما أمكن من آثارهم من مختار المنشور والمنظوم ، ومن هؤلاء
بالطبع كثير من رجالات الطوائف ، الذين عاصروهم ابن بسام أو عاش قريباً
من عصرهم .

وللشذور التي ينقلها ابن بسام عن ابن حيان في ذكر أمراء الطوائف
ووزرائهم وأدبائهم أهمية بالغة ، لأنها كتبت بقلم معاصر قوى الملاحظة ،
شديد الاتصال ، وهذه الشذور المعاصرة بالذات هي التي لم تصلنا من مؤلف
ابن حيان ، ومن ثم فإن لابن بسام أكبر الفضل في نقلها إلينا على هذا النحو .
ويتبع ابن بسام في معظم ما يكتبه طريقة السجع ، ولكنه مع ذلك يكتب
بأسلوب مشرق في مجموعه ، وإن كان السجع يطغى على بعض المعاني ، ويذهب
به إلى ضروب من المبالغة .

ويعتبر كتاب « الذخيرة » مثل كتاب « العقد الفريد » من الكتب الأندلسية
المميزة لعصر بعينه ، بيد أنه على النقيض من « العقد الفريد » الذي يغلب على
محتوياته أدب المشرق ، يعتبر أروع نموذج للأدب الأندلسي الرفيع . وإنك
لتكاد تشعر من تلاوة محتوياته أنك تعيش مع شخصياته في عصرهم ، وفي
ظروف مجتمعهم ، وتنطق مع مؤلفه تلك المختارات العديدة الرائقة التي يوردها
من منشورهم ومنظومهم .

وكتب ابن بسام غير « الذخيرة » عدة مصنفات أخرى ، منها كتاب
في شعر المعتمد ابن عباد ، وكتاب في شعر ابن وهبون ، ورسالة عنوانها « سلك
الجواهر في ترسيل ابن طاهر » ، ومجموعة مختارة من شعر أبي بكر ابن عمار .
ويمتاز ابن بسام ، في سائر كتاباته ، بأسلوبه المسجع المشرق ، كما يمتاز
بملاحظاته النقدية القوية ، التاريخية والاجتماعية . وهو في أحيان كثيرة لا يحجم
عن مهاجمة معاصريه من الأمراء ، والكتاب والشعراء ، ذلك أن ابن بسام
كاتب مستقل ، بعيد عن الملق ، وهو لم يعرف عنه أنه خدع أحداً من أمراء
عصره أو تطفل على مواعدهم ، أو تقلب في صلاتهم ، أسوة بمعظم زملائه
من كتاب عصره وشعرائه ، وقد كانوا يحتشدون جميعاً في قصور الطوائف ،
ويتقبلون في نعمة أمراءهم .

وتوفي ابن بسام بمدينة قرطبة عن سن عالية في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) .

الشريف الإدريسي

عمدة الجغرافيين المسلمين

(٤٩٣ - ٥٦٠ هـ) ، (١٠٩٩ - ١١٦٦ م)

مضى إلى اليوم زهاء ثمانية قرون على وفاة الجغرافي المسلم العظيم الشريف الإدريسي ، الذي يعتبر بحق عمدة الجغرافيين المسلمين ، والذي أنفق شبابه في شبه الجزيرة الإسبانية ، طالباً دارساً ، وباحثاً متجولاً ، ثم خص جغرافيتها ووصفها ، في موسوعته الجغرافية العظيمة ، بأقيم فصولها .

وقد حدث منذ عهد قريب حادث علمي هام ، يثير ذكرى الإدريسي وذكر تراثه الجغرافي . ذلك أنه قد ألفت لجنة من العلماء المستشرقين ، لتقوم على نشر الموسوعة الجغرافية العظيمة التي خلفها الإدريسي ، ولم ير النضياء منها حتى يومنا سوى أجزاء يسيرة .

وهذا النبأ يعني الكثير . ذلك أن مؤلف الإدريسي « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ما يزال يعتبر حتى اليوم ، من حيث مادته وتنوعه ودقته ، وكذلك من حيث حجمه ، أعظم موسوعة جغرافية ، كتبت في العصور الوسطى . وقد كتبه مؤلفه في ظروف خاصة لم تتح لكثير من أقرانه الجغرافيين المسلمين . ذلك أنه وهو العلامة المسلم ، قد عاش وألف في بلاط أمير مسيحي ، ووضع لنا في ظل رعايته وتشجيعه ، ذلك الأثر الجامع الذي يعتبر من أعظم الآثار التي يضمها تراث العلوم العربية .

وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن علي ابن محمود بن ميمون الحمودي سليل أسرة بني حموذ الملوكية البربرية ، التي حكمت جنوبي الأندلس وثمر سبتة ، في أوائل القرن الخامس الهجري ، وسمى بالشريف لأنه يتصل بنسبته إلى أسرة الأدارسة الحسنية ، التي ينتمي إليها بنو حمود ، والتي حكمت المغرب منذ أواخر القرن الثاني الهجري ، وهذه ترجع نسبها إلى آل البيت ، ومن ثم فإن نسبته تورد منذ جده الأعلى ميمون على النحو الآتي :

ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب . وإذا فهو وفقاً لهذه النسبة كذلك سليل
آل البيت (١) .

ولد الإدريسي بغير سببة في سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) . وقد كانت مدينة
سببة المغربية . وهي التي لعبت دوراً عظيماً في تاريخ المغرب والأندلس ، والتي
تعتبر اليوم أرضاً إسبانية تتبع ولاية قادس الأندلسية ، وتحتلها إسبانيا منذ أربعة
قرون — كانت مسقط الرأس لجمهرة كبيرة من علماء المغرب والأندلس ،
وتشتهر بالأخص بمولد رجلين من أبنائها ، يشغل كل منهما مكانة بارزة في
تاريخ العلوم العربية ، وقد عاش كلاهما في نفس العصر تقريباً ، أي في النصف
الأول من القرن السادس الهجري ، هما الشريف الإدريسي ، أعظم الجغرافيين
المسلمين ، والقاضي عياض بن موسى السبتي أعظم حفاظ المغرب بلا مراء .

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة الإدريسي وحياته الأولى ، بيد أننا نعرف
من إشارات وردت في مؤلفه ، أنه درس في معاهد الأندلس ، ولا سيما في
قرطبة ، وقد كانت الأندلس يومئذ تحت حكم المرابطين سادة المغرب . ونعرف
كذلك أنه قام برحلات عديدة في شبه الجزيرة الإسبانية ، ووصل في تجواله
غرباً حتى ثغر أشبونة أو لشبونة عاصمة البرتغال الحديثة ، وقد كانت يومئذ
ثغر ولاية الغرب الأندلسية . ثم زار شمالي إسبانيا وتجول في جليقية ، بل هنالك
في كتاباته ما يدل على أنه زار شواطئ فرنسا مما يلي خليج بسكونية ، ووصل
في رحلاته البحرية حتى شواطئ إنجلترا الجنوبية . ولما أتم تجواله في شبه الجزيرة
الإسبانية وما إليها ، عبر البحر إلى المغرب ، وتجول في شماله وجنوبه ، وهنالك
ما يدل على أنه عاش حيناً في مدينة مراكش ، وحيناً آخر في شمالي المغرب
بمدينة قسنطينة . وكذلك رحل الإدريسي إلى المشرق ، وتجول في آسيا الصغرى
وزار المغارة المنسوبة إلى أهل الكهف حسبما يحدثنا بذلك . ومن المحقق أن هذه

(١) تورد نسبة الإدريسي على هذا النحو في ترجمة موجزة له مدونة في الصفحة الثانية من
المجلد الأول من مخطوط مصور لكتاب « بنية الطلب في تاريخ حلب » لابن هبة الله ، وهو محفوظ
برقم ١٥٦٦ تاريخ بدار الكتب المصرية .

الرحلات العديدة ، كان لها أكبر أثر في تكوين معلوماته الجغرافية ، التي ظهر أثرها فيما بعد في أبواب كثيرة من معجمه الجغرافي .

وهنا يلعب القدر دوره في تطور حياة الإدريسي . ذلك أننا نراه بعد ذلك في جزيرة صقلية ، يمثل في بلاطها ، ويخوض حياة علمية باهرة . ونحن نعرف أن جزيرة صقلية ، افتتحها المسلمون تبعاً لما بين سنتي ٢١٣ و ٢٦٤ هـ (٨٢٨ — ٨٧٨ م) ، وغدت في ظلهم حديقة يانعة ، تزدهر بعلومها وتجارتها وصناعاتها ، حتى إذا أدرك الوهن تلك الدولة الإسلامية الصغيرة ، توالى عليها حملات الفرنج ، حتى غزاها النورمان بزعامة روبرجويسكار والدوق روجر في سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ، وتم افتتاحها في سنة ١٠٨٦ م ، وكان الدوق روجر أول حكامها من النورمان ، فشمّل سكان الجزيرة من المسلمين واليونان بتسامحه ، وسمح للمسلمين بالاحتفاظ بمساجدهم ، وقضايتهم ، وأطلق لهم حرية التجارة . ولما توفي الدوق روجر في سنة ١١٠١ م ، خلفه ولده الطفل روجر حدثاً ، وبدأ حكمه للجزيرة حينما بلغ الثامنة عشرة في سنة ١١١٢ م . وكان الدوق روجر الثاني أو رُجَّار كما تسميه الرواية الإسلامية ، من أعظم ملوك عصره ، وفي ظله غدت صقلية دولة عظيمة ، وكان مثل أبيه من قوى الأفق الواسع ، ومن يقدرّون تفوق المسلمين الحضارى ، ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ، ومن ثم فقد استطاعت الحالة الإسلامية أن تعيش في ظله مدى حين ، متمتعة بسائر شعائرها ونشاطها الاجتماعى والثقافى . وفى ظل هذا التسامح الحمود ، دعا الدوق روجر للعمل فى بلاطه رهطاً من العلماء المسلمين ، من الصقليين المحليين ، ومن إفريقية والمغرب ، وكان فى مقدمة هؤلاء الشريف الإدريسي . متى وفد الإدريسي على بلاط الملك النورمانى ؟ وفى أى ظروف تلقى دعوته أو كان مقدمه ؟ هذا ما لا نعرفه بالتحقيق .

ولكن توجد فى ذلك ثمة روايتان ، تحظى كل منهما بشيء من التأييد . أما الأولى فيقدمها إلينا الصفدى ، فيما كتبه فى معجمه عن الإدريسي ، وهو أن الدوق روجر ، هو الذى استدعى الإدريسي إلى بلاطه فيمن استدعى من العلماء المسلمين ، ويسوق الصفدى إلينا روايته على النحو الآتى :

« رجّار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ويقال فيه أجار بهزمة بدل الرء ، وجيم مشددة ، وبعد الألف راء — كان فيه محبة لأهل العلوم والفلسفة ، وهو الذى استقدم الشريف الإدريسي صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من العلوة إليه ، ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالم ، فلما وصل إليه أكرم نزله وبالحق فى تعظيمه » (١) .

وأما الرواية الثانية ، فنستطيع أن نفهمها على ضوء ما يقدمه إلينا الرحالة الأندلسى ابن جبير . ويحدثنا ابن جبير فى رحلته عن مسلمى صقلية ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه وبلارمه (بلرم) وإطرابنش (ترابانى) ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم . وهو يقول لنا بصفة عامة « إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وإن النصارى قد أحسنوا السيرة فى استبقائهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها فى فصلين فى العام ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها . ثم يقول لنا إنه لم يكن فى مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من قوى المهن ، وأما بلرم وهى عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين ، وفيها سكنى الحضرين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قرأها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين فى بلرم رسم باق من الإيمان يعمرّون به أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض ، قد انفردوا فيها بسكنائهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم فيها بسبب الخطأ المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسى ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بجميل صنعه » .

ويزيد ابن جبير على ذلك ، أن زعيم مسلمى صقلية وقت زيارته للجزيرة

(١) معجم تراجم الصنفى . وقد نقل النص إلينا صاحب الأدب الجغرافى العربى ج ١

في سنة ٥٨٠ هـ ، كان هو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، « وهو من ورثة أهل السيادة » ، ومعنى ذلك أن أسرة بنى حمود هذه ، وهم فرع من أسرة بنى حمود المملوكية التي ينتمى إليها الإدريسي ، كانت تحتل مركز الزعامة من مسلمي صقلية منذ مدة طويلة ، ومن الممكن أن يكون الإدريسي ، وهو قد وفد على الجزيرة قبل ابن جبير بنحو خمسين عاماً ، قد وفد عليها إما تلبية لدعوة مباشرة من الدوق ريجار حسبما تقدم ، وإما بتشجيع أقاربه بنى حمود . ولدينا من جهة أخرى قول ثالث بأن الإدريسي « نشأ في أصحاب رجار الفرنجي صاحب صقلية » ، وهو ما قد يعنى أن الإدريسي ، وفد على الجزيرة من تلقاء نفسه ، وامتزج فيها بأصحاب رجار من العلماء المسلمين ، وانتهى إلى التمتع بعطف الدوق ورعايته^(١) . وكان وفود الإدريسي على الجزيرة ، فيما يرجح بين سنتي ١١٣٠ و ١١٤٠ م . وكان العلامة المسلم يومئذ ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافي ، فاستقبل في بلاط صقلية بترحاب ، وأغدق عليه الدوق رجار عطفه ورعايته ، وعهد إليه بالمهمة العلمية العظيمة ، التي حققها الإدريسي بكتابة معجمه الجغرافي الخالد .

* * *

عكف الإدريسي على تأدية مهمته العلمية في جو يظله التفكير الحر المستنير ، والتعاون العالمي المثمر بين الشرق والغرب ، والارتفاع بالقيم العلمية والأدبية فوق الاعتبارات والمبادئ الرجعية ، التي كانت سائدة في تلك العصور في كثير من المجتمعات . ومن ثم فلما نجد العلامة المسلم يحدثنا في مقدمة كتابه عن الدوق روجر بمنتهى الإعجاب والإجلال على النحو الآتي : « وإن أفضل ما عني به الناظر ، واستعمل فيه الأفكار والخواطر ، محاسن الملك العظيم رجار ، المعز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وأنطاكية وأنكبردة وقلورية ، إمام رومية ، الناصر للملة النصرانية ، إذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً » ثم يشيد بقوته ، وعدله ، وعلمه ، وسعة معارفه .

ويشرح لنا الإدريسي بعد ذلك ، الظروف التي عهد فيها إليه الملك رجار

(١) وردت هذه العبارة في ترجمة الإدريسي المخطوطة التي سبقت الإشارة إليها .

(روجر) بمهمته الجغرافية الكبرى ، فيقول ، إن الملك لما اتسعت حدود مملكته « أحب أن يعرف كيفية بلاده حقيقة ، ويقتلها يقيناً وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برأ وبجرأ ، وفي أى إقليم هي ، وما يحفها من البحار والخلجان الكائنة ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة ، التى اتفق عليها المتكلمون ، وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها في قسم بلاد تحتوى عليه ، وترجع إليه . وتقدمته بطلب ما في الكتب المؤلفة في علم ذلك كله ، مثل كتاب العجائب للمسعودي ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى ، وكتاب أبى القاسم عبد الله بن خرداذبه ، وكتاب أحمد بن عمر الغزرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب ابن خاقان الكيماكى ، وكتاب موسى بن قاسم القروى ، وكتاب أبى يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب إسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطليموس الأقلودى ، وكتاب أرسىوس الأنطاكى ، فلم نجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلاً ، بل وجدته فيها مغفلاً ، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه ، وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علماً أكثر مما في الكتب المذكورة . فلما رأهم على مثل هذه الحال ، بعث إلى سائر بلاده ، فأحضر العارفين بها المتجولين فيها ، فسألهم جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم وصح في جمعه نقلهم أثبتة وأبقاه . وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ، وأقام في ذلك نحو من خمس عشرة سنة ، لا يخلى نفسه في كل وقت من النظر في هذا الفن والكشف عنه ، والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريد . »

ولما تمت دراسة المصادر القديمة أمر الدوق بعد ذلك ، وحسبنا يحدثنا الإدريسي « أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الحرم ، ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل بالرومى في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً . » وأن تنقش فيها صور الأقاليم السبعة ، بأقطارها وبلادها وخليجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها . والأقاليم السبعة هي أساس التقسيم الجغرافى للعالم في العصور الوسطى ، وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين . فقام العمال المهرة ، تحت إشراف الإدريسي وتوجيهه ، بإتمام تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه ، ونقش فوق الكرة الفضية ، خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ . وقد

اشتهرت هذه الخريطة الإدريسية يومئذ ، وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوربيين في العصور الوسطى ، ولا سيما العلامة البندق مارينوسانوتو (١٢٦٠ — ١٣٣٨ م) ، الذى استرشد بها في معظم خرائطه . ويقال إن الخريطة المنشودة لم تستغرق من الفضة التى نقشت عليها سوى الثلث ، وإن رجار وهب الجغرافى المسلم بقية الكمية الفضية ، وأعطاه فوق ذلك مبلغاً كبيراً من المال ، وشحنة سفينة من نفيس المتاع .

وهذا ما يرويه لنا الصفدى في كلامه عن الإدريسي حيث يقول لنا إن رجار أعجب بالكرة الفضية « ودخل في ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل ، وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتركها له إجازة ، وأضاف لذلك مائة ألف درهم ، ومركباً مسافاً ، كان قد جاء إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التى تجلب للملوك . وسأله المقام عنده ، وقال له أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين ، عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك ، فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك » .

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافى عام ، يرسم مطابقاً للكرة الفضية ، وتستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها ، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين ، وأماكنها ، وصورها ، وبحارها ، وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وعللها وخواصها ، وأجناس نباتها ، وما بها من الصناعات والتجارات ، وما يذكر عنها من العجائب ، وحيث هى من الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها ، وحيثهم ومذاهبهم ، وأزيائهم ، ولغاتهم . هكذا يخصص لنا الإدريسي في مقدمته محتويات الموسوعة الجغرافية الكبرى ، التى عهد إليه الملك رجار بوضعها ، وقد اعتمد الإدريسي في وضع هذه الموسوعة ، فضلاً عن مادته ومعلوماته الشخصية ، التى جمعها من طوافه في شبه الجزيرة الإسبانية وشواطئ فرنسا وغربي البحر المتوسط وجزائره والمغرب وآسيا الصغرى ، وما استقاه من بحوث الجغرافيين القدماء ولا سيما بطليموس ، ومن أسلافه الجغرافيين المسلمين العظام مثل اليعقوبى ، وابن خردادبة والمسعودى وابن حوقل — اعتمد فضلاً عن ذلك كله على تقارير الرسل والمبعوثين ، الذين أوفدهم الملك رجار بإشارته وتوجيهه

إلى مختلف البلدان الأوروبية^(١) ، ومنها فرنسا ، وإيطاليا وألمانيا وبلاد اسكندناوه ، وجزائر بحر الأدرياتيك ، وجزر الأطلنطي ، وهي التي يتناولها الإدريسي جميعاً ، ولأول مرة في الجغرافية العربية ، وجغرافية العصور الوسطى — بكثير من الدقة والبراعة ، في التحديد والوصف . واستغرقت بحوث الإدريسي ، ثم وضع المؤلف كله خمسة عشر عاماً ، وانتهى من وضعه ، حسبما يحدثنا الإدريسي في مقدمته في العشر الأول من شهر يناير سنة ١١٥٤ ، الموافق لشهر شوال سنة ٥٤٨ هـ ، وذلك قبيل وفاة الملك النورمانى بأشهر قلائل . وسمى المؤلف « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، وهو اسم يقول لنا الإدريسي إنه من وحى الملك رجار وإشارته ، ولما كان المؤلف كله ، قد وضع بإشارة الملك رجار ورعايته ، وأهدى إليه في مقدمته ، فقد سمي كذلك « كتاب رجار » أو « الكتاب الرجاري » تنوياً من مؤلفه بفضل هذا الأمير العالم المستنير .

ويعتبر كتاب « نزهة المشتاق » ، أعظم مؤلف جغرافي في العصور الوسطى . وبالرغم من أنه يجري في وصف البلدان على نظرية « الأقاليم السبعة » المتبعة في سائر البحوث الجغرافية القديمة ، فإنه يمتاز بنزعة العلمية . ويكفى أن تعلم أن الإدريسي يبدأ كتابه بالتحدث عن « كروية الأرض » ، ويمتاز من جهة أخرى بخرائطه العديدة التي بلغت سبعين خريطة ، لكل إقليم من الأقاليم السبعة ، عشر خرائط بعدد أقسامه . وأبدع أقسام نزهة المشتاق هي الفصول التي تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الإسبانية والمغرب ، وبحر الأدرياتيك وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، وهي البلاد التي تجول فيها الإدريسي ودرسها عن كثب . ففي هذه الفصول يكشف الإدريسي عن رسوخ معلوماته ودقة مشاهداته . هذا إلى ما يبيده من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوروبا الشمالية مثل ألمانيا وبلاد اسكندناوه ، وهي معلومات تمثل لأول مرة في الجغرافية العربية . ويعنى الإدريسي عناية خاصة بذكر المسافات الزمنية ، بين مختلف الأقاليم والمدن ، كما يعنى بوصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للشعوب والأجناس التي يتحدث عنها . وفضلاً عن ذلك فإن الإدريسي يبدى دقة واضحة في تعريف

(١) وهذا ما يرويه لنا الصفدى في حديثه عن الإدريسي — الأدب الجغرافي العربي ج ١

المصطلحات والأعلام الجغرافية الأوربية ، وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية ، وربما الإيطالية ، التي كانت يومئذ لغة البلاط النورمانى ، والقشتالية التي وقف عليها خلال تجواله فى شبه الجزيرة الإسبانية . وفى القسم المتعلق بشبه الجزيرة الإسبانية يقدم إلينا الإدريسى أغرب قصة استكشافية بحرية قام بها مسلمو الأندلس ، هى قصة « الإخوة المغربين » وهم ثمانية إخوة أو أبناء عم من أهل مدينة الحامة الأندلسية ، خرجوا من ثغر أشبونة فى مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفى لأشهر ، وساروا فى بحر الظلمات (أعنى المحيط الأطلنطى) فى اتجاه الغرب عدة أيام ، ثم ساروا جنوباً نحو ثلاثة أسابيع أخرى فى بحر كدر ، على الأمواج ، حتى لاحت لهم جزيرة رأوا بها رجالاً عمالقة ، ونساء فائقات فى الحسن . فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أياماً حتى جرت الريح الشرقية ، ثم وضعهم فى سفينتهم معصوبى الأعين ، وسارت بهم السفينة أياماً حتى رست على مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوى . ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة أن أولئك المغامرين الأندلسيين ، قد اكتشفوا بعض جزر الكنارى أو جزر الرأس الأخضر الواقعة غربى السنغال . وقد كانت قصة هذه المغامرة البحرية التى ينفرد الإدريسى بروايتها ، فيما بعد ضمن الحوافز التى شجعت البحارة البرتغاليين ، وفى مقدمتهم الأمير هنرى الملاح ، على القيام برحلاتهم البحرية العظيمة فى المحيط الأطلنطى ، منذ أوائل القرن الخامس عشر .

وتشغل موسوعة الإدريسى الجغرافية « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عدة مجلدات كبيرة . وتوجد منها نسخ مخطوطة عديدة ، فى باريس وأكسفورد وامستنبول والقاهرة . بيد أنه لم ينشر حتى اليوم منها بالعربية ، سوى مختصر طبع فى رومة منذ سنة ١٥٩٢ م فى مطبعة آل مديتشى ، والقسم المتعلق بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، وقد نشر بعناية العلامة دوزى منذ نحو قرن ، ثم نشر القسم الخاص بالأندلس مرة أخرى بعناية المستشرق الإسبانى سافدرا ، ونشرت كذلك الأقسام المتعلقة بإيطاليا وصقلية وسوريا وفلسطين والهند . وترجمت الأقسام المذكورة إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والإنجليزية . وترجمت الموسوعة كلها إلى اللاتينية منذ أوائل القرن السابع عشر ، ولكنها ترجمة مليئة بالأخطاء . وترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية فى القرن الماضى ، وما يزال

معظم أقسام هذه الموسوعة الجغرافية العربية العظيمة مخطوطاً لم ير الضياء . ونحن نرجو أن يكون الوقت قد حان لإخراجها كاملة بعد هذا الاحتجاب الطويل .
وقد كتب الإدريسي ، غير موسوعته الجغرافية ، كتاباً آخر عنوانه « روض الأنس ، ونزهة النفس » أو « كتاب المسالك والممالك » كتبه للملك ولیم الأول (غليالم) ولد اللوق رجار ، وهو الذى خلف أباه فى الملك . بيد أنه لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد بإحدى مكتبات استانبول .
وكان الإدريسي ، فوق براعته فى العلوم الجغرافية ، أديباً متمكناً وشاعراً محسناً ، ومن نظمه قوله :

ليت شعرى أين قبرى ضاع فى الغربة عمرى
لم أدع للعين ما تشـتاق فى بر وبحر
وخبرت الناس والأرض لدى خير وشر
لم أجد ناراً ولا داراً كأنى لحي صـلـرى
فكأنى لم أسر إلا بميت أو بقـفـر^(١)

وتوفى الشريف الإدريسي فى سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٦ م) فى السابعة والستين من عمره . ولسنا نعرف أين توفى وأين دفن ، ويغلب على الظن أنه استقر فى البلاط النورمانى ، فى بلرم حتى توفى ودفن بالجزيرة^(٢) .

(١) نقلنا هذه الأبيات المنسوبة للإدريسي من الصفحة الثانية من المجلد الأول من المخطوط المصور « بغية الطلب » الذى صبقت الإشارة إليه .

(٢) رجعنا فى كتابه هذا البحث إلى الأجزاء المخطوطة من نزهة المشتاق الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٣ جغرافيا . وإلى مخطوط « بغية الطلب » السابق ذكره ، وإلى كتاب الأدب الجغرافى العربى لكرايشكوفسكى ، وإلى دائرة المعارف الإسلامية ، مقال « الإدريسي » وإلى تـلـف الأقسام المطبوعة من « نزهة المشتاق » التى أتينا على ذكرها . وكذلك إلى رحلة ابن جبير .

أبو بكر بن طفيل

الفيلسوف والطبيب والشاعر

(توفي سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م)

كان العلامة الطبيب الفيلسوف أبو بكر بن طفيل ، ثالث ثلاثة من أئمة الحكمة الأندلسية ، وعباقره التفكير الإسلامى ، الذين ظهوروا خلال القرن السادس الهجرى ، وهم أبو بكر بن الصائغ (ابن باجة) وابن طفيل ، وتلميذه ابن رشد .

وابن طفيل ، هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسى ، وأصله من وادى آش ، تلك المدينة الأندلسية العريقة من مدن ولاية غرناطة ، التى ينتمى إليها كثير من العلماء والأدباء ، التى استطاعت أن تحتفظ بعروبها وإسلامها حتى أيام الأندلس الأخيرة ، فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق ، وربما ولد فى الأعوام الأولى من القرن السادس الهجرى . ودرس ابن طفيل الحديث والفقه واللغة على أبى محمد الرُّشاطى ، وعبد الحق بن عطية ، وغيرهما أقطاب العصر ، ولكنه مال إلى الحكمة «وعِلوم الأوائل» ، ودرس الحكمة والطب بإشبيلية ، وكان فى مقدمة أساتذته ابن باجة أعظم فلاسفة الأندلس يومئذ ، وغيره من أعلام العصر ، وبرع منذ شبابه فى الفلسفة والطب ، كما برع فى الفقه والأدب . وبدأ ابن طفيل حياته العامة ، فى الوقت الذى اضطرت فيه الأندلس بالثورة على المرابطين ، وقامت فى كل قاعدة أندلسية حكومة قومية جديدة على نمط الطوائف . وكانت بلدة وادى آش ، قد حذت فى ذلك حذو غيرها ، وقام بها أحمد بن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ، فانظم ابن طفيل بين كتابه ، وخدمه مدى حين . ولما سقطت حكمته بعد ذلك بأعوام قلائل ، وتغلب الموحدون على قواعد الأندلس ، انتقل ابن طفيل إلى خدمتهم ، وكتب للسيد أبى سعيد ولد الخليفة عبد المؤمن بن على ، حين ولايته لمالقة وسبتة والجزيرة الخضراء فترة أخرى .

على أن القدر كان يدخر لابن طفيل مكانته الحقيقية على يد الأمير الموحدى السيد أبى يعقوب يوسف بن الخليفة عبد المؤمن بن على . فقد عين هذا الأمير والياً لإشبيلية فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، وكانت لإشبيلية قد غدت يومئذ قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس ، بعد أن عفا الزمن على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وغدت فى الوقت نفسه أعظم مراكز الحركة الفكرية والأدبية . وكان السيد أبو يعقوب ، عالماً ، فقيهاً ، أديباً يشغف بالدرس ، ويجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، حتى غدت لإشبيلية خلال الأعوام الثمانية التى قضاها فى حكمها ، جامعة الأندلس الحقيقية ، وكان ابن طفيل فى مقدمة هذا الرهط العلمى الذى ينظم حول الأمير العالم . ولما توفى الخليفة عبد المؤمن بن على فى سنة ٥٥٨ هـ ، خلفه فى الخلافة ولده السيد أبو يعقوب يوسف . ولسنا نعرف بالتحقيق ما إذا كان ابن طفيل قد شغل منصب الطبيب الخاص للخليفة الجديد ، منذ البداية . بيد أنه لما مرض الخليفة فى سنة ٥٦٥ هـ واستطال مرضه أربعة عشر شهراً ، كان الذى يتولى علاجه ، وفقاً لرواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين المعاصر ، « طبيباه أبو مروان بن قاسم ، وأبو بكر بن طفيل » . وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية فيها الفيلسوف والطبيب الكبير باعتباره طبيب الخليفة الموحدى . على أنه يلوح لنا مما تؤكده لنا الرواية من توثق أو أصر المحبة والصداقة بين الخليفة وطيبه ، أن ابن طفيل كان يشغل منصبه قبل ذلك بأعوام . ومن جهة أخرى ، فإن ابن طفيل لم يكن فقط طبيب الخليفة ، وإنما كان فى نفس الوقت مستشاره وموضع ثقته . وكان من أثر ذلك ما عهد به الخليفة إليه ، من نظم قصيدة بليغة حماسية فى دعوة طوائف العرب الذين بإفريقية ، وحثهم على الاشتراك فى الجهاد بالأندلس ، يشاد فيها برفيع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضى فى نصرة الدين ، فنظم ابن طفيل تحقياً لتلك الغاية قصيدة طويلة فى أربعين بيتاً تفيض بلاغة وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف ، فى نفس الوقت من منزلة عالية فى النظم ، تضعه فى صف أكابر الشعراء . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة ، بأكملها ، وقد جاء فى مطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكى العاديات على العدا فقد عرضت للحرب بجرى السلاهب

فلا تقننى الآمال إلا من القسنى
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم
ولا تكتب العليا بغير الكتائب
على الهول ركاب ظهور المصائب
ومنها فى استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عريسة
تحف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر
وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شلوا عمادها
بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
وفيثوا إلى التحقيق فيئة راغب

وهذه الناحية من نواحى عبقرية ابن طفيل ، أعنى شاعريته العالية ، وروعة نظمه ، لم تأخذ حقها من التعريف إذ كانت صفاته العلمية والفلسفية ، تغطي دائماً على ما عداها من صفاته الأخرى . بيد أننا سوف نرى فيما بعد أن لابن طفيل غير هذا النظم السياسى الحماسى نظماً رقيقاً آخر .

* * *

وفى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف فى جيوش الموحدين إلى الأندلس طلباً للجهاد ، وكان فى ركبته بالطبع طبيبه الخاص ابن طفيل ، وقضى الخليفة فى شبه الجزيرة خمسة أعوام . وكانت إشبيلية مقامه الأثير . وفى هذه الفترة التى قضاها الخليفة أبو يعقوب فى المدينة الأندلسية العظيمة ، تفتحت مواهبه العلمية والأدبية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم أئمة التفكير الإسلامى ، هم طبيبه الخاص ابن طفيل ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد ، والطبيب العبقرى عبد الملك بن زهر ، وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطيبه ابن طفيل ولا يصبر على فراقه ، وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه لديه بفضل ابن رشد وبراعته . وكان هذا الخليفة العالم أبو يعقوب ، يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ . وإذا صدقنا رواية المراكشى التى ينقلها إلينا عن القرطبى ، فإن الفضل يرجع إلى هذا الخليفة فى وضع شروح فلسفة أرسطو العربية . ذلك أنه وفقاً لهذه الرواية ، هو الذى أوعز إلى طفيل بوجوب عمل تلخيص

جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها ، وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل نظراً لكثرة مشاغله وشيخوخته ، هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة العلمية ، لما يعلمه من مقدرته ، وقوة نزوعه ، وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذى حمل ابن رشد على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى الشروح التى اشتهر بها وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى .

ومما هو جدير بالذكر أن التفكير الفلسفى ، كان قبل ذلك بنحو نصف قرن يحوز فى الشرق الإسلامى أزمة خطيرة . ذلك أن فقيه المشرق العظيم الإمام أبا حامد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) ، كان فى أواخر حياته قد حمل على الفلسفة بشدة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وقال إنها لا قيمة لها لأنها تؤدى إلى نتائج غير موثوق بها ، وإن دراسات أرسطو تعارض الإسلام . وعرض فى كتابه مآثر الأسباب التى تبرهن على أن الفلسفة ميدان يجب اجتنابه ، وكانت هذه ضربة شديدة للتفكير الفلسفى فى المشرق . ولكن آراء الغزالى لم تلق فى الأندلس قبولا حسناً ، وبالعكس ، فقد نهض أئمة التفكير الأندلسى لمقاومتها ، وإنقاذ الفلسفة من آثارها الهدامة . وكان فى طليعة هؤلاء أبو بكر بن الصائغ (ابن باجة) ، وتلميذه ابن طفيل ، وكان ابن رشد تلميذ ابن طفيل أعظمهم أثراً فى ذلك ، حيث جاءت شروحه الشهيرة لفلسفة أرسطو ، دفعة قوية جديدة للتفكير الفلسفى فى الغرب الإسلامى ، هذا فضلاً عما اضطلع به من تفنيد أقوال الغزالى فى كتابه « تهافت التهافت » .

ولما توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (أغسطس سنة ١١٨٤ م) عقب نكبته فى موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل فى منصبه طبيباً خاصاً لولده الخليفة الجديد أبى يوسف يعقوب المنصور . بيد أنه لم يعيش طويلاً بعد ذلك إذ توفى بمراكش فى أواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٤ م) وحضر الخليفة جنازته بنفسه .

وأشهر مؤلفات ابن طفيل رسالة « حى بن يقظان » أو « أسرار الحكمة

المشرقية ، و « الأرجوزة الطبية المجهولة »^(١) ورسالة « النفس » ، وغيرها من مؤلفات ورسائل أخرى لم تصل إلينا .

وقد انتهت إلينا لحسن الحظ رسالة « حى بن يقظان » وهى تلخيص فلسفى رائع لأسرار الطبيعة والحليقة ، عرضت خلال حياة وأعمال طفل خلق بجزيرة نائية منعزلة أو ألقى إليه بها ، فنشأ فى أحضان الطبيعة ، واستطاع بالملاحظة والتجربة والاستقصاء لطروف الحياة ومختلف أطوارها ومظاهرها ، أن يصل إلى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا ، وأن يتقرب فى تأمله من الله . وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية ، وهو لا يزيد عن نحو سبعين صفحة ، فقد لفتت بروعة ابتكارها أنظار النقد الحديث ، وترجمت إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك إلى عدة من اللغات الأوروبية الأخرى^(٢) . وقد رأينا أن نقدم إلى القارئ خلاصة وافية من تلك القصة الفلسفية الممتعة على النحو الآتى ، وقد يكون التلخيص أحياناً من أقوال ابن طفيل نفسه ، وقد يكون أحياناً من كلامنا :

لإنه كان ثمة جزيرة من جزائر الهند ، التى تحت خط الاستواء ، وهى الجزيرة التى يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب ، وبها شجر يشمر نساء ، وهى التى ذكر المسعودى أنها جزيرة « الواقواق » ، وأنه نظراً لطبيعة تلك الجزيرة ، فإنه يجوز تولد الإنسان بها من غير أم ولا أب ، وأن بعضهم جزم

(١) هذا وقد اطلعنا فى خزانة جامع القرويين بفاس على نسخة خطية قديمة توصف بأنها « رجز ابن الطفيل » ، ذلك حسبما تدل عليه صيغة التحييس المسجلة على الورقة الأولى . وتقع هذه الأرجوزة فى نحو سبعة آلاف بيت وأولها :

الحق لله الملئ الظاهر فى الملك والمجد القاهر

وموضوع الأرجوزة حسبما يوصف فى البيت الآتى الوارد فى الصفحة الأولى هو دراسة على الإنسان وطرق معالجتها :

أذكر فيه علل الإنسان بغاية الإيضاح والبيان

وهذا الأثر المخطوط هو نفس أرجوزة ابن طفيل الطبية المسماة « الأرجوزة الطبية المجهولة » .

(٢) ترجمها إلى اللاتينية Pockocke ونشرت بأكسفورد سنة ١٦٧١ بعنوان Philosophus Autodidactus » ومعناها « الفيلسوف المعلم نفسه » ؛ ونشرت ترجمتها الإنجليزية فى سنة ١٧٠٨

بقلم Ockly ، والفرنسية سنة ١٩٠٠ بقلم Gantler ، ونشرت ترجمتها الإسبانية سنة ١٩٠٠

بقلم المشتري Pons Boigues .

القضية بأن «حى بن يقظان» من جملة من تكون فى تلك البقعة من غير أم ولا أب ، بيد أنه يوجد ثمة من ينكر ذلك ، ومن يروى عن أمره الخبر الآتى :

إنه كان يلزاء تلك الجزيرة ، جزيرة عظيمة عامرة بالناس يمتلكها رجل شديد الأنفة والغبرة ، وله أخت رائعة الحسن ، ففضلها ومنعها عن الزواج ، أو لم يجد لها كفواً ، وكان له قريب يسمى يقظان ، فتزوجها سرّاً ، على وجه جائز من وجوههم ، ثم إنها حملت منه فوضعت طفلاً ، فلما خافت أن يفترض أمرها ، وضعته فى تابوت أحكمت إغلاقه ، بعد أن أروته من الرضاع ، وخرجت به ليلاً فى جملة من خدمها إلى ساحل البحر ، وقذفت بالتابوت إلى اليم داعية إلى ربها أن يشمل وليدها بلطفه ، وكان من لطف الله أن حمل المد التابوت إلى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة ، مستورة عن الرياح والمطر ، ثم أخذ الماء فى النقص والجزر عن التابوت الذى به الطفل ، فبقى فى ذلك الموضع ، وعلت الرمال وتراكمت حتى سدت باب الأجمة على التابوت وردمت مدخل الماء إلى الأجمة . ثم قلقت مسامير التابوت وتفككت ألواحها . فلما اشتد الجوع بالطفل بكى واستغاث ، فوقع صوته فى أذن ظبية خرجت من جحرها ، وكانت قد فقدت طلاها (أى ولدها) ، فلما سمعت صوت الطفل ظنته ولدها ، فتبعته حتى وصلت إلى التابوت ، فأخذت تعالجه بأظلافها حتى طار لوح من أعلاه ، فحنت الظبية على الطفل وألقت حلمها وأرضعته لبناً سائغاً ، وما زالت كذلك تتعهده وتربيته وتدفع عنه الأذى .

هذه رواية . وزعم آخرون أن الطفل ولد من الأرض فى بطن من الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين ، حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس ، امتزاج تكافل وتعادل فى القوى ، وتفاعلت تلك العناصر ، التى تعلق بها ذلك الروح الذى هو من أمر الله تعالى ، وتكون الجنين . وتمت أعضاؤه داخل غشاء انشق عنه بما يشبه المخاض .

ثم استغاث ذلك الطفل عند اشتداد جوعه ، فلبته ظبية فقدت طلاها وأرضعته ، ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من الحيوانات الضارية ، فترعرع الطفل ونما ، وهو يفتنى بلبن تلك الظبية ، إلى أن تم له حولان ، ثم تدرج فى المشى ، وكان يتبع أمه الظبية ، وكانت تحميه وتظله من الشمس وتدفعه من البرد .

وبدأ الطفل يقلد صوت الطيبة وأصوات الحيوان والطيور ويحاكيها ببراعة ،
وكبر في أثناء ذلك وأخذ يكسب نفسه في الوسط بورق الأشجار ، واتخذ العصي
للدفاع عن نفسه أمام هجمات الحيوانات الأخرى .

وماتت الطيبة بعد أن شاخت ، فأخذ يبحث في أعضائها عن سبب الوفاة ،
وسبب هذا السكون الأبدي حتى عثر بالقلب بعد شق الجسم بالحجارة المسنونة
وشقوف القصب ، وأدرك من وضعه وتركيبه أنه هو العضو الرئيسي . ثم أدرك
بالحس والاستنتاج أن شيئاً ما كان يسكن هذا الجسم ويحركه ، وأن هذا الشيء
قد ارتحل ، وترك الجسم بحالة الخراب والتزريق ، وأضحى الجسد كله خسيساً
لا قدرة له .

وأخذ يتساءل ما هو ذلك الشيء الخفي ؟ وما علاقته بالجسد ؟ وإلى أين
صار ؟ وانتهى إلى تصور ماهية الروح ، والدور الرئيسي الذي تلعبه في الحياة ،
وأن سائر الأعضاء الأخرى إنما هي خادمة له .

وفي ذات يوم عرف سر النار ، إذ اضطربت في أجمة قش بسبب المحاكة ،
وأدرك أنه أمام عنصر من عناصر الطبيعة ، وأخذ يضرم هو النار ، ويستمتع
بضوئها ودفئها ، وعرف بعد ذلك مهمتها في شواء اللحم ، إذ ألقى إليها بحيوان
بحري نافق ، واستطاب طعم لحمه المشوى ، وأخذ يتغذى به ؛ واهتدى
خلال ذلك إلى الاكتساء بجلود الحيوانات ، وانتهى باتخاذ الدواجن وتربيتها
لينتفع ببيضها وفراخها ، واتخذ من صياصى البقر ما يشبه الأسنة .

ثم أخذ بعد ذلك يدرس تباعاً سائر الأجسام ، التي في عالم الكون والفساد من
النبات والمعادن والحجارة والتراب والماء والبخار والتلج والدخان والجليد
واللهب ، وينعم النظر في خواصها المختلفة .

ونظر إلى أعضاء جسمه فرأى أنها كلها متصلة ، وأنها كآلات تتحد ،
وأنها إذا اختلفت ، كان هذا الاختلاف بسبب ما يصل إليها من قوة الروح
الحيوانى .

وأخذ يتنقل بدراسة أنواع الحيوان ، مثل الطباء والخيل والحمر ، وأصناف

الطير ، ويرى أنها جميعاً تتفق في أنها تحس ، وتغتنى وتحرك بالإرادة ، وأن هذه الأفعال هي أخص أفعال الروح الحيوانى .

وكذلك كان ينظر إلى جنس النبات فيدرسه ، ويرى أنه كذلك يتحد في اتفاق فعله وغذائه ونموه .

وعلى هذا النحو عني بدرس الأجسام الحامدة ، التى لا تحس ولا تغتنى ، مثل التراب والحجارة والماء والهواء واللهب .

وهكذا انتهى إلى دراسة العناصر الرئيسية الأربعة ، وهى الأرض والماء والنار والهواء ، وهو فى كل دراساته يفرق بين الجسمية والنفسية .

ثم عني بعد ذلك بدراسة الكواكب ، مثل الشمس والقمر وسائر الكواكب المرئية الأخرى ، وتحركاتها ، وطلوعها وغروبها .

وانتهى بعد ذلك كله إلى التفكير فى أمر العالم بجملمته ، هل هو شىء حدث وخرج إلى الوجود بعد العدم ، أو هو أمر كان موجوداً فيها سلف ولم يسبقه العدم .

وكانت هذه المشكلة أعقد مشكلة عرضت له ، فلبث يفكر فيها عدة سنين ، وانتهى إلى أن هذه الموجودات كلها بما فيها من آثار الحكمة ، وبدائع الصنعة ، لا تصدر إلا عن فاعل ممتاز ، فى غاية الكمال وفوق الكمال ، وانتهى بالتأمل والدرس والحس إلى فكرة الألوهية ، وخالق الخلق ، وإلى « هذا الموجود الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده ، وهو سبب لوجود جميع الأشياء » .

وعاش حى بن يقظان على هذا النحو فى جزيرته ، وفى تأملاته الدراسية العميقة ، حتى أناف على سبعة أسابيع من منشئه وذلك خمسون عاماً .

* * *

كان يوجد ثمة جزيرة قريبة ، من تلك التى ولد بها حى بن يقظان ، انتقلت إليها ملة من الملل الصحيحة وسادت فيها . وكان قد نشأ بها فتیان فاضلان يسمى أحدهما أبسال والآخر سلامان ، فتلقيا تلك الملة وقبلاها ، والتزما بجميع شرائعها ، وكان يتدارسان أحياناً ، فيما ورد من ألفاظ تلك الشريعة فى صفة الله

وملائكته . وكان أبسال منهما أشد غوصاً على الباطن ، وأكثر عثوراً على المعاني الروحية . وأما سلامان فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر ، وأشد بعداً عن التأويل . فتعلق أبسال بطلب العزلة ، لما كان في طباعه من دوام الفكرة ، والغوص على المعاني . وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ، وكانت ملازمته للجماعة ، مما يدرأ عنه الوسواس ، ويزيل الظنون المعترضة .

وكان اختلافهما في الرأي على هذا النحو ، سبباً في افتراقهما ، وكان أبسال قد سمع عن الجزيرة التي بها حي بن يقظان ، وعرف ما بها من الخصب والمرافق ، فجمع أمواله ، واشترى ببعضها مركباً ، وفرق باقيها على المساكين ، وودع صاحبه سلامان ، وركب البحر ، فحملة الملاحون إلى تلك الجزيرة ، ووضعوه على ساحلها ، وتركوه وشأنه .

فلبث أبسال بتلك الجزيرة يعبد الله ويعظمه ، ويفكر في أسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإذا احتاج إلى الغذاء ، تناول من ثمار تلك الجزيرة وصيدها ما يسد جوعه .

وفي أثناء ذلك كان حي بن يقظان مستغرقاً في مقاماته ، ملازماً لمغارته ، لا يخرج منها إلا مرة في الأسبوع ، لتناول ما تيسر من الغذاء ، فلذلك لم يعثر عليه أبسال لأول وهلة ، إلى أن اتفق ذات يوم أن يخرج حي بن يقظان لالتماس طعامه ، فالتقى أحدهما بالآخر . واعتقد أبسال لأول وهلة أنه من المنقطعين جاء إلى الجزيرة في طلب العزلة ، على نحو ما فعله هو في القديوم إليها . أما حي فلم يدر ما هو ، لأنه لم ير إنساناً من قبل قط .

فولى أبسال عنه خيفة أن يشغله عن حاله ، فاقتنى حي بن يقظان أثره لما كان في طبعه من البحث عن حقائق الأشياء . فلما رآه يشتد عنه في الهرب ، توأى حي عنه حتى ظن أبسال أنه قد انصرف ، فشرع في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء ، وأخذ حي يقترب منه قليلاً وأبسال لا يشعر به ، فسمع قراءته وتسبيحه ، وشهد خضوعه وبكائه ، وسمع بذلك أصواتاً وأقوالاً لا عهد له بها من أصناف الحيوان الذي يعيش معه ، وفطن إلى حقيقة شكله ، وأن المدرعة التي يرتديها ليست جلداً طبيعياً له ، وإنما هي لباس متخذ مثل لباسه .

وتأثر حتى لما سمعه منه ، ولم يشك في أنه من النوات العارفة بالحق ، فزاد منه قرباً ، وحاول أبسال الهرب ، فجد حتى بن يقظان في أثره ، وقبض عليه ، وخشى أبسال مما رآه فيه من سرعة الركض وقوة البطش ، ولكن حياً أخذ يونسه بأصوات ، كان قد تعلمها من الحيوانات ، ويتعلق به ، ويظهر البشر والفرح ، حتى سكن جأش أبسال ، واطمأن له ، وجعل يكلم حتى بن يقظان بما يعلمه من مختلف الألسن ، ويسأله ، ويحاول إفهامه ، وحتى يتعجب ولا يلرى ما هو ، ولكنه يظهر البشر والقبول .

ثم آنس كل منهما إلى صاحبه ، ورأى حتى أن يقيم مع أبسال في عالم الحس حتى يقف على حقيقته ، فالتزم صحبته ، ورجاه أن يعلمه الكلام والعلم والدين ، فأخذ أبسال في تعليمه ، وجعل أبسال يسأله عن شأنه ، ومن أين أتى إلى تلك الجزيرة ، فأفهمه حتى بأنه لا يعرف لنفسه بداية ، ولا يعرف أبا ولا أما سوى الظبية التي ربه ، ووصف له شأنه كله ، وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول . وأخذ حتى بن يقظان من جانبه يسأله عن أمره ، فجعل أبسال يصف له جزيرته ، وما فيها من العالم ، وشأنهم قبل وصول الملة إليهم ، وكيف هي الآن بعد وصول الملة ، ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم ، والجنة والنار ، والبعث والتشور ، وغيرها ، ففهم حتى ذلك كله ، ولم يرفيه شيئاً على خلاف ما يعرفه ، وعلم أن الذي وصف ذلك حتى في وصفه ، صادق في قوله ، رسول عند ربه ، فأمن به ، وشهد برسالته .

ووصف له أبسال ما جاء به من الفرائض ، ووضعه من العادات ، وسائر التفاصيل المتعلقة بذلك ؛ ورأى حتى ما في ذلك كله من تعقيد وتطويل ، وكان يقول إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته ، لأعرضوا عن الباطل من اقتناء المال ، والتوسع في المآكل ، واستغنوا عن هذا كله ، وكان يفترض وهو يقول ذلك ، إن الناس كلهم من قوى الفطرة الفايقة ، والأذهان الثاقبة ، والنفوس الحازمة ، ولم يكن يلرى ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي .

فلما اشتد لإشفاقه على الناس ، وطمع أن تكون نجاتهم على يديه ، فكر في الوصول إليهم ، وإيضاح الحق لهم ، وسأل أبسال في ذلك ، فأعلمه بما كان عليه الناس من نقص الفطرة . وعلى أي حال فقد تفاهم حتى وأبسال على ذلك ،

وقيض الله لهما سفينة عبدا فيها إلى الجزيرة الأخرى . وكان على رأس تلك الجزيرة سلامان صاحب أبسال ، فشرع حى بن يقظان فى تعليم الناس أسرار الحكمة وبثها بينهم . وما زال يستلطفهم ليلا ونهاراً ، ويبين لهم الحق ، فلا يزيدهم ذلك إلا نبواً ونفاراً . مع أنهم كانوا محبين للخير ، راغبين فى الحق ، ولكنهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ، ولا يلتمسونه من بابه ، فيئس من إصلاحهم ، وانقطع رجاءه فى صلاحهم .

فلما رأى ظلمات الحجب قد تغشيتهم ، والكل منهم إلا اليسير ، لا يتمسكون من ملتهم إلا بالدنيا ، وقد نبهوا أعمالهم على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم ، وألهاهم عن ذكر الله التجارة والبيع ، بأن له وتحقق أن مخاطبتهم بطريق المباشرة لا يمكن ، وأن تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق ، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشرعة ، إنما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ، ولا يتعدى عليه سواه ، وأنه لا يفوز منه بالسعادة الآخروية إلا النادر الشاذ . وهكذا فهم أحوال الناس ، وعلم أن أكثرهم بمنزلة الحيوان ، وعلم أن الحكمة كلها ، والهداية والتوفيق فيما نطق به الرسل ، ووردت به الشرعة ، لا يمكن غير ذلك ، ولا يحتمل المزيد عليه ، فلكل عمل رجال ، وكل ميسر لما خلق له .

وقصد إلى سلامان وأصحابه ، فاعتذر عما تكلم به معهم ، وتبرأ إليهم منه ، وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم ، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض فيما لا يعنيه ، والإعراض عن البدع والأهواء ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام ، من إهمال الشرعة والإقبال على الدنيا ، وعلم هو وصاحبه أبسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة ، لا نجاة لها إلا بهذا الطريق ، وأنها إن رفعت عنه إلى بقاع الاستبصار ، اختل ما هى عليه ، ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء .

فودعهم حى وأبسال ، وانفصلا عنهم ، وتلطفا فى العود إلى جزيرتهما حتى يسر الله لهما ذلك ، وطلب حى بن يقظان مقامه الكريم ، بالنحو الذى طلبه أولاً حتى عاد إليه ، واقتدى به أبسال ، وعبد الله بتلك الجزيرة ، حتى أتاهما اليقين .

ذلك هو ملخص رسالة حى بن يقظان ، التى خلقها لنا ابن طفيل ، وهى كما

ترى قطعة من التفكير الرائع ، والعرض الفلسفى الرفيع . وقد أثارت هذه القصة ، اهتمام النقد الأوربى . وينوه النقدة الغربيون بما كان لها من أثر عميق فى الكاتب الإنجليزى دانييل دى فوي ، حيث جاءت قصته الشهيرة « روبنسون كروزو » فى جوهرها ، عرضاً مطابقاً لقصة حى بن يقظان ، ودليلاً جديداً على أن الحقائق الخالدة تماثل فى كل مكان . وينوهون كذلك بما كان لها من أثر فى تفكير الفلاسوف الألمانى لايبنتز^(١) ، وفى نظريته التى تقرر أن السعادة الإنسانية تطلب بنبذ الحياة الدنيوية بحثاً عن الضوء النفسانى^(٢) .

* * *

وتشيد الرواية الإسلامية المعاصرة بعبقريه ابن طفيل ، ويصفه المراكشى ، بأنه أحد حسنات الدهر ، ثم يقول لنا إنه « صرف عنايته فى أواخر عمره إلى العلم الإلهى ، ونبذ ما سواه . وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً ، هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية » . ويصفه ابن الخطيب بأنه « كان عالماً محققاً ، شغوفاً بالحكمة المشرقية ، متصوفاً ، طبيباً ماهراً فى أصول العلاج ، وفقهاً بارع الإعراب ، وكاتباً بليغاً ، مشاركاً فى عدة فنون » .

وقد أورد لنا المراكشى فى « المعجب » لابن طفيل ، نقلاً عن ولده يحيى ، هذا النظم الرقيق المشجى :

ولما التقينا بعد طول تهاجر وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق فلم أدر من شسق الدجنة منهما

(١) دانييل ديفوى Daniel Defoe كاتب إنجليزى كبير (١٦٥٩ - ١٧٣١) . ولايبنتز Leibnitz فيلسوف ألمانى (١٦٤٦ - ١٧١٦) .

(٢) صدرت رسالة « حى بن يقظان » فى طبعات متعددة . وصدرت منها عدة طبعات بالقاهرة ، منها طبعة حديثة صدرت بتحقيق صديق المرحوم الأستاذ أحمد أمين . ونلاحظ بهذه المناسبة أن ما كتبه فى مقدمته عن حياة ابن طفيل يتضمن عدة أخطاء تاريخية . منها أن ابن طفيل كان كاتباً للخليفة الموحدى عبد المؤمن بن عل ، وهو غير صحيح ، وإنما كان ابن طفيل كاتباً لولده السيد أبى سعيد والى مالقة وسبتة والجزيرة الخضراء . ومنها أن ابن رشد كان أكبر سنّاً من ابن طفيل ، وأنه لما طعن ابن رشد فى السن ، خلفه ابن طفيل فى منصب طبيب الخاص للخليفة أبى يعقوب يوسف الموحدى . وهذا خلط مؤسف . فإن ابن رشد كان تلميذاً لابن طفيل ، وهو الذى توسط فى تقديم تلميذه للخليفة ، وابن رشد هو الذى خلف ابن طفيل فى منصب الطبيب الخاص . وقد توفى ابن طفيل فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وتوفى ابن رشد فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) .

وساعدني جفن الغمام على البسكا
فقال وقد رق الحديث وأبصرت
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهباً
فأمسكت لا مستغنياً عن نوالها
ونقل إلينا من شعره في الزهد :
يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط
نور تردد في طين إلى أجمل
ياشد ما افترقا من بعد ما اعتلقا
إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما
فلم أدر دمعاً أينما كان أحبما
قرائن أحوال أذعن المكتوما
يهون صعباً أو يرخص مأثماً
ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما
هلاً بكيت فراق الروح للبدن
فأنحاز علواً وخلي الطين للكفن
أظنها هدنة كانت على دخن
فيالها صفقة تمت على غبن

ولابن طفيل غير ذلك من النظم الجيد . هذا فضلاً عن بلاغته النثرية وجزالة
أسلوبه الأدبي ، التي تتجلى في رسالة « حى ابن يقظان » ، وهو ما يدل على ما كان
يتمتع به هذا الفيلسوف والطبيب العبقرى ، من ذوق أدبي رفيع ، لم تنطغ عليه
العناصر العلمية الجافة .

الرحالة ابن جبیر

(٥٤٠ - ٦١٤ هـ) ، (١١٤٥ - ١٢١٧ م)

كان الرحالة الأندلسي ابن جبیر ، من بين الرحل الأندلسيين ، ألمهم خلافاً ، وأبقاهم ذكراً ، فهو فوق ما أسبغت عليه رحلته من الشهرة ، محدث راسخ ، وأديب بارع ، وشاعر محسن ، وكاتب بليغ ، وتعتبر رحلته ، بالرغم من نطاقها المحدود ، من أقيم كتب الرحلات الأندلسية وأمتعها .

وهو محمد بن أحمد بن جبیر بن سعيد بن جبیر ، وينتهي نسبه إلى نزار ابن معد بن عدنان ، وقد وفد جده عبد السلام بن جبیر الکنانی علی الأندلس فی سنة ثلاث وعشرين ومائة ، ونزل أولاً بکورة شنونه ، ثم تحول بنوه إلى شرق الأندلس ، بقطاع بلنسية . وولد ابن جبیر فی ثغر بلنسية أوشاطبة فی سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، ونزح فی شبابه إلى جيان ، واستوطنها مدة تزوج خلالها من أم المجد عاتكة بنت الوزير أبي جعفر الوقشي ، ثم غادرها إلى غرناطة واستقر بها . ودرس ابن جبیر القراءات والحديث ، وبرع فی الآداب ، وبرز فی الكتابة والنظم . وكتب فی شبابه بسبته لوالها السيد أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن ثم كتب لوالی غرناطة ، ونال جاهاً وثراء ، ثم تزهّد ، واعتمزم الرحلة إلى المشرق لقضاء فريضة الحج . وكان يومئذ فی نحو الأربعين من عمره .

وكانت الأندلس يومئذ تحت حکم الموحدين ، وكانت ما تزال من حيث اتساع رقعتها ، وضخامة مواردها ، قوة عظيمة فی شبه الجزيرة الإسبانية یحسب حسابها ، وكان الخليفة يومئذ هو ، یعقوب المنصور ، أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وهو الظافر فی معركة الأرك العظيمة التي وقعت بعد ذلك بین الموحدين والقشتاليين بأعوام قلائل ، فی سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) .

وغادر ابن جبیر غرناطة فی رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٢ م) ، ومعه صديقه أحمد بن حسان ، واجتاز أولاً علی جيان لقضاء بعض الأسباب ، ثم سار جنوباً عن طريق القبذاق

فإستجّة فأشونة فأركش ، حتى وصل إلى ثغر طريف ، وعبر منه المضيق إلى
إلى قصر مصمودة أو القصر الصغير في اليوم السابع والعشرين من شوال . ثم سار
إلى سبته ، وألقى بها مركباً كبيراً للجنوبين مقلعة إلى الإسكندرية ، فاستقلها ،
وأقلعت من سبته في التاسع والعشرين ، وسارت بخذاء شاطئ الأندلس متجهة
إلى ثغر دانية ، فوصلته بعد أسبوع ثم غادرته متجهة إلى جزيرة يابسة ، فجزيرة
ميورقة ، فجزيرة سر دانية ، ووصلت إلى شاطئ صقلية بعد رحلة شاقة ،
اشتدت فيها العواصف ، وهاج البحر ، وتعالّت الأمواج ، وشهد الركاب
خلال ذلك جبل إطنة الذي يقع به البركان الشهير ، وهو مكمل بالثلوج .

وسارت السفينة بعد ذلك صوب جزيرة أقریطش ، ثم اتجهت منها جنوباً
إلى الإسكندرية ، فوصلتها في ظهر يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة ،
بعد أن قطعت في رحلتها من سبته ثلاثين يوماً .

ويصف لنا ابن جبّيز تلك الرحلة البحرية الشاقة ، وما لقيه خلالها من أهوال
البحر وأخطاره المروعة ، وما شاهده في مختلف المراسي من المناظر والمشاهد ،
ويصف لنا منار الإسكندرية العظيم ، كما يصف لنا مدارسها ، وما رتبته السلطان
للواردين عليها من الإطعام والإيواء ، كل ذلك بإفاضة وبأسلوب جزل ممتع .
بيد أنه يشكو مما لقيه هو وزملاؤه الحاج من المغاربة ، من رجال الضبط من
التعسف والعنت ، وكيف أنهم أصروا على فحص سائر ما يحملون من مال
وغیره ، ومن أداء الزكاة عنه ، دون التحقق مما إذا كان قد حال عليه الحول من
عدمه ، وعلى تفتيش الرجال والنساء على السواء ، وكيف أنهم « هتكوا حرمة
الحرم ، ولم يكن منهم إبقاء على أحد » وأنه لما جاءته النوبة ، وكانت معه حرم ،
ذكرهم بالله تعالى ووعظهم ، فلم يلتفتوا لقوله وفتشوه ، كما فتشوا غيره ،
وأنه لذلك نظم قصيدته متوسلاً إلى السلطان صلاح الدين بأن يرعى حقوق
المسلمين وأحوالهم في نفس الوقت ، ومما جاء في هذه القصيدة :

أطلت على أفقك الزاهر	سعود من الفلك الدابر
فأبشر فإن رقاب العدى	تمد إلى سيفك الباتر
وعما قليل يحل الردى	بكندهم الناكب الغادر

ومنها :

فقت بنصر إله السورى فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً فله درك من صابر

وبعد أن قام ابن جبير أياماً قلائل بالإسكندرية ، غادرها إلى القاهرة ، فوصل إليها في يوم الأربعاء الحادى عشر من ذى الحجة (٦ أبريل) ، ونزل بمصر (القسطنطينية) في فندق أبى الشتاء بزقاق القناديل ، قرب جامع عمرو . وهو يصف لنا القاهرة وصوروحها وآثارها ، ومساجدها ، ومزاراتها ، وما بها من قبور آل البيت والصحابة والتابعين .

رغادر ابن جبير القاهرة إلى الصعيد بطريق النيل حتى وصل إلى قوص ، وهناك التحق بالقافلة التى تسير إلى عيذاب عبر الصحراء الشرقية ، ووصل إلى عيذاب في الثالث من ربيع الأول (٥ يونيه) ، ثم ركب منها البحر إلى جدة ، فوصلها في الرابع من ربيع الآخر (٢٦ يوليه) . وكانت قوافل الحاج ، تسلك يومئذ هذا الطريق الوعر مرغمة ، إذ كانت حصون الصليبيين تنسبطر على طريق العقبة وشمالى البحر الأحمر ، وتهدد سلام الحاج بعلموانها المتكرر ،

ووصل الرحالة إلى مكة بعد ذلك ببضعة أيام في الثالث عشر من ربيع الثانى سنة ٥٧٩ هـ (٤ أغسطس) . وهو هنا يحمل بشدة على ما كانت عليه الأحوال ببلاد الحجاز يومئذ ، ويندد بما كان يسودها من ظلم ومجانبة لأحكام السنة الحقيقية ، واستخلاص لأموال الحاج بشئ الوسائل ، وهو ينتهز الفرصة في نفس الوقت ليندد بالمشاركة بصفة عامة ، وما جبلوا عليه من الضلال والميل إلى البدع ، ولينوه بما كان عليه المغاربة من الإصلاح والتقوى ، وما كان عليه الموحدون من استمساك بعرى الدين ، وأحكام السنة ، وإقامة العدل ، ومن الواضح أنه يصدر هنا عن نزعة عنصرية وقومية ويبالغ في تصوير حقائق الأمور ،

ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يشير إليه ابن جبير في هذا الموطن من نية الموحدنين في غزو مصر . وهو يبالغ في وصف ذبوع الدعوة الموحدية بمصر ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، ويزعم أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم ، « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدي بعضهم ،

وأنذرت بأشياء من الكوائن . . . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة ، من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطعون بها صبحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التي لا يمترون في إنجاز وعدّها . شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ، ومصر وسواهما مشافهة وسماعاً ، أمراً غريباً يدل على ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصدق . ونمى إلينا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة ، قد حبر خطباً أعدّها للقيام بين سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب السعادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير ^(١).

ولا ريب أن ابن جبير ، كان مبالغاً في شعوره ، مبالغاً في تصويره لقوة الدعوة وانتشارها بمصر ، كما أنه لم يدرك تمام الإدراك ما كانت عليه مصر يومئذ من القوة والمنعة ، في عصر عاقلها الكبير الملك الناصر صلاح الدين .

وأقام ابن جبير بمكة نيفاً وثمانية أشهر وقضى مناسك الحج . وهو يفيض في وصف مكة وخططها وعمرانها وأحوالها ، وفي وصف الكعبة الشريفة وأقسام مسجدها ، ومقام إبراهيم ، ومكان الطواف والحجر الأسود ، وبئر زمزم ، والصفاء والمروة ، ثم يصف باب الكعبة وما بها من الداخل ، ويصف كسوتها الشريفة ، يصف ذلك كله بإفاضة ، ودقة ، وحرارة تذيب قلب المؤمن ، وأسلوب رفيع من البيان الساحر الأخاذ . ولقد كتب كثير من الرحل المسلمين في وصف هذه الأماكن المقدسة ، وأفاضوا وأبدعوا ، ولكن يندر أن نجد بين كتاباتهم مثل هذا الوصف البليغ المؤثر الذي تركه لنا ابن جبير .

وسافر ابن جبير من مكة إلى المدينة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، فوصل إليها في الثالث من محرم عام ثمانين ، وأقام بها خمسة أيام ، قضى خلالها مناسك زيارة المسجد النبوي الكريم ، وزار قبور الصحابة خارج المدينة . وهو يقدم لنا وصفاً موجزاً عن زيارته للمدينة ومشاهداته بها .

وهنا تنتهي المرحلة الأولى من رحلة ابن جبير ، وهو بعد ذلك يغادر المدينة متجهاً إلى العراق خلال نجد ، فيصل إلى بغداد في الثالث من صفر عام ثمانين ،

(١) رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) ص ٥٣ و ٥٤ .

ويقضى بها أسبوعين يزور خلالها معالم مدينة الخلفاء ، وكانت قد فقدت يومئذ كثيراً من بهاؤها السالف ، وهو يصف لنا خطط بغداد ، ولا سيما المدينة الشرقية التي كانت يومئذ منزل الخلافة ، وبها القصور الخلافية ، ويصف لنا الخليفة ، وقد كان يومئذ أبا العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله ، ثم يصف لنا مجالس بغداد العلمية ، ويقول لنا إنه قد سمع بها اثنين من أكابر العلماء هما الإمام رضى الدين القزويني ، وأبو الفرج الحوزي .

وغادر ابن جبير بغداد في منتصف صفر مع الركب المرافق لخاتون (الأميرة) أم عز الدين بن مسعود صاحب الموصل ، وشاهد في طريقه مدينة «سر من رأى» (سامرا) مصيف الخلفاء السابق ، وكانت قد خربت وغلب عليها العفء يومئذ . وهو يصف الموصل وقلعتها العظيمة وأسوارها وأبراجها الحصينة بحماسة ، ثم يصف حفلة استقبال الخاتون ولقائها لولدها الأمير .

وسار ابن جبير من الموصل إلى نصيبين فمدينة حرّان فمدينة منبج ، فمدينة حلب ، فحماة ، فحمص . وهو يخصص حلب من بين هذه المدن بوصف حماسي موجز ، يصف فيه ضخامتها ، وسعة خططها ، وأسواقها ، ومسجدها الجامع الفخم ومدارسها .

ووصل ابن جبير إلى مدينة دمشق في الرابع والعشرين من ربيع الأول عام ثمانين (٥ يولييه سنة ١١٨٤ م) . وقد بهرته دمشق ومعالمها المشرقة ، وهو يصف لنا جامعها الأعظم بإفاضة ، ويصف صحنه وأبوابه ، وقبابه ، ومشاهده ومزاراته . ويصف لنا دمشق وأبوابها ومعالمها وأحوالها وعوائل أهلها ومارستانها العظيم ومدارسها الزاهرة ، ثم يصف لنا الخوانق ومن بها من طوائف الصوفية ويقول إنهم ملوك بهذه البلاد يسكنون القصور ، وقد هدأت خواطرهم من هموم المعاش .

وهنا تنتهى رحلة ابن جبير في البلاد الإسلامية . ذلك أنه بعد أن انتهت زيارته لدمشق لم يبق عليه إلا أن يدبر أمر عودته إلى وطنه . وهو من حين مغادرته لدمشق ، في الخامس عشر من جمادى الآخرة ، يجوز خلال الإمارات والقواعد الصليبية ، من بانياس إلى صور ، وإلى عكا ، ويشهد أحوال الصليبيين

المسيطرين على تلك الأنحاء . وهو هنا يصف لنا طرق الصليبيين في حكم البلاد ، وأوضاع المسلمين الذين يعيشون تحت سلطانهم ، وكيف أن الصليبيين يقرضون الضرائب على السابلة من المسلمين ، وأن المسلمين يعيشون في الضياع على وفاق مع النصارى ، ويؤدون لهم نصف الغلة ، ويؤدون ضرائب أخرى . وهو يشكو من أن المسلمين يذمون حكاهم من أبناء دينهم ، ويصافون حكاهم الفرنج ، ويمجدون سيرتهم ، ويأنسون بعلمهم . ثم يقول : « فإلى الله المشتكى من هذه الحال » .

وكانت عكا خاتمة المطاف في رحلة ابن جبير الشرقية . ومن عكا يستقل ابن جبير مركباً جنوبية كبيرة متجهة إلى صقلية في اليوم العاشر من رجب (١٨ أكتوبر) . وقد كانت الملاحاة الحنوية تسيطر يومئذ على مواصلات البحر المتوسط . ووصل ابن جبير إلى صقلية بعد رحلة بحرية شاقة ارتدت فيها المركب بفعل الرياح إلى الورا غير مرة ، وما كادت تصل إلى مسينى حتى تحطمت قلاعها على مقربة من البر ، ولم ينقذ ركاها سوى مقدم زوارق النجاة من الميناء بإشراف ملك الجزيرة نفسه غليام وجملة من رجاله .

وهنا سنحت الفرصة لابن جبير لزيارة صقلية ، تلك الجزيرة الكبيرة ، التي كانت ما تزال بها للمسلمين والحضارة الإسلامية بقية بحسب حسابها . وابن جبير شغوف بالدرس والملاحظة . وقد ألقى فرصته لدراسة أحوال المسلمين في الجزيرة ، وهو يصف لنا صقلية وما وهبت من أسباب الخصب والغناء ، ويقول لنا : « وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة » . ثم يصف لنا مدينة مسينى (أو مسينه) ، وما بها من القصور والبساتين الملكية ، ويصف لنا ملك الجزيرة غليام ، ووزرائه وحجابه ، وفتيانه ، وما يرتدونه من فاخر الخلل . ثم يصف لنا من مدن الجزيرة شفلودى وثرومة وبلارمة (بلرم) واطرابنش (ترابانى) ، ويفيض بالأخص في وصف بلرم وهي عاصمة الجزيرة ، وجالها وفخامة قصورها وكنائسها وسحر معاهدها .

وفوق ذلك فقد أورد لنا ابن جبير ، وصفاً دقيقاً لأحوال المسلمين في صقلية في عهد الملك وليام (غليام) مما وقف عليه حين زيارته هذه الجزيرة ، وذلك في شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ (يناير ١١٨٥ م) . واجتماعه بالمسلمين في

المدن التي زارها ، ووقوفه على أحوالهم . وهو يقول لنا بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وإن النصارى قد أحسنوا السيرة في استقبالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها في فصلين في العام ، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجلبونها . ثم يقول لنا ، إنه لم يكن في مسينة إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن ، وأما بلرم ، وهى عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين ، وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد والأسواق المختصة بهم ، في الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها ، وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين في بلرم رسم باق من الإيمان يعمرّون به أكثر مساجدهم ، ويقىمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكنائهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها . ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل » . وأخيراً يصف لنا ابن جبير زعيم المسلمين بالجزيرة وهو يومئذ أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، ويتقل إلينا ما أفضى به إليه مما تعانیه الأقلية الإسلامية بالجزيرة من صنوف الظلم والاضطهاد المؤلم .

وأنفق ابن جبير في صقلية زهاء ثلاثة أشهر ، ثم ركب البحر من اطرابنش في اليوم التاسع من ذى الحجة سنة ٥٨٠ هـ في مركب جنوية سارت به صوب الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، ورمست على يابسة في العاشر من محرم ، ثم سارت بعد ذلك شرقاً نحو بر الأندلس مما يلي ثغر دانية ، وسارت بجذاء الشاطئ حتى وصلت إلى ثغر قرطاجنة في الخامس عشر ، فنزل بها ابن جبير وسار براً إلى مرسية ، ثم لورقة فالنصورة ، فقنالش ، فبسطة ثم وادى آش ، ووصل إلى منزله بغرناطة في يوم الخميس الثانى والعشرين من المحرم سنة ٥٨١ هـ الموافق ٢٥ أبريل سنة ١١٨٥ م ، واستغرقت رحلته منذ خروجه من غرناطة إلى وقت إيايه إليها عامين وثلاثة أشهر ونصف .

تلك هي رحلة ابن جبير الأولى ، وهي رحلته الدراسية الكبرى التي دونها لنا في كتابه ، وهو الذي استعرضنا محتوياته فيما تقدم ، وهو كتاب يصفه ابن عبد الملك المراكشي بأنه « كتاب ممتع مؤنس ، أمثير سواكن النفوس إلى الرفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد المعظمة » .

وقام ابن جبير بعد ذلك برحلتين أخريين إلى المشرق ، فعخرج من وطنه [غرناطة] لرحلته الثانية يوم الخميس التاسع من ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ وكان الحافز له للقيام بتلك الرحلة فصح بيت المقدس ، على يد الملك الناصر صلاح الدين في رجب سنة ٥٨٣ هـ ، وما بثه ذلك الفتح العظيم في أنحاء العالم الإسلامي من بواعث الغبطة والحماسة . وحج للمرة الثانية في العام التالي ، وعاد إلى غرناطة يوم الخميس الثالث عشر من شعبان سنة ٥٨٧ هـ ثم سكن مالقة حيناً ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، فسكن فاس ، ثم سكن سبتة ، وانقطع في تلك الفترة إلى سماع الحديث والتصوف ، والإقراء . وكانت رحلته الثالثة عقب وفاة زوجته المحبوبة عائكة أم المجد ، فقد توفيت في العاشر من شعبان سنة ٦٠١ هـ ، ودفنت في اليوم التالي ، فحزن لوفاتها أبلغ حزن ، وهو يقول لنا بهذه المناسبة « ومن عجائب اتفاقات الأقدار ، الباعثة على الاعتبار ، أن كان تجهيزها إلى بيجان في الحادى عشر من شعبان سبعين وخمسائة ، فوافق تجهيز الحياة ، تجهيز الممات ، وليلة القبر تنسى ليلة العرس ، فيا لها من لوعة وحرقة ، ولكل اجتماع من خليابين فرقة » .

وخرج ابن جبير إلى رحلته الثالثة عقب وفاة زوجته ، ووصل إلى مكة سنة ٦٠٢ هـ ، وحج للمرة الثالثة ، وجاور بالحرم الشريف طويلاً ، ثم رحل إلى بيت المقدس ، ثم سافر إلى مصر ، ثم إلى الإسكندرية ، واستقر ابن جبير بقية حياته بالإسكندرية يقرئ الحديث ، يؤخذ ويروى عنه ، وطار صيته يومئذ في دوائر الحديث بمصر والشام والأندلس .

* * *

وكان ابن جبير ، حسبما يصفه ابن عبد الملك في ترجمته في « التكملة » أديباً بارعاً ، كاتباً بليغاً ، شاعراً مجيداً سنياً فاضلاً ، نزيه المهمة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة في الخط . وله مدائح كثيرة في السادة من

بنى عبد المؤمن الموحدين الذين كتب عنهم . وكذلك جرت بينه وبين طائفة كبيرة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته ، وروعة أسلوبه . ، وله رسالة بليغة مؤثرة في وصف الحرم النبوى الكريم ومراسم زيارته ، عنوانها « اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك » كتب بها إلى وليه وصديقه أبى الحسن بن مقصير من علماء فاس . ونظمه فائق ، وقد جمعه في ديوان ، يقول لنا ابن عبد الملك إنه يقع في مجلد متوسط ، ومنه جزء سماه « نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح » أودعه قطعاً وقصائد في رثاء زوجه أم المجد ، والتوجع لفقدائها ، يشتمل على أكثر من ثلاثمائة بيت ، علدا موشحات خمس ، وجزء آخر سماه « نظم الجحمان في التشكى من إخوان الزمان » يشتمل على أكثر من مائتى بيت ، وله رسائل بديعة وطائفة من الحكم . ومن نظمه في الحكم قوله :

عليك بكتمان المصائب واصطر
عابها فأبقى الزمان شفيقا
كفاك من الشكوى إلى الناس
أن تسر عدواً أو تسوء صديقا

ومن قوله من قصيدة طويلة يحرض فيها السلطان صلاح الدين على النظر فيما ظهر من البدع في المدينة :

صلاح الدين أنت له نظام
فأظهر سنة الله احتساباً
جدير أن يقام لها ارتماضاً
وكيف يلد للأجفان نوم
فما يخشى لعروته انقطاع
فقد ظهرت بها البدع العظام
ثم للورى فيها التداع
وللإسلام حصن لا ينسام

ومن أشهر ما نظم ، قصيدته التى نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة ، وفيها يعرب عن خشوعه وشوقه لزيارة الجناح النبوى الكريم . وهذا مطلعها :

أقول وأنست بالليل نارا
ولأفما بال أفق الدجى
ونحن من الليل في حنـدس
وهذا النسيم شذا المسك قد
لعل سراج الهدى قد أنارا
كأن سنا البرق منه استنارا
فما باله قد تجلى نهـارا
أعير أم المسك منه استعارا

ومنها :

ولما حللنا فناء الرسول
وحين دنونا لفرض السلام
نزلنا بأكرم مجد جوارا
قصرتنا الخطى ولزمتنا الوقارا

فما نرسل اللحظ إلا اختلاسا ولا نرفع الطرف إلا انكسارا
ولا نظهر الوجد إلا اكتاما ولا نلفظ القول إلا سرارا

* * *

إليك إليك نبي الهدى ركبت البحارا وجبت القفارا
دعائي إليك هوّى كامن أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديتك لبك داعي الهوى وما كنت عنك أطيق اضطبارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل لطرت ولولم أصادف مطارا
عسى لحظة منك لي في غدٍ تمهد لي في الجنان القرارا

ومن قوله يتشوق إلى الأندلس عند قفوله من حجته الثانية حينما لاحت
جبال دانية :

في نحو أرض المنا من شرق أندلس شوق يؤلف بين الماء والقبس
لاحت لنا من ذراها الشم شاهقة تدنى لزهر الدار كف تلتمس
وتوفى ابن جبير بالإسكندرية في نحو الرابعة والسبعين من عمره في يوم
الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ هـ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٢١٧م^(١).

(١) اعتمدنا في كتابة هذا الفصل على ترجمة ابن جبير الواردة في « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي - مخطوط المتحف البريطاني - السفر الرابع - لوحة ١٢٠ وما بعدها ، وعلى ترجمة الواردة في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ج ٢ ص ١٦٨ - ١٧٤ ، وعلى رحلة ابن جبير المنشورة بمناية الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) .

أبو العباس بن الرومية

أعظم النباتيين المسلمين

(٥٦١ - ٦٣٧ هـ) ، (١١٦٥ - ١٢٣٩ م)

كانت دراسة النباتات والحشائش الطبية ، تحتل في العصور الوسطى مكانة هامة في البحوث الطبية ، وإليها تركز معظم الجهود في تركيب الأدوية والعقاقير الطبية . وقد بدأت هذه الدراسات في عصر مبكر ، وكان أستاذها الأول ديسقوريدس اليوناني ، الذي عاش في القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابته عن الحشائش الطبية ، ومركبات الأدوية ، وكان يعتبر طوال العصور الوسطى أنفس مرجع من نوعه ، حتى أن قيصر قسطنطينية قسطنطين السابع ، حينما أرسل سفارته الشهيرة إلى عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) ، لم يجد أنفس من نسخة مصورة من كتاب ديسقوريدس المذكور ، هدية يهديها إلى الخليفة . وقد عنى العلماء المسلمون عناية خاصة بدراسة الحشائش الطبية وتصنيفها ، ودراسة خواصها العلاجية ، وظهر منهم في هذا الميدان عدة من أكابر العلماء والباحثين ، واشتهر منهم بالأخص عالمان أندلسيان بلغا في هذا الميدان ذروة التفوق والنبوغ ، هما أبو العباس بن الرومية الإشبيلي ، وتلميذه ابن البيطار المالقي .

ويعتبر أبو العباس بن الرومية أعظم النباتيين المسلمين ، ويعتبر بعد ديسقوريدس اليوناني ، أعظم العشابين سواء في الشرق أو الغرب ، ومن ثم فقد اشتهر بالنبات والبالعشاب . وهو أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج الأموى ويعرف بالأخص بابن الرومية ، وينتمى إلى أسرة قرطبية من موالى بني أمية نبغ فيها أطباء ونباتيون ، ونزحت فيما بعد إلى إشبيلية . وفي إشبيلية ولد أبو العباس في المحرم سنة ٥٦١ هـ (نوفمبر سنة ١١٦٥ م) ، وكانت إشبيلية يومئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وقد غدت في ظل الموحدين مركز العلوم والآداب ، بعد أن تضاعفت هيئة قرطبة السياسية والأدبية ، ودرس أبو العباس على جبهة من أكابر العلماء في عصره ، وبرز بالأخص في الحديث ، حتى غدا

فيه إماماً حافظاً لا يبارى ، في ذكر تواريخ المحدثين وأنسابهم وتجريحهم وتعديلهم ، وشغف في الوقت نفسه بدراسة النبات وخصائص الأعشاب الطبية ، وتجول من أجل ذلك في ربوع الأندلس والمغرب وشمال إفريقيا ومصر والشام والعراق والحجاز ، ووصل في هذا الميدان ، من تحقيق أصول الأعشاب المختلفة وخواصها وتميزها إلى ما لم يصل إليه أحد من قبل . وهنا تبرز تلك الجامعة الغربية المشتركة بين علم الحديث وبين علم النبات ، وإليك كيف يوضح الوزير ابن الخطيب كنه هذه الجامعة بين الصناعتين خلال حديثه عن ابن الرومية ، فهو يقول مشيراً إليه « عجيبة نوع الإنسان في عصره وما قبله وما بعده ، في معرفة علم النبات وتميز العشب وتحليلها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها ، بمشرق أو بمغرب ، حسباً ، ومشاهدة ، وتحقيقاً ، لا مدافع له في ذلك ، ولا منازع ، حجة لا ترد ولا تدفع ، قام على الصنعتين ، لوجود القدر المشترك بينهما ، وهما الحديث والنبات ، إذ مواردهما الراحة والتقييد ، وتصحيح الأصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ، وغير ذلك » .

وهذه الظاهرة في الجمع بين الحديث وبين العلوم البحتة ، تبدو في حياة كثير من أكابر العلماء المسلمين ، فإننا نجد مثلاً عميد بني زهر ، عبد الملك ابن محمد بن مروان بن زهر ، أربع أطباء الأندلس في عصره ، وولده أبا العلاء ابن زهر ، المتوفى سنة ٥٢٥ هـ ، ثم حفيده أبا مروان عبد الملك بن زهر ، أعظم طبيب في العصور الوسطى ، أو على قول تلميذه ابن رشد ، أعظم طبيب بعد جالينوس ، نجد هؤلاء جميعاً من أئمة الحديث وأكابر الحفاظ ، وهم في نفس الوقت من أعظم عباقرة الطب والكيمياء .

وقضى ابن الرومية في رحلاته الدراسية في شمال إفريقيا وبلاد المشرق ، منذ بدأها بعد سنة ٥٨٠ هـ بقليل ، زهاء ثلاثين عاماً ، وأدى فريضة الحج في سنة ٦١٣ هـ ، ولقي خلال تجواله جمهرة كبيرة من العلماء المشاركة بمصر والشام والعراق ومكة ، وأخذ وروى عنهم . ثم عاد إلى الأندلس بعد طول التجوال ، واستقر ببلده لإشبيلية ، وافتتح بها متجرّاً للنباتات الطبية ، فكان مقصد الأطباء والنباتيين وطلاب العلاج من سائر الأنحاء ، وهناك وفد عليه معاصره الفقيه المؤرخ والشاعر ابن الأبار القضاعي غير مرة حسبما يذكر لنا ذلك في ترجمته

في « التكملة » : قال ابن عبد الملك المراكشي في « الذيل والتكملة » يصف ابن الرومية ورحلاته وبحوثه : « إمام المغرب قاطبة فيما كان سبيله ، جال بالأندلس ومغرب العدة ، ورحل إلى المشرق فاستوعب المشهور من إفريقيه ومصره وشامه وعراقه وحجازة ، وعانين الكثير مما ليس بالمغرب ، وعارض كثيراً فيه كل ما أمكنه ، ولم يزل باحثاً على حقائقه ، كاشفاً عن غوامضه ، حتى وقف منه ما لم يقف عليه غيره ، ممن تقدم في الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فرداً ، لا يجاريه فيه أحد بإجماع أهل ذلك الشأن » .

وكان ابن الرومية فقيهاً ظاهري المذهب شديد التعصب للعلامة ابن حزم القرطبي ، إمام الظاهرية وقطبهم الأكبر ، وعلى يديه انتشرت تصانيف ابن حزم بما أبداه من غيرة وعناية فائقة في إظهارها ، والإنفاق على استنساخها ، وقد أنفق في هذا السبيل أموالاً جمة ، وكان إلى جانب ذلك ورعاً صالحاً زاهداً ، وكان شديد العطف على طلبة العلم ، يجود عليهم بالمال والكتب التي يعز وجودها ، مستعيناً على ذلك ببساره وجدته ، وله في ذلك اخبار كثيرة ، وكان كثير الشغف بالدرس ، يواصل سهر الليل في تقييد بحوثه ومصنفاته ، ويقضى أوقاتاً كثيرة في فحص المرضى ، وإمدادهم بالأدوية النباتية التي مهر في تمييزها وإعدادها ، ولابن الرومية تصانيف عديدة في الحديث والنبات ، منها في الحديث : « رجالة المعلم بزوائد البخاري على مسلم » و « اختصار حديث مالك ، للدارقطني » و « نظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري » و « الحافل في تذليل الكامل » وغيرها . ومن مصنفاته في النبات « شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها » و « التنبيه على أغلاط الغافقي » و « الرحلة النباتية » و « المستركة » . وغيرها ، وله كتاب في « الأدوية المفردة » على نمط كتب بنى زهر في ذلك ، وله غير ذلك مصنفات ورسائل عديدة . بيد أننا نلتقي مع الأسف من هذا التراث الحافل سوى القليل ، ومعظمه فصول وشنور نقلت إلينا على يد المتأخرين .

وتوفي ابن الرومية بعد حياة علمية حافلة بإشبيلية في شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ (نوفمبر سنة ١٢٣٩ م) قبل سقوطها في أيدي القشتاليين بنحو تسعة أعوام فقط ، وجاء من بعده تلميذه ابن البيطار الماتقي ، فحمل علمه ، وبرع

مثله في النبات ودراسة الحشائش الطبية، وتجول مثله في المغرب والمشرق ، وطاف بمصر والشام وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ، ووضع عدة تصانيف في الأدوية النباتية . وتوفي بدمشق في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) . ومما يلفت النظر أن يظهر في هذا الوقت الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الغروب ، وسقطت معظم قواعدها الكبرى، عباقره في ميدان العلوم البحتة أمثال ابن الرومية وابن البيطار، ولكن القوى الحضارية والفكرية الأندلسية الكامنة، كانت تتفتح خلال المحنة في سائر الميادين ، وتنساب من القواعد الشمالية ، التي سقطت تباعاً في أيدي القشتاليين إلى ما وراء نهر الوادى الكبير ، حيث كانت تجتمع أشلاء الأندلس الباقية في مملكة غرناطة الصغيرة التي شاء القدر أن تحمل علم الإسلام ، ومشعل الحضارة الأندلسية مائتي عام أخرى (١) .

(١) أورد لنا ابن الخطيب في كتابه « الإحاطة في أخيار غرناطة » ترجمة حسنة لابن الرومية (راجع الإحاطة ، القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢١٥ - ٢٢١ .

ابن الأبار القضاعي

دبلوماسي وكاتب وشاعر بلنسي

(٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) ، (١١٩٩ - ١٢٦٠ م)

كانت بلنسية عاصمة شرقي الأندلس ، واستمرت تحتفظ حتى اللحظة الأخيرة بتفوقها ورياستها . وقد عرفت بلنسية ، في أواخر عهدها الإسلامي ، أيام الاضطراب والمحنة ، رهطاً من القادة والمفكرين الذين برزوا من غمار الفتنة ، وشهدوا سقوط الوطن القديم ، ثم غادروه إلى الضفة الأخرى من البحر ، مؤثرين أن يعيشوا في آفاق كريمة حرة ، على أن يبقوا تحت نير الحكم الجديد . وكان من بين هؤلاء سياسي ومفكر بلنسي ، عاصر أحداث المحنة ، واشترك في معظم أطوارها ، وساهم في غير محاولة بذلت لإنقاذ الوطن المنكوب ، ثم شهد في النهاية تسليم هذا الوطن إلى قاهره وسيده الجديد ، عاهل أراجون . خايي الأول أو خايي الفاتح .

هذا السياسي المفكر هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار ، وهو شخصية من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسي ، في تلك المرحلة القائمة من مراحل ، وهي مرحلة السقوط والانهار ، التي تشغل بالأخص ، النصف الأول ، من القرن الثالث عشر الميلادي .

وابن الأبار شخصية متعددة النواحي ، فهو فقيه راسخ ، وكاتب بلغ ذروة البيان ، وشاعر مبدع مبكى . ثم هو بعد ذلك مؤرخ محقق . ولتراث ابن الأبار التاريخي قيمة خاصة ، ولا سيما فيما يتعلق بفترة انهيار سلطان الموحدين ، وبعصره الخالص ، وربما كان تراث ابن الأبار عن حوادث عصره ، أقيم ما خلفه لنا هذا المفكر الممتاز . فهو قد شهد بنفسه معظم هذه الحوادث ، ودونها لنا عن خبرة ودراسة ، وصور لنا ألوانها المشجية ، في شعره ونثره ، بأسلوب ينفذ إلى سويداء القلوب .

وكان مولد ابن الأبار بثغر بلنسية العظيم ، في سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩ م)

فى بيت علم ونبلى ، وأصلهم من أئدة الواقعة على مقربة من غربى بلنسية ، والى ينتسب إليها كثر من العلماء . ودرس ابن الأبار الحديث والفقہ على أقطاب عصره ، وفى مقدمتهم أبوه عبد الله . وكان بين أساتذته أعظم علماء الأندلس يومئذ ، وهو المحدث الكبير أبو الربيع بن سالم ، وقد انقطع إليه ابن الأبار ، ولازمه أكبر من عشرين سنة . ولما توفى قتيلاً فى موقعة أنيشة فى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧ م) رثاه ابن الأبار بقصيدته ، التى تعتبر من أعظم المراثى الأندلسية .

وإلى جانب الحديث والفقہ ، برع ابن الأبار فى اللغة والأدب ، وشغف بالأخبار والسير ، ورحل فى مطلع شبابه إلى غربى الأندلس ، فزار قرطبة ، ثم إشبيلية ، وهو يأخذ أينما حل عن أساتذة العصر . ولما توفى أبوه فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) كان هو ما يزال بغربى الأندلس فى مدينة بطليوس ، عاكفاً على دراساته ، فعاد عندئذ إلى بلنسية موطنه ومثوى أسرته .

وتولى ابن الأبار فى شبابه قضاء دانية . ولكن القدر كان يدخره لمهام أخطر وأجل . ذلك أن الحوادث فى شرقى الأندلس ، كانت يومئذ تؤذن بتطورات خطيرة . ونحن نعرف أن الأندلس كانت ما تزال حتى ذلك الوقت ولاية مغربية ، تحت حكم الخلافة الموحدية ، ولكن الدولة الموحدية كانت قد بدأت قبل ذلك بقليل منذ موقعة العقاب المشؤمة (٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م) التى سحقت فيها الجيوش الموحدية على يد الجيوش الإسبانية المتحدة ، تدخل فى دور انحلالها ، وبدأ سلطانها فى الأندلس يهتز تحت ضربات الحركات القومية المحلية . وكان شرقى الأندلس بالأخص مسرحاً لموجة جديدة ، من الصراع بين القوى الوطنية والسيادة الموحدية ، وكان إلى بلنسية الموحدى يومئذ هو السيد أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ولدينا ما يدل على أن ابن الأبار ، عقب عودته من منطقة الغرب ، قد تولى منصب الكتابة لهذا السيد ، ولكن السيد أبا عبد الله توفى بعد ذلك بقليل فى سنة ٦٢٠ هـ ، وقام فى ولاية بلنسية مكانه ولده السيد أبو زيد عبد الرحمن ، فاستمر ابن الأبار فى منصبه كاتباً للوالى الجديد ، وزادت حظوته ومكانته . ولم يلبث أن غدا موضع ثقة

السيد وتقديره ، وكان ذلك بالنسبة لابن الأبار بداية حياته السياسية ، التي أخذت من بعد ذلك تتقلب في مراحلها المتعاقبة المؤسسية .

وكان سلطان الموحيدين في هذه المنطقة من الأندلس ، منطقة الشرق ، أضعف منه في أية منطقة أخرى ، أولاً لأنها وبعدها عن مركز الحكومة العامة في إشبيلية ، وثانياً لأن منطقة الشرق كانت منذ أيام زعيم الشرق محمد بن سعد ابن مردنيش ، قبل ذلك بنحو سبعين عاماً ، مركزاً لأعنف ثورة وطنية أندلسية اضطربت ضد الموحيدين ، ومن ثم فإنه لما انهارت قوى الموحيدين العسكرية بالأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، عادت بوادر الثورة والاضطراب من جديد لتعمل في منطقة الشرق ، وكانت مرسية وهي حاضرة الشرق الجنوبية ، أول مسرح لانفجار الثورة الوطنية فقام بها محمد بن يوسف بن هود ، واستطاع أن ينتزع السلطة من حاكمها الموحدى السيد أبي العباس وولده في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) .

وشعر السيد أبو زيد والى بلنسية بخطورة هذه الحركة ، فسار في قواته لمقاتلة ابن هود ، ولكن ابن هود هزمه ، فارتد مغلولاً إلى بلنسية ، وهو يستشعر سوء المصير .

ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل أخرى ، حتى ظهر صدى هذه الحوادث في بلنسية ذاتها ، واضطرم أهل بلنسية بالثورة ضد الموحيدين ، واتجهوا إلى الانضواء تحت زعامة الرئيس أبي جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، وزير السيد وكبير بطانته . وكان الرئيس زيان وهو سليل آل مردنيش حلة لواء الثورة الوطنية ، من قديم ضد الموحيدين ، هو الزعيم الطبيعي ، لمثل تلك الحركة وكان من أثر ذلك أن وقعت الوحشة بين والى السيد أبي زيد ، وبين وزيره الرئيس زيان . وخشى زيان من نقمة السيد فارتد في أهله إلى حصن أندية القريب ، وامتنع به وهو يرقب سير الحوادث .

وعندئذ اشتد الهياج في بلنسية ، وهتف الشعب برياسة زيان ، وخشى السيد أبو زيد البادرة على نفسه ، ولم يجد سبيلاً للدفاع هذه الثورة الجارفة ، فغادر بلنسية في أهله وأمواله ، ومعه كاتبه ابن الأبار ، والتجأ إلى بعض الحصون القريبة . وكان خروج السيد أبي زيد من بلنسية في شهر صفر

سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) . وعلى أثر خروجه دخل الرئيس أبو جميل زيان بلنسية ، ونزل بالقصر ، ودعا للخليفة العباسي ، واستقبله الشعب بأعظم مظاهر الحماسة والترحيب .

ولبت السيد أبو زيد مدى حين بمقره على مقربة من بلنسية . فلما رأى تطور الأمور على هذا النحو ، ولما لم يجد سبيلا إلى استرداد سلطانه ، عول على أن يلتجئ إلى خايي الأول ملك أراجون ، وكان يعقد بلاطه يومئذ بقلعة أيوب ، فسار إليه معه كاتبه ابن الأبار .

وهنا تبدأ تلك الصفحات المشجية من حياة ابن الأبار الدبلوماسية . وقد وقفنا في أحد مخطوطات الإسكوريال على هذين البيتين اللذين أشدهما ابن الأبار حين مغادرته لبلنسية مع مخدومه السيد أبي زيد وهما :

الحمد لله لا أهل ولا ولد ولا قرار ولا صبر ولا جلد
كان الزمان لنا مسلماً إلى أمد فعاد حرباً لما انقضى الأمد

ومنها يبدو أن ابن الأبار حين مغادرته لبلنسية ، كان وحيداً لا أهل له ولا ولد ، ومن ثم كان إقدامه على مشاركة السيد في مغامرته ، التي لم يكن يقدر يومئذ مدى خطورتها ، وكان ابن الأبار يومئذ شاباً في عنفوانه في الحادية والثلاثين من عمره .

والحقيقة أن هذا الأمير الموحدى السيد أبا زيد ، كان ينوى أن يذهب في الاستنصار بالنصارى إلى أبعد مدى . وكان خايي الأول ملك أراجون يحاول من جانبه أن يجتنى لقاء معاونة الأمير المسلم ، أقصى ما يمكن اجتنأؤه ، من أشلاء الأندلس ، وكانت بلنسية بالذات هي أعز أمانيه وتاج أطماعه ، ومن ثم فقد عقدت بين الأمير الموحدى وملك أراجون ، معاهدة صداقة وتحالف تقضى بأن يسلم الأمير الموحدى إليه ، جزءاً مما يفتحه من الأراضي والحصون الإسلامية ، وأن يحتفظ الملك خايي كذلك بكل ما يقوم بافتتاحه هو من الأراضي والحصون لنفسه ، وأن يسلم إليه السيد أبو زيد عدة حصون وبلاد هامة ، في منطقة بلنسية ، رهينة بولائه ، وأن يقوم ملك أراجون لقاء ذلك ، بحماية السيد والدفاع عنه ضد أعدائه .

وليست لدينا تفاصيل عن الدور الذى أداه ابن الأبار فى عقد هذه المعاهدة . ولكن يبدو لنا من تصرفه اللاحق أنه لم يكن راضياً ، عن هذا التسليم المشين ، الذى عهد إليه السيد أبوزيد ، فى أراضى الوطن الأندلسى وحصونه ، تحقيقاً لأطماعه الشخصية ، بل يلوح لنا أنه كان فوق ذلك على علم بما ينتويه السيد من خطوات لاحقة أبعد مدى ، وأشد إيلاماً للنفس . ذلك أن ابن الأبار ما لبث أن غادر مخدمه السيد أبا زيد وعاد مسرعاً إلى بلنسية ، وهناك التحق بخدمة أمير بلنسية الجديد ، أبى جميل زيان ، وتولى منصب كتابته ، وكان ابن الأبار قد ظهر فى هذا الميدان ببلاغته الأخاذة وبيانه الرائع .

أما السيد أبو زيد فقد ذهب فى مغامرته إلى الدرك الأسفل ، فاعتنق دين النصرانية ، واتخذ اسماً نصرانياً هو : بثنى (Vicente) أو بجنث بالعربية ، وأصبح يسمى فى الوثائق النصرانية ، بثنى ملك بلنسية ، وحفيد أمير المؤمنين . وتجمع الرواية الإسلامية على صحة واقعة تنصر هذا السيد الموحدى ، وتنحى عليه بأشد ضروب الإنكار واللوم .

ولقد كان ابن الأبار صادق الحس ، بعيد النظر ، حينما ترك مخدمه الضال لمصيره المحزن . ومن المحقق أنه نبذ فى ذلك كل إغراء ، وكل وعود برامة ، ولم يقبل أن يتورط لحظة ، فيما يعتبره ، خيانه لوطنه وأمتة ودينه .

* * *

كانت هذه التجربة الأثمة أول عهد ابن الأبار بالمغامرات الدبلوماسية . بيد أن القدر كان يدخره لمهام دبلوماسية أخرى ، أشد إيلاماً للنفس ، وأبعث إلى الحسرة والأسى .

ذلك أن صرح الأندلس القديم الشامخ ، قد أخذ فى تلك الآونة العصبية يهتز ويتداعى . أجل إن قوى الأندلس المفككة ، كانت عندئذ ، تحاول أن تجتمع فى الشرق تحت زعامة المتوكل بن هود ، وفى الوسط والجنوب تحت زعامة محمد بن الأحمر . ولكن هذه الزعامات الخالية بالحديدة ، لم تكن لتستطيع والفتنة تمزق أوصال الأندلس ، أن تصمد بمواردها المحدودة ، فى وجه إسبانيا النصرانية . وكان خايمى الأول ملك أراجون وفرناندو الثالث ملك قشتالة ،

يرقب كل منهما فرصته ، لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أشلاء الأندلس الممزقة .
وشاء القدر أن يكون ملك قشتالة ، هو السابق بانتزاع كبرى قواعد
الأندلس الثالثة ، فاستولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة في شوال سنة
٦٣٣ هـ (يولييه سنة ١٢٣٦ م) .

وأخذ ملك أراجون من بجانبه يمهّد للاستيلاء على بلنسية ، وذلك بانتزاع
حصونها الأمامية ، شيئاً فشيئاً . كل ذلك وزيان أمير بلنسية يقاوم الأرجونيين
ما استطاع . وأخيراً مزقت قوى البلنسيين في معركة أنيشة الحاسمة على مقربة
من بلنسية ، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٦٣٤ هـ (أغسطس سنة ١٢٣٧ م)
وامتنع زيان بقلوله داخل الثغر العظيم . وعول ملك أراجون على أن يأخذ
بلنسية بالحصار والمطاوله ، فجمع جيشاً مختاراً من فرسان الداوية والأستبارية
والأرجونيين والقطلان والمتطوعة الفرنسيين ، وسار إلى بلنسية ، وطوقها
بقواته من البر ، وضرب محلته بينها وبين البحر ، لكي يقطع سائر علائقها مع
الخارج ، وبدأ هذا الحصار الشهير في رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل ١٢٣٨ م) .

في تلك الآونة العصيبة اتجهت أنظار الأمير زيان ، إلى توجيه وزيره وكتابه
ابن الأبار إلى إخوانه المسلمين ، في الضفة الأخرى من البحر ، إلى مملكة
إفريقية (تونس) القوية القوية ، أو مملكة بني حفص . وكان عاھلها الأمير
أبو زكريا بن السيد أبي محمد عبد الواحد الموحدى ، قد استطاع أن يجعل منها
في فترة قصيرة ، قوة زاخرة بحسب حسابها . وبعث زيان إلى أمير إفريقية سفارة
على رأسها وزيره وكتابه ابن الأبار يحمل إليه بيعته ، وبيعة أهل بلنسية ،
وصريحه بسرعة الغوث والإنجاد ، قبل أن يفوت الوقت ، ويسقط الثغر العظيم
في أيدي النصارى .

وكان انضواء زيان تحت لواء الدولة الحفصية ، واتجاهه إلى طلب الغوث
منها ، عملاً فطناً ، من أعمال السياسة المستنيرة . ذلك أن قيام الدولة الحفصية في
إفريقية واستقلالها ، تحت رياسة أبناء حاكمها السابق السيد أبي محمد عبد الواحد
الموحدى ، كان ضربة للدولة الموحدية المفككة . وكان قيام الإمارات الأندلسية
الحديدة في مرسية ، وفي بلنسية ، خروجاً على الخلافة الموحدية ، اتباعاً لنفس

السياسة التحريرية ، فكان ثمة نوع من التحالف الطبيعي بين الخوارج على النير الموحدى فى إفريقية والأندلس .

ووصلت سفارة الأمير زيان إلى تونس ، وعلى رأسها وزيره ابن الأبار ، فاستقبلها الأمير أبو زكريا بترحاب ومودة ، ومثل ابن الأبار بين يديه فى حفل مشهود ، أبلغه فيه مضمون سفارته ، وألقى قصيدته السينية الرائعة ، التى اشتهرت فى التاريخ ، كما اشتهرت فى الشعر ، يستصرخه فيها لنصرة الأندلس ونصرة الدين وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت فلم يزل عز النصر منك ملتصا
وحاش مما تعانیه حشاشتها فطال ما ذاق البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحي أهلها جزراً للنائبات وأمسى بعدها تعمسا
وهى طويلة فى سبعة وستين بيتاً ، وكلها تحسر وأين على ضياع الأندلس ، وتمزق أوصالها ، وسقوط قواعدها .

فكان لإنشاد هذه القصيدة المبكية ، التى ما زالت تحتفظ حتى يومنا ، برنينها المحزن ، والتى كانت كأنها نفثة الأندلس الجريح ، أبلغ الأثر فى نفس الأمير أبى زكريا ، ورجالات بلاطه . وإنه لمن حوادث التاريخ القذة أن يحقق الشعر غاية السياسة ، وأن تكون القصيدة العصماء أمضى سلاح يغنى عن المفاوضة والإقناع . وهكذا كانت قصيدة ابن الأبار البليغة المؤثرة ، بل المبكية ، هى سلاح الإقناع فى هذه المهمة السياسية الكبرى . فبادر الأمير أبو زكريا بتجهيز أسطول مشحون بالسلاح ، والأقوات والكسبى والأموال ، لإنجاد الثغر الأندلسي المحصور ، وأقلعت هذه السفن المنجدة على جناح السرعة ، من ثغر تونس قاصدة إلى ثغر بلنسية ، ومعها ابن الأبار ورفاقه .

ولو أتيح لهذه السفن ، أن تتصل بالمحصورين ، وأن تمدهم بما كانت تحمل من سلاح وأقوات ، لكان من الممكن أن تطول مقاومة الشعب البلنسى ، وأن ينهار حصار الأرجونيين ، وأن تنقذ بلنسية ، ويتأخر سقوطها إلى حين .

ولكن كان من سوء الطالع أن هذه السفن المنشودة ، لم توفق إلى تأدية

مهمتها ، وتحقيق هدفها . ذلك لأنها لم تستطع أن تصل إلى مياه النهر المحصور ،
بأية وسيلة ، وطاردها السفن الأرجونية ، فاضطرت أن تفرغ شحنتها في
نهر دانيه ، وأن تعود أدراجها إلى تونس ، واستطاع ابن الآبار ورفاقه أن
يجوزوا إلى مدينتهم بطريقة لا نعلمها ، وتركت بلنسية لقضائها المحتوم .

وهنا شدد الأرجونيون الحصار على المدينة . وبالرغم مما بذله الأمير زيان
وقواته ، من ضروب الإقدام والبسالة ، في مدافعة الجيش المحاصر ، فقد كان
من الواضح ، ولا سيما من نضوب الموارد والأقوات ، ومما يعاينه أهل المدينة
من الكرب والضيق ، أنه لا مفر من التسليم ، إذا أريد أن تنجو المدينة من العيث
والتخريب ، ومن ثم فقد بدأت المفاوضات بين زيان وملك أراجون ، في شروط
التسليم ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تسلم المدينة صلحاً .

وإليك كيف يصف لنا ابن الآبار ، وقد كان شاهد عيان ، في رفقة أميره ،
ماتلاً ذلك من لقاء بين الأمير زيان والملك خايمي ، ومن إبرام شروط التسليم
بينهما ، وقد كان ابن الآبار هو الذي تولى صياغة تلك الوثيقة المحزنة ، وذلك
في يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ ، الموافق ٢٩ سبتمبر
سنة ١٢٣٨ م ، قال :

« في هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الحذاي
من المدينة ، وهو يومئذ أميرها في أهل بيته ، ووجوه الطلبة والهند ، وأقبل
الطاغية وقد تزيا بأحسن زى ، في عظماء قومه ، من حيث نزل بالرصافة ،
أول هذه المنازل ، فتلقاها بالولجة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد مسلماً ،
لعشرين يوماً ، ينتقل أهلها أثناءها ، بأموالهم وأسبابهم ، وحضرت ذلك كله ،
وتوليت العقد عن أبي جميل ، وابتدئ بضعة الناس ، فسيروا في البحر إلى
نواحي دانية ، واتصل انتقال سائرهم ، برأً وبحراً . وصبيحة يوم الجمعة السابع
والعشرين من صفر المذكور ، كان خروج أبو جميل بأهله من القصر ، في طائفة
يسيرة ، أقلعت معه ، وعندئذ استولى عليها الروم أحانهم الله » .

ودخل خايمي الفاتح وجنده ، نهر بلنسية ، في يوم الجمعة ٢٧ صفر سنة
٦٣٦ هـ ، الموافق لليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٢٣٨ م ، فكانت بلنسية بعد
قرطبة ، ثانية القواعد الأندلسية للعظيمة ، التي سقطت في تلك الفترة ، في أيدي

الإسبان . وقد كان انهيار هذه القواعد الأولى من الصرح الأندلسي الشامخ ، مقدمة لانهيار معظم القواعد الباقية تياً ، في فترة قصيرة لا تتجاوز العشرة أعوام .

هكذا كان الدور المؤلم الذي لعبه ابن الأبار في حوادث سقوط بلنسية . ولقد هزت هذه المحنة مشاعره إلى الأعماق ، فلم يطق أن يبقى في الوطن المنكوب . فغادر أميره وغادر الأندلس كلها ، وعبر البحر إلى تونس ، فوصلها في أواخر سنة ٦٣٦ هـ ، بعد سقوط بلنسية ، ببضعة أشهر ، وعاش حيناً في كنف الأمير أبي زكريا صاحب إفريقية ، يتولى له كتابة العلامة . ثم أخذ يتردد حيناً بين تونس وبجاية ، يدرس هنا وهناك . ولما توفي الأمير أبو زكريا في سنة ٦٤٧ هـ ، وخلفه ولده المستنصر بالله ، التحق ابن الأبار ببطانته العلمية ، ولكنه لم يكن قريراً مطمئناً ، إلى هذه الحياة ، لما كان يتخللها من غضب السلطان ، بسبب دسائس خصومه أحياناً ، وبسبب تصرفاته الشخصية الزقة أحياناً أخرى . واستطاع خصوم ابن الأبار في النهاية ، أن يوقعوا به ، ورفعت إلى السلطان بعض أقوال وأبيات نسبت إلى ابن الأبار ، طعناً في السلطان ، وتعريضاً به . فأمر السلطان بجلده ثم بقتله ، فضرب بالسياط ، ثم قتل طعناً بالرمح ، وأخذت كتبه وأحرقت في موضع قتله ، ووقع مصرع ابن الأبار ، على هذا النحو المؤسى ، في الحادى والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٥٨ هـ الموافق الثامن من يناير سنة ١٢٦٠ م ، واختتمت بذلك حياة أعظم شخصية في الأدب الأندلسي في القرن السابع الهجرى .

يقول العلامة المستشرق بونس بويجس في ترجمته لابن الأبار ما يأتى :

« ليس من شك في أن شخصية هذا الكاتب ، كانت ذات تأثير عظيم في حوادث عصره السياسية ، وأن حياته المليئة بالأحداث السعيدة أحياناً ، والذكدة أحياناً أخرى ، وموته المؤسى ، إن هى إلا نتيجة طبيعية ، أفضت إليها أطماعه المغرقة ، وخلقه العنيف التأثير على كل سلطة » .

ثم يقول في نهاية هذه الترجمة : « وفي الخامس عشر أو في العشرين من المحرم سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) اختتمت بصورة مفاجئة تلك الحياة المليئة بالحوادث

والأعمال ، والتي خصصت في معظمها للمفاوضات السياسية ، وألفت مع ذلك فراغاً كافياً ، لإتحافنا بثمار نفيسة في عالم الأدب .

* * *

هذا هو ابن الأبار السياسي . ولقد اختلطت حياة هذا السياسي البلنسى الكبير السياسية ، بحياته الأدبية ، وكانت مواهبه الأدبية ، كما رأينا ، سبيل مشاركته في الحياة العامة ، وسبيل نجاحه في مساعيه الدبلوماسية ، فلنلق الآن نظرة سريعة على تراثه الأدبي العظيم .

لقد ترك لنا ابن الأبار تراثاً حافلاً من المنشور والمنظوم ، والمصنفات التاريخية الجلية . وأقوى وأروع ما صدر عن ابن الأبار ، من نثر ونظم ، هو ما كتبه أيام المحنة ، وأيام انهيار الأندلس ، وأيام سقوط وطنه بلنسية من القصائد والرسائل ، التي ما زالت تحتفظ حتى اليوم برنينها المبكى . وقد انتهت إلينا قطعة مخطوطة من ديوانه تحفظ اليوم بخزانة الرباط الملكية . وأما تراثه التاريخي ، فهو من أنفس ما انتهى إلينا عن تاريخ الأندلس وتاريخ رجالها ، ولا سيما في القرن السادس الهجري ، وأوائل القرن السابع . وقد كان ابن الأبار وزيراً و كاتباً ، ومعاصراً لكثير من الحوادث التي يرويها . وأهم مصنفاته التاريخية هو بلا ريب كتاب « التكملة لكتاب الصلة » ، وهو موسوعة حافلة في التراجع ، يتخللها كثير من النبد التاريخية الهامة . وقد وضعه ابن الأبار تنفيذاً لإشارة أستاذه أبي الربيع بن سالم كبير علماء شرق الأندلس يومئذ ، وأريد به أن يكون « تكملة » لكتاب الصلة لابن بشكوال القرطبي .

ويقول لنا ابن الأبار إنه كان قد انتهى من وضع كتاب التكملة في سنة ٦٣٦ هـ ، ولكن هناك ما يدل على أنه لبث ينقحها ويزيد فيها حتى أواخر سنة ٦٥٥ هـ ، أعنى إلى ما قبل وفاته بنحو عامين وظاهر من محتويات التكملة أن ابن الأبار يعنى عناية خاصة بعلماء شرق الأندلس ، وأحداثه التاريخية ، وهي المنطقة التي ولد فيها ، وسلخ فيها شبابه ، واكتمل نضجه ، واتصل بالعدد الجهم من علمائها .

ويلى كتاب الصلة في الأهمية كتاب « الحلة السيرة » ، وهو أيضاً مجموعة

نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب وغيرهم ، تبدأ من المائة الأولى للهجرة حتى أوائل المائة السابعة . واكتاب الحلة أهمية خاصة ، ذلك لأنه يقدم إلينا خلال التراجم التي وردت به ، نصوصاً تاريخية في منتهى الأهمية ، ولا توجد في مصادر أخرى ، ولا سيما عن بعض رجالات عصر الطوائف ، وعصر الثورة ضد المرابطين ، هذا فضلاً عما تنسم به معظم التراجم من روح الإنصاف والحيمة . وقد قام العلامة المستشرق دوزى بنشر هذا الكتاب في سنة ١٨٥١ م ، ولكنه نشره بطريقة ناقصة ، إذ حذف منه كثيراً من التراجم ، ثم قام بنشرها في مجموعة النصوص التي نشرها عن بني عباد بعنوان *Historia Abadidarum* وهو بعد ذلك كله لم ينشر ما ورد فيه من التراجم المغربية ، وهذه قام بنشرها المستشرق الألماني ميلر في كتابه *Beiträge* ، فكان تمزيق كتاب الحلة بهذه الطريقة ، مما يتنافى مع الأصول العلمية السليمة ، وقد قام أخيراً الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية السابق بمليد ، بنشر طبعة كاملة محققة من الحلة السيرة في مجلدين (القاهرة سنة ١٩٦٤) .

ومن معاجم التراجم التي وضعها ابن الأبار أيضاً كتاب « المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصديقي السرقسطي » . وهذه هي معاجم التراجم الكبيرة التي انتهت إلينا من تراث ابن الأبار . وهناك ما يدل خلال بعض تراجم التكملة أن ابن الأبار قد وضع معجماً لشيوخه ، ومعجماً آخر في أصحاب القاضي ابن العربي . وانتهت إلينا من قلمه مجموعة صغيرة أخرى من التراجم عنوانها « إعتاب الكتاب » تشمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشاركة ، وتوجد منه نسخة قديمة بمكتبة الإسكوريال .

ولابن الأبار مؤلفات أخرى لم تصل إلينا ، منها كتاب « درر السمط في أخبار السبط » وهو مؤلف يشير إليه المقرئ في نفح الطيب ويقتبس منه ، وكتاب « معدن اللجين في مرآة الحسين » ، وهو كتاب يشير ابن الأبار نفسه إلى أنه قام بتأليفه . ويوجد بمكتبة الإسكوريال كذلك مخطوط عنوانه « تحفة القادام » من تأليف ابن الأبار يوصف بأنه « مقتضب من كتاب تحفة القادام » ، وهو حسبما يصفه ابن الأبار في الديباجة « اقتضاب من بارع الأشعار » وفيه يورد ابن الأبار تراجم بعض الشعراء الأندلسيين والغرباء

ومختارات من أشعارهم ، وذكر ابن الأبار في الحلة أن له مؤلفاً آخر عنوانه « إيماض البرق في أدباء الشرق » .

وبعد فهذه لمحة في التعريف بتراث ابن الأبار الفكري . وقد خلدت لنا آثار ابن الأبار صوراً حية من محنة الأندلس وعوامل انهيارها ، لم يستطع كاتب آخر ، من معاصريه ، أن يقدم إلينا شيئاً يدانيها . وقدمت إلينا مراثياته عنها صوراً مفجعة تذيب القلب أسى ، ومن ذلك قصيدته السينية الرائعة التي سبقت الإشارة إليها ، ورسالته المبكية في رثاء بلنسية ، إلى صديقه وزميله الكاتب البلنسي الكبير أبي المطرف بن عميرة وغيرهما . هذا وما زالت آثار ابن الأبار حتى يومنا ، أهم وأوثق مصادرنا عن تلك الفترة المشجية من التاريخ الأندلسي .

الحسن بن الوزان الفاسي الغرناطي

أو ليون الإفريقي

(٩٠٠ - ٩٤٤ هـ) ، (١٤٩٦ - ١٥٣٧ م)

كانت رحلة ابن بطوطة الطنجي ، وثيقة من أنفس الوثائق التي اعتمد عليها الباحث الغربي في دراسة الأقطار والأمم الإفريقية والآسيوية ، وأحوالها الاجتماعية ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، وكانت أوصاف ابن بطوطة ، بالأخص لصحراء إفريقية الكبرى ، وبلاد السودان ، وممالك حوض النيجر السوداء ، هي عمدة الدراسات والبحوث الكشمية الأوربية الحديثة لتلك المناطق .

وجاء من بعد ابن بطوطة بنحو قرن ونصف رحالة آخر ، هو المعروف باسم « ليون الإفريقي » ، طاف أرجاء المغرب وأواسط إفريقية ومصر وقسطنطينية وبلاد العرب ، وكتب لنا « وصفاً لإفريقية » عني فيه بالأخص بوصف أنحاء المغرب وبلاد السودان ، وممالك إفريقية السوداء في منطقة النيجر ، وغدا مصنفه المشهور « وصف إفريقية » إلى جانب رحلة ابن بطوطة ، وثيقة نفيسة أخرى ، تلقى أضواء جديدة على جغرافية هذه المناطق وتاريخها وأحوالها الاجتماعية .

إن هذا الرحالة العالم الذي اشتهر في دوائر البحث الغربي باسم « ليون الإفريقي » ليس إلا رحالة وعالمًا مسلمًا ، وإن هذا الإسم الغربي النصراني الذي خلع عليه ، والذي ما زال يحجب اسمه المسلم الأصيل ، ينطوي على مأساة مؤلمة هي التي غيرت وجهة حياته كلها .

إنه الحسن بن محمد الوزان الفاسي الغرناطي ، وذلك حسبما نخبرنا في الخاتمة التي ذيل بها قاموسه العربي اللاتيني ، فهو إذاً أندلسي الأصل ، وقد ولد بمدينة غرناطة حسبما يذكر لنا ذلك في خاتمة كتابه « وصف إفريقية » ، ونشأ بالمغرب ، أو بعبارة أخرى بمدينة فاس . أما عن تاريخ مولده ، فإنه ليست لدينا معلومات قاطعة ، بيد أنه يستنتج من بعض الإشارات والمقارنات التي يوردها خلال حديثه ، أنه ولد بين سنتي ١٤٩٤ و ١٤٩٦ م . فهو أولاً يقول لنا إنه حينما رافق حماة ، مولاي محمد سلطان مراکش ، ضد البرتغاليين في أصيلا ، كان

ذلك سنة ١٥٠٨ ، وكان عمره عندئذ أربعة عشر سنة ، وثانياً أنه حينما سار مع خاله في سنة ١٥١٣ م في رحلة إلى تنبكتو ، كان في السادسة عشرة أو في السابعة عشرة من عمره . وإذن فهو قد ولد في غرناطة ، آخر حواضر الإسلام بالأندلس ، بعد سقوطها في أيدي الملكين الكاثوليكين فرناندو وإساييلا في فاتحة سنة ١٤٩٢ ، بنحو ثلاثة أعوام أو أربعة ، وقد كان الحسن وفقاً لما يذكره لنا الغزيرى في معجمه ، ينتمى بمولده إلى الأسرة الزيدانية الشريفة . وكذلك لسنا نعرف بالتحقيق تاريخ انتقال أسرته من الأندلس إلى المغرب ، بيد أنه يستدل من إشارات كثيرة في حديث الحسن عن مملكة فاس ، أنه نشأ بها طفلاً ، وتلقى بها تربيته الأولى ، وإذن فنستطيع أن نقول إن الأسرة غادرت غرناطة حوالى سنة ١٤٩٨ ، بعد مولد الحسن بنحو عامين أو ثلاثة ، وذلك حينما ظهرت نيات السياسة الإسبانية واضحة في نقض العهود المقطوعة للمسلمين ، وبدأت مساعي الكنيسة في تنصير المسلمين . ونحن نعرف أنه منذ سقطت غرناطة وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس ، أخذ كثير من الأسر المسلمة في مغادرة الوطن القديم ، واستمرت هذه الحركة أعواماً ، وغادرت أسرة الحسن غرناطة ، فيمن غادرها من آلاف المسلمين الذين لم يطمئنوا إلى الحكم الجديد ، وعبرت البحر إلى المغرب ، واستقرت بمدينة فاس . وكانت فاس حاضرة المغرب يومئذ ، وكانت ما تزال تحتفظ بقبس من سمعتها العلمية القديمة أيام بنى مرين . وأنفق الحسن سنى حياته في فاس ، ودرس بجامعة العريقة ، جامع القرويين ، وهو يصف لنا هذا الجامع الشهير وضخامته وروعته ، وأروقته ، وأبوابه وقناديله ، وما يلقى فيه من دروس ، تبدأ في الشتاء من الصباح الباكر ، وفي الصيف عقب غروب الشمس ، وفي حلقاته تدرس الشريعة والفلسفة ، ويمنح الأساتذة أجوراً سخية . ودرس الحسن ، النحو والعروض والأدب والتاريخ والفلسفة والمنطق والشريعة ، وقد ذكر لنا في بعض المناسبات أنه كان من بين كتبه للدراسية كتاب « عقائد النسفى » . ويبدو من إشارات كثيرة ، أنه قرأ مقدمة ابن خلدون ، وبعض كتب الغزالي وكتاب ابن عبد الملك المراكشى « الذيل والتكملة » ، كما يبدو أنه قرأ عن التصوف ، ويشير في ذلك بالأخص إلى السهروردي وابن الفارض باعتبارهما من أقطاب هذا الميدان .

والظاهر أيضاً مما يذكره لنا الحسن عن حياته في تلك الفترة أنه كان يعيش مع أسرته في سعة ورغد ، وقد كانت أسرته تقضى مواسم الصيف في قصر سابق مهجور يقع على قيد نحو ستة أميال من فاس ، وكان أبوه يمتلك أو يستأجر بعض الأراضي المجاورة لهذا القصر . وكان الحسن يعيش سعيداً في تلك العزلة المشجعة على الدرس .

ويقص علينا الحسن كثيراً من مراحل حياته ، خلال أحاديثه عن رحلاته ، وأوصافه لمختلف البلاد التي شهدتها . فهو قد اشتغل في حداثته ، كمعظم طلاب هذا العصر ، بالتوثيق في إحدى مارستانات فاس ، مدى عامين ، بأجر قدره ثلاثة دنائير في الشهر . وبدأ الحسن رحلاته وتجوّاله بأنحاء المغرب وثغوره في وقت مبكر ، ولم تكن جولاته رحلات عارة ، ولكنها كانت في معظمها تنطوي على القيام بمهام تعتبر خطيرة بالنسبة لحدّاته سنه . وشهد في نفس الوقت كثيراً من الأحداث الهامة التي وقعت يومئذ بالمغرب ، والتي يذكرها لنا تبعاً خلال أحاديثه . وكانت هذه الفترة بالذات من أهم الفترات في تاريخ المغرب ، وهي الفترة التي اشتد فيها اعتداء البرتغاليين على الشواطئ والثغور المغربية ، ونهض المغرب فيها ليدفع عدوان المغيرين بكل ما وسع ، ويشهر عليهم حرب جهاد شعواء .

يقول الحسن ، إنه لما سقطت آسفي في أيدي البرتغاليين في سنة ١٥٠٨ ، كان في الثانية عشرة من عمره ، وأن سلطان فاس ، أوفده يومئذ بالرغم من حداثة سنه مع الشريف محمد للاتصال بقائد آسفي عند هجوم البرتغاليين عليها ، وإقناعه بالوقوف إلى جانب مليكه ، وليتصل كذلك بحاكم السوس لنفس الغرض . وفي أواخر هذا العام ، كان الحسن في ركب مولاي محمد الوطاسي ساطان فاس ، وفي خدمته ، عند ما سار بحملته لإنقاذ ثغر أصيلا ، الذي استولى عليه البرتغاليون ، وقد كاد يسقط في أيدي المغاربة ، لولأن تداركته نجدة قوية بعث بها ملك قشتالة إلى البرتغاليين . وفي العام التالي أعني في سنة ١٥٠٩ (٩١٥ هـ) ، زار الحسن مدينة الشلّة الأثرية ، وتجوّل بين أطلالها ، وقرأ شواهد قبور ثلاثين من الأمراء والأشراف الذين دفنوا بها ومعظمهم من أمراء بني مرين ، ونقل ما عليها من النقوش ، وجمعها فيما بعد في كتاب خاص .

وفي نفس هذا العام ، سنة ١٥٠٩ ، عهد إليه السلطان بالسير مع أحد قواده لمحاولة تحصيل الخزينة من يهود نفزة بمنطقة تادلا . وفي سنة ١٥١٢ ، سار الحسن في ركب مولاي محمد مرة أخرى ، وكان مولاي محمد يقود حملة نحو منطقة تادلا من أراضى دكالة ، وكان يرعى بحملته إلى تحرير أهل دكالة ، من نير العرب الذين كانوا يعيشون فساداً في هذه المنطقة . ويعتدون على السابلة والسكان الآمنين . وبعد بضعة أيام سار السلطان في جيشه إلى بلدة المعدن من أرض دكالة ، وأمر بعودة العلماء المرافقين له إلى فاس ، وبعث الحسن إلى مراكش في مهمة سياسية لم يفصح لنا الحسن عن حقيقتها .

رحلات الحسن بن الوزان

ومن ذلك الحين يغلو الحسن شخصية بارزة في مجتمع فاس ، ونراه يتنقل بين أرجاء المغرب وإفريقية ، أحياناً في بعض المهام السلطانية ، وأحياناً في رحلات لا يحدثنا عن أغراضها . فراه مثلاً ، حسبما يحدثنا في الكتاب الرابع من « وصف إفريقية » في مدينة بجاية في ١٥١٤ في طريقه إلى قسطنطينية ، وتونس . ثم هو يقول لنا إنه عاد في سنة ١٥١٣ من تونس إلى فاس ، ليرى أصدقاءه . وفي هذه السنة بالذات ، في أواخرها حسبما يبدو ، قام الحسن بأعظم رحلاته الإفريقية . وذلك أنه صحب خاله ، الذي ندبه سلطان فاس سفيراً عنه إلى سلطان تنبكتو (تمبو تو) في رحلته ، وكان يومئذ في نحو السابعة عشر من عمره . وقصداً إلى تنبكتو عن طريق درعة ، وبعثه خاله نيابة عنه ومعه هدية إلى حاكم درعة . وقدم إليه الحسن شعراً من نظمه . ذلك لأن الحسن كان ينظم الشعر ، وهي صفة نتحدث عنها فيما بعد . ويحدثنا الحسن عن خاله باحترام وإعجاب ، ويقول إنه كان شاعراً جزلاً ، وخطيباً مفوهاً . وكانت رحلة الحسن هذه من أعظم رحلاته ، وأوسعها آفاقاً وأغزرها مادة . وكانت طويلة مشعبة ، وقد تمت في صحبة القوافل ، وقدر للحسن أن يشهد خلالها سائر ممالك إفريقية الوسطى ، وحوض نهر النيجر ، وأن يدرس جغرافيتها وأحوالها دراسة حسنة ، وهو يصفها لنا وصفاً قيماً دقيقاً في الكتاب السابع من مؤلفه . وكانت تنبكتو يومئذ في أزهر عصورها ، وكانت قاعدة لمملكة كبيرة قوية ، تنزع مصادرها أسرة « سونجاهي » . وقد أتيح للحسن أن يخترق في تلك الرحلة ، سائر ممالك

السودان الواقعة فى تلك المنطقة ، وعددها خمسة عشرة مملكة متجهاً إلى تنبكتو نحو الشرق ، ثم بعد ذلك نحو الجنوب ، وهذه الممالك هى حسبما يذكرها لنا : ولالة ، وغنيا ، ومالى ، وتنبكتو ، وجوجو ، وجوبر ، وأجادز ، وكانو ، وزجيزج ، وكافسينا ، وزمفرا ، ووتجرا ، وبرنو ، وجاوجو ، ونوبى . وكان الحسن حينما قام بهذه الرحلة الكبرى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، ومع ذلك فإنه يبدى فى وصفه الموجز لمواقع هذه الممالك ومعالمها الجغرافية ، وأحوالها الاجتماعية دقة واضحة ، وهو يلخص لنا أحوال حكمائها وشعوبها فى تلك العبارة : « إن حكماء هذه الممالك وسكانها على قدر كبير من الثراء والنشاط ، وهم يشغفون بإقامة العدالة ، ولو أن منهم طوائف تحيا نوعاً من الحياة الممجبة » .

ولسنا نعرف بالضبط مدى الزمن الذى استغرقته هذه الرحلة الكبيرة ، ولكننا نعرف أن الحسن ، أنفق بعد ذلك أعواماً أخرى فى التجوال فى سائر أنحاء المغرب ، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وهو يشهد أحداثه ويدرس معالمه ، ويتمزج بسائر قبائله وطوائفه ، ويخترق سائر مدنه ومحلاته ، وقد شهد الحسن خلال ذلك كثيراً من الأحداث الهامة ، واشترك فى بعض الحملات التى جهزت يومئذ لرد البرتغاليين عن الثغور المغربية . وهو يقص علينا بعض هذه الأحداث ، فيقول إنه فى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) ، كان فى أرض حاحة ، الواقعة غربى مراکش ، على مقربة من المحيط ، ورأى بها مدينة تدنس ، وقد غدت قفراً خراباً لفرار أهلها منها خوفاً من سقوطها فى أيدي البرتغاليين ، وأنه فى العالم التالى ، فى سنة ١٥١٥ م . كان يصحب مولاى محمد سلطان فاس ، فى حملته التى قادها ضد العرب فى أرض رجراجة الواقعة شمال أرض حاحة ، لردعهم من عيهم ، وأن السلطان طاردهم بشدة حتى التجأوا إلى الجبال ، وفى هذا العام أيضاً ، كان الحسن ، حسبما يقص علينا ، فى ثغر المعمورة ، وكان البرتغاليون يومئذ يهاجمونه يحاولون افتتاحه ، ولكنهم هزموا شر هزيمة على يد مولاى ناصر الوطاسى . وقد شهد الحسن هذا النصر الباهر للمغاربة ، وهذه الهزيمة الساحقة للمعتدين .

وتعتبر هذه الرحلات والجولات المغربية المتوالية ، إلى جانب رحلة الممالك

السوداء أهم وأخصب رحلات الحسن ، وأحفلها بالدرس والوصف .

ولست لدينا تفاصيل واضحة عن حياة الحسن في الأعوام التالية ، سوى حقيقة واحدة هي أن الحسن قام خلالها بطائفة من الرحلات الهامة ، في شمالي إفريقية ، وفي المشرق . وهناك ما يدل على أن الحسن بدأ هذه الرحلات عقب هوقعة المعمورة مباشرة ، فهو يقول لنا إنه كان بالمعمورة قبل أن يقوم برحلته إلى قسطنطينية ، وقد وقعت حوادث المعمورة ، حسبما تقدم في سنة ١٥١٥ ، وإذن فلا بد أن يكون الحسن قد رحل إلى قسطنطينية في أواخر هذا العام أو في أوائل العام التالي ، أعنى في أوائل سنة ١٥١٦ . ويلخص لنا الحسن برنامج رحلاته المشرقية في خاتمة الكتاب الثامن من مؤلفه ، وهو الذي مخصصه لوصف مصر ، وملخص ذلك ، أنه حينما زار مصر ، وبعد أن مكث وقتاً في القاهرة ، سار بطريق النيل من القاهرة إلى أسوان ، ثم عاد بطريق النيل أيضاً من أسوان إلى قنا ، ومن هنالك اخترق الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر ، ثم عبر هذا البحر إلى ينبع ثغر المدينة ، ثم إلى جدة ثغر مكة ، واخترق بلاد الحجاز ، بيد أنه ليس لدينا ما يدل على أنه أدى فريضة الحج . وهنا يذكر لنا الحسن رحلاته الآسيوية فيما يأتي :

« بيد أنه إذا شاء الله أن يمد في أجلي ، فإني أعزم أن أصف كل مناطق آسيا التي تجولت فيها ، وهي بلاد العرب ، والهن ، وسيناء ، والجزء الآسيوي من مصر (يريد فلسطين) . وأرمينية ، وجزء من بلاد التتر (يريد بها شمالي فارس) ، وهي بلاد رأيتها وتجولت فيها أيام شباني . وكذلك سوف أصف رحلتي الأخيرة من فاس إلى قسطنطينية ، ومن قسطنطينية إلى مصر ثم من مصر إلى إيطاليا ، وهي رحلة رأيت فيها جزائر عديدة ومختلفة » .

ويبدو مما تقدم أن الحسن قد زار قسطنطينية مرتين ، وفي أقواله أيضاً في موطن آخر ما يدل على أنه زار مصر مرتين آخرين ، وذلك عقب الفتح التركي لمصر في ١٥١٧ م ، وقد كانت زيارته الأولى لها ، فيما يرجح في سنة ١٥١٦ ، وذلك عقب عودته من رحلته الأولى إلى قسطنطينية . وقد استغرقت هذه الرحلات كلها زهاء خمسة أعوام من سنة ١٥١٦ إلى سنة ١٥٢٠ .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن حقيقة الدوافع التي حملت الحسن على القيام

بهذه الرحلات المختلفة . إنه يبدو من بعض إشارات الحسن ، أنه كان في البداية ، وفي رحلاته المغربية ، يرافق التجار ، ويقوم لهم بأعمال التوثيق والمحاسبة ، وذلك حسباً محدثنا عن بعض رحلاته في جبال الأطلس . ثم إنه يبدو كذلك أنه كان يشغل أحياناً بالتجارة لحسابه الخاص ، وذلك حسباً محدثنا خلال رحلته الأولى إلى مصر ، حيث قام في ساحل ليبيا بشراء بعض الأغنام والزبد . ولما أراد شحنها بطريق البحر إلى مصر ، اضطر إلى الفرار خشية من مفاجأة القراصنة الفرنج .

ويجب أن لا ننسى إلى جانب ذلك تلك المهام السلطانية ، التي كان الحسن يكلف بها من آن لآخر من قبل عاهل فاس ، وذلك سواء في السفارة عنه أو مرافقته في بعض حملاته ، وهذا ما يقترن بالأخص برحلات الحسن في مختلف أنحاء المغرب . بيد أنه يصعب علينا أن نعتقد أنه ، في رحلاته الثانية إلى مصر ، وقسطنطينية ، كان يكلف بمثل تلك المهام السلطانية ، وإن كان بعض الباحثين ، ميل إلى الاعتقاد بأنه كان في رحلاته إلى قسطنطينية يحاول بالنيابة عن سلطانه ، أن يحمل سلطان الترك على بذل الجهود لمعاونة المغرب ، في صراعه ضد إسبانيا والبرتغال .

غير أن هنالك ما يدل أيضاً ، وهو أرجح الفروض ، على أن الحسن قد قام بمعظم رحلاته ، إشباعاً لشغفه بالكشف والدراسة . وأسطع دليل على ذلك ما تركه لنا عنها من أوصاف مستفيضة دقيقة ، لا يمكن إلا أن تكون مستمدة من مذكرات وتقييدات مدونة ، لا عليها إلا مثل هذا الشغف بالدرس والتدوين .

الحدث الحسم

كانت رحلة الحسن الأخيرة ، حسباً يبدو من أقواله المتقدمة هي الرحلة الثانية من فاس إلى قسطنطينية ، ومن قسطنطينية إلى مصر ، ثم من مصر إلى إيطاليا ، ورحلة الحسن إلى إيطاليا لم تكن رحلة اختيارية . ذلك أنه حينما عاد من قسطنطينية إلى مصر ، وأراد العودة إلى وطنه ، ركب البحر من الإسكندرية إلى مياه تونس ، ورسب السفينة في مياه خليج قابس عند شاطئ جزيرة جربة أو على مقربة منها . وهنا وقع الحدث الحسم في حياة الحسن ، فإن بعض القراصنة النصاري ، وهم على الأغلب من البنادقة ، هاجموا السفينة التي يركبها الحسن

في مياه جزيرة جربة ، وأخذ الحسن أسيراً ضمن من أخذوا . ويلخص لنا الحسن هذا الحدث الجسم في حياته ، في الكتاب السادس من مؤلفه ، عند ذكر عنوان وصف جزيرة جربة في قوله : « وصف جزيرة جربة حيث أسر يوحنا ليون (الحسن) مؤلف هذا التاريخ على يد القراصنة الإيطاليين ، وحمل من هناك إلى رومة » . ولا يقدم إلينا الحسن - أو يوحنا ليون فيما بعد - أى إيضاح آخر عن أسره أو تاريخ هذا الأسر ، أو الظروف التي حمل فيها إلى رومة . وكان الحسن يوم أسره في نحو الرابعة والعشرين من عمره .

وكانت مياه هذا القسم من البحر المتوسط يومئذ ، مسرحاً لمغامرات أمير البحر التركي خير الدين وأخيه أوروچ ، ومغامرات خصومهم من القراصنة النصارى ، وكان وقوع الركاب الآمنين ، سواء من المسلمين أو النصارى ، أسرى في أيدي القراصنة من الجانبين ، من الحوادث العادية التي يكثر وقوعها ، وكذا كانت عمليات الفداء تجرى يومئذ بكثرة لافتداء المنكوبين ، ولكن الظاهر أن الحسن لم يجد من يفنديه . وأدرك القراصنة من جهة أخرى مما رأوه من حالة الحسن ، ومما يحمله معه من الكتب والأوراق ، أنهم يحرزون أسيراً غير عادى ممتاز بصفته العلمية ، فحملوه إلى رومة وقدموه هدية إلى البابا ، وهو يومئذ ليون العاشر ، أو الكاردينال السابق جيوفانى دى مديتشى .

أما متى وقع هذا الحادث الخطير في حياة الحسن ، فإنه من المرجح أن يكون وقوعه في سنة ١٥١٩ م أو ١٥٢٠ م ، لأنه قام برحلته الأخيرة إلى مصر عقب الفتح التركي مباشرة ، أى بعد سنة ١٥١٧ م ، فإذا كانت الرحلة الثانية قد تمت في سنة ١٥١٨ ، والرحلة الثالثة التي قام بها عقب عودته من قسطنطينية قد تمت في ١٥١٩ ، ففي وسعنا أن نضع تاريخ ركوبه البحر في طريق عودته إلى المغرب في أواخر سنة ١٥١٩ أو أوائل ١٥٢٠ م .

أخذ الحسن أسيراً إلى رومة وقدم إلى البابا ، وكان الأسرى يومئذ يعتبرون من العبيد ، وكانت جمهرة كبيرة من أولئك المنكوبين المسلمين ، تعمل في قصور الملوك النصارى ، وبيوت الكبراء والميسورين ، وكان بعضهم ينتظم في سلك الحرس الملكى هنا وهناك ، وكان مثل هذا المصير ينتظر الحسن ، لولا أن آنس البابا في عبده الحديد طرازاً آخر ، وأدرك قيمته العلمية الخاصة ، فإدار يعنته ، وشمله بعطفه ورعايته ، وقرر له معاشاً سخياً حتى لا يفكر في الهرب ،

وانتهى هذا العطف إلى النتيجة الطبيعية وهى إقناع البابا لخدمه بأن يعتنق النصرانية ،
ومن ثم فقد نصر الحسن ، وحضر البابا حفلة تنصره شيئاً له ، وأطلق عليه اسم
« جوفانى ليونى » Giovanni Leone أو يوحنا الأسد ، حسبما يترجمه لنا الحسن .

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، هل كان اعتناق الحسن للنصرانية أمراً تمليه
بواعث المصلحة قبل كل شئ ، أم أنه قد أضحي بهذه الردة نصرانياً
مخلصاً ؟ إن لدينا ما يعزز رأى الأول فى تصرف الحسن وعوده إلى الإسلام
فيما بعد . صحيح أن الحسن يبدى فى كثير مما يكتبه فى مؤلفه عن الإسلام والنبي ،
تحاملاً واضحاً ، فهو يصف العقيدة الإسلامية « بالتخريف المحمدى » ، وهو
يصف المسلمين « بالكفرة » ، وذلك حينما يذكر تحالف الكونت يوليان القوطى
حاكم سبته مع المسلمين على فتح الأندلس ، وهو يذكر اسم « محمد » مجرداً من
كل توقير ، ويصف المسجد بالكنيسة ، والحراب بالهيكل ، ثم هو يغضى عن
كثير من تصرفات الإسبان والبرتغاليين العدوانية فى المغرب . بيد أنه يجب
أن نذكر أن الحسن أو ليون كتب مؤلفه فى رومة ، وتحت كنف المجتمع
النصرانى المتعصب الذى كان يعيش فيه ، والذى يتمتع بحمايته ورعايته ، وقد
كان من المعقول أن يملك ليون هذا المجتمع وأن يسترضيه ، بطائفة من
الإشارات والتعابير التى تبعد عنه كل شبهة فى إخلاصه لدينه الجديد .

ليون الإفريقى Leo Africanus

وهكذا غدا الحسن بن الوزان ، جوفانى ليونى ، أو ليون الإفريقى ، وهو
الإسم الذى عرفت به فيما بعد ، مذ ظهر مؤلفه الشهير فى « وصف إفريقية » .

وخاض ليون فى رومة حياة علمية ، وتعلم الإيطالية واللاتينية والإسبانية ،
وقام بتدريس اللغة العربية لعدة من العلماء ورجال الدين ، وكان من بين تلاميذه
الكردينال جيلو أنتونينى . ويجب أن نشير هنا إلى بعض صفات ليون ومواهبه
العلمية والأدبية ، وقد سبق أن أشرنا إلى دراساته فى فاس ، وما قرأه خلالها من
الكتب . ونزيد هنا أن الحسن (ليون) فوق شغفه بالتاريخ والجغرافيا كان أديباً
وشاعراً محسناً ، وهو ينوّه فى غير موطن بموهبته الشعرية ، ويقول لنا إنه كان
ينظم الشعر فى مديح بعض سادة الأنحاء التى يتجول فيها ، وأن سيداً من أعيان
الأطلس وصله ذات مرة عن شعره ، بجواد مطهم وخمسين ديناراً . وكان ليون
فوق ذلك يجيد إلى جانب العربية عدة لغات منها العبرية واللاتينية ، وقد ظهرت

براعته اللغوية في قاموسه الذى نتحدث عنه بعد . وكان البابا ليون العاشر من جهة أخرى من حماة العلوم والآداب ، وكان عصر الإحياء يومئذ يبعث أضواءه إلى سائر جنات إيطاليا ويسطع في ظل البابوات والأمراء ، وكان هذا الجو العلمى الذى يغمر البلاط البابوى في تلك الفترة ، يشجع ليون على الاضطلاع بعدة من المشاريع العلمية ، التى تتجلى فيها معارفه المشرقية والكشفية الواسعة . ولكن صديقه وحاميه البابا ما لبث أن توفي في أول ديسمبر سنة ١٥٢١ ، أى لنحو عامين فقط من وفود ليون إلى رومة .

وكانت هذه بلا ريب ضربة شعر ليون بوطأتها . بيد أنه استمر مقيماً في رومة ، مثابراً على دراسته ، وكان يزور من آن لآخر بعض المدن الإيطالية الشمالية ، ولا سيما بولونيا التى زارها مراراً ، وكان يقوم في فترات بتلريس اللغة العربية في جامعها الشهيرة ، وكان ليون يعيش وحيداً وفي عزلة ، منقطعاً إلى أعماله العلمية ودروسه العربية ، ولم يعرف عنه أنه تزوج أو كانت له صلة معروفة بالنساء في ذلك العصر الذى كانت فيه الحياة المرححة ، شعار الحياة في رومة . وأسفر نشاط ليون العلمى عن وضعه لعدة مصنفات قيمة ، كان أهمها وأشهرها مؤلفه الضخم في وصف إفريقية .

وقد كتب ليون كتاب « وصف إفريقية » أولاً بالعربية ، وإن لم يصل إلينا نصه العربى ، وقد كان هذا النص معروفاً وموجوداً حتى أواخر القرن السادس عشر في مكتبة پنيلى الإيطالية ، ولم يصل إلينا سوى الترجمة الإيطالية التى قام بها ليون بنفسه لكتابه تحت عنوان *Descrizioni dell' Africa e delle cose notabili que quivi sono* « وصف إفريقية والأمور الهامة التى بها » ، وفي نهايتها أن المؤلف أتم كتابه في رومة في العشرين من مارس سنة ١٥٢٦ ، وقد نشر هذا النص الإيطالى لأول مرة على يد الجغرافى والناشر الإيطالى چوفانى راموزيو في سنة ١٥٥٠ ، ثم نشر بعد ذلك مراراً . ثم ترجم إلى الفرنسية (سنة ١٥٥٦) ، وإلى اللاتينية (سنة ١٥٥٦) ، وإلى الإنجليزية (سنة ١٦٠٠) وإلى الهولندية (سنة ١٦٦٥) ، وإلى الألمانية (سنة ١٨٠٥)^(١) .

(١) صدرت الترجمة الألمانية بعنوان *Losr baeh Beschreibung von Africa* (١٨٠٥) بقلم

وصدرت ترجمة فرنسية حديثة بقلم *Ch. Schaefer* بعنوان *Description de l'Afrique, 3. V.* (Paris ١٨٩٦) .

وكتاب « وصف إفريقيا » مؤلف ضخيم يقع في عدة مجلدات ، تشغل نحو ألف صفحة كبيرة . وينقسم إلى تسعة كتب ، تخصص ليون أولها لوصف إفريقيا ، ويعنى فيه بالتحدث عن أقسام إفريقيا وممالكها وسكانها وأصولهم ، وعن قبائلها ولغاتها وعن حياة أهلها ، والأمراض المتوطنة بينهم . ثم يبدأ منذ الكتاب الثانى بوصف أقاليم المغرب ومدنه ، ويحدثنا بإفاضة عن مدينة مراكش ، وكيف أنها لبثت عاصمة المغرب حتى نقل بنو مرين العاصمة إلى فاس ، ويصف لنا جامع مراكش الذى شيده الخليفة يعقوب المنصور ، ويذكر أنه كان فى الماضى تحت شرفاته نحو مائة حانوت لبيع الكتب ، وينتظم مثلها فى الجانب الآخر ، ولكنه حين زارها لم يكن بها حانوت واحد لبيع الكتب . ونحن نعرف أن هذا الجامع وهو جامع الكتبية وصومعته ، وهى صومعة الكتبية الشهيرة ، قد اتخذ كلاهما اسمه من هذا الحوار لحوانيت الكتب . ثم يصف لنا مدينة أنعمات ، ويقول لنا إنه حينما شاهدها ، كانت خراباً بلقاعاً ، وليس بها سوى الذئاب والثعالب والغزلان والحيوانات الأخرى ، وليس بها إلا زاوية عابد وأتباعه الذين يبلغون المائة ، وقد أقام هناك بينهم عشرة أيام . ثم يصف تينملل بلد المهدى ابن تومرت ، ويشيد بجمال جامعها (جامع المهدى) ، ويقول إن أهلها يعتبرون كفاراً فى نظر المسلمين الآخرين ، ولكنهم علماء ، ويقرأون جميعاً كتب المهدى . ويذكر لنا ليون بهذه المناسبة طرفاً من تاريخ الموحدين ، وكيف امتد حكمهم فى اسبانيا من طريف إلى حلود أراجون ، حتى جاءت هزيمة موقعة العقاب ، فصعدت من سلطانهم ، ولم يمض ثلاثون عاماً بعدها حتى استولى النصارى على قواعد الأندلس العظيمة . ثم انهارت دولتهم بالمغرب وغفت مراكش من بعدهم ، وأصابها الخراب من جراء غارات الأعراب ، ويقول لنا ليون إنه شهد هذه الحالة بنفسه ، وقرأ عنها فى كتاب « ابن عبد الملك » وهو مؤرخ وثيق لأحوال مراكش .

وينخص ليون كتابه الثالث بالحديث عن مملكة فاس ، ويتحدث عن ولاياتها ومدنها ، ولا سيما حاضرتها مدينة فاس التاريخية العظيمة . وهنا يبلغ ليون فى وصفه ذروة الدقة والإفاضة . ولا غرو فقد قضى ليون أحداثه فى فاس وترعرع فيها ، وتجول فى سائر ربوعها وأنحائها . وهو يحدثنا عن فاس وأهلها وتاريخها

ويصف لنا ملابس أهل فاس ، وطعامهم وشرابهم ، وعوائلهم في الزواج والحفلات والمآدب والجنائز . ثم يحدثنا عن مساجدها ، ويقول لنا إنها تحتوى على نحو سبعمائة مسجد ، منها خمسون من طراز فخيم ، وقد بنت برخام وحجارة لا يعرفها الإيطاليون أنفسهم ، ويفيض في وصف جامعها الشهير — جامع القرويين — ووصف حلقاته الدراسية ، ثم يحدثنا عن مارستانها ، وحماماتها ، وفنادقها ، وأسواقها ، وصنائعها ، وجوانيتها ، وحدائقها ، ويذكر لنا بهذه المناسبة ، أنه اشتغل مدى عامين موثقاً في المارستان ، وبأجر قدره ثلاثة دنانير في الشهر ، كما يشير إلى أنه قد ألف كتاباً في « النحو » - ويحدثنا بعد ذلك عن السحرة والمنجمين في فاس ، وعن كان بها من الكيماويين والباحثين عن الكنوز ، ويقول لنا إن بعضهم عرض عليه أن يعلمه فن السحر ، ولكنه رفض لأن ذلك يعتبر كفراً ، والشريعة الإسلامية تحرم كل أنواع الكهانة وتعتبرها عبثاً ، والله وحده هو العليم بأسرار المستقبل . ويذكر لنا بهذه المناسبة أنه قرأ ما كتبه ابن خلدون عن السحر . ويصف لنا القسم الشرقي من فاس ، وهو القسم الأرستقراطي الذي يضم القصور والمساجد والمدارس الفخمة ، وتقل فيه الخوانيت والصنائع . ثم يعطف على ذكر أحوال البلاط أيام بني مرين ، وأحوال رجاله وأزيائهم ، كما يصف جيوش بني مرين وطرائقهم في الحروب ، ويصف البلد الجديد — عاصمتهم — الذي أنشأوه بجوار فاس .

ويحدثنا ليون عن شعراء فاس ، ويقول إن بها شعراء مجيدين ، ومعظمهم ينظم الشعر الغنائي والغزل . وفي المولد النبوي من كل عام . ينظم الشعراء القصائد في مديح النبي ، وفي أيام بني مرين ، كان يدعى العلماء بهذه المناسبة إلى القصر ، ويكرمونهم ، ثم يطلب إلى الشعراء إنشاد قصائدهم في مديح النبي ، ويمنح أجودهم نظماً ، صلاة قدرها مائتي دينار ، وجواداً فخماً ، وجارية ، ووخلة ملوكية .

ويحدثنا ليون عن المزارات والأولياء ، ويذكر لنا إنه يوجد ببلدة تاغيا من أعمال منطقة تامسنا مزار ولى ، يقال إنه من معاصري الخليفة عبد المؤمن ، وكانت له كرامات كثيرة في تهديئة السباع وترويضها ، وأن شهرة هذا الولي تجذب إلى تاغيا كثيراً من الناس ، وتجعلها تفص بالسكان ، وأن أهل فاس

يزورون هذه البلدة كل عام للتبرك بقبر هذا الولي ، وأنه زارها مع والده طفلا ، ثم زارها لما بلغ أشده ، لكي يتהל إلى الولي لينقذه من خطر السباع .

وحدثنا ليون كذلك عن الصوفية ، وزهدهم ، وتقشفهم ، ويذكر لنا من أقطابهم السهروردي ، وابن الفارض وشعره الصوفي . كما يحدثنا عن المنحرفين والمشعوذين الذين ينتسبون إلى الطائفة ، ويقول لنا إنهم جمهرة كبيرة ، يجوبون بلاد إفريقية شبه عراة في أسماهم البالية ، ويكثر بنوع خاص في تونس ومصر . ويحمل ليون على هؤلاء القوم ، ويسرد لنا بعض مثالبهم وأعمالهم المروعة التي يرتكبونها تحت ستار شعار الورع والتقشف .

ويشغل هذا الكتاب الذي نخصه ليون لوصف فاس ، أكبر فراخ بين كتبه التسعة ، وفيه يبسط القول فضلا عن فاس في وصف سائر مدن هذه المنطقة ، مثل المنصورة والرباط وتفلايت ومكناسة ، ويقرنها بوصف تازة والعرائش وأصيلا والقصر الكبير وطنجة وتطوان ، وسائر ما في هذه المنطقة من جبال ووديان .

وفي الكتاب الرابع ، يصف لنا ليون مملكة تلمسان . وفي الخامس ممالك بجاية وتونس وطرابلس . ونحن نعرف أن ليون قد مر غير مرة بطرابلس ، وبلاد برقة ، في ذهابه إلى مصر ، وفي إياها منها ، وهو يصف لنا طرابلس ، وشيئا من تاريخها ، فيقول لنا ، إن مدينة طرابلس القديمة ، قد بناها الرومان ، ثم استولى عليها القوط ، ثم المسلمون أيام الخليفة عمر ، وقد جاصر المسلمون حاكم طرابلس مدة ستة أشهر ، واضطر أن يفر إلى قرطاجنة . وبعد خراب طرابلس القديمة ، أقيمت مدينة جديدة بهذا الاسم ، وأحيطت بأسوار عالية جميلة ؛ وهي تقع على سهل رملي ، ينتج محاصيل وفيرة من التمر . ومنازل هذه المدينة وجية جداً بالنسبة لمنازل تونس ، وتروج بها كل تجارة وحرقة ، ويكثر بها عمال النسيج . وليست لدى أهلها آبار ، أو نوافير ، ولكن ماءهم يُحفظ في خزانات . والقمح في هذه المدينة مرتفع الثمن جداً . وذلك لأن سائر حقول طرابلس ، هي رملية وقاحلة ، مثل حقول نويميا ، ولأن أخصب البقاع في هذه المنطقة ، يغمرها ماء البحر . ويؤكد سكان هذه المنطقة ، أن معظم حقولهم

فى الشمال ، يغمرها ماء البحر المتوسط . وهذا هو نفس ما يقع فى موناستر ، والمهدية وصفافس وقابس وجزيرة جربة ، وغيرها من الأماكن الواقعة فى الشرق ، حيث يكون البحر على مسافة نحو ميل ، منخفض جداً ، حتى أنه يندر أن يصل إلى مستوى قامة الإنسان . ويقول البعض إن مدينة طرابلس نفسها كانت تقع فى الأوقات الماضية أكثر إلى الشمال ، وأنه بسبب الفيضانات المستمرة من ناحية البحر ، قد بُنيت ونقلت قليلاً إلى الجنوب . ويدل على ذلك أنه توجد حتى اليوم خرائب دور غارقة فى بعض أماكن من البحر . وفى هذه المدينة توجد مساجد كثيرة حسنة ، ومدارس مبنية ، ومستشفى يُعالج فيه الفقراء من أهلها ، وكذلك لإيواء الغرباء ؛ وهذه المنطقة لا تنتج إلا كميات قليلة من الشعير ، ويعتبر من الأغنياء من يملك كيلاً أو اثنين من القمح فى مخزنه . ومعظم السكان من التجار ، لأن طرابلس تقع قريباً من نوميديا وتونس . وليس بينها وبين الإسكندرية ، مدينة أو بلدة ذات شأن ، وهى ليست كذلك بعيدة عن جزيرتى صقلية ومالطة ، وتأتى إلى ميناء طرابلس وترسو بها سفن البنادقة ، وعليها كميات وافرة من البضائع .

وقد كانت طرابلس دائماً تحت حكم ملك تونس . بيد أنه لما قام السلطان أبو الحسن (المريني) ملك فاس بحصار تونس (وكان ذلك فى سنة ٧٤٨هـ وسلطان تونس يومئذ ، عمر بن أبى يحيى الحفصى ، اضطر ملك تونس أن يفر مع أتباعه إلى الصحراء . ولكن لما تمت الهزيمة بعد ذلك على أبى الحسن ، عاد ملك تونس إلى مملكته . ولكن رعاياه بدأوا يثيرون ضده ، ومن ثم فإن الثروات القومية أصابها أضرار كثيرة ، بسبب الثورات والحروب الأهلية . ولما علم بذلك ملك فاس ، سار فى جيشه ثانية إلى تونس ، وهزم ملكها ، فاضطر أن يفر إلى قسنطينة ، فتبعه إليها ، وحاصره بشدة ، واضطرت قسنطينة أن تفتح أبوابها للملك فاس وجيشه ، وأسر ملك تونس وأخذ إلى فاس . ثم اعتقل بعد ذلك فى قلعة سبّية . وفى نفس الوقت هاجم ثغر طرابلس أسطول جنوى مكون من عشرين سفينة ، وقام بنهب المدينة ، وحمل كثيراً من سكانها أسرى . ولما علم بذلك ملك فاس ، قدم إلى الجنويين خمسين ألف دوقية ، بشرط أن يسمح له أن

يحتل المدينة في سلام . ولكن الخنوين بعد أن سلموا المدينة وغادروها ، اكتشفوا أن هذه الدوقيات هي دوقيات زائفة . ولما أفرج أبو الحسن بعد ذلك عن ملك تونس غاد إلى مملكته ، وآل الحكم إليه ، ثم إلى أعقابه .

ويحدثنا ليون عن بعض قرى طرابلس ، مثل قرية سارمان ، التي تكثر بها التمر ، وقرية بني ربوع ، القريبة من البحر ، والتي تنتج كميات كبيرة من التمر ، ويسكنها بعض أرباب الطرق الدينية ، وقرية رانزور التي تنتج كثيراً من التمر والرمان والخوخ ، وقرية همروزو التي تكثر فيها غابات النخيل ، وحدثنا الفاكهة .

ثم يحدثنا عن مقاطعة مسلاتة ، فيقول إنها تقع على البحر على قيد نحو خمسة وثلاثين ميلاً من طرابلس ، وبها قرى غنية ، وقلاع ، وسكان ، وتنتج كثيراً من الزيتون والتمر ، وسكانها متحررون من كل سلطة أجنبية ، ولهم حاكم من بينهم ، وجيش يضم خمسة آلاف .

ثم عن مقاطعة مسراتة ، وهي تقع على البحر على بعد مائة ميل من طرابلس ، وبها تسع قرى في الوادي وعلى الجبل . وسكانها أغنياء ولا يدفعون ضريبة ، ويتاجرون مع البنادقة الذين يأتون إلى هذه المقاطعة ، حاملين فوق سفنهم البضائع البندقية ، وهناك يستبدلون بالعبيد والمسك .

وكذلك يحدثنا ليون عن صحراء برقة ، فيقول لنا إنها تمتد شرقاً حتى مشارف الإسكندرية ، بطول نحو الألف وثلاثمائة ميل ، وبعرض نحو مائتي ميل ، وهي بسيط مقفر خشن ، لا قمح فيه ولا ماء تقريباً . وقبل أن يغزو العرب إفريقية ، لم يكن بهذه المنطقة سكان ، ولكن يوجد بها الآن ، أعني أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، بعض طوائف الأعراب يعيشون بها حياة بوئس ومسغبة ، وذلك لبعدها عن المناطق المأهولة ، ويأتي إليهم القمح وغيره من المؤن من صقلية ، وقد يشتريه بعضهم برهن أولادهم ، ثم يسرقون السياح ليستردونهم . وبرقة هو الاسم الذي أعطاه لها العرب نقلاً عن اسمها الروماني .

وفي الكتاب السادس يصف لنا ليون منطقة سخلماسة ودرعة والزاب ، ويصف لنا في الكتاب السابع الممالك السوداء الخمسة عشر الواقعة في منطقة

النيجر ، وهى التى تجول فيها برفقة عمه وفى مقدمتها تنبكتو ، وغانة ، ومالى ، وقد سبقت الإشارة إليها .

أما الكتاب الثامن ، فإن ليون يخصصه لوصف مصر ، وفيه يحدثنا بأفاضة عن إقليم مصر ومدنها ونيلها ، ويفيض فى وصف القاهرة ، وشوارعها ، وأبوابها ومتاجرها ، وعوائد أهلها وأطعمتهم ومذاهبهم الدينية ، وهو يصف أهل القاهرة بقوله « إنهم شعب ذو ميول مرحة باسمه تبشر بالكثير ، ولكن تؤدى إلى القليل . وهم يزاولون التجارة والحرف الآلية ، ولكنهم لا يغادرون أوطانهم ، ومنهم كثير من طلاب الفقه ، ولكن قليل جداً من أهل الفنون الحرة والعلوم ، وبالرغم من أن معاهدهم تغص دائماً بالطلبة ، فإن القليل منهم يصل إلى الكمال »

أما عن نساء القاهرة فيقول لنا ليون : « أما النساء فيخرجن فى ثياب فاخرة ويزين جباههن بالقلائد ، وأعناقهن بعقود اللؤلؤ ، ويضعن على رؤوسهن « قلنسوة » (بونية) وافرّة الجمال والإناقة ، ويبلغ ارتفاعها نحو شبر ، ويرتدين أردية من الصوف بأكمام مزركشة مطرزة ، وعليها أغطية من أفخر القماش الهندى ، ويسبلن على وجوههن خماراً أسود ، ويلبسن نعالاً جميلة وأخفافاً تركية . وهؤلاء النسوة وافرّات الطموح والكبرياء ، حتى أنهن جميعاً يحتقرن أن يغزلن أو يقمن بأعمال المطبخ ، ومن ثم فإن أزواجهن يرغمن على شراء الأطعمة الجاهزة من المطابخ ، وقليل من الأسر الكبيرة تعنى بإعداد الطعام فى منازلها .

ويتمتع نساء القاهرة بحريات واسعة ، وبينما يخرج الزوج إلى المقهى أو لشراء الطعام ، إذا بالزوجة ترتدى أفخر ثيابها ، وتتعطر بأذكى العطور ، ثم تتجول فى المدينة ، تروح عن نفسها وتتحدث مع صاحباتها ، وهن يمتطين الحمير أكثر من الخيل ، تسير بهن فى راحة وهوادة ، وتغطى هذه الحمير بالبراذع الفخمة ، ويجرها صبي ، ويتقدمها سائس » .

وبالرغم من أن ليون زار مصر فى رحلتيه الأخيرتين ، بعد الفتح العثمانى ، فإنه يحدثنا عن نظام الحكم المملوكى بمصر ، وعن أصل هؤلاء المماليك ، وطرائق تربيتهم . ويفيض فى تفاصيل الوظائف السلطانية والاسكرية والإدارية التى كانت سائدة فى العصر المملوكى .

وينتتم ليون مؤلفه الضخم بكتاب ، هو الكتاب التاسع ، يحدثنا فيه عن الحيوانات والمعادن التي توجد بإفريقية .

ويبدى ليون في كل ما يكتبه دقة في تحرى الحقائق ، وقوة في الملاحظة ، ويبدى بالأخص في كل ما يكتبه عن المغرب ، وعن مدنه وقبائله ، وعاداته ، معرفة شاملة ، لا تستند فقط إلى المشاهدة الشخصية ، ولكن تستند كذلك إلى القراءة والدرس . ذلك أن ليون يرجع في كثير مما كتب إلى طائفة من أكابر المؤلفين الأقدمين في التاريخ والجغرافيا ، يذكر لنا منهم بطليموس وأورسيوس وسالوست وليثي ، وابن رشيقي ، وأبو عبيد البكري ، والإدريسي ، وابن عبد الملك المراكشي ، وهو يمزج في أحيان كثيرة معلوماته الجغرافية الكشفية بالمعلومات التاريخية ، ويبدى في ذلك كله جهوداً ماحوظاً في تحرى الحقائق . والواقع أن ليون يكشف لنا سر هذه الدقة في مؤلفه الضخم ، فهو لم يرتجل ، ولم يكتب عفواً الخاطر ، وإكثه درس وقيد ونظم مذكراته ، وإليك ما يقوله لنا عن ذلك في خاتمة كتابه :

« تلك هي الأشياء الهامة الجديرة بالمعرفة التي شهدتها ولاحظتها أنا يوحني الأسد في إفريقية ، وهي القطر الذي طفت بسائر أنحائه ، وكلما رأيت شيئاً جديراً بالملاحظة قيدته على الأثر . وأما الأشياء التي لم أرها بنفسى ، فقد تلقيت معلوماتها من أشخاص ثقة جدّاً ، كانوا شهود عيان لها ، ومن ثم فإنه لما تبسرت الفرصة الملائمة ، رأيت أن أدون رحلاتى ودراساتى في هذا المؤلف » .

وهذه العناية التي التزمها ليون في وضع مؤلفه وتنسيقه على ضوء مذكراته المدونة ، ومشاهداته الشخصية وتحرياته الوثيقة ، هي التي جعلت من مصنفه وثيقة نفيسة ، ومرجعاً من أهم المراجع عن وصف إفريقية وأحوالها في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، بل إن « وصف إفريقية » ما يزال إلى يومنا ، أوثق مصدر لكثير من المظاهر والتقاليد والعادات الخاصة ببعض الأجناس والقبائل الإفريقية ، والتي لم يغيرها الزمن حتى عصرنا .

وكتب ليون كتابه ، أو بالحرى نقله من العربية إلى الإيطالية بأسلوب

إيطالي بسيط ، ولكن قوى واضح تبدو فيه شخصيته ، وتبدو فيه طريقة التفكير العربية ، في مواطن كثيرة .

ووضع ليون ، فضلا عن مصنفه الجغرافى والتاريخى العظيم . قاموساً يحتوى على مجموعة من الكلمات العربية والعبرية واللاتينية ، ولكنه لم ير الضياء حتى يومنا ، وتوجد نسخته الأصلية بخط ليون نفسه ، فى مكتبة الإسكوريال الشهيرة تحمل رقم ٥٩٨ من فهرس الغزيرى ، وفى نهايتها فقرة بالعربية كتبها ليون بخطه يذكر لنا ، إلى جانب اسمه النصرانى ، اسمه العربى الأصل ، وذلك على النحو الآتى : « فرغ من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطى ، المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسى فى أواخر يناير عام أربعة وعشرين لتاريخ المسيحيين ، الموافق لعام ثلثين وتسعمائة لتاريخ المسلمين ، وذلك بمدينة بلونيا من بلاد إيطاليا برسم المعلم الحكيم الطبيب الماهر يعقوب ابن شمعون الوفى الإسرائيلى . حفظ الله نعمته آمين » .

وقد كان حرباً — لولا هذه الفقرة العربية — أن تبقى شخصية « ليون الإفريقى » مجهولة إلى الأبد ، وأن يسدل ستار كثيف على أصله العربى المسلم ، ويذكر لنا ليون فى معجمه الجغرافى أنه ألف كتاباً فى « تاريخ إفريقية » وأنه جمع ما قرأه ، على شواهد قبور منطقة الشلة ، من المنشور والمنظوم ، فى سفر خاص ، وأنه ألف كتاباً فى « الفقه » أو « شريعة محمد » ، وألف كذلك كتاباً فى « النحو » بيد أن هذه الكتب لم تصل إلينا .

ووضع ليون كذلك رسالة باللاتينية فى تراجم الأطباء والفلاسفة العرب ، وأتمها فى سنة ١٥٢٧ ، وقد نشرت هذه الرسالة لأول مرة فى سنة ١٦٦٤ ، ثم أعيد نشرها فى سنة ١٧٤٦ م بمدينة همبرج .

خاتمة ليون

عاش ليون أعواماً طويلة فى رومة ، أنجز فيها أعماله العلمية المتقدمة ، ولكن حياته بعد ذلك يكتنفها الغموض . وهنالك روايتان عن خاتمة ، الأولى أنه عاش بقية حياته فى رومة ولم يتركها ، والثانية وهى رواية كاتب معاصر عاش فى

رومة في ذلك الوقت وهو : « فيدمانشات » ، وهي أن ليون غادر رومة بين سنتي ١٥٢٨ و ١٥٣٠ م لما لقي من الإنكار وعدم التقدير بعد موت البابا ، ونزل بتونس وهناك عاد إلى الإسلام ، مسلماً ورعاً ، وكأنه لم يعتنق النصرانية قط ، واستمر بها حتى توفي في سنة ١٥٥٢ م (١) .

وهناك قول بأنه عاد بعد ذلك إلى فاس ، حيث نشأ وترعرع وتوفي بها سنة ٩٤٤ هـ (١٥٣٧ م) ، ويؤيد هذه الرواية الأخيرة ، عن مغادرة ليون لرومة ، وعوده إلى وطنه ، ما يذكره هو في خاتمة الكتاب الثامن من مؤلفه عن نيته في هذا العود ، حينما يتحدث عن عزمه في الكتابة عن البلاد التي زارها خارج إفريقيا ، وذلك في قوله « وإني لأعزم بعون الله ، حينما أعود من أوروبا إلى وطني ، أن أصف هذه الرحلات كلها ، وأصف في البداية أقطار أوروبا وآسيا التي رأيتها ، وأضمها لوصفي لإفريقية » .

ولكن ليون لم يعيش طويلاً بعد عودته إلى الوطن ، ولم يفسح له القدر مجالاً لتحقيق أمنيته في استكمال وصف رحلاته الأخرى ، واقتصر مجهوده في ذلك على وضع مؤلفه العظيم « وصف إفريقية » .

ويضع البحث الحديث ، الحسن بن الوزان أو « ليون الإفريقي » ، بين أعظم الجغرافيين والرواد الكشفيين ، سواء في الشرق أو الغرب ، ويعتبر مصنفه في « وصف إفريقية » من أقيم المراجع والوثائق في هذا الميدان (٢) .

(١) وردت هذه المعلومات في مقدمة « الإنجيل » الذي نشره فيدمانشات في سنة ١٥٥٥ ، ونقلت في مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب وصف إفريقية ، وهي التي تشير إليها بعد .

(٢) رجعتنا في كتابة هذا الفصل إلى الترجمة الإنجليزية لكتاب وصف إفريقية : Robert Brown : The History and Description of Africa (S. V. Hakluyt Society 1896) وإلى مقدمة الترجمة الإسبانية : Descripción de Africa المنشورة بعناية معهد فرانكو بتيطوان في سنة ١٩٥٢ ، وإلى بحث عنوانه « حياة الوزان الفاسي وآثاره » بقلم القاضي المغربي محمد المهدي الحجوي (الرابط ١٩٣٥) وإلى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٩٨ الفزيري (قاموس الوزان) .

المقرى

مؤرخ الأندلس

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ) ، (١٥٧٨ - ١٦٣٢ م)

لبث القاهرة مدى عصور ، كعبة العلماء والمفكرين من المشرق والمغرب ، ولبث جاءها الأزهر ، موئل أولئك العلماء الوافدين ، يسطعون بين حلقاته ، وينثرون على طلابه علمهم وأدبهم ، ويعملون على إحكام الصلات العلمية بين مصر ، وبين مختلف البلاد العربية والإسلامية .

وكان للأزهر أوفر حظ من معاونة علماء المغرب . ويكنى أن نذكر أن المفكر العظيم ، والمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، ومن بعده حافظ المغرب الكبير شهاب الدين المقرى ، كانا من بين أساتذته ، وقد لبث كلاهما أعواماً طويلة يتصدر حلقاته ، ثم ثوى كلاهما إلى أرض مصر ثواءه الأخير .

وإذا كان ابن خلدون بشخصيته الفذة ، وتفكيره الرفيع المبدع ، قد حظى من المعاصرين ، ومن المتأخرين ، بأوفر قسط من التعريف والتبويه والإكبار ، فإن المقرى بالرغم من كونه ، قد ترك لنا تراثاً أدبياً وتاريخياً ، ليس له رنين تراث سلفه العظيم ، يستحق منا أيضاً كثيراً من التعريف والتبويه والتقدير .

وفد المقرى على مصر ، بعد أن رسخت سمعته العلمية بالمغرب ، ففضى بها بقية حياته ، وكتب بها معظم كتبه ، وفي مقدمتها موسوعته العظيمة « نفع الطيب » وهى الأثر الذى خلد اسمه فى المشرق والمغرب ، وأمد المكتبة الأندلسية بتراث جامع فياض ، ما زالت تهل منه حتى يومنا .

أجل ، يستطيع كل من يعنى بتاريخ الأندلس أن يقدر أهمية ذلك التراث الحافل ، الذى تركه لنا المقرى عن تاريخ الأندلس وآدائها ، وأهمية الشذورالضافية والوثائق الجمة التى ينقلها إلينا فى كتابيه « نفع الطيب » و « أزهارالرياض » ،

ولولاه لغاضت مع مصادرها الأصلية إلى الأبد ، وحبل بيننا وبين الوقوف عليها والانتفاع بها .

* * *

هو : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقرى نسبة إلى مقرّة ، موطن أسرته القديم ، وهي بلدة من أعمال قسنطينة ، وإليها ينسب عدة من أكابر علماء المغرب . ولد كما يحدثنا في مقدمة كتابه نفح الطيب بمدينة تلمسان ونشأ بها^(١) . ولم يذكر لنا المقرى تاريخ مولده ، وهو تاريخ يضعه بعض الباحثين المحدثين في نحو سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ - ١٥٩٢) (٢) ، وهو تاريخ لا يتفق ، كما سنرى ، مع ما يقدمه إلينا المقرى ، عن نشأته وحوادث حياته الأولى . وقد كان من حسن الطالع ، أن عثرنا على تاريخ مولد المقرى الحقيقى من نص ورد في كتاب « مرآة المحاسن » لمؤلفه سيدى العربى الفاسى ، وهو معاصر للمقرى ، وفيه أن المقرى أخبره أن تاريخ مولده هو سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م) (٣) . وهذا التاريخ يتفق تمام الاتفاق مع ما يقصه علينا المقرى من مراحل حياته . فهو أولاً يذكر لنا أنه نشأ بتلمسان ، إلى أن رحل عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف^(٤) . فلو كان مولده في سنة ١٠٠٠ هـ ، كما يفترض الباحث الحديث ، لما تحدث هنا عن الشيبية ، إذ يكون عندئذ غلاماً حدثاً لا يجاوز التاسعة من عمره ، وهو ما لا ينصرف إلى الشباب . ثم يشير حين التحدث عن اعتزامه كتابة موسوعة الأندلس ، إلى « شبابه

(١) لقد زرنا تلمسان وزرنا بها الدار التى ولد بها المقرى ونشأ . وهي ما تزال تسمى حتى اليوم دار المقرى . وهي تقع في حى قديم من أحياء تلمسان يقع في ناحيتها الشمالية ، وفي درب منفلق من دروبها العتيقة ، وقد غيرت معالم الدار وجددت ، ولكن ما يزال مدخلها القديم على حاله القديمة ، وما يزال كذلك اصطبل الدار القديم قائماً كما كان . وفي فناء الدار من الداخل حقد وباب قديم ، ووراء الدار فناء متسع به حديقة صغيرة . والدار متسعة من الداخل وبها الحمام القديم على حاله ، وفي الإيوان القديم الواقع في جانب من الفناء توجد بقية من الزليخ القديم . ويبدو على العموم من ضخامة الدار ، وسعة فنائها ومحتوياتها ، أنها كانت من دور العائلات الكبيرة .

(٢) الأستاذ ليثى بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) كتاب « مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبى المحاسن » لسيدى العربى الفاسى مخطوط يخزّنة القرويين بفاس (طبع الحجر بفاس سنة ١٣٢٤ هـ) .

(٤) نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٦٧٥ ، وسلافة العصر ص ٥٩٠ .

الذهاب» الذى قضاه بالمغرب قبل وفوده على مصر فى سنة ١٠٢٧ هـ ، وفى هذه الإشارة أيضاً ما يدل على أن المقرئ حين مقدمه إلى مصر ، كان قد طوى مرحلة الشباب ، وأشرف على نحو الأربعين من عمره ، وفى ذلك كله ما يؤيد رواية صاحب كتاب «مرآة المحاسن» من أن التاريخ الحقيقى لمولد المقرئ هو سنة ٩٨٦ هـ .

ونشأ المقرئ فى تلمسان التى نشأ بها أبوه وأجداده من قبل ، وتلقى بها دراسته الأولى ، ودرس الأدب والحديث والفقه المالكى دراسة حسنة ، وكان بين أساتذته عمه أبو عثمان سعيد المقرئ مفتى تلمسان ، وكانت تلمسان ما زالت حتى عصره من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب الأوسط . وزار فاس لأول مرة سنة ١٠٠٩ هـ ، وقضى بها حيناً فى الدرس ، ثم عاد إلى تلمسان فى أواخر سنة ١٠١٠ هـ وأقام بها حتى سنة ١٠١٣ هـ . وفى هذه السنة ارتحل إلى فاس مرة أخرى واستقر بها ، وكان ذلك فى فاتحة عصر السلطان أبى المعالى زيدان السعدى ، وسنحت له فى فاس عاصمة المغرب الدينية والعلمية فرص الدرس المستفيض ، ولا سيما فى المكتبة السلطانية ، واتصل بمولاي زيدان وآله الأشراف السعديين أمراء مراكش ، وولى الإمامة والخطابة لجامع القرويين الشهير بفاس ، ثم ولى الإفتاء ، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٠٢٧ هـ (١) .

وفى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ اعتزم المقرئ الرحلة إلى المشرق . والظاهر أنه لم يعقد هذا العزم مختاراً ، وأنه أرغم عليه لأسباب وظروف يشير إليها ولا يوضحها ، فهو يقول لنا : «إنه لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو رد . . . برحلتى من بلادى ونقلت عن محل طارفى وتلادى بقطر المغرب الأقصى الذى تمت محاسنه ، لولا أن سماسة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً وطما به بحر الأهوال . . . وذلك فى أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف» (٢) . أما هذه الظروف التى يشير إليها المقرئ ، والتى قضت عليه بالرحيل عن الوطن ، فنستطيع

(١) نفع الطيب (بولاقة) ج ٤ ص ٦٧٥ و ٨٤١ ، وخلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ ، وسلافة العصر ص ٥٩٠ .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٨ ، وراجع أيضاً أزهار الرياض (طبع مصر) ج ١ ص ٣

فهمها على ضوء الحوادث التي كانت تجوزها مملكة فاس يومئذ ، فقد تولى مولاي زيدان الملك دون أخويه المأمون وأبي فارس (سنة ١٠١٢ هـ) ولم يلبث أن نشبت بينهما حروب أهلية متوالية ، وهزم مولاي زيدان أولاً وفر إلى تلمسان ، ثم استعاد مملكه بعد عدة محاولات دموية ، وبعد أن أجلى عنه غير مرة ، في سنة ١٠١٨ هـ . بيد أن عهده كان مضطرباً فياضاً بالحروب والفتن . ولا ريب أن المقرئ لم ترقه هذه الحياة المضطربة ، وأنه اضطر إلى مغادرة المغرب تفادياً من عواقب الفتن والدسائس المستمرة ، التي كانت تكدر صفو الحياة في فاس ، خصوصاً وقد نسب إليه أنه كان ينتمى إلى بعض الأطراف المتنازعة ، وكان يخشى بذلك أن يقع في يد الخصوم الظافرين فتسوء العاقبة . وعلى أى حال ، فقد غادر المقرئ وطنه في أواخر شهر رمضان سنة ١٠٢٧ هـ وركب البحر إلى مصر ، وعانى من اضطرابه وروعته أهوالاً يصفها لنا في عبارات قوية مروعة^(١) . والظاهر أيضاً أن سفينته كانت تخشى مطاردة القراصنة النصارى فكان الخوف مضاعفاً ، وقد كانت مياه البحر الأبيض المتوسط يومئذ مسرحاً لمعارك هائلة مستمرة بين سفن المسلمين والنصارى . ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة مزعجة في أواخر سنة ١٠٢٧ هـ ، ونزل بالقاهرة فبهرته معالمها ومحاسنها ، برغم ما أصابها في ظل الحكم التركي من عفاء وتدهور ، وأقام بها أشهراً ، ثم أعزم الرحلة إلى الحج في أواخر سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٨ م) ، فركب البحر إلى الحجاز ، وطاف بالأماكن المقدسة ، وعاد إلى القاهرة في المحرم من العام التالي ، ثم زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول ، وعاد إلى القاهرة واستقر بها ، وتزوج سيدة مصرية من سيدات الأسرة الوفاية^(٢) ، ولكنه لم يكن زواجاً موفقاً ، وقد فصمت عراه كما سنرى بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة . وكرر المقرئ الرحلة إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج مراراً ، فلم تأت سنة ١٠٣٧ هـ ، حتى كان قد أداها خمس مرات ، وجاور أثناء الحج في مكة وفقاً لتقاليد العصر ، وألقى بها كثيراً من دروسه ، وأملى الحديث في المدينة ، وعاد إلى مصر من حجته الخامسة في فاتحة سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧) .

واستقر المقرئ في القاهرة طوال هذه الأعوام ، ولازم الدرس والتدريس

(١) راجع وصف المقرئ لأهوال البحر فهو بديع شائق في نفع الطيب ج ١ ص ١٩ و ٢٠

(٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٤ .

بالجامع الأزهر ، وتبوأ مكانته في مجتمع مصر العلمي والأدبي ، وكان يمضي كثيراً من الوقت برواق المغاربة ، منقياً في مكتبة هذا الرواق الغنية . وقد عثرنا في هذه المكتبة التي ما تزال تضم إلى اليوم بعض المخطوطات النفيسة ، على بعض أوراق متناثرة من مخطوط كتاب « الإحاطة أخبار غرناطة » لابن الخطيب ، وعلى هوامشها تأشيرات وملاحظات عديدة بخط المقرئ وتوقيعه .

وفي رجب زار المقرئ بيت المقدس مرة أخرى ، وألقى بعض دروسه بالمسجد الأقصى ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع إلى دمشق ، فيهرته محاسنها كما بهرته القاهرة من قبل ، ورحب به كبير علمائها ومفتيها الشيخ عبد الرحمن عماد الدين ، واتصل بكثير من أدبائها وأعيانها ، وبالأخص بالمولى أحمد أفندي شاهين وهو من أعيانها الأدباء ، وألقى بعض دروسه في الحديث في الجامع الأموي ، فاحتشد الطلاب حوله من كل صوب ، وحفل به المجتمع الدمشقي ، وكان يبكي السامعين بخطبه ومواظمه ، ويتسابق العامة والطلاب إلى لثم يده ، وكان أثناء إقامته بدمشق يكثر الحديث في حلقاتها الأدبية ، عن الأندلس ومحاسن تاريخها وذكرياتها ، وبالأخص عن وزيرها الكبير ابن الخطيب ، فاقترح عليه صديقه المولى أحمد شاهين أن يضع كتاباً في التعريف بابن الخطيب ومناقبه وتراثه من نظم ونثر ، فاعتذر بكثرة مشاغله ، وقلة مادته ومراجعته ، وخصوصاً لأنه ترك معظمها في المغرب ، ولكنه اضطر أزاء الإلحاح أن ينزل عند هذه الرغبة ووعد بالوفاء عند عودته إلى القاهرة (١) .

وعاد المقرئ إلى القاهرة بعد أن أنفق في دمشق بضعة أسابيع ، وعكف حيناً على إنجاز المهمة التي أخذها على نفسه ، أعنى كتابة ترجمة ابن الخطيب ، والتعريف بمآثره وتراثه ، وبدأ بوضع مؤلفه حسبما نخبنا في شهر ذى القعدة سنة ١٠٣٧ هـ (٢) ، ويقول لنا إنه استطاع غير بعيد أن ينجز منه قسماً لا بأس به ، ولكن عاقته عن إتمامه مشاغل وهموم . والظاهر أن المقرئ لم يكن في مقامه النائي عن وطنه ، هائناً قرير البال ، فهو يحدثنا غير مرة عن آلام الغربة ومتاعبها ، ومما يقول في ذلك « وليت شعري علام يحسد من أبدل الاغتراب

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤ - ٣٨ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٧٥ .

شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع أنواءه وقلل أضواءه ، وكثر علله وأدواءه ، وغير عنده التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عناءه ، وأرهف بالجمول سنانته ، حتى قدح الذكر حنانه ، وملأ الفكر جأشه وجنانه
 وشتان ما بين الاقتراب والاعتراب ، والسكون فى الركون ، والنبو عنها والاضطراب ، فذلك تسهل غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعثر فيه المقاصد ، وتتكدس المشارب .

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ولكن أرى تحصيلها بالدنية
 وإن طاوعتنى رقة الحال مرة أبت فعلها أخلاق نفس أية
 وقوله :

تركت رسوم عزى فى بلادى وصرت بمصر منسى الرسوم
 ورضت النفس بالتجريد زاهداً وقلت لها عن العلياء صومى
 مخافة أن أرمى بالحرص ممن يكون زمانه أحد الخصوم^(١)

ويقول فى موضع آخر مشيراً إلى قصيدة فى مديح النبى يزعم ذكرها « ولأن شجون الحديث الذى جر إليها ، شوقتنى إلى معاهدى المغربية التى أكثر البكاء عليها بحضرة المنصور بالله الإمام ، سقى الله تعالى عهادها صوب الغمام ، حيث الشباب غض يانع ، والمؤمل لم يحجبه مانع ، والسلطان عارف بالحقوق ، والزمان ، وهو أبو الورى ، لم يشب بره بالعقوق »^(٢) .

ثم يقول لنا فى خاتمة كتابه « نفح الطيب » إنه وضعه « والقلب حليف شجن وغربة ، والفكر أليف حزن وكربة » .

كان المقرئ إذن فى منفاه متعباً معنئى ، والظاهر أنها كانت متاعب العيش فوق شجون الاعتراب ، فقد كانت سوق العلم والأدب يومئذ كاسدة ، وكان المجتمع القاهرى قد فقد فى ظل النير التركى بهاءه وسعته ورخاءه ، وعفت روعة الأزهر ، الذى كان من قبل موئل الوافدين من كل صوب .

ولكن المقرئ عاد فاستأنف الكتابة نزولاً على إلحاح صديقه أحمد شاهين واستنجزه ، واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب بصورته الأولى فى بضعة

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩ و ٤٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ و ١١ .

أشهر فقط ، لعودته من دمشق ، وذلك في أواخر شهر رمضان سنة ١٠٣٨ هـ (١٦٢٨ م) وفيه يتناول حياة ابن الخطيب ويستعرض صفاته وخلالها ومآثره ، وكثيراً من نثره ونظمه ، ويقول لنا إنه سمي مؤلفه لأول مرة « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب »^(١) .

غير أن ذلك المؤلف الأول لم يكن هو « نفح الطيب » كما انتهى إلينا . ذلك أن المقرئ خطرت له بعد الفراغ من التعريف بابن الخطيب فكرة أخرى ، هي أن يمهّد لكتابه بذكر الأندلس وتاريخها ومحاسنها وذكرياتها ، وتطورت هذه الفكرة حتى غدت هيكل الكتاب الأصلي ، فاستمر في الكتابة عاماً وبضعة أشهر أخرى . وأتم مؤلفه حسب وضعه الجديد ، كما يحدثنا في خاتمة كتابه في آخر ذي الحجة سنة ١٠٣٩ هـ (١٦٢٩ - ١٦٣٠ م)^(٢) واختار عندئذ لكتابه اسماً جديداً ، هو الذي انتهى به إلينا وهو :

« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » .

والواقع أنه من التواضع أن يُسمى « نفح الطيب » كتاباً ، فهو كما سنرى موسوعة ضخمة عن الأندلس وتاريخها وجغرافيتها وآدابها ، ومن المدهش حقاً أن يستطيع المقرئ أن يضع مثل هذا الأثر الضخم في مثل هذه المدة القصيرة ، ولكن سنرى أن فضل المقرئ في وضعه ، يرجع إلى الاقتباس أكثر مما يرجع إلى التأليف ، وسنرى مع ذلك أن للمقرئ في هذا الاقتباس فضلاً لا يقدر ، وأن نفح الطيب هو من أقيم مصادرنا العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها .

وكان المقرئ منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية ، ووضع بذلك حداً لتلك الحياة الزوجية الكدرة . وما كاد يتم مؤلفه حتى أزمع العودة إلى دمشق ليتصل فيها بأصدقائه ، وليطلعهم على مؤلفه الذي وضعه نزولاً على إشارتهم . ولكن الموت عاجله فتوفي في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ (يناير ١٦٣٢ م) ، ودفن بقراة المجاورين بالقاهرة^(٣) .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩ و ٤٠ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٦١ ، وج ٤ (بولاقي) ص ٨٨٦ .

(٣) يقول صاحب سلافة العصر : إن وفاة المقرئ كانت في سنة ١٠٤٦ هـ (ص ٥٩١)

ولكن الرواية الأولى أرجح وهي المتفق عليها .

يقسم المقرئ كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين : يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها . والثاني للتعريف بابن الخطيب . ويشتمل كل قسم على ثمانية أبواب . ويشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها ، وفتحها على يد موسى وطارق ، وتاريخها في عهد الولاة وبنى أمية وملوك الطوائف ، ووصف قرطبة ومعاهدها وضواحيها ومنزهاتها ، ثم التعريف بالراجلين من الأندلس إلى المشرق والوافدين من المشرق إلى الأندلس ، واستعراض آداب الأندلس ومشورها ومنظومها ، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس وإسبانيا النصرانية ، وسقوطها الأخير في يد النصاري . ويشتمل القسم الثاني على نشأة ابن الخطيب وتدرجه في طريق المجد ، وما لقي من الأحداث والحزن ، حتى وفاته ، وذكر أساتذته وشيوخه ، وما وجه إليه من الرسائل الملوكية ومن أكارب عصره ، ومقتطفات كثيرة من كتبه ورسائله ونثره ونظمه ، وذكر مؤلفاته ، وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، ثم ذكر أولاده ووصيته .

ويشغل الكتاب كله أربعة مجلدات ضخمة كل قسم مجلدين ، فهو كما قدمنا موسوعة حققة ، سواء من ناحية حجمه أو محتوياته . ذلك أن المقرئ يحشد في كل باب من هذه الأبواب العامة ، كثيراً من المعلومات والشذور والوثائق والرسائل ، والمختارات ، ويكاد كل منها يضارع كتاباً بأسره . ويجرى المقرئ على قاعدة الاستطراد ، وينتقل بقارئة من موقف إلى موقف . ومن شذرة أو رسالة أوقصيدة إلى أخرى حسبما تسوقه شجون الكلام والرواية ، وقد ترد خلال حديثه أهم المعلومات والوثائق حيث لا ينتظر ورودها . وفي كثير من الأحيان ينقل المقرئ إلينا رسالة بأسرها أو كتاباً بأسره ، ولا يعنى المقرئ بالتنظيم والتناسق ، وإنما يعرض مادة كتابه مبعثرة حسب التقسيم البسيط الشامل الذي ذكرناه .

وذلك أن المقرئ لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقي بل كان أديباً فقط ، وهو لا يزعم أنه مؤرخ أو محقق أو ناقد ، وإنما يقول لنا أنه ناقل فقط ، يورد من المعلومات والشذور ما اتفق ، ولا يعنى بتمحيصها أو تحقيقها (١) .

(١) راجع إشارة المقرئ إلى ذلك في نفع الطيب ج ١ ص ١٣٦ .

ولكننا نشعر مع ذلك أن للمقرى فى كتابه شخصية قوية ، ونشعر بالأخص أن حرارة تنبعث من هذه الصحف الأندلسية . ذلك أن المقرى يكتب عن الأندلس : روح يضطرم إعجاباً وأسى . ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ما تزال فى عصره حية مضطربة فى المغرب ، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائى فى يد اسبانيا النصرانية ، بل لقد وقع فى عصر المقرى بالذات حادث أذكى هذه الذكريات المشجية ، هونفى « الموريسكيين » أو العرب المنتصرين من اسبانيا (فى سنة ١٠١٨ هـ - ١٦٠٩ م) . والعرب المنتصرون هم بقية الشعب الأندلسى المجيد ، أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس ، وقد وفدت منهم عند النفى عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده ، وعاد معظمهم إلى الإسلام . وشهد المقرى هذه الخاتمة المؤسسية ، وهو يومئذ بفاس ، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المنتصرين : وتركت هذه الذكريات والمشاهد المؤلمة فى نفسه أعمق الآثار^(١) ، وأذكت فى نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها ، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل من المراجع ، ومنها أوراق سودها وأشياء علفت بذكرته ، ويقول لنا أيضاً « إنه لو أحضر ما خلفه مما جمع فى ذلك الغرض وألف ، لقرت به عيون وسرت به ألباب . . . »^(٢) ، وإذا كان المقرى يعنى بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه ، فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً ، ذلك لأن هذا القليل الذى ضمنه « نفح الطيب » هو فى ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة ، التى تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها .

وقد قلنا إن المقرى ناقل ومصنف ، ولكن له فى هذا النقل والتصنيف فضلاً لا يقدر ، فقد نقل إلينا عشرات الشذوور والوثائق من مصادر أندلسية جلييلة ، لا وجود لها اليوم ، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها ، بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم ، ولولا عناية المقرى بنقلها وتصنيفها ، لحرمتنا إلى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة . ولقد كان المغرب الأقصى حتى عصر المقرى أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبى ، وكانت مكاتب المغرب ولا سيما مكتبة الأشراف السعديين عامرة إلى ذلك العهد ، بكثير من الآثار الأندلسية النادرة ،

(١) راجع حديث المقرى عن هذا الحادث . نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ . (٢)

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٥٧ .

وكان لمولاي زيدان سلطان فاس لعهد المقرئ ، شغف خاص بجمع الكتب النادرة ، وقد انتفع المقرئ بهذا التراث الحافل ، واغترف منه وقيد ما شاء . ولكن الظاهر أيضاً أن هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل . ذلك أنه حدث في عهد مولاي زيدان حادث كانت له فيما بعد علاقة مباشرة بضياح قسم كبير من الآثار الأندلسية . وذلك أن السفن الإسبانية التي كانت تجوس عندئذ مياه المغرب الغربية ، أسرت فيما بين آسفي وأغادير مركباً كبيراً لمولاي زيدان ، كانت مشحونة بالتحف ، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة ، المغربية والأندلسية . وكان مولاي زيدان قد غادر مراکش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر في سفنه ملتجئاً إلى الجنوب . وحمل معه تحفه ومكتبته الثمينة ، فغنمها الإسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب إلى اسبانيا ، وأودعت مكتبة الإسكوريال الملكية . وقد وقع هذا الحادث في سنة ١٦١٢ م (١٠٢١ هـ) ، حينما اشتد اضطراب العلاقات بين اسبانيا والمملكة المغربية الشريفة^(١) . ولبثت كتب مولاي زيدان في قصر الإسكوريال إلى جانب بقية التراث الأندلسي ، التي كانت مودعة فيه منذ سقوط غرناطة . فاجتمع بذلك في الإسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربي معظمها من تراث الأندلس ، ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس ، فقد شبت النار في الإسكوريال سنة ١٦٧١ م ، والتهمت معظم الكتب العربية ، ولم يبق منها سوى ألفين ، وبقيت ضمن هذه المجموعات ، عدة من كتب مولاي زيدان لا تزال إلى يومنا في الإسكوريال .

وهذا فيما نعتقد هو السر في اختفاء كثير من الآثار الأندلسية التي كانت تحفل بها قواعد المغرب ومكاتبه في عصر المقرئ ، وقد جمع المقرئ مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتي ١٠١٣ - ١٠١٧ هـ ، (١٦٠٣ - ١٦٠٦ م) وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدباء جيله ، أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به .

وما يدل على أن المقرئ انتفع بنوع خاص بالمراجعة في مكتبة مولاي زيدان

(١) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٢٨ ، وراجع كتابي نهاية الأهدلس وتاريخ العرب المنتصرين ، الطبعة الثالثة ص ٣٩١ و ٣٩٢ .

التي فقدت ، أنه ينقل عن نسخة وحيدة من مسند الخطيب ابن مرزوق التلمساني ، كانت ضمن هذه المجموعة ولا تزال في الإسكوريال^(١) . وكذلك يستقى معظم روايته عن سقوط غرناطة وعن العرب المنتصرين من كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » ، وقد كانت منه نسخة وحيدة أيضاً في الإسكوريال^(٢) . وقد ضاعت فيما بعد .

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض المصادر العديدة التي نقل عنها المقرئ ، ما ضاع منها وما يزال قائماً ، ويكفي أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلية التي ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها ، وقد نقل المقرئ عن تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس ، وهو الذي انتهت إلينا من مؤلفه الكبير « المقتبس » في العصر الأخير قطع كثيرة ، وكذا عن تواريخ الحميدى والحجاري وابن بشكوال والرازي وابن سعيد الأندلسي وغيرهم ، وكتب عديدة لابن الخطيب ما تزال مخطوطة ، وكان من أخصب مصادره أيضاً نسخة كاملة من كتاب الذخيرة لابن بسام ، وما زال معظمه مخطوطاً حتى اليوم ، وآثار كثيرة أخرى لم يظفر البحث الحديث بشيء من أصولها القديمة ، وقد نقل المقرئ إلينا الكثير منها ، وهذا مما يزيد اليوم في فضله وفي أهمية كتابه .

ويتصل بمجهود المقرئ عن الأندلس كتابه « أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض » وهو سفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الكبير عياض السبتي ، واستعراض آثاره على نحو ما يكتب عن ابن الخطيب . بيد أنه يستطرد كعادته ويذهب في الحديث شجوناً شتى ، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة ، وتاريخ الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، ولهذه الوثائق على قلبها وإيجازها أهمية خاصة ، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية الإسلامية في هذا الموطن ، وهى أقوال معاصرين للمأساة شهدوا بعض حوادثها بأعينهم ،

(١) ليث يروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية « مقال المقرئ » . ومسند ابن مرزوق المذكور هو كتاب « المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن » وهو تاريخ السلطان أبي الحسن المريني

(٢) نشر هذا الكتاب - وهو لمؤلف مجهول - في أواخر القرن الماضي بعناية أحد المستشرقين الألمان مقرئاً بترجمة ألمانية .

أو سمعوا أخبارها في الضفة الأخرى من الأندلسيين الواردين على المغرب ، منها رسالة لجهول يظهر أنه من معاصري سقوط غرناطة يصف فيها نقض ملك قشتالة لعهوده أزاء المسلمين ، وما اتخذته النصراني من وسائل الإرغام والقهر لإكراه المسلمين على التنصر ، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة ، ومنها قصيدة طويلة لأبي العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب في القرن التاسع وعنوانها «الموعظة الغراء بأخذ الحمراء» يرثي فيها الأندلس ، ومنها أيضاً وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة ، وهي رسالة كتبها أندلسي متنصر عقب سقوط غرناطة إلى بايزيد الثاني سلطان الترك يستغيث به ، ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له في شعر قوى التعبير على الرغم من ركاكته ، ما يصيب العرب المتنصرين من أهوال ديوان التحقيق ورائع مطاردته وعقوباته ، وهذه وغيرها من الوثائق والشنور التي ينقلها إلينا المقرئ ، في «أزهار الرياض» قد ضاعت أصولها ، ولولا عناية المقرئ بنقلها لما ظفرنا بها .

وهذان الأثران الكبيران هما أهم ما في تراث المقرئ . بيد أن للمقرئ ثبناً آخر من الكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه ، ومن ذلك «إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة» و «فتح المتعال في مدح النعال المستشرقة بخير الأنام» و «حسن الثني في العفو عن جنى» و «قطف المهتصر في أخبار المختصر» و «عرف النشئ في أخبار دمشق» و «روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقبته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس» (١) و «الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين» وغيرها (٢) .

ويقول لنا المقرئ إنه حينما كان بالمغرب ، اعتزم أن يضع كتاباً ممتعاً عن بلدة تلمسان بعنوان «أنواء نيسان في أنباء تلمسان» ، وأنه كتب بعضه بالفعل ،

(١) قامت المطبعة الملكية بمدينة الرباط بنشر هذا الكتاب (سنة ١٩٦٤) . وصدر تحقيقاً بعناية العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ الدولة المغربية .

(٢) راجع خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ، و«سلالة العصر» ص ٥٩١ . ونقح الطيب (بولاق) .

ثم حالت الأقدار دون إتمامه^(١) . ويقول لنا أيضاً إنه كان ينوى ، متمنياً بأمداح النبي ، أن يؤلف كتاباً عنوانه « روضة التعليم في ذكر الصلاة والتسليم ، على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعينة والتكليم » . ولكنه لم يوفق إلى كتابته . هذا وتحفظ المكتبة الملكية في كوبنهاجن بنسخة مخطوطة من مؤلف للمقرى عنوانه « كتاب تاريخ الجمان في أخبار الزمان »^(٢) .

وقد كتب المقرى معظم كتبه في القاهرة ، وكتب بعضها في مكة ، والمرجح أنها كتبت جميعها أو كتب معظمها قبل « نفح الطيب » لأن المقرى لم يعيش بعد كتابته طويلاً كما رأينا .

وكان المقرى يحتل في المجتمع القاهري الأدبي مكانة رفيعة ، ويكفي أن نذكر هنا ما وصفه به المحبي ، الذي ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن : « حافظ المغرب لم ير نظيره في جودة القريحة ، وصفاء الذهن وقوة البديهة ، وكان غاية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ، ومعجزاً باهراً في الآداب والمحاضرات »^(٣) ، والواقع أن المقرى يكتب بأسلوب قوى وبيان ساحر ، يشهدان له بغزارة البلاغة في عصر كان الأدب العربي يجوز فيه مرحلة انحطاط قوى .

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب « نفح الطيب » كاملاً في سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) في أربعة أجزاء كبيرة ، وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزي قد عملت قبل ذلك لإخراج القسم الأول من كتاب « نفح الطيب » وهو الخاص بالأندلس بين سنتي ١٨٥٥-١٨٦١ م تحت عنوان *Analectes sur l'Histoire et Littérature des Arabes d'Espagne* ومهد لهذه الطبعة المستشرق دوجا بترجمة للمقرى . وطبع نفح الطيب بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة في أربعة أجزاء أيضاً على نسق طبعة بولاق . ونشر في تونس

(١) نفح الطيب ج (بولاق) ج ٤ ص ٦٧٤ .

(٢) اطلنا على هذا المخطوط أثناء بحثنا في مكتبة كوبنهاجن الملكية ، وهو يقع في ٢٢٢ ورقة من الحجم الصغير ، ومكتوب بخط مشرق . وفي آخره أنه نسخ في شهر محرم الحرام سنة ١٠٥٤ هـ أي بعد وفاة المقرى بنحو خمسة عشر عاماً فقط .

(٣) المحبي في خلاصة الأثر ج ١ ص ٢٠٥ .

٢٥٠ - تراجم

الجزء الأول من أزهار الرياض في سنة ١٩٢٢^(١) ، ونشرت بعض آثار المقرئ الأدبية مثل كتاب «حسن الثنا في العفو عمن جنى» (القاهرة) . وظهرت في سنة ١٨٤٠ في لندن ترجمة إنجليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب ، بقلم المستشرق الإسباني اللدون جاينجوس تحت عنوان «تاريخ الدول الإسلامية في اسبانيا» *The History of the Mohamedan Dynaties in Spain* مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة ، وترجم للمقرئ غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق ، مثل فستنفلد في كتابه «مؤرخو العرب» بالألمانية ، وبروكلمان في «تاريخ لأدب العربي» (بالألمانية أيضاً) . والأستاذ ليثي بروفنسال في كتابه «مؤرخو الأشراف» بالفرنسية ، وآخرون غير هؤلاء .

(١) وقد بدئ بإخراجه بعناية بيت المغرب بالقاهرة ، وصدر منه بالفعل ثلاثة أجزاء عن

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٣٩ - ١٩٤٢) .

ثبت المراجع

- تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الأمم والملوك .
الكامل لابن الأثير (طبع مصر) .
تاريخ أبى الفدا .
تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠) .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .
كتاب الأغانى .
العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية (المطبوع بعناية المستشرق آلفارت ، جوتا ١٨٦٠) .
الملل والنحل لأبى الفتح الشهرستانى (على هامش كتاب الفصل لابن حزم) ،
الروضتين فى تاريخ الدولتين لشهاب الدين المقدسى (طبع مصر) .
فضائح الباطنية للغزالى (المطبوع بعناية المستشرق جولدمير) .
الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى (طبع مصر سنة ١٢٨٦ هـ) .
النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ،
المنهل الصافى لأبى المحاسن بن تغرى بردى (مخطوط) .
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل (مخطوط) ، ونشر
أخيراً محققاً بعناية المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال فى ثلاثة أجزاء (سنة
١٩٥٧ - ١٩٦٠) .
السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ،
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى .
حسن المحاضرة للسيوطى .
عجائب المقدور فى أخبار تيمور لابن عربشاه (طبع مصر سنة ١٣٠٠ هـ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (طبع بولاق) .

- أخبار مصر وفتوحها لابن عبد الحكيم .
أخبار مجموعة في فتح الأندلس (مدريد سنة ١٨٦٧) .
تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .
المقتبس في تاريخ رجال الأندلس لابن حيان (القسم المخطوط المحفوظ
بخزانة القرويين بفاس ، والقسم المخطوط الكبير المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط) .
البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (طبع مصر)
أزهار الرياض للمقرى (الأجزاء الثلاثة طبع لجنة التأليف والترجمة
والنشر) .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام (المخطوط والمطبوع) .
الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (مخطوط المتحف البريطاني) .
دولة الإسلام في الأندلس ، لمحمد عبد الله عنان (الطبعة الرابعة ١٩٦٩) .
دول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٧٠) .
معجم البلدان لياقوت الحموى .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (طبع مصر) .
الحلة السيرة لابن الأبار القضاعى (المطبوعة بعناية العلامة دوزى) .
رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) .
المسالك والممالك لابن حوقل .
مختصر نزهة المشتاق للإدريسى (طبع رومة سنة ١٥٩٢) .
روض القرطاس لابن أبي زرع الفاسى .
أخبار المهدي ابن تومرت ، لأبى بكر الصنهاجى المنشور بعناية الأستاذ
ليثى بروفنسال (باريس ١٩٢٨) .
كتاب محمد بن تومرت ، أو كتاب « أعز ما يطلب » (الجزائر ١٩٠٣) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (طبع مصر)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (القاهرة ١٣٣٢ هـ)
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان
(القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٥)

- الخلل الموشية (طبع تونس) .
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمجى (القاهرة ١٢٨٥ هـ) .
المطرب من أشعار أهل المغرب (المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤) .

* * *

- Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (1932)
Condé : Histoire de la Domination des Arabes en Espagne
Scott : History of the Moorish Empire
Michaud : Histoire des Croisades
Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages
W. Besant & E. H. Palmer : Jerusalem the city of Herod and
Saladin.
Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire
Von Hammer : Geschichte der Assassinen
The History and Description of Afirca (by Leo Africanus)
Encyclopédie de l'Islam

فهرست الموضوعات

صفحة

مقدمة الطبعة الأولى	٣
تصدير	٦

الكتاب الأول

تراجم شرقية

هرون الرشيد	١٠
ست الملك الفاطمية	٣١
الحسن الصباح	٣٨
الملك الناصر صلاح الدين	٥٠
بهاء الدين قراقوش	٨٠
الملكة شجرة الدر	٨٥
تيمورلنك	١١٦

الكتاب الثاني

تراجم أندلسية

١ - من أبطال الحرب والسياسة

موسى بن نصير	١٢٦
صقر قریش	١٣٩
أسد بن القرات ، فاتح صقلية	١٥٢
يحيى الغزال ، شاعر وفيلسوف وسياسي	١٥٨
عبد الرحمن الناصر	١٦٧
صبح أم المويدي	١٩٩
المعتمد بن عباد	٢١٢

فهرست الشعر والشعراء

٥٢١

صفحة

هرون الرشيد

٢٦

ملك الثلاث الغنائات عناني

عمارة اليمنى

٥٩

رميت يادهر كف المجد بالشلل

٩٠

الصاح المرتضى أيوب أكثر من

جمال الدين بن مطروح

١٠٤

قل للفرنسيس إذا جفته

ابن غربشاه

١٢٣

فأهيك منهم فتنة

عبد الرحمن بن معاوية

١٥٠

شبان من قام ذا امتعاض

١٥١

أها الركب الميمم أرضي

١٥١

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

يحيى الغزال الجياني

١٦٠

است تلقى الفقيه إلا غنياء

١٦٠

يا ليت شعري أى شيء يحصل ير

١٦٢

وأغيد لين الأطراف رخص

١٦٣

قال لي يحيى وصرنا

١٦٤

يا تود يارود الشباب

أبو عمر بن عبد ربه

١٦٨

يها الهلال جديدا

عبد الرحمن الناصر

١٨٦

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها

٢٠٦

أبى أمية ابن أقرار الدجى

٢٠٧

أليس من العجائب أن مثلى

ابن دراج القسطلى

٢١١

بقاء الخلائق رهن الفناء

صفحة	المعتمد بن عباد
٢١٨	إن يسلب القوم العدا
٢٢٠	أنباء أمرك قد طيقن آفاقا
٢٢١	بكيت إلى سرب القطا اذ مررن به
٢٢١	قبر الغريب سقاك الراح الغادي
٢٨٣	الاحي "أوطاني" يشلب أبا بكر
	أبو بكر بن اللبانه
٢١٩	نسيت لإغداة النهر كونهم
	أبو بحر بن عبد الصمد
٢٢٢	ملك الملوك أسامع فأنادي
	لسان الدين بن الخطيب
٢٢٣	قد زرت قبرك عن طوع بأعماح

٢٥٩	سلام على قبر الامام المجد
	صالح بن شريف الرندي
٢٦٣	لكل شيء إذا ما تم نقصان
	عباس بن فرناس
٢٦٧	قد تم ما حملتي من آلة
٢٦٨	تفاحة مصفورة البهض
	موثمن بن سعيد
٢٦٩	يطم على المنقاء في طير انها
	أبو بكر بن عمار
٢٨٦	الاحي "بالقرب حيا حللا
٢٨٧	سجايالك ان عافيت أذنى وأسمع
	أبو بكر الطرطوشي
٢٩٧	أقلب طرفي في السماء ترددا
٢٩٧	إذا كنت في حاجة مرسلا
	الشريف الإدريسي
٣١٤	ليت شعري أين قبري
	أبو بكر بن طفيل
٣١٦	أنيموا صدور الخيل نحو المضارب
٣٢٦	ولما التقينا بعد طول تهاجر

صفحة

٣٢٧

يا باكميا فرقة الأحباب عن شحط

ابن جبير

٣٢٩

أطلت على أفقك الزاهر

٣٣٦

عليك بكتمان المصائب واصطبر

٣٣٦

صلاح الدين أنت له نظام

٣٣٦

أقول وآنست بالليل نارا

أبو العباس المقرئ

٣٧٨

وما أنا عن تحصيل دنيا بهاجز

٣٧٨

تركنت رسوم عزى في بلادى

فهرست الكتب والرسائل

الدرداشين في أسماء الهادي الأمين للمقرى - ٣٨٥
دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عثمان -
٢٧٧ ، ٢٧٨
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام -
٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
٣٠٤ ، ٣٨٣
الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي - ٣٣٥ ،
٣٤٠
رجالة المعلم لابن الرومية - ٣٤٠
رحلة ابن جبير - ٣٣٥
الرحلة النباتية لابن الرومية - ٣٤٠
رسالة النفس لابن طفيل - ٣١٩
رسالة حي بن يقظان لابن طفيل - ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٥
روبنصون كروزلدانيل دي فوي : ٣٢٦
روض الآس العاطر الأنفاس للمقرى - ٣٨٤
روض الأنس وفضة النفس للإدريسي : ٣١٤
روض القرطاس لابن أبي زرع الفاسي - ٢٢٩ ، ٢٤٦ ،
٢٥٠
روضة الصفا لميرخوند : ٤٨
سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي - ٢٨٩ ،
٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧
سر المالحين وكشف ما في الدارين للغزالي - ٢٤١
سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر لابن بسام -
٣٠٤
شرح حشائش ديقوريدس وأدوية جالينوس لابن
الرومية - ٣٤٠
شرح فلسفة أرسطو لابن رشد - ٣١٨
عرف النشوق في أخبار دمشق للمقرى - ٣٨٤
المقد الفريد لابن عبد ربه - ١٦٨ ، ١٩٨ ،
٢٩٩ ، ٣٠٤
عيون الأخبار لابن قتيبة - ٢٩٤
الفاشوش في أحكام قراقوش للأسمد بن ماتي -
٨٢ ، ٨٣
الفتح القسي في الفتح القدسي للمهاد الأصفهاني -
٧٨

الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب - ١٥٤
الأحكام السلطانية للماوردي - ٢٩٤
إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - ٢٤٠
أخبار مصر في انقضاء دولة بني نصر - ٣٨٣
أخبار القضاة لابن حيان - ٢٧٦
أخبار ملوك الأندلس للرازي - ٢٧٤
اختصار حديث مالك للدارقطني لابن الرومية -
٣٤٠
الأدوية المفردة لابن الرومية - ٣٤٠
الأرجوزة الطبية المجهولة لابن طفيل - ٣١٩
أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقرى -
٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥
الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس للراز -
٢٧٤
الأسدية أو المختلطة لأسد بن الفرات - ١٥٤
إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة للمقرى - ٣٨٤
إعتاب الكتاب لابن الأبار - ٣٥٢
أعز ما يطلب للمهدي ابن تومرت - ٢٥١
ألف ليلة وليلة - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١٨٨
إيماض البرق في أدباء الشرق لابن الأبار - ٣٥٣
البيان المغرب لابن عذارى المراكشي - ١٨٢
البطشة الكبرى لابن حيان - ٢٧٦
تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - ٣٨٦
التعريف بابن خلدون - ١١٩
التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار - ٣٥١
التنبيه على أغلاط الفافقي لابن الرومية - ٣٤٠
تهافت التهافت لابن رشد - ٣١٨
تهافت الفلاسفة لأبي حامد الغزالي - ٣١٨
الجامع لما تربي غطاب لابن حيان - ٢٧٦
حسن الثنا في المفوع عن جني للمقرى - ٣٨٦
الحلة السيرة لابن الأبار - ٢٨٨ ، ٣٥١ ،
٣٥٢ ، ٣٥٣
درر المسقط في أخبار السبط لابن الأبار - ٣٥٢

المقتبس في تاريخ رجال الأندلس لابن حيان -
 ١٧٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ - ٢٨٠ ، ٣٠٣ ، ٣٨٣
 الملل والكتل للشهرستاني - ٤٣
 مؤرخو الأشراف لبروفنسال - ٣٨٦
 مؤرخو العرب لفستفلمد - ٣٨٦
 الموطأ للمهدي ابن تومرت - ٢٥١
 المنقذ من الضلال للغزالي - ٢٥١
 الموعظة الغراء بأخذ الحمراء - ٣٨٤
 نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح
 لابن جبير - ٣٣٦
 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشریف
 الإدريسي - ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣
 نظم الحمان في التشكى من إخوان الزمان لابن
 جبير - ٣٣٦
 نظم الدراري لابن الرومية - ٣٤٠
 نظم السلوك في مواعظ الملوك لأبي بكر بن
 اللبانه - ٢١٧ ، ٢٢١
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ -
 ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
 وصف إفريقية للحسن بن الوزان الفاسي -
 ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠
 يتيمة الدهر في محاسن أهل مصر للشمالبي -
 ٣٠٢

فتح المنعالم في مدح التعمال للمقرئ - ٣٨٤
 فضائح الباطنية للغزالي - ٤٤
 قاموس الوزان الدرر اللاتفي : ٣٧٠ ، ٣٧١
 قطف المهتصر في أخبار المختصر للمقرئ - ٣٨٤
 قلائد العقيان للفتح بن خاقان - ٢٨٨
 كتاب ديسقوريدس في الحشائش الطبية لابن
 الرومية - ٣٤٠
 كتاب رجاء - أنظر نزهة المشتاق
 كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين - ٧٨
 كتاب الصلة لابن بشكوال - ٣٥١
 كتاب العجائب للمسعودي - ٣١٠
 كتاب الفصوص لصاعد البغدادي - ٢٧١
 المآثر العامرية لابن حيان - ٢٧٦
 المتين لابن حيان - ٢٧٦
 المستدركة لابن الرومية - ٣٤٠
 المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ،
 لابن مرزوق - ٣٨٣
 المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحيمة
 الرلمسي - ١٦٣
 المعجم في أصحاب القاضى أبي عل الصديق لابن
 الأبار - ٣٥١
 مبدن اللحين في مرآة الحسين لابن الأبار -
 ٣٥٢
 معرفة التابدين لابن حيان - ٢٧٦
 مقدمة ابن خلدون - ٢٩٤

فهرست القبائل والطوائف والدول

١ - ت

البرتغاليون : ٢٩٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢
برلاص ، قبيلة : ١١٧
البشكنس : ١١٦ ، ١٧٥ ، ١٧٦
البنادقة : ٣٦٠
بنو الأفطس : ٢٣٣ ، ٢٩٨
بنو أمية : ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٣٨٠
بنو أيوب : ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٤
بنو جهور : ٢٧٢
بنو حدان : ١٩١
بنو حجاج : ١٦٩
بنو حمود : ٢٣٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩
بنو ذو النون : ٢١٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥
بنو طاهر : ٢٤٨
بنو عباد : ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨
بنو العباس : ١٠ ، ١١ ، ١٧ ، ٢٠ ، ١٣٩
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦١ ، ١٨٢
بنو عثمان : ١٢١ ، ١٤٨
بنو عصام : ١٨٠
بنو القبطرة : ٢٨٨
بنو مرين : ٢٦٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٥
بنو قصر : ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤
بنو قفزة : ١٣٩ ، ٣٥٧
بنو هاشم : ١٧٥ ، ١٧٦
بنو هود : ٢٥٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥
بنو يفرن : ٢٢٧
البيز نظليون : ١٥٣ ، ١٩٥
البيزيون : ١٥٣
التايغون : ١٢٦
التتار : ٤٣ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠
الترك : ٧٧ ، ١٨٢
الترك المغانيون : ١١٨ ، ١٢٠

الأخوة المفرون : ٣١٣
الأدارسة : ١٨٠ ، ١٨١ ، ٣٠٥
الأرجونيون : ٣٤٧ - ٣٤٩
الإسبان : ١٥٢ ، ٣٦٢
الاستبارية : ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٢٤٧
الإسماعيلية : ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٢
الأشراف السعديون : ٣٧٥
الأشعرية : ٢٤٢ ، ٢٤٥
الأغالبة : ١٥٣ ، ١٥٦
الأكراد : ٧٧
آل البيت : ١٨٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠
٢٤٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٣٠
الألمان (الجرمان) : ٧٤ ، ١٨٢ ، ١٩٢
الإمارة : ٢٧٣
الإمام المعصوم : ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
آل سونجاي : ٣٥٧
آل منديشي : ٣١٢
آل مردنيش : ٣٤٤
الإمبراطورية المصرية الاسلامية : ٨٥ ، ٩٠
الإنجليز : ٧٤ ، ١٥٢
الأنكشارية : ١٢٠
الإيطاليون : ١٩٢ ، ٣٦٥
أهل خسين : ٢٣٩ ، ٢٤٩
أهل سبعين : ٢٤٥
البابوية : ٧٢
الباطنية : ٣٨ ، ٤٤
البرامكة : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥
البرانس ، قبيلة : ٢٢٥
البربر : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٠٦
٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦

٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،

٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣١٥ ، ٣٥٢ ، ٣٨٠ ،

الدولة الطولونية : ١٧ ، ٦٠ ،

الدولة العامرية : ٢٧٥ ،

الدولة العباسية : ١٠٠ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ،

٢٢ ، ٢٣ ، ١١٦ ، ١٦١ ، ١٨٥ ،

١٩٣ ، ١٩٤ ،

الدولة الفاطمية : ٣٢ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٦ ،

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٧ ، ١٨١ ،

١٩٣ ، ٢٣٥ ،

الدولة المرابطية : ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ،

٢٢٩ ، ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٥٦ ،

الدولة الموحدية : ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٤٣ ،

الدولة الصيرية : ٢٦٤ ،

الذميون : ٣٢ ، ٢٩٣ ،

الروم : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ، ٨٧ ، ١٢٨ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ،

الرومان : ١٣٦ ، ٣٦٦ ،

زناقة : ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٨٢ ، ٢٢٧ ،

س — ك

السلجقة : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٦٥ ،

السكسون : ١٤٥ ،

الشاميون : ٧٧ ، ١٤١ ،

الشيعة : ١٦ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٨١ ، ٢٣٥ ،

الصحابة : ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

الصقالبة : ١٧٦ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ،

٢٦٦ ، ٢٠٧ ،

الصلبيون : ٣٨ ، ٥٠ — ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ — ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ،

٨١ ، ٨٥ — ٨٧ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١١٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،

صنهاجة : ١٢٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ،

٢٣٨ ، ٢٤٣ ،

التركمان : ٧٧ ،

للتعليمية : ٣٨ ،

ج — ز

الجماعة ، حكومة : ٢٤٩ ، ٢٧٢ ،

جنفيسة ، قبيلة : ٢٤٩ ،

الحشيشية : ٣٨٠ ،

الحلقة : ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١١١ ،

حمير : ٢٢٦ ،

الخرمية : ١٦ ،

الخزر : ١٣ ،

الخزرج : ٢٦٠ ،

الحلقة (العامة) : ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ،

٢١ ، ٣٧ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٠ ،

١٨٢ ، ١٨٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٣٣٢ ،

الحلقة الأموية : ١٤ ، ١٤١ ، ١٤٩ ،

١٨٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٢٨٠ ،

الحلقة العباسية : ٢٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ،

الحلقة الفاطمية : ٣٠ ، ٣٨ ، ٥١ ، ٥٦ ،

٥٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

الحلقة الموحدية : ٣٤٣ ، ٣٤٧ ،

الدأوية : ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٣٤٧ ،

دولة الأغالبة : ١٧ ،

الدولة الأموية : ١٦ ، ٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ،

١٥٨ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩١ ،

٢١٠ ، ٢٥٨ ، ٢٩٥ ،

دولة بني جهور : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،

دولة بني عباد : انظر مملكة إشبيلية

الدولة البيزنطية : ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ،

١٨ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٦٠ ، ٦١ ،

١٠١ ، ١٥٢ ، ١٨١ ، ١٩٤ ،

الدولة الحفصية : ٣٤٧ ،

دول الطوائف (ملوك وأمراء) : ٢١٢ ،

٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ،

٢٣٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،

٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ،

٣٥٧ ، ٢٧٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٠
٣١٥ ، ٣٥٢
المزدكية : ٣٨
مسطامة ، قبيلة : ٢٢٦
المسلمون : ١٣ - ١٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٨
٩٢ ، ٩٥ - ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٣٠
١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٥٢
١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧١ - ١٧٥
١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٥٨
٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨
٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤
مسوفة ، قبيلة : ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥
المصريون : ٥٤ ، ٧٧ ، ١١٨
مصمودة (والمصامدة) : ٢٢٧ ، ٢٣٦
٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠
المخرية : ١٤٠ ، ١٤٢
المعتزلة : ١٨٣
المغارية : ٣٣٠ ، ٣٥٨
مغراوة ، قبيلة : ٢٢٧
المغول : ١١٦
الملثمون : انظر المرباطون
الملحدة : ٣٨
الملكية ، طائفة : ٣٢
ملوك الطوائف : انظر دول الطوائف
الماليك البحرية : ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠٩
١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨
١١١ ، ١١٤
الماليك الصالحية : ١١١ ، ١١٢
الماليك الكاملية : ٨٦
الماليك المعزية : ١١١ ، ١١٢
ملكة إشبيلية : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٨٤
ملكة بطليوس : ٢٩٨
ملكة بني ذى النون : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٣٠٠
ملكة تلمسان : ٣٦٦
ملكة تونس : انظر الدولة الحفصية
ملكة الروم : ١١٩ ، ١٢٠
ملكة سرقسطة : ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦
المملكة الصليبية : ٥٠ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٨
٧٠ ، ٧٧ ، ٨٥

الصوفية : ٣٦٦
للمرب : ٢٢ ، ٢٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥
٣١٦ - ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٨
للمرب اليمانية : ٢٣٨
العلوية : ٥٧
غمار ، قبيلة : ٢٢٧
الفاطميون : ٣٨ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٦٢
٨١ ، ٩٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٠
١٨١ ، ١٩٠
الفرس : ٢٢ ، ٢٩٣
الفرنج : ٢٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٧
١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ٢٧٣
الفرنج الصليبيون : انظر للصليبيون
الفرنسيون : ١٩٢
الفهرية : ٤٢
القبائل البربرية : انظر البربر
القشتاليون : ٢٣٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
٢٦٤ ، ٣٠٠ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠
٣٤١
القطان : ٣٤٧
القوط : ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩
١٧٠ ، ٣٦٦
القيسية : ١٤٢
كتامة : ٣٥ ، ١٢٨
كدالة : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦
الكورتيس : ٢٦١
ل - ي
الومبارد : ١٩٥
لمتونة ، قبيلة : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦
٢٤٥ ، ٢٤٩
الحيضة : ٤٧
المجسرون : انظر المرباطون
المجوس : ١٦٥
المرباطون : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٦
٢٣١ - ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
٢٤٤ - ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣

١٦٩٠١٤٤٠١٢٨٠٣٧٠٣٦٠٣٢ :	ملكة غرناطة : ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٤١
١٨٠—١٧٧٠١٧٥٠١٧٤—١٧١٠١٧٠ :	ملكة فاس : ٣٦٤ ، ٣٧٦
٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٢٣ ، ٢١٥ ، ٢١٢ :	ملكة الفرنج : ٢٣ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٥
٢٦٩٠٢٦٢٠٢٦١٠٢٥٩ ، ٢٥٨٠٢٥٧ :	ملكة القوط : ١٢٨
٣٦٤٠٣٤٥٠٣٣٤٠٣٣٣٠٣٠٨٠٢٩٨ :	المملكة اللاتينية ، انظر المملكة الصليبية
٣٧٦ :	ملكة ليون : ١٦٤ ، ١٧١
النصارى المعاهدون : ١٧٠ :	ملكة نافار : ١٧١
النورمان : ١٦٣٠٧٤٠٥٩ ، ١٦٥—٣٠٧ :	المهدي المنتظر : ٢٣٥٠٢٣٧٠٢٤٧٠٢٥٢٠٢٥٣
هرقة ، قبيلة : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ :	المواي : ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٧٠
هنتاته ، قبيلة : ٢٤٧ ، ٢٤٩ :	الموريكيون أو العرب المنتصرون : ٣٨٠ ، ٣٨٣
هواره ، قبيلة : ١٢٧ :	الموحدون : ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥
الوثنية : ١٤٥ :	٢٥٧ — ٢٦٠٠٢٩٩٠٣١٦٠٣١٧٠٣٣٠ :
اليمنية : ١٤٠ ، ١٤٢ :	٣٦٤٠٣٤٤٠٣٤٣٠٣٤٢٠٣٣٨ ، ٣٣١
اليونانيون : ٢٦ ، ٣٠٧ :	المولدون : ١٦٩
اليهود : ٣٢ ، ٣٦ :	النزارية : ٤١

فهرست البلدان والأماكن

١٦٩ : ٢١٢ : ٢٦٣ : ٢١٥ : ٢٢٧ : ٢٦٠

٢٢١ : ٢٣٠ - ٢٣٢ : ٢٥٨ : ٢٦٠

٢٦١ : ٢٨٢ : ٢٨٥ : ٢٨٦ : ٢٩٩

٣٠٣ : ٣٤٠ : ٣٤٣ : ٣٤٤

أشونة : ٢٩٨ : ٣٠٦ : ٣١٣

أشوم طناح : ٩١ : ٩٢

الأشونين : ٥١

أشونة : ٣٢٩

أصبهان : ٤١ : ٤٢ : ٤٦

أصيلا : ٣٥٤ : ٣٦٦

إطرابنش : ٢٨٠ : ٣٣٣ : ٣٣٤

أغادير : ٣٨٢

أغرات : ٢١٥ : ٢١٩ : ٢٢١ : ٢٢٣

٢٢٦ : ٢٢٨ : ٢٤٧ : ٣٦٤

أفريقية : ١٦ : ١٨ : ٢٣ : ١٢٨ : ١٢٦

١٣٨ : ١٤٠ : ١٤٩ : ١٥٢ : ١٥٦

١٨٠ : ١٨٢ : ٢٣١ : ٢٣٥ : ٢٤٣

٢٥٧ : ٢٥٨ : ٢٦٠ : ٢٦٠ : ٢٦٠

٢٦٦ : ٢٦٩ : ٢٦٩ : ٢٦٩ : ٢٦٩

٣٦٤ : ٣٦٦ : ٣٧٢

أفسوس : ١٣ : ١٥

إفريطش : ١٥٢ : ١٥٩ : ١٦١ : ٣٢٩

أكسفورد : ٢٧٨ : ٣١٣

أكوتين : ١٩٩

البيرة : ١٣٢ : ١٤١ : ١٦٨ : ٢٨٠

الأنبار : ٢١

الأهرام : ٦٣ : ٨١ : ١٨٦

الحامة : ٣١٣

الماتيا : ٨٢ : ٧٣ : ١٦٣ : ١٩٥ : ٣١٢

المرية : ١٨١ : ١٨٦ : ٢٣٢ : ٢٣٩

٢٥٩ : ٢٦٠

الموت : ٤١ : ٤٢ : ٤٣ : ٤٦ : ٤٨

٢٦ - تراجم

— ١ —

أذربيجان : ١٦ : ١٩

أراجون : ٢٣٠ : ٣٤٥ : ٣٦٤

إربيل : ٦٥

أربونة : ١٣٤

أرض حاحة : ٣٥٨

أرض رجراجة : ٣٥٨

إرضروم : ١١٨

أرمينية : ١٣ : ١٦ : ١٩ : ١١٨ - ١٥٩

إسبانيا : ١٢٩ : ١٣٠ : ١٣٢ - ١٣٥

١٣٨ : ١٣٩ : ١٤٥ : ١٩٠ : ٢٣٥ : ٣٠٦

٣٦٠ : ٣٦٤ : ٣٨٠

إسبانيا المسلمة : ٢٣ : ١٧١ : ١٢٣ : ٢٥٧

إسبانيا النصرانية : ١٤٤ : ١٧١ : ١٧٢

١٨٠ : ٢٠٨ : ٢١٤ : ٢٢٥ : ٢٣٠

٢٥٧ : ٢٥٨ : ٢٨٩ : ٢٩٦ : ٣٠٠

٣٤٦ : ٣٨٠ : ٣٨١

إستانبول : ٣١٣

إستجة : ١٦٨ : ٢١٢ : ٣٢٩

أسترة : ١٣٣ : ١٧١

آسفي : ٣٥٦ : ٣٨٢

الإسكندرية : ١٨ : ٣٢ : ٥٤ : ٥٩

٦١ : ٦٣ : ١٥٩ : ٢٣٩ : ٢٤٢

٢٩٠ : ٢٩٢ : ٢٩٧ : ٣٢٩ : ٣٣١

٣٣٥ : ٣٣٦ : ٣٦٠ : ٣٦٧ : ٣٦٨

إسكندنافيا : ٢١٣ : ٣١٢

الإسكودريال (القصر المكتبة) : ٣٤٥

٣٥٠ : ٣٧١ : ٣٨٢ : ٣٨٣

أسوان : ٣٥٩

آسيا الصغرى : ١٤ : ٦٠ : ٦٨ : ٧٤

٣٠٦ : ٣١١ : ٣٤١

إشبيلية : ١٣٣ : ١٣٦ : ١٤٢ : ١٦٢

بافياض : ٦٤ ، ٢٢٢
 بيشتر : ١٧٠ ، ٢٨٠
 بجاية : ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨
 ٣٦٦
 بحر آشوم : ٩٥ - ٩٨
 البحر الأحمر : ٦٦ ، ٣٥٩
 بربشتر : ٢٧٣
 البرتغال : ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٢٩٠
 البرج الأحمر : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥
 برشلونة : ١٣٤ ، ٢٨٤ ، ٣١١
 برغن : ١٧٥
 برقة : ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٣٩ ، ٣٦٦
 بركة حلوان : ٣٥
 بسطة : ٣٢٤
 بسكونية : ١٣٣
 البصرة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٦٠
 بصرى : ٦٧
 بطليموس : ١٧١ ، ٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢
 ٢٥٩ ، ٣١٩ ، ٣٤٣
 بعلبك : ٥٢
 بغداد : ٢٤ ، ٢٥ ، ٤١ ، ١١٤ ، ١١٨
 ١٥٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩
 ٢٤٠ ، ٢٩٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢
 بلاد الديلم : ١٦ ، ٢٠ ، ٤١
 بلاد الروم : ٢٤
 بلاد السودان : ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣٥٤
 ٣٥٨
 بلاد السوس : ٢٢٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٣٥٦
 بلاد العرب : ٣٥٩
 بلاد الكرج : ١١٨ ، ١١٩ ، ٥٢
 بلاد المحوس : ١٦٣ ، ١٦٥
 بلاد المصاملة : ٢٢٨
 بلاد هرقة : ٤٧
 بلبس : ٥٣ ، ٥٤ ، ٨٦
 بلخ : ١١٧
 بقرم : ١٥٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤
 بلنسية : ١٣٥ ، ١٧١ ، ٢٣٣ ، ٢٥٨

آمد : ٦٩ ، ٨٧
 الأناضول : ١١ ، ١٢ ، ١١٨ ، ١٢٠
 ١٢٤ ، ١٢٢
 إنجلترا : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٥٣
 الأندلس : ٧٤ ، ٧٨ ، ١٣١ ، ١٣٤
 ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٣٩ - ١٤٤ ، ١٤٦
 ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٤
 ١٦٧ - ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ -
 ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٩ - ١٩٤ ، ١٩٩
 ٢٠٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ - ٢١٦
 ٢١٨ - ٢٢١ ، ٢٢٥ - ٢٢٩ ، ٢٣٣
 ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠
 ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦
 ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦
 ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ - ٢٩٧ ، ٢٩٩
 ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦
 ٣١٨ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥
 ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ - ٣٤٨ ، ٣٥٠
 ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٧
 ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

أنفة : ٣٤٣ ، ٣٤٤

أنطوجر : ٢٦٠

أنطاكية : ٨١

أنقرة : ١٤ ، ١٢٠ ، ١٥٠

أوتزار : ١٢٢

أوريا : ٧٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٧٩

أوسمة : ١٧٣ ، ١٧٥

إيطاليا : ١٥٣ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٥٩

٣٦٣ ، ٣٠٠

إيكلين : ٢٤٨

إيلة : ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٧

ب - ث

الباب الأخضر : ٢٩٧

باب زويلة : ١١٥

باجة : ١٣٥ ، ٢١٢ ، ٢٩٨

باريس : ٣١٣

ثروة : ٢٢٢	٢٨٤ ، ٢٢٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨
الشفرة الأعلى : ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٧٤	٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٣
١٧٥ - ٢٧٤ ، ٣٠٢	بله نوبه : ١٤٢
ج - ز	بغلوقة : ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٨٠
جاجاتاي : ١١٧	بورتمار : ٢٨٢
الجامع الأزهر : ٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٣٧٨	البوسفور : ١٢ ، ٢٤
جامع دمشق (الجامع الأموي) : ٢٣٢ ، ٢٧٧	بولونغا : ٣٦٣
جامع الزهراء : ١٨٤ ، ١٨٨	بيت المقدس : ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٥٠
جامع عمرو : ٦٣ ، ٣٣٠	٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ -
جامع قرطبة : ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٨٤ ، ٢٦٩	٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦
جامع القرويين : ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥	٩٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ٢٣٩
جامع مراکش : ٢٤٤ ، ٣٦٤	٢٩٠ ، ٣٣٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
جامع المهدي : ٣٦٤	بيروت : ٦٤ ، ٦٨
جامعة بولونيا : ٣٦٣	بئر زمزم : ٣٣١
جبال أستورياس : ١٣٣	بيسان : ٦٦ ، ١١٥ ، ١١٧
جبال الأطلس : ٢٢٨ ، ٣٦٠	بينظية : انظر قسطنطينية
جبال البرنيه : ٢٣ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٥	تادلا : ٣٥٧
١٧٣ ، ١٩٩	ناغيا : ٣٦٥
جبال طوروس : ١٤ ، ١٥	تاكرونا : ٢٦٦ . وانظر رندة
جبال كردستان : ٧٧	تامستا : ٢٢٧ ، ٣٦٥
جبال المصامدة : ٢٤٧ ، ٢٥٠	تاهرت : ١٨٠
جبل إطنه : ٣٢٩	تدمير : ١٧٠ ، ١٧١
جبل إيجلينز : ٢٤٧	تدنست : ٣٥٨
جبل الشلج (سيرا نقادا) : ١٦٨	تراجاي : ١١٧
جبل درن : ٢٢٨	التركستان : ١١٦ ، ١٢٤
جبل طارق : ١٣١	تطوان : ٣٦٦
جبل العروس : ١٨٦	تظيلة : ١٧٤
جده : ٣٣٠ ، ٣٥٩	تفلايت : ٣٦٦
جرجان : ٢٤	تكرت : ٥٢
الجزائر : ٢٢٨ ، ٢٧٨	تلمسان : ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٧٤
جزائر البليار (الجزائر الشرقية) : ١٢٨	٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤
١٥٢ ، ٢٣٤	تنبكتو : ٣٥٥ ، ٣٥٧
جزر الرأس الأخضر : ٣١٣	تورنجن : ١٩٦
جزر الكناري : ٣١٣	قونس : ١٥٣ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ٢٢٨
الجزيرة : ٧٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ١١٦ ، ١١٨	٣٤٨ - ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠
١٢٦ ، ١٩١	٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٨٥
جزيرة جربة : ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٧	قيصوت : ٢٤٧
	تينملل : ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٣٦٤

- جزانة الرباط الملكية : ٢٧٨
 خزانة القرويين : ٢٧٧
 خوازم : ١١٨
 خورزستان : ٤١
 دار الحكمة : ٤٠ ، ٦٣
 دار الروضة : ١٨٥
 دار سعيد السعداء : ٦٣
 دار الشراب : ٦٣
 داتماركه : ١٦٣
 دانية : ٣٢٩ ، ٣٤٩ ، ٣٣٤
 درعة : ٢٢٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٨
 درنة : ١٢٧
 دكاة : ٣٥٧
 دمشق : ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٣٣٢ ، ٣٤١ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩
 دوين : ٥٢
 دمياط : ٧١ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٨٥ ، ٨٧ —
 ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤
 دهلي : ١١٨
 ديار بكر : ٦٦ ، ٩٧
 الديار الشرقية : ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٣
 الرباط : ٣٦٦
 الربض الغربي : ٢٦٩
 الرصافة (قرطبة) : ١٤٩ ، ١٥١ ، ٢٦٩ ، ١٨٥
 الرصافة (بلنسية) : ٣٤٩
 الرقة : ١٤ ، ٢٤ ، ٦٥
 الرملة : ٦٤ ، ٧٤
 رفندة : ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢١٨
 رواق المغاربة : ٣٧٧
 الرها : ٥٠ ، ٦٥
 الروضة : ٩٣
- الجزيرة الخضراء : ١٣١ ، ١٦٩ ، ٢١٠ ، ٢٣١ ، ٣١٥
 جزيرة رودس : ١٥٢
 جزيرة طريف : ١٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٦٤
 جزيرة الوقواق : ٣١٩
 جزيرة يابسة : ٣٢٩ ، ٣٣٤
 جليقية : ١٣٤ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ٣٠٦
 جثين : ٦٦
 جونكيرا : ١٧٣
 جيان : ١٤٣ ، ١٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ —
 ٣٣٥ ، ٣٢٨
 الجيزة : ٥٣ ، ٦٢
 الحجاز : ٦٦ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٨٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٩ ، ٣٥٩ ، ٣٧٦
 الحجر الأسود : ٣٣١
 حران : ٦٥ ، ١٥٤
 الحرم الشريف : ٢٨ ، وانظر الكعبة .
 حصن أرجونة : ٢٦٠
 حصن بلج : ٢٨٢
 حصن أركش : ٢٢١ ، ٢٢٩
 حصن بقيرة : ١٧٤ ، ٢٨٠
 حصن الحمراء : ٢٦٣
 حصن شمتان : ١٦٨
 حصن الصفصاف : ١٢
 حصن كيفا : ٦٥ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧
 حصن لبيط : ٢٣٢
 حصن متلون : ١٦٨ ، ٢٨٠
 حطين : ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦
 حلب : ٣٧ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٩١ ، ٣٣٢
 حماه : ٦١ ، ٦٤
 حصن : ٦١ ، ٦٤ ، ٩١ ، ٣٣٢
 حيفا : ٦٨
 خراسان : ١٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٩ ، ١١٧ ، ١١٦

شذوثة : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ٣٢٨
 الشرق (والمشرق) : ٣٠ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ،
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٧ ، ١٠٦ ،
 ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦١ ،
 ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٩٠ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٩ ،
 الشرق الإسلامي : ٥١ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٠ ،
 ٧٧ ، ١١٨ ، ٣١٨ ،
 شرق الأندلس : ٢٨٤ ، ٣٢٨ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٣ ، ٣٥١ ،
 الشرق الأوسط : ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٠ ،
 شريش : ١٣٢ ، ٢٦٠ ،
 شغلودي : ٣٣٣ ،
 شقندة : ١٥٩ ،
 شقوبية : ١٧١ ،
 شقورة : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
 شلب : ١٣٣ ، ١٦٥ ، ٢١٢ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٣ ، ٢٩٨ ،
 شلمنة : ١٧١ ، ١٧٩ ،
 الشلة : ٣٥٦ ، ٣٧١ ،
 شنت إشتين : ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٨٠ ،
 شنت مانكش (سيمافقا) : ١٧٦ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ ،
 شنت ياقب : ١٦٤ ، ١٦٨ ،
 شنبوس : ٢٨٢ ،
 شنترون : ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 الشويك : ٦٧ ،
 الصالحية : ٩٨ ، ١٠٦ ،
 صحراء برقة : ٣٦٨ ،
 الصحراء الشرقية : ٣٥٩ ،
 الصحراء الكبرى : ٢٣٥ ، ٢٥٣ ،
 صحراء لوبية : ٧٧ ،
 الصخرة : ٧٩ ، ٨٠ ،
 الصميد : ٥٦ ، ٥٩ ،

رومة : ١٥٦ ، ١٨٩ ، ٣٦١ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،
 الرى : ١٠ ، ١٤ ، ٤٠ ،
 ريه ، كورة : ١٤٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ،
 الزاب : ٣٦٨ ،
 زقاق القناديل : ٣٣٠ ،
 س — ط
 سامرا : ٣٢٢ ،
 سبتة : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٨٠ ،
 ٢٨٠ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٩ ،
 سجلماسة : ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،
 سردانية : ١٢٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٣٢٩ ،
 سرقسطة : ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٥٩ ، ٢٨٥ ،
 سرقوسة : ١٥٣ ، ١٥٦ ،
 سمرقند : ٢٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ —
 سنجار : ٦٥ ، ٦٦ ،
 السند : ١٢٢ ، ٢٩٣ ،
 السور الفاطمي : ٨١ ، ٨٣ ،
 سوريا : ٣١٣ ،
 السوس الأقصى : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
 سوسة : ١٥٥ ،
 سويسرة : ١٩٥ ،
 سيناء : ٣٥٩ ،
 سيواس : ١١٨ ،
 شاطبة : ٣٢٨ ،
 الشام : ١٦ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٣ ،
 ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ —
 ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١٠٥ ،
 ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٤ — ١١٨ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ،
 ١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٩ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ،
 شبه الجزيرة (الاسبانية) : ١٣١ ، ٢٥٧ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٦ ، ٣١١ — ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ ،

عين جالوت : ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٥

هيداب : ٦٦ ، ٣٣٠

غاليس : ١٩٦

الغرب : ٥٢ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٩٤ ،

١٩٧ ، ٣٠٩

الغرب ، ولاية : ٢١٢ ، ٢٩٩ ، ٣٤٣

غرناطة : ١٣٢ ، ١٥٤ ، ٦٨ ، ٢١٢ ،

٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ -

٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ،

٣٣٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤

غزة : ٥١ ، ٥٧ ، ١٠٦ ، ١١٥

فارس : ٤١ ، ٣٨ - ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ١١٦ ،

١١٨ ، ٣٥٩

فارس كور : ٩٥ ، ٩٩

فاس : ١٨٠ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٧٧ ،

٣٣٥ ، ٣٥٤ - ٣٥٨ ، ٣٥٦ - ٣٦٠ ،

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،

٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

الفرات : ٢٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١١٤ ،

١١٦ ، ١١٩

فرسنا : ٧٢ ، ٧٣ ، ٩١ ، ١٩٥ ، ٣١١ ،

٣١٢

الفسطاط : ١٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٣١٦ ، ٢٩٢

فلسطين : ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٤ ،

٦٨ ، ٨٥ ، ١١٥ ، ١٣٩ ، ٣١٣ ،

٣٥٩

فندق أبو الشناء : ٣٣٠

فنزارة : ٢٤٤

ق - ك

قابس : ٣٦٧

قادس : ١٣٢ ، ٣٠٦

القاهرة : ٣٤ ، ٥١ ، ٥٣ - ٥٥ ، ٥٨ ،

٦٢ - ٦٥ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٠ ،

٩٢ ، ٩٤ - ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١٠٦ ، ١١٩ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٣١٣ ،

٣٣٠ ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ،

٣٨٥

الصفاء والمروة : ٣٣١

صفاقس : ٣٦٧

صفد : ٧١

صقلية : ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٢٨ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٥٥ - ١٥٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٦٧

صفورية : ٦٨

صور : ٦٤ ، ٧٢ ، ٣٧٢

صيدا : ٦٨ ، ٩٢

الصير مورقة : ١٥٤

الصين : ١١٦ ، ١٢٢

طبرية : ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨

طرابلس الشام : ٦١ ، ٦٤ ، ٦٧

طرابلس الغرب : ١٦ ، ١٧ ، ١٣٩ ،

٣٦٦ ، ٣٦٨

طرسوس : ١٣

طرش : ١٤١ ، ١٤٢

طرطوشة : ٢٨٩

طكونة : ١٣٤

طليعة : ١٧٢

طليطلة : ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧١ ،

١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢٣٠ ، ٢٥٧ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠

طنجة : ١٢٨ ، ١٣١ ، ٢١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٣٦٦

طوس : ١٣ ، ٢٤ ، ٣٩ ، ٢٤٠

ع - ف

العدوة : ٢١٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ،

العراق : ٣٨ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ١١٦ ،

١٢٧ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ،

العرايش : ٣٦٦

عسقلان : ٥١ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٠ ،

العسكر : ١٧

العقبة : ٣٣٠

عكا : ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ - ٧٤ ، ٧٦ ،

٨١ ، ١٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣

- القبذاق : ٣٢٨
قنر المسيح : ٢٢
قبرس : ١٥ ، ٧٣ ، ٩١ ، ١٢٦ ، ١٥٢
قبة الشافعى : ٦٣
قرافة المجاورين : ٣٧٩
قرطاجنه : ١٢٨ ، ١٨٦ ، ٣٣٤ ، ٣٦٦
قرطبة : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٦٠ —
١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ — ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٨٠ ، ٣٤٩
قرقشونة : ١٣٤
قرمونة : ١٧٣ ، ٢١٢
قسارية : ٦٨ ، ١٢٠
قسطنطينية : ١٢ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٠
قسطنطينية : ٢٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٧ ، ٣٧٤
قشتالة : ١٣٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٨٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٦
قصر إشبيلية : انظر القصر المبارك
قصر بلنسية : ٣٤٥ ، ٣٤٩
قصر الحمراء : ٢٠٠
القصر الزاهر : ١٨٥
القصر الزاهى : ٢١٣
قصر الزهراء : ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٣
قصر الشراييب : ٢٨٢ ، ٢٩٨
قصر الفاتيكان : ١٨٩
القصر الفاطمى الصغير : ٣٤
القصر الفاضلى الكبير : ٣١ ، ٣٤
- قصر قرطبة : ١٤٣
القصر المبارك : ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٨٧
قصر مصمودة : ٣٢٩
قصر يافا : ١٥٦
القطائع : ١٧
قلعة أعماق : ٢٩٩
قلعة أيوب : ١٧٥ ، ٣٤٥
قلعة تديس : ٦٥
قلعة الجبل : ٦٢ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٠٧ — ١١٢
قلعة رباح : ١٦٨
قلعة سميت : ٣٦٧
قلعة شاه در : ٤١ ، ٤٢
قلعة الكرات : ١٥٥
قلورية : ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٨١
قناطر الحيزة : ٨١ ، ٨٣
قنالش : ٣٣٤
قنطرة شلب : ٢٨٢
قورسقة : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥
قوص : ٥١
قوصرة : ١٥٤
القوقاز : ١١٨
قوفية : ١٥ ، ٦٥
قوهستان : ٤٢ ، ٤٨
القيروان : ١٥٤ ، ٢٢٦
الكرك : ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠
كرمان : ٤١
كش : ١١٧
الكعبة : ٦٦ ، ٣٣١
كشفر : ١١٧
كليكية : ٦٥
كوتاهية : ١٢٠
- ل — م
لانجدوك : ١٣٤ ، ١٣٥
لبلة : ١٣٥ ، ١٧٠ ، ٢١٢
لورقة : ٢٨٤ ، ٣٤٤

ليبيا : ٢٢٥ ، ٣٦٠

ليجوريا : ١٩٥

ليون (فرنسا) : ١٣٤

ليون (القطر) : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٧

ليون (المدينة) : ١٣٣

ماردة : ١٣٣ ، ١٦١ ، ٢٠٦ ، ٢٥٩ ، ٣١٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩

ماردين : ٦٥

مازر : ١٥٥

مالطة : ٣٦٧

مالقة : ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢١٢ ، ٢٦٠ ، ٣١٥

متيجة : ٢٤٤

مثلاثة : ٣٦٨

المدينة (الناورة) : ٢٣٩ ، ٣٣١ ، ٢٥٩ ، ٣٧٦

المدرسة السيوفية : ٦٣

المدرسة الشريفة : ٦٣

المدرسة الصالحية : ٩٣ ، ٦٣

المدرسة القمحية : ٦٣

المدرسة النظامية : ٢٤١

مدينة الزهراء : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠

مدينة سالم : ٢٠٧

مراكش : ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤

٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٨٢

٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢

مرج راهط : ١٤٣

مرج عيون : ٦٤

مرسية : ١٣٢ ، ١٦١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧

المسارة : ١٤٢ ، ١٤٣

المسجد الأقصى : ٦٩ ، ٧٠ ، ٣٧٧

مسجد الرصد : ٢٩٢

مسجد الطرطوسي : ٢٩٧

المسجد النبوي : ٣٣١ ، ٣٣٥

ممراتة : ٣٦٨

مسينة : ٣٠٨ ، ٣٣٣

المشهد الحيني : ٦٣

المشهد القميسي : ١١٢

مصر : ١٦ ، ١٩ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩

٦٦ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٣

٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠

١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٣٩

١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٨٠ ، ٢٣٥ ، ٢٩٠

٢٩٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ، ٣٣٥

٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦

مصر : (المدينة) : ٦٢ ، ٦٣ ، ٨١

٨٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٥

مصياي : ٦٢

مطبعة بولاق : ٣٨٥

مطونية : ١٧٣

المعمورة : ٣٥٨ ، ٣٥٩

المغرب : ٧٤ ، ١٣٩ ، ١٥٩ ، ١٧٦

١٨٠ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٢

٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥

٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٨

٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٢

٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤

٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٥

المغرب الأوسط : ١٣٩ ، ٢٢٨ ، ٣٧٥

المغرب الأقصى : ١٢٨ ، ١٢٦ ، ١٣٩

١٤٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٨

٢١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٣٨١

مقام إبراهيم : ٢٣١

مقبرة أنعمات : ٢٢٢

مقره : ٣٧٤

المقطم : ٣٤ ، ٣٦ ، ٨١

مكة : ٢٨ ، ٢٣٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩

٣٥٩ ، ٣٧٦

مكتبة الأشراف السعديين : ٣٨١

مكتبة بنيللي : ٢٦٣

المكتبة البودلية : ٢٧٨

المكتبة الفاطمية : ٥٧

فاجرة : ١٧٣
 ناقار : ١٧٤ ، ١٩٧
 نصيبين : ٦٥
 نيميدا : ٣٦٦ ، ٣٦٧
 نيسابور : ١٣ ، ١٥٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
 نيقية : ١٥
 نهر أراد : ٢٨٢
 نهر إيبرو : ١٧٣
 نهر التاجه : ٢٩٨
 نهر دويره : ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ٢٣٥
 نهر سالوف : ٧٣
 نهر سيحون : ١٢٢
 نهر شنت مانكش : ١٧٧
 نهر القوبلخا : ١٢٤
 نهر الكنج : ١٢٤
 نهر اللوار : ١٤٥
 نهر النيجر : ٣٥٤
 نهر هاليس : ١٢٠
 نهر الوادى الكبير : ١٤٢ ، ١٩٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٤١ ، ٢٩٩ ، ٢٧٧ ، ٢٥٨
 نهر وادى لكه : ١٣٢
 هرقله : ١٥
 همذان : ٤١ ، ٤٢
 الهند : ١١٦ ، ١١٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٣ ، ٣١٩
 وادى آش : ١٦٨ ، ٣١٥ ، ٣٣٤
 وادى الحجارة : ١٧٨
 وادى الرون : ١٣٤
 وادى القرى : ٢٢٦ ، ٣٣٦
 وانشریش : ٢٤٤
 الوحلة : ٣٤٩
 وهران : ٢٢٨
 يابرة : ٢٩٨
 اليمن : ٥٨ ، ٣٥٩
 يومين : ٢٨٦

مكتبة كويهاجن : ٣٨٤
 مكتبة مولاي زيدان : ٣٨٣
 مكناسة : ١٨٠ ، ٢٤٤ ، ٣٦٦
 منار الإسكندرية : ١٨ ، ٣٢٩
 مناظر الاوق : ١٠٩ ، ١١٠
 منبج : ٣٣٢
 منقشة : ١٦٨
 المنصورة (مصر) : ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٩
 المنصورة (الأندلس) : ٣٣٤
 المنكب : ١٤١
 منورقة : ١٢٨ ، ٣٢٩
 منية أبى عبد الله : ٩٩
 المهدية : ٢٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٦٧
 مورور : ٢١٢
 الموصل : ١٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٥ ، ١٠٨ ، ٣٣٢
 موقعة الأرك : ٢١٤ ، ٣٢٨
 موقعة إقليش : ٢١٤
 موقعة أنيشة : ٣٤٣ ، ٣٤٧
 موقعة باب الشزرى : ١٤٦
 موقعة البحيرة : ٢٥٠
 موقعة بلاط الشهداء : ١٣٨ ، ١٤٥
 موقعة الخندق : ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٣
 ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
 موقعة الزلاقة : ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٣٣٢
 ٢٣٤ ، ٢٥٧ ، ٣٠٠
 موقعة شنترين : ٣١٨
 موقعة شيراز : ١١٨
 موقعة العقاب : ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٦٤
 موقعة المعبورة : ٣٥٩
 موقعة المنصورة : ٩٦ ، ٩٧
 المؤنس (قصر الناصر) : ١٨٨
 ميدان بين القصرين : ٣٤ ، ٥٦ ، ٥٩
 ميورقة : ١٢٨
 ن — ي
 نابلس : ٦٦

فهرست الأعلام

— ١ —

٣٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٣٧٧ ، ٣٣٩
 ابن خلدون : ٢٠ ، ٢٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٣٤ ، ١٥٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣
 ابن خلكان : ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٣٣٧
 ابن دحية البلنسى : ١٦٣ - ١٦٥
 ابن دراج القسطل : ٢١١
 ابن رشد : ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨
 ابن وشيق الشاعر : ٢٣٠
 ابن الرومية ، ابو العباس : ٣٣٨ - ٣٤٠
 ابن زهر ، ابو العلاء : ٣٣٩
 ابن زهر ، عبد الملك : ٣١٧ ، ٣٣٩
 ابن زيدون ، ابو الوليد : ٢١٢ ، ٢١٧ ،
 ٢١٩ ، ٢٨٨
 ابن زيدون ، ابو بكر : ٢٨٦ ، ٢٨٧
 ابن سعيد الأندلسي : ٢٣٧ ، ٣٨٣
 ابن الصلار (الملك العادل) : ٥١
 ابن صاحب الصلاة : ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٣١٦
 ابن صاحب ، المعتصم : ٢٨٨
 ابن طفيل : ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٥ -
 ٣٢٧
 ابن عبد البر النمري : ٢٧٤ ، ٢٨٣ ، ٣٠١
 ابن عبد الحكم المصري : ١٣٦
 ابن عبد الملك المراكشي : ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
 ٣٤٠ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠
 ابن عبد ربه ، ابو عمر : ١٦٨ ، ١٩٨ ،
 ٢٦٩
 ابن عبدون : ٢٣٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
 ابن عريشاه : ١٢٠ - ١٢٣
 ابن عمار ، ابو بكر : ٢١٢ ، ٢١٤ ،
 ٢٢٨ ، ٢٨٣ - ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
 ابن الفارض : ٣٥٤ ، ٣٦٦
 ابن الفرغى : ٢٧٤
 ابن قتيبة الدينوري : ٢٩٤
 ابن القطان : ٢٣٨ ، ٢٤٠

ابراهيم بن اسماعيل الخزرجي : ٢٤٩
 ابراهيم بن تاشفين بن علي : ٢٥٠
 ابراهيم بن صالح : ١٧
 ابراهيم الموصل : ٢٥ ، ٢٦
 ابن الأبار القضاى : ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥١ ، ٣٤٦
 ابن الأثير : ٧٠ ، ٧١ ، ١٩٨ ، ٢٢٣ ،
 ٢٤٠ ، ٢٧٣
 ابن الأفلح المتوكل : ٢١٦ ، ٢٣٢
 ابن باجة : ٣١٥ ، ٣١٨
 ابن بسام : ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ - ٣٠٤ ، ٣٨٣
 ابن بشكوال : ٣٥١ ، ٣٨٣
 ابن بطوطة الطنجي : ٣٥٤
 ابن البيطار المالقي : ٣٣٨
 ابن تومرت ، المهدي : ٢٢٥ ، ٢٣٤ -
 ٢٣٨ ، ٢٤٠ - ٢٤٩ ، ٢٥٢ - ٢٥٦
 ابن جبير : ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥
 ابن جهور ، أبو الحزم : ٢٧٢
 ابن حدير ، الوزير : ٢٠٢
 ابن حزم : ٢٧٤ ، ٢٩٠ ، ٣٠١
 ابن حفصون ، عمر : ١٦٨ - ١٧١
 ابن حديد : ٢١٢
 ابن حنا ، بهاء الدين : ١٠٣ ، ١١١
 ابن حوقل : ١٩١ ، ٣١٠ ، ٣١١
 ابن حيان : ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
 ١٨٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ،
 ٣٨٤ ، ٣٠٤
 ابن خاقان الكجايي : ٣١٠
 ابن خرداذبة : ٣١٠
 ابن الخطيب : ١٥٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٧ ، ٢٦٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٣٢٦

- أبو عامر بن شهيد ؛ ٣٠٣
أبو العباس بن أحمد الدقون ؛ ٣٨٤
أبو العباس المرسى ؛ ٢٩١
أبو عبد الله البزلياني ؛ ٢٨٣
أبو عبد الله الرميحي ؛ ٢٦٠ ، ٢٥٩
أبو عبيد البكري ؛ ٣٧٠
أبو العتاهية ؛ ٢٦
أبو علي الفستري ؛ ٢٩٠
أبو علي القالي ؛ ٢٧١
أبو فارس ، الأمير ؛ ٣٧٦
أبو الفتح بن أبي أرسلان ؛ ٢٩٦
أبو الفرج الجوزي ؛ ٣٣٢
أبو القاسم بن حمود ؛ ٣٣٤
أبو القاسم الرعيثي الشاطبي ؛ ٢٩١
أبو محمد البشير ؛ ٢٤٤ ، ٢٤٨
أبو محمد الرشاطي ؛ ٣١٥
أبو مروان بن قاسم ؛ ٣١٦
أبو الوليد الباجي ؛ ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
أبو يحيى بن بكيت ؛ ٢٤٩
أبو يعقوب اليعقوبي ؛ ٣١٠
أبو يوسف ، القاضي ؛ ٢٥
أحمد بن أبي عمده ؛ ١٧٢
أحمد بن إسحاق ؛ ١٧٥ ، ١٧٦
أحمد بن حسان ؛ ٣٢٨
أحمد بن عطاش ؛ ٤١ ، ٤٢
أحمد بن ملحان الضائي ؛ ٣١٥
أحمد بن موسى الرازي ؛ ٢٧٤ ، ٣٨٣
أحمد بن يعلى ؛ ١٨١
أحمد شاهين ، المولى ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨
إخوان الصفا ؛ ٢٩٤
أديكو ؛ ١٣١
أرجنتابنت حفصون ؛ ١٧٠
أردونيوي الثاني ؛ ١٧٢ — ١٧٤ ، ١٨٠
أردنيوي الرابع ؛ ١٩٧
أرسانيوس ؛ ٣٢
أرسطو ؛ ٣١٨
أرسيموس الانطاكي ؛ ٣١٠
أربسطيس ؛ ٣٢
- أبن القوطية ؛ ٢٧٤
أبن القيسراني ؛ ٥٨
أبن اللبانه (أبو بكر اللداني) ؛ ٢١٢ ، ٢١٧ ،
٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٨٨
أبن مبارك ؛ ٢٨٥
أبن مرزوق القاضي ؛ ١١٠
أبن مسرة الجبلي ؛ ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٧٥ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠
أبن مطروح القيسي ؛ ٢٣٨
أبن محمد القاضي (أخو الناصر) ؛ ١٩٢
أبن يضل ؛ ١٨٠
أبو أحمد الطرجاني ؛ ٢٩٠
أبو بحر بن عبد الصمد ؛ ٢٢٢
أبو بكر الشاشي ؛ ٢٣٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ،
٢٩٧
أبو بكر الصنهاجي ؛ ٢٤٧
أبو بكر الطرطوشي ؛ ٢٣٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ،
٢٩٤ — ٢٩٦
أبو بكر المتوفى ؛ ٢٢٧ ، ٢٢٨
أبو بكر بن العربي ؛ ٢٢٩
أبو جعفر المنصور ؛ ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ،
١٢٧ ، ١٤٩ ، ١٥٤
أبو جعفر الوثقي ؛ ٣٢٨
أبو جميل زيان ؛ ٢٥٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩
أبو الحسن المربضي ؛ ٣١٨ ، ٣٦٧
أبو الحسن النصري ؛ ٢٠٠
أبو حفص عمر البلوطي ؛ ١٥٩ ، ١٦١
أبو حفص عمر بن علي أزنجان ؛ ٢٤٨
أبو حفص بن يحيى الهنتائي ؛ ٢٤٨
أبو دلف ؛ ٢٨
أبو الربيع بن سالم ؛ ٣٤٣ ، ٣٥١
أبو زكريا الخفصي ؛ ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣٤٧ ،
٣٥٨ ، ٣٤٨
أبو زيد عبد الرحمن ، السيد ؛ ٣٤٣ — ٣٤٦
أبو سعد بن المتولي ؛ ٢٩٠
أبو سعيد بن عبد المؤمن ، السيد ؛ ٣١٥ ،
٣٢٨

أورسيوس ؛ ٣٧٠

إيدكين الصالحى ؛ ١٠٨ ، ١٠٩

إيلونا القوطية ؛ ١٩٩

ب — ث

البابا ؛ ٣٦٢ ، ٣٧١

بابلخ الحرمى ؛ ١٦

بازيل الثانى ، القيصر ؛ ٣٧

باليان دى إيلين ؛ ٦٩

بايزيد الأول ؛ ١١٨ ، ١٢٢

بايزيد الثانى ؛ ٣٨٤

بجنت (بشنق) ؛ ٣٤٦

بدر مولى الداخل ؛ ١٣٩ ، ١٤١

بدر حاجب الناصر ؛ ١٦٨

بدر الجمالى ؛ ٤١

بدر الدين لؤلؤ ؛ ١٠٨ ، ١٠٩

برجوان ؛ ٢٣

بركيارق بن ملكشاه ؛ ٤٢

بروكلمان ، المستشرق ؛ ٣٨٦

بزرجمهر ؛ ٢٩٣

بشر بن مروان ؛ ١٢٦ ، ١٢٧

بطليموس الإقلودى ؛ ٣١٠

بقى بن محمد ؛ ٢٧٠

بكر بن وائل ؛ ١٢٦ ، ١٥٨

بلاطة ؛ ٥٥

بلايو ؛ ١٣٥

بلدوين ، ملك بيت المقدس ؛ ٦٠ ، ٦٤

بنت العالمة ؛ ٩٠

بهام الدين الأشرقى ؛ ١١١

بهام الدين زهير ؛ ٩١ ، ٩٤

بونس بويجس ، المستشرق ؛ ٣٥٠

ببرس للبندةدارى ؛ ٩٦ ، ١٠٠

بيتر ملك الصمالية ؛ ١٩٥

تغلق تيمور ؛ ١١٧

تقطاش ؛ ١١٨

تمام للصقلىسى ؛ ١٩٣

تيمورلنك ؛ ١١٧ - ١٢٢ ، ١٢٤

تيودورا ، القيصرية ؛ ١٠١ ، ١٦٢

تيوفيلوس ، القيصر ؛ ١٦١

ثرىا ملكة غرناطة ؛ ٢٠٠

أزدشير ؛ ٢٩٣

اسحق بن الحسن المنجم ؛ ٣١٠

اسحق الموصلى ؛ ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩

اسحاق اليهودى ، سفير شارلمان ؛ ٢٢ ، ٢٣

أسد بن الفرات ؛ ١٥٣ - ١٥٧

أسد الدين شيركون ؛ ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٨٢

الأسعد بن ممان ؛ ٨٢

الإسكندر ؛ ٢٩٣

الإسلام ؛ ١٠ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٦٨ ، ٧٦

٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤

١٠٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٥

١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٧١ ، ١٨٥ ، ١٨٨

١٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦

٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٣٠٢ ، ٣١٨

٣١٨ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢

أسماء بنت غالب ؛ ٢٠٨

الأشرف موسى ؛ ١٠٦ ، ١٠٧

الأصمى ؛ ٢٦ ، ٢٨

إعتماد الريميكية ؛ ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢

٢٢٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

الأفضل شاهنشاه ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢

أفلق صاحب الخل ؛ ١٩٣

أفطى ، فارس الدين ؛ ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧

ألفونسو الثالث ؛ ١٧١

ألفونسو السادس ؛ ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣١

٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩٨

ألكسيوس كومنينوس ؛ ٦٥

أمارليك ؛ ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩

أم الأصمغ ، تحت الداخل ؛ ١٣٩

أم المجد عاتكة ؛ ٣٢٨ ، ٣٣٥

الأمين ؛ ٢٤

أمية بن أبى الصلت ؛ ٢٩١

أمية بن اسحاق ؛ ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩

أنتونوا ، ملشور ؛ ٢٧٨

أنوشكين شيركير ؛ ٤٧

أنوشروان ؛ ٢٩٣

أوتو الأكبر ؛ ١٩٥ ، ١٩٦

أودو ، دوق أكوئين ؛ ١٩٩

أوروج أمير البحر ؛ ٢٦١

الثعالبي ، أبو منصور : ٣٠٢

ج - ز

جالينوس : ٣٣٩

جاينجوس ، المستشرق : ٣٨٦

جيريل بن بختشيوخ : ٢٤

جيرير ، الشاعر : ٢٥

جعفر بن حفصون : ١٧٠

جعفر بن عثمان المصحقى : ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

جعفر بن المهدي : ١١

جعفر بن يحيى النهرمكى : ١٩ - ٢١ ، ٢٨

٢٩

جمال الدين بن مطروح : ٩٠ ، ١٠٤

جمال الدين بن يعقوب : ٩٩ ، ١٠٥

جمال الدين العزيزي : ١١٠

جمال الدين محسن (الطوشي) : ٩٣ ، ٩٩

جنگين خان : ١١٦ ، ١١٧

چوفاى راموزيو : ٣٦٣

چوفاى ليونى : ٣٦٢

جولد سيهر ، المستشرق : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥١

جوهر الصملى : ١٨١

جييون ، ادوارد : ١٢٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨١

جى دى لوسنيان : ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢

جيدو أنتونى : ٣٦٢

جبر الدو سيمافور : ٢٩٩

الحاجب المنصور : ٢٠٧ ، وانظر محمد بن أبى عامر

الحاكم بأمر الله : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٦٣

الحجاج : ١٢٧

الحجارى : ٣٨٣

الحروب الصليبية : ٣٩ ، ٩٥ ، ٩٨

حسام الدين لؤلؤ ، الحاجب : ٦٨ ، ٧٢

حسام الدين محمد ، نائب السلطنة : ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٣

حسان بن النعمان الغساني : ١٢٦

الحسن بن محمد الوزان : ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦

٣٧١ . وانظر ليون الإفريقى

الحسن الصباح : ٣٨ - ٤٧ ، ٤٩

الحسين بن دواس : ٣٥ ، ٣٦

الحسين بن الضحاك : ٢٦

حسين الثقفى : ٤٨

الحصرى الضرير : ٢١٩

الحكم بن هشام : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧

الحكم المستنصر : ٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢٧٠

الحملة الصليبية الثالثة : ٧٣

الحميدى : ٣٨٣

حى بن يقطان : ٣٢٤ ، ٣٢٥

خالد بن برمك : ١٩

خالد بن الوليد : ١٢٦

خايى الأول : ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩

خطير الملك : ٣٦

الخلفاء الراشدون : ٧٨

خليل بن شجرة الدر : ٨٦ ، ٨٨

خير الدين ، أمير البحر : ٣٦١

الخيزران أم الرشيد : ١٠ ، ٢٧

دارتوا ، الكونت : ٩٥ ، ٩٦

دانييل ديفوي : ٣٢٦

دسبنا ، الملكة : ١٢١

داود بن عيسى بن موسى : ١٤

درى الصقلبي : ١٩٣

دوزى ، المستشرق : ١٩١ ، ٣٨٥ ، ٣٥٢ ، ١٩٨

دوجا ، المستشرق : ٣٨٥

دى جوانفيل : ١٠٤

رافع بن الليث : ٢٤

رامون برنجار ، الكونت : ٢٨٤

راميروالثانى (رزمير) : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٤

ربيع الأسقف : ١٩٥ ، ١٩٦

رتشارد ، قلب الأسد : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦

رجار ، الملك : ٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣١٤

ردريك ملك القوط : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١

١٣٢ ، ١٩٩

الرشيد ، هرون : ١٠ - ٢٢ ، ٣٠

الرشيد بن المعتمد بن عباد : ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧

رضى الدين القزوينى : ٣٣٢

روبرجويسكار : ٣٠٧

شارلمان ، الامبراطور : ٢٢ ، ٢٣ ، ١٤٥ ، ١٥٥

شاه ملك : ١١٩

الشاه منصور : ١١٨

شاور بن مجير السعدى : ٥١ ، ٥٥

شجرة الدار : ٣١ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٤

١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤

الشدة العظمى : ١٠١

شرف الدين على : ١٢١

شرف الدين الفائزى : ١١١

الشريف الإدريسي : ٣٠٥ — ٣١٤ ، ٣٧٠

الشريف الحليس : ٥٨

شهاب الدين المقرئ ، أبو العباس : ٣٧٣ ، ٣٧٤

٣٧٨ ، ٣٨٣ — ٣٨٦

الشهرستاني ، أبو الفتح : ٤٣ ، ٤٤

شيخ الجبل : ٤٥ ، ٤٧

صاعد البغدادي : ٢٧١

الصالح اسماعيل : ٥٨ ، ٦١ ، ٩٠

صالح بن شريف الرندى : ٢٦٣

صبح أم المؤيد : ٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢

٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٢١١

صبيح المعظمى : ٩٩

الصفدى : ٣٠٧ ، ٣١١

صقر قریش : ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠

صلاح الدين ، الملك الناصر : ٥٠ ، ٥٢ —

٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ — ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨

٨٣ — ٨٥ ، ١٠٥ ، ١٣١

صمصام الدولة اجلك : ٦٤

الصمغيل بن حاتم : ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤

الصوائف : ١٢ ، ١٣

الصورة أخت على بن يوسف : ٢٤٥

ضرغام بن عامر : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

طارق بن زياد : ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ٣٨٠

طاهر القزويني ، داعي الدعاة : ٣٩

طريف بن مالك : ١٣١

طلانج بن رؤيك : ٥١

طوطة ملكة زفار : ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٩٧

روجر ، الدوق : ١٥٦

روجر الدوق : انظر رجار

رومانين (رومانوس) القيصر : ١٩٤

ريمون ، الكونت : ٦١ ، ٦٤ ، ٦٧

رينودى شاتيون : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨

زايدة ، زوج الفتح بن عباد : ٢١٤

زبيدة ، زوج الرشيد : ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٨

الزهراء ، جارية الناصر : ١٨٦

زهر بن قيس البلوى : ١٢٦

زيادة الله بن الأغلب : ١٥٣ ، ١٥٥

زيدان ، مولاي : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢

زيرى بن عطية : ٢٠٩ ، ٢١٠

زينب بنت اسحاق : ٢٢٧

س — ظ

سابور : ١٢١ ، ١٢٢

سانشو ، ملك نافار : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٧

سانشو بن ألفونسو السادس : ٢١٤

الست العزيزية : ٣١

ست الملك : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٧

سحنون بن سعيد : ١٥٤

سراج الدولة بن المعتمد بن عباد : ٢١٣

سعد بن عباد : ٢٦٠

سعيد المقرئ ، أبو عثمان : ٣٧٥

سكوت انبرغواطى : ٢٢٨

سلامة العوريس : ٥٨

سليمان بن أسود الفاقي : ٢٦٩ ، ٢٧٠

سليمان بن بايزيد : ١٢٠ ، ١٢١

سليمان بن عبد الملك : ١٣٦ ، ١٣٧

سليمان بن مخلوف : ٢٤٨

سنان شيخ الجبل : ٦١

السهروودى : ٣٥٥ ، ٣٦٦

سيبيل ، الملكة : ٦٩ ، ٧٠

السيد الكبير دور : ٢٩٥

سير بن أبي بكر الهمتوفى : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٢

٢٣٢

سيف الدين غازى : ٦١

سيف الدين قطار : ١١٤ ، ١١٥

شادى ، جد صلاح الدين : ٥٢ ، ٥٣

الظاهر لاعزاز دين الله : ٣٦

ع - غ

العادل رزيك : ٥١

العاضد لدين الله : ٥١ ، ٥٣ - ٥٦ ، ٦٢ ، ٨٠

عباس بن الأحنف : ٢٦

عباس بن فرنام : ١٥٩ ، ٢٦٦ - ٢٧٠ ، ٢٧٧

العباس بن محمد : ٢٥

عبد الجبار بن اسماعيل : ٥٨

عبد الجبار بن المعتمد عباد : ٢٢١

عبد الحق بن عطية : ٣١٥

عبد الحميد بن بسيل : ١٧٤

عبد الرحمن بن حبيب : ١٤٠

عبد الرحمن بن الحكم : ١٤٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣

١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧

عبد الرحمن بن الحكم المستنصر : ٢٠٠ ، ٢٠٢

عبد الرحمن بن محاصر : ٢٨٤

عبد الرحمن بن عبد الله بن صالح : ١٣

عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) : ٢٣ ، ١٣٩ - ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٨٢

١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٧١

عبد الرحمن بن منقلد : ٧٤

عبد الرحمن الفائق : ١٤٥ ، ١٩٩

عبد الرحمن الناصر : ١٤٩ ، ١٦٧ - ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٨٦ ، ١٨٨ - ١٩٨ ، ٢٠٠

٢٧٩ ، ٢٨٠

عبد الحميد البيهقي : ٥٧ ، ٧٨

عبد السلام بن جبير : ٣٢٧

عبد الصمد الكاتب : ٥٨

عبد العزيز بن مروان : ١٢٧

عبد العزيز بن موسى : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٩٩

عبد اللطيف البغدادي : ٨٥

عبد الله بن الأغلب : ١٥٥

عبد الله بن بلكين : ٢١٥ ، ٢١٩

عبد الله بن خالد : ١٤١ ، ٢٤٢

عبد الله بن الزبير : ١٤٣

عبد الله بن عبد الملك : ١٢٧

عبد الله بن علي : ١٥٠

عبد الله بن محمد ، الأمير : ١٦٧ ، ١٦٩

عبد الله بن الناصر : ١٩٢

عبد الله بن المهدي : ١٧ ، ٩٨

عبد الله بن موسى : ١٢٨ ، ١٣٦

عبد الله بن ياسين : ٢٢٧ ، ٢٢٩

عبيد الله بن عثمان : ١٤١ ، ١٤٢

عبيد الله المهدي : ١٨٠

عبد الملك بن جهور : ٢٧٢

عبد الملك بن صالح : ١٢ ، ٢١

عبد الملك بن عطاش : ٣٩ ، ٤٠

عبد الملك بن مروان : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨

عبد الملك بن المنصور : ٢٠٩ ، ٢١٠

عبد المؤمن بن علي : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨

٢٥٠ ، ٣١٩

عبد الواحد الحضرمي : ٢٤٩

عبد الواحد الخوصي ، أبو محمد : ٣٤٧

عبد الواحد المركشي : ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦

عثمان الخليفة : ١٤٨

عز الدين أيوب : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠

عز الدين جورديك : ٥٥

عز الدين مسعود : ٦١ ، ٦٥ ، ٦٦

العزير بالله الفاطمي : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

العزير بن المنصور الصنهاجي : ٢٤٣

عصر الإحياء : ٣٦١

عطاء الملك : ٤٨

علي بن أبي طالب : ١٦

علي الصباح الحميري : ٣٩

علي بن الملك المعز : ١٠٨

علي بن يوسف بن تاشفين : ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ - ٢٤٤

المهاد الأصفهاني : ٧٠ ، ٧٨ ، ٨٠

عماد الدين زنكي : ٥٠ ، ٥٢

عمارة اليمن : ٥٨ ، ٥٩

عمر بن أبي يحيى الحفصي : ٣٦٧

عمر بن الخطاب : ١٢٤ ، ١٤٨ ، ٣٦٦

عمر الخيام : ٣٩

عمر بن قاذل النحوي : ٢٧١

لاين بول ، المستشرق : ١٠٣
 لويس التاسع : ٩١ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٠٣ ، ١٠٤
 ليث بروقتسال ، المستشرق : ١٦٤ ، ٣٨٦
 ليون الإفريق : ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٦
 ليون العاشر : ٣٦٣
 — م —
 ماردة ، أم المعتصم : ١٦١
 ماريما ، أم الناصر : ١٦٧ ، ٢٠٠
 مازينو سافوتو : ٣١١
 ماكولي : ٢٧٣
 مالك بن أنس : ١٥٤
 مالك بن وهيب : ٢٤٦
 المأمون بن ذى النون : ٢١٣ ، ٣٠٣
 المأمون بن المعتد بن حباد : ٢٣٢
 المأمون البطائحي : ٢٩٢
 المأمون العباسي : ١١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ —
 ١٦١
 المبارك بن عبد الجبار : ٢٣٩
 مجر الدين أرتق : ٥٠
 المحبى : ٣٨٥
 محمد بن أبي الجواريم : ١٥٦
 محمد بن أبي حامر (المنصور) : ١٨٩ ،
 ٢٠١ — ٢١٠ ، ٢٨٠
 محمد بن الأشعث الخزاعي : ١٥٤
 محمد بن بايزيد : ١٢١
 محمد بن الحسين : ١٩٧
 محمد بن سعد بن مردقيش : ٣٤٤
 محمد سلطان : ١٢١
 محمد بن عبد الله ، الأمير : ١٦٧
 محمد بن عبد الرحمن ، الأمير : ١٦٦ ، ٢٦٦
 ٢٦٨ — ٢٧٠ ، ٢٧٧
 محمد بن محمد بن الأحمر : ٢٦٣
 محمد بن ملكشاه : ٤٧
 محمد بن هشام التحميسي : ١٧٦ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩

عمرو بن بحر : ٢٥
 عياض بن موسى السبي : ٣٠٦
 عيسى بن أحمد الرازي : ١٧٧ ، ٢٧٤
 غرسية ملك ناقار : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٧
 غالب أمير البحر : ١٨١
 غالب الناصري ، القائد : ٢٠٨
 الغزالي ، أبو حامد : ٤٤ ، ٢٢٩ — ٢٤٤ ،
 ٢٥١ ، ٢٩٧ ، ٣١٨
 غليام (غليام) ملك صقلية : ٣١٤ ، ٣٣٣
 الغمر بن يزيد : ١٥٠
 ف — ل
 فاتك الوحيدى : ٣٧
 الفائز ينصر الله : ٥١
 فخر الدين بن لقمان : ٩٩
 فخر الدين يوسف : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥
 فردريك بارباروسا : ٧٣
 فردريك دوق سوابيا : ٧٣
 فرناندو الثالث : ٢٦١ ، ٣٤٣
 الفضل بن الربيع : ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧
 الفضل بن يحيى بن برمك : ١٩ ، ٢٠
 فلورندا القوطية : ١٣٠
 فون هامار ، المستشرق : ٤٨ ، ٤٩
 فيليب أوجست : ٧٣
 القادر بن ذى النون : ٢١٣ ، ٢٣٠
 القاسم بن الرشيد : ١٣
 القاضي الفاضل : انظر عبد الرحيم البياسي
 القائم بأمر الله الفاطمي : ١٨١
 قراقوش ، بهاء الدين : ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
 ٨٠ — ٨٤
 قرطوبوس ، السفير : ١٦١
 قسطنطين السادس : ١٣
 قسطنطين السابع : ٣٣٨
 قلع أرسلان : ٦٥
 كورجان : ١١٧
 لامبيجيا : ١٩٩ ، ٢٠٠
 لؤلؤ الأمين : ٩١
 لاينتز ، الفيلسوف : ٣٢٦

ملكشاه السلطان : ٤٢ ، ٢٤٠
 الملك الأفضل : ٦٧ ، ٦٨
 الملك الصالح نجم الدين : ٨٦ - ٩٠ ، ٩٤
 ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣
 الملك العادل : ١٠٣ ، ١٠٦
 الملك العادل أبو بكر : ٨٦
 الملك العزيز : ٨٥
 الملك الكامل : ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٠٣
 الملك المنصور : ٨٥
 الملك المعز (معز الدين ايبك) : ١٠٥ -
 ١١١ ، ١١٤
 الملك المعظم : ٨٥
 الملك المعظم تورانشاه : ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤
 ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠
 الملك المنصور : ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥
 المنصور بن العزيز : ٨٥
 منوثة : ١٩٩
 مؤتمن بن هود : ٢٨٥
 مؤتمن الخلافة : ٥٦
 موسى بن أبي العافية : ١٨٠ ، ١٨١
 موسى بن بايزيد : ١٢١ ، ١٢٢
 موسى بن تماري : ٢٤٩
 موسى بن عيسى : ١٧
 موسى بن قاسم القروي : ٣١٠
 موسى بن ميمون : ٧٨
 موسى بن نصير : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٣٨٠
 موسى بن يحيى بن برمك : ١٩ ، ٢١ ، ٢٢
 موسى الكاظم بن جعفر الصادق : ١٦
 موسى الهادي : ١٠
 موفق الدين النيسابوري : ٣٩
 مولاي محمد : ٣٥٤ ، ٣٥٧
 المهدي العباسي : ١٠ ، ١١ ، ١٢
 مؤمن بن سعيد : ٢٦٩
 ميخائيل الثاني : القيصر : ١٥٣
 ميخائيل بن القيصر : ١٦٢
 ميرخوند : ٤٨
 ميلر ، المستشرق : ٢٤١ ، ٣٥٢

محمد بن يحيى بن برمك : ١٩ ، ٢١
 محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر) : ٢٥٩ -
 ٢٦١ ، ٢٦٣
 محمد بن يوسف بن هود : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 ٣٤٤
 محمود بن ملكشاه : ٤٢
 مارجل أم المأمون : ٢٤ ، ١٦١
 مرجريت دي بروفانس : ١٠٤
 مروان بن أبي حفصة : ٢٥ ، ٢٦
 مروان بن الحكم : ١٤٣
 المستضيء بأمر الله : ٥٦ ، ٦٢
 المستنصر العباسي : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٤ ،
 ١١٦
 المستنصر بن المستنصر : ٤١
 المستنصر العباسي : ٢٦
 المستنصر بالله العباسي : ٢٥٩
 المستنصر بالله الفاطمي : ٤٠ ، ٤٥ ، ٦٣
 مسرور ، وصيف للرشد : ٢١ ، ٢٨
 مسعود السلجوقي : ٥٢
 المسعودي : ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٩
 المسيح : ٦٨ ، ٧٢
 المطرف بن عبد الله : ١٦٧
 مطرف التجيبي : ١٧٥
 معاوية بن أبي سفيان : ١٤٦ ، ١٤٧
 معاوية بن هشام الشنفي : ٢٧٤
 المعتصم العباسي : ٢٦ ، ١٦١
 المعتضد بن عباد : ٢٨٢ ، ٢٨٣
 المعتمد بن عباد : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ -
 ٢٢٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٨ ، ٣٠١
 المعز لدين الله الفاطمي : ٣١ ، ١٨١
 المعظم شمس الدولة : ٦٢
 منيف الرومي : ١٣٧
 المفيرة بن الناصر : ٢٠٣ ، ٢٠٤
 المفضل ضياء الدين : ٥٨
 المقتدر بن هود : ٢٨٥ ، ٢٩٠
 المقرئ : انظر شهاب الدين المقرئ
 المقرئ ، تقي الدين : ١١٢

ن — ي

الذمار اليونانية : ٩٥

الناصر داود : ٨٦ ، ٩٠

الناصر صلاح الدين يوسف : ١٠٥

الناصر فوج : ١١٨

الناصر لدين الله العباسي : ٣٣٢

ناصر الوطائي : ٣٥٨

النسي : ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨

نجدة الصقليسي : ١٧٦

نجم الدين أيوب : ٥٢

نزار بن المستنصر : ٤١

النصرانية : ٣٨ ، ٧٧ ، ١٣٥ ، ١٩٥

نظام الملك ، الوزير : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٢٩٦

نقفور (فيسغوروس) : ١٣ - ١٥ ، ٢٤

نود ، ملكة النورمان ، ١٦٤ ، ١٦٥

نور الدين محمود : ٥٠ - ٥٢ ، ٥٦ - ٥٨ ، ٦١ ، ٦٠

هرسوفيتا : ١٩١

هشم بن عبد الرحمن : ١٥٨ ، ١٥٩

هشام بن عبد الملك : ١٤٩

هشام المؤيد : ١٨٩ ، ٢٠١ - ٢٠٧ ، ٢٠٩

هشام بن هذيل : ١٩٤

هنري الملاح : ٣١٣

هنري دى شمباني : ٧٣

هوريك ملك النورمان : ١٦٣

هوغ ، صاحب طبرية : ٦٤

هولاكو : ٤٨ ، ١١٥ ، ١١٦

الوائق المبادي : ٢٦

واضح الفتى : ٢١٠

وافسوس : ١٤٠

وتيزا ملك القوط : ١٢٨ ، ١٢٩

ولادة بنت المستكفي : ٢٨٨

الوليد بن عبد الملك : ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦

وليم الثاني ، ملك صقلية : ٥٩

يحيى بن ابراهيم الكدالي : ٢٢٦

يحيى بن قميم بن المعز : ٢٤٣

يحيى بن حبيب : ١٦١

يحيى بن خالد بن برمك : ١١ ، ٢٠ ، ٢١

يحيى بن عبد الله بن الحسن : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١

يحيى الغزال : ١٥٨ ، ١٦٠ - ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٧٧

يزيد بن المهلب : ١٢٧

يزيد الراضي بالله : ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٨٥

يعقوب بن كلث : ٣٢

يعقوب المنصور : ٢٧٣ ، ٣١٨

يشتان بن عمر : ٢٤٥ ، ٢٤٦

يوحنا الجورزيني : ١٩٥

يوحنا ليون (يوحنا الأسد) : ٣٦١ ، ٣٧٠ ، ٣٧١

يوفيموس : ١٥٣

يولييان ، الكونت : ١٢٨ - ١٣١ ، ٣٦٢

يوسف بن أيوب بن شادي : ٥٢

يوسف بن تاشفين : ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ - ٢٢٢

يوسف بن تاشفين : ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ - ٢٣٢

يوسف بن عبد الرحمن الفهرى : ٤٠ - ٤٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٩٧

يوسف بن عبد المؤمن : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧

كامل طبع الطبعة الثانية من كتاب « تراجم إسلامية ، شرقية وأندلسية
بمطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وذلك في اليوم العشرين من شهر
رمضان سنة ١٣٩٠ هـ ، الموافق ليوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٠ م

ISLAMIC BIOGRAPHIES

ORIENTAL and MOORISH

By

MOHAMED ABDULLA ENAN

*Author of : Moorish Empire in Spain. The Petty Kingdoms.
The Almoravides and Almohads. Monumentos Moros en Espana y
Portugal. Decisive Moments in the History of Islam. etc.*

Second revised and enlarged Edition

Publisher : Al - Khangi Bookshop, Cairo

**Lajnat-ul-Taalif Press
Cairo — 1970**